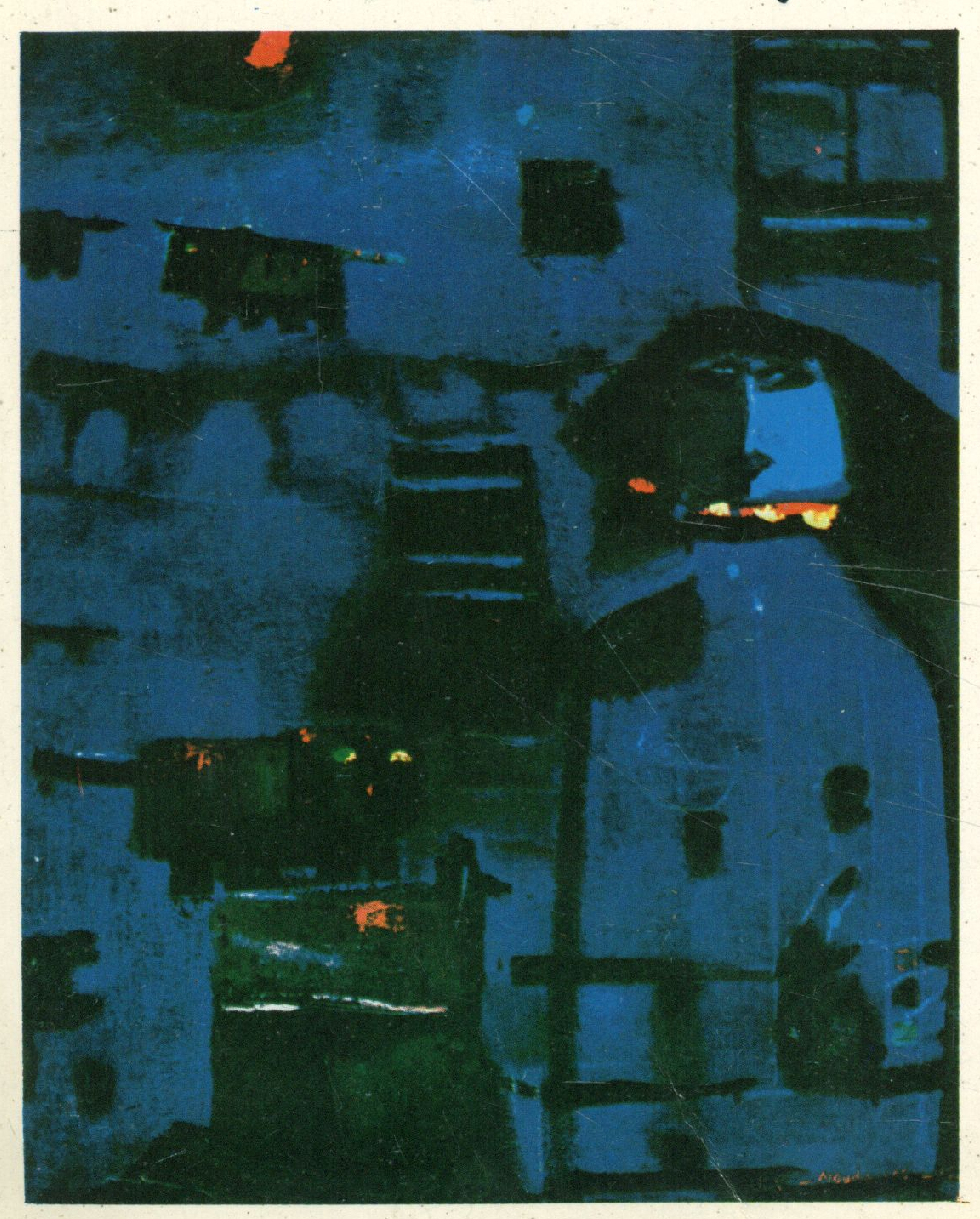
سباق المسافات الطويلة

عبد الرحمن منيف



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

سِبَاقُ المَسَافَاتِ الطَّوِيلَة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية
برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع: عمان
ص.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٦٠٥٤٣٢، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

الطبعة الرابعة

١٩٩٠

عبدالرحمن منيف

سِباقُ المسَافاتِ الطّويلة

المؤسّسة
العربيّة
للدراسات
والنشر

إشارة

يدعوني واجب الوفاء أن أقدم شكري للأستاذ حسين جميل، لأن الوثائق التي أطلعني عليها كانت لها أهمية في كتابة بعض فصول هذه الرواية.

الكاتب

القسم الأول

من يملك الشرق... يملك العالم

«؟»

(١)

على أرض المطار كانت بقايا أوراق الخريف تتطاير. بيتر ماكدونالد يراقبها وهو يجلس في الزاوية الشمالية لصالة الانتظار. كان يسرق نظراته بين لحظة واخرى ويتابعها في حركتها نصف الدائرية وابتسامة صغيرة، اقرب إلى الحزن، تطوف على شفتيه. كانت زوجته، باتريشيا، وصديقاه، مودي والكسندر، إلى جانبه، ولم يستطع احد منهم أن يخلق في نفسه الفرح الذي كان يتمناه قبل السفر. كان الكسندر يوحي له بالخوف، الخوف الغريزي الذي لا يعرف الانسان مصدره أو اسبابه، لكنه يحسه.

. . . هل يُعيد ألكسندر إلى مخيلته ذكرى الحرب ووقوعهما بالأسر معاً؟ هل هي حالة من التوتر النزق وما يمكن ان تؤدي اليه من خلافٍ يصل حدود الفراق الكامل بينهما؟

إن في ألكسندر شيئاً غير عادي، حتى عندما قال له وهو يراقب أوراق الشجر المتطايرة:

ـ بيتر . . يجب أن تكون معنا.

شعر بيتر أن ألكسندر يعرض به أمام زوجته وأمام مودي. لم يكن

يريد أن يأتي ألكسندر لوداعه، كان يفضل أن تنتهي الأمور في الليلة الفائتة بهدوء، لكن اصرار ألكسندر ولّد في نفسه شيئاً أقرب إلى الخوف.

رد بيتر بمرارة:

ـ لم أصل إلى هناك بعد، سأصل؛ وتمتم بينه وبين نفسه «وسوف أقضم رقبة هذا الوغد كما تقضم الجزرة!» وأضاف بطريقة متحدية «لكن سوف تتأكد من ذلك حين اصل يا ألكسندر»، وتابع بصوت مخدوش:

ـ وسأنجح في مهمتي!

ابتسم ألكسندر، شعر أن بيتر يرتكب حماقة. قال يستفزه:

ـ لا اشك أبداً يا بيتر.. إنك تستطيع أن تفعل الكثير!

ـ بالتأكيد استطيع أن أفعل.

ـ هذا ما أقوله لك!

ـ ولكنك لا تعنيه.

ـ كيف عرفت اني لا اعني ذلك؟

ـ انك تسخر من امكانيات الآخرين...

وتغيرت لهجة بيتر وقال بصوت مرير.

ـ ولكن شكراً لله انك لست رئيساً لي!

ـ لا أريد أن أكون!

ـ حتى لو اردت لا تستطيع!

قالت باتريشيا بعصبية.

ـ تبدو عصبياً اكثر مما ينبغي يا بيتر... هل حصل شيء؟

انتبه بيتر فجأة، شعر انه يعكس حالته النفسية على كل شيء، حتى على طريقة نطقه للكلمات. وألكسندر لم يكن يريد ذلك. لم يكن احد يريد ذلك. أما مراقبة اوراق الشجر، خاصة في الزاوية الشمالية لصالة الانتظار من وراء الزجاج، فقد كان فيها شيء من التعويض او البلاهة، كما تقول باتريشيا دائماً عندما ترى بيتر يتأمل في نقطة ما ويكون شديد الاستغراق والشحوب.

قالت باتريشيا لتخلق جواً جديداً بعيداً عن الخصومة من اي نوع:
ـ حدثتني كثيراً يا بيتر عن الشرق كأنك رأيته، والآن اريدك أن تكتب لي كثيراً!
ـ هذا الشرق الوغد العفن، أي شيء يمكن أن يكتب الانسان عنه!
ـ لست اول من يذهب إلى هناك يا بيتر!
قال ألكسندر ذلك باستسلام ومحبة.
رد بيتر بعصبية:
ـ ولن اكون الأخير!
انفعل الكسندر هذه المرة. أحس بلهجة العداء صاخبة في الكلمات التي سمعها، قال:
ـ بالتأكيد لن تكون الأخير.
وتغيرت لهجته وهو يتابع:
ـ ما بالك ايها الرجل المسافر إلى الشرق؟
قال مودي بدعابة:
ـ ولماذا تتقاتلان؟ الديوك لا تفعل كما تفعلان الآن!
وسافرت نظرات بيتر مرة اخرى، نحو الزاوية الأخرى للصالة. اخترقت الزجاج وتابعت الاوراق. كان يحس في داخله شيئاً حاداً يمزقه. كان يخطط للسفر إلى جنوب فرنسا في نهاية السنة. احب كثيـراً هذا الجنوب اللعين، كما يسميه، والذي يشبه الجنة، وكان يريد أن يفرغ من كتابه عن «اسماك اليتماكوس» وجاءت هذه المهمة!

إن اية مهمة تحرّض عقل بيتر كثيراً، تغير كل شيء فيه، لكنه هذه المرة كان يفضل أن يبقى. لما استدعاه رئيسه وعرض عليه، بعد اسئلة طويلة، أن يسافر، بدا شديد الحيرة، لا يعرف كيف يتصرف وكيف يجيبه على هذا الطلب، وفجأة سمع رئيسه يقول:
ـ الامر لن يستغرق فترة طويلة. . . بضعة شهور، وتستطيع بعدها أن تعود.

قال بيتر باستسلام:

ـ انت تعرب اني اريد، لكن. . .

ولم يطاوعه لسانه في أن يضيف كلمة واحدة. ارتسمت في ذهنه فجأة زوبعة كبيرة من الغبار. شعر أن عينيه لم تعودا قادرتين على الرؤية، وشعر بحلقه يابساً، ثم بعد ذلك مرت في ذهنه صفحة من كتاب قرأه عن رجال ماتوا عطشاً، تصور نفسه يموت. اراد أن يلفظ كلمات معينة، أن يعتذر، لكنه فجأة وجد نفسه يسأل رئيسه:

ـ هل انت متأكد أن الأمر لن يستغرق سنوات طويلة؟

ـ بالتأكيد.

واضاف بلهجة جديدة مليئة بالتحريض:

ـ لسنا قادرين على الانتظار، ثم أن الامر يتوقف عليك يابيتر!

وانتفــض شيء داخل بيتر. احس أن صوتاً يصخب في داخله، كيف يستطيع أن يتباطأ؟ من اعطاه هذا الحق؟ الم ينتظر رحلة مثل هذه منذ سنوات طويلة؟

قال بيتر دون ارادة:

ـ بالتأكيد سأذهب، سيدي الرئيس، ولكن هل الامر عاجل إلى درجة كبيرة؟

ـ يجب أن تكون مستعداً خلال بضعة أيام، أن الأمور لا تنتظر، ثم يجب أن تعرف اننا لسنا وحدنا هناك!

لم يسمع بيتر بقية الجملة. توقف ذهنه تماماً عند «بضعة أيام» كان يريد شهراً في اسوأ الحالات، لكي يستعذ، لكي يفكر؛ والاوراق التي بين يديه كيف يستطيع أن يتركها هكذا سائبة؟

فكر بهذه الأشياء، وفكر بباتريشيا والصغيرتين. صحيح انـه قد مضى على زواجه ثلاث عشرة سنة كاملة، جاءته خلالها ابنتان، واصبحتا في احسن مظهر وكبرتا، ولا يمكن أن يطلق عليهما كلمة الصغيرتين لكنه، لم يجد غير هذه الكلمة، ولا يجد أن هاتين البنتين يمكن أن تكونا غير

الصغيرتين اللتين يعرفهما. قال لرئيسه:

ـ ولكن اليوم الاربعاء، سيدي الرئيس، الا ننتظر حتى بداية الاسبوع القادم؟

لا يعرف كيف انزلقت من بين شفتيه هذه الكلمات، لو انه لم يقلها لترك لنفسه حرية اوسع كي يفعل شيئاً آخر، لكنه بهذه الكلمات، بهذه الطريقة المستسلمة في الاجابة، وافق تماماً والزم نفسه بكل شيء. انتصبت في ذهنه عاداته كلها. انه لا يستطيع أن يتخلى عن الذهاب إلى بيفرلي يوم السبت مساءً لكي يكون صباح الاحد في المكان الذي اختاره للصيد. أن مجرد عدم قدرته على ذلك يترك في نفسه حسرة لا يستطيع أن يحتملها. قال بتحد:

ـ سيدي الرئيس.. لا يمكن أن يتم السفر قبل الأسبوع القادم... منتصف الاسبوع القادم.

كان يتوقع أن يكون جوابه قاسياً وربما مرفوضاً، وتصور، للحظة، أنه بهذه الطريقة يقدم اعتراضاً صلباً، والادارة لا يمكن أن تنتظره. الادارة وحدها تقرر وعليه أن يستجيب. نعم عليه أن يستجيب، هكذا تعود، وهكذا تتصرف الادارة، لكنه فوجىء هذه المرة وهو يسمع رئيسه يقول:

ـ بيتر... انك الرجل المناسب لهذه المهمة، ولذاك المكان، ويمكن أن انتظرك حتى الاسبوع القادم... ماذا تقول؟

شعر أن ثقة رئيسه تكتسحه تماماً، شعر أنه يوافق، لكن المرارة لم تزايله. انه كعادته دائماً يريد أن يكون موضع ثقة رؤسائه واصدقائه، لكنه نتيجة التساهل الذي يبديه دائماً يقع فريسة للهموم، وبعض الأحيان لحالة سوداوية لا يعرف لماذا تأتيه وكيف يقاومها، وهذه الحالة من الشدة بحيث تضغط على اعصابه تماماً، وتسلمه إلى الأرق وإلى ما يشبه حالة من الخوف الغامض.

حين غادر مكتب رئيسه كان الاتفاق قد تم أن يسافر يوم الاربعاء،

اي بعد اسبوع تماماً من ذلك اللقاء. وتم الاتفاق على المهمة بصورة اولية، على أن يجري تحديدها بدقة في وقت آخر، وحددت له ثلاثة مواعيد لاحقة.

شعر بيتر حين انتهى من الاجتماع الثاني، انه رجل خطير للغاية، وأن المهمة التي كلف بها كبيرة بحيث أن الدنيا كلها ستتوقف لحظات طويلة تتطلع وتتساءل عن الرجل الذي استطاع أن ينفذها بكل هذه المهارة والنجاح. كان بعد الاجتماع الثاني راضياً عن نفسه، ومرت في خاطره فكرة أن يقترح على رئيسه تقديم السفر، لكن الاجتماع الثالث جعله حذراً لدرجة كبيرة، فقد كانت الكلمات التي سمعها في الغرفة الزرقاء، كما كانوا يسمونها، والواقعة في الطابق الثالث، في نهاية الممر الايسر، وهي مكتب الرئيس الكبير وغرفة اجتماع الطوارىء.. كانت الكلمات التي سمعها في تلك الغرفة، ومن الرجل الذي لا يراه الموظفون إلا نادراً، والذي يتمتع بمقدار من الرعب لا يوازيه فيه احد، كانت الكلمات دقيقة وواضحة، ولا يريد بيتر أن يتذكرها كلها، انه يعرفها تماماً، لكن يفضل أن ينساها، أما غيرها من الكلمات فتنزف وتتساقط من ذاكرته:

ـ بالتأكيد ستنجح... هذا مهم. لكن الأهم من ذلك أن لا نترك الآخرين ينجحون قبلنا، أن يفرضوا علينا ما يريدون، ونصبح عندئذ كالخنازير نركض وراءهم، انهم إن فعلوا ذلك سيملكون كل شيء وسوف لا نملك إلا الركض وراءهم تماماً كالخنازير تركض وراء الطعام!

يتذكر بيتر هذه الكلمات، ولا يريد أن يتذكر غيرها. قيلت كلمات كثيرة، واراد بعد أن سمعها أن يعطي نفسه فرصة كافية لكي يطالع بعض الكتب، كتباً معينة كان قد قرأها في السابق وتأكد من اهميتها، وتصور انها ستكون مفيدة له في هذه الرحلة. فكر أن يتصل ببعض اصدقائه كي يتحدث اليهم، من بعيد، عن مهمات قاموا بها ويسمع منهم توصيات وقصصاً قد تفيده في هذه الرحلة. فكر اكثر من ذلك أن يتأمل وأن يدون ملاحظات من شأنها أن تجنبه هؤلاء الاشرار الذين

يتسابقون معه، لكنه تذكر أن الشهر الاول سيكون دون عمل محدد، وفي هذا الشهر، هناك، يستطيع أن يتأمل، أن يفكر كما يشاء وأن ينتهي إلى نتائج تمكنه من النجاح، ومع ذلك كله فإن الغرفة الزرقاء، الرجل المرعب، والكلمات التي سمعها، تركت في نفسه حذراً اقرب إلى الخوف.

هذا الحذر انعكس على سلوكه خلال الايام التي امتدت من ظهر السبت حتى صباح الاربعاء، وقت السفر. ظلت الافكار الغامضة، الأقرب إلى السواد، تحاصره. تصور نفسه أسيراً مرة ثانية. تصور انه يقتل، ثم تصور أنه في مكان صحراوي شديد الحرارة وانه يموت على مهله من العطش.

ترك بيتر كل الافكار، وكتب الكلمات الاخيرة في الفصل الذي لم ينته منه... كتب:

«إن التأمل في الأفكار الواردة من قبل تعطي الانسان فرصة جديدة لمواصلة الرحلة، مرة اخرى، بامكانية اكبر... وهذا ما سوف نراه في الفصول التالية».

أما باتريشيا والصغيرتان، أما اصدقاء بيتر، فقد خيم عليهم الكدر ثم التساؤل من هذا السفر المفاجىء والسريع. لم يقولوا شيئاً خطيراً، لكنهم صدموا أول الأمر، ثم بدأوا يعوّدون انفسهم، خاصة باتريشيا، التي قالت في يوم السبت بعد الظهر:

ـ اعرف اني لن استطيع السفر معك يا بيتر، لك أن تعرف ذلك تماماً، لكن هؤلاء الرؤساء الحمقى الا يعرفون مدى المصاعب التي يمكن أن يواجهها رجل وحيد في مكان لا يعرف احداً فيه ولا يعرف عنه أي شيء؟

طبع قبلة على شفتيها قبل أن يجيبها. احست قبلته حارة وفيها مقدار كبير من الصدق والحزن معاً، وكاد أن يقول لها بعض الأشياء التي يجب أن لا يقولها، لكنه في اللحظة الأخيرة توقف، استبدلها، قال لها:

ـ اعتقد أنني سأكون مضطراً لانجاز الامور هناك بسرعة، وسأعود بسرعة ايضاً؛ ايتها العزيزة باتريشيا.

ـ ومن يضمن ان تسير الامور كما تريد يا بيتر؟
ـ لا تخافي، لقد فهمت كل شيء، وسوف انجز الامور بسرعة!
ـ دائمًا يقول الرؤساء ذلك لكي يدفعوا الصغار في ظهورهم ويبعدوهم
ـ لا تظني الامور هكذا يا عزيزتي.
ـ وكيف تظن انت؟ اقصد كيف ستسير الامور؟ قـل لي ما هي مشاعرك يا بيتر؟ اريدك أن تقول لي الاشياء التي قالوها لك!
ـ تأكدي أني سأعود بسرعة.
لم يكن بيتر متأكداً من شيء، وهذا ما اضاف إلى خوفه مقداراً كبيراً من الحذر، خاصة من رؤسائه، لكنه الآن لا يستطيع أن يفعل شيئاً. يجب أن يقوم بكل ما يريدون. عندما ينتصر سيكون النصر لهم، اما عندما تسحق عظامه كالفأر فسوف يكون وحده بيتر ماكـدونالـد. لا . . . لن يكون وحيداً في هذه المصيدة، تذكر بـاتريشيـا وتذكـر الما واليانور. تذكر أصدقاءه، وتذكر والدته في بلدتهم البعيدة، فأحس أنه لا يستطيع احتمال كل هذا. وقرر أن يشرب كأسـاً ثانية. قال لباتريشيا:
ـ لست خائفاً من شيء يا باتريشيا. ثم يجب أن تعرفي: الواجب هو الواجب!
ـ أعرف ذلك. اعرفه تماماً، ولكن. . .
وتغير صوتها، اصابه خدش جعله حزيناً، اضافت باستسلام:
ـ كان من الواجب أن تسير الامور على غير هذا الشكل!
قال بيتر بحزن:
ـ نعم كان يجب أن تسير بشكل آخر..

وتذكر مرة اخرى جنوب فرنسا. تذكر الدفء فارتعش قليلاً وسرى في داخله شعور بالفرح. لون هذا الفرح مزاجه بلون جديد. اراد أن يخلق في باتريشيا ذكريات قديمة، لكن فكرة مواصلة الكتاب انتصبت في رأسه فجأة، قال بلهجة حمّلها مقداراً كبيراً من الحرارة:
ـ كنت اقدر أن انتهي من كتابة اشياء كثيرة هذا الشتاء، إلى جانبك

يا باتريشيا! لما وجدها صامتة وبعيدة اضاف:

- لا ادّعي أنّ هذا الكتاب لي وحدي. . . انه لنا نحن الاثنين.

ابتسمت باتريشيا بحزن، قالت وهي تهز رأسها:

- انه لك يا بيتر، وحدك الذي تصنعه، وعملي معك لا يتعدى الجلوس إلى جانبك وانت تكتب.

قال بيتر بمرارة:

- لا اعرف أي بشر سيكونون إلى جانبي هناك يا باتريشيا!

- ستجد نفسك بسهولة، الناس موجودون في كل مكان.

- ولكن أي نوع من الناس؟

- الناس الذين تريدهم.

- هذا ما لن افعله ابداً!

وكاد يقول لها اشياء كثيرة، لكنه تذكر فجأة الورقة الزرقاء التي اعطيت له اثناء المقابلة الثانية. انها المرة الأولى التي يقرأ فيها تعليمات مكتوبة بهذه الدقة. كانت معظم التعليمات تبدأ بكلمة «محظور». لا يتذكر الآن الاشياء المسموح له بها، فقط يتذكر أن كل شيء ممنوع، حتى اثناء دخوله إلى الحمام يجب أن يتأكد من النافذة، ومن الجدران. وشعر أنه بحاجة إلى حمام ساخن لكي يزيل عن جسده هذا التوتر الذي يحسه في هذه اللحظة، لكن عادت التعليمات تقفز بين عينيه «محظور عليك أن تظهر في علاقاتك العامة نظافة زائدة. إن القذارة، بعض الأحيان، وسيلة توصلك إلى ما تريد، لا تكن طاهراً إذا تطلب العمل ذلك، يجب أن تقيم علاقات من انواع عديدة ومتنوعة، دون خشية».

وتذكر الفقرة التالية «محظور عليك السكر، يمكن أن تشرب، لكن بحذر، وباتقان، ويجب أن تتوقف عن الشرب عندما تجد أن الشرب اصبح لذيذاً».

كاد يقول لباتريشيا هذه الاشياء. كاد يقول لها أنه سيتوقف عن العادات «الرديئة» التي يمارسها في الوطن. كاد يقول انه سيتوقف عن اخذ

حمامه اليومي، ليس هذا كل شيء، ربما اضطر، من اجل العمل، أن ينام مع نساء اخريات!

قال لنفسه «لن تفهم باتريشيا هذه الاشياء، ستقول لي اترك هذا العمل فوراً، أن هؤلاء الرجال الحمقى يريدون أن يتخلصوا منك. أن يهدموا مستقبلك».

قال لباتريشيا:

ـ يبدو أن الشرق الـذي قرأنـا عنه في الكتب يختلف كثيـراً عما سمعنا.

ـ عما سمعنا؟

ـ اقصد أن الكتب تبالغ كثيراً!

كان يريد أن يقول لها شيئاً آخر. لكن أية بداية جديدة ستكون خطرة بمقدار لا يستطيع أن يعرف كيف ينتهي، وربما ادى ذلك إلى نتائج لا يمكن أن ·يحتملها الآن. لما رآها تنظر اليه كأنها لا تزال تنتظر منه أن يتابع اضاف:

ـ حـدثني بعض الزمـلاء الذي ذهبـوا برحـلات إلى الشـرق أن الـرحالـة، الذين يكتبـون، يحبون أن يـظهروا بنـظر مـواطنيهم، انهم طريفون، هذا كل ما في الأمر، لذلك يكتبون عن الأشياء غير المألوفة، الاشياء الغريبة. يذهبون إلى الحمامات التركية مثلاً ويتحدثون طويلاً عن ذلك. وأي شيء هو الحمام التركي؟ قال لي احد الزملاء زار حماماً من هذا النوع: الرائحة هناك خانقة... وليس الأمر متعلقاً بالرائحة فقط، هناك القذارة... والشذوذ ايضاً.

لم يكن بيتر يريد أن يقول الكلمة الأخيرة، لكنه لم يفكر في الأمر طويلاً، جاءت هكذا. قلبت باتريشيا شفتها السفلى وهزت رأسها، دلالة الرفض والقرف والاشمئزاز.

لما رأى في وجهها الاستنكار قال ليخلق جواً جديداً:

ـ يجب أن يعترف الانسان. الاشياء هناك مختلفة، مختلفة كثيراً!

ـ ادرك ذلك يا بيتر . . . لكن ارجو أن لا تكون صعبة!

وعادت لرأسه فجأة ايام الاسر. تذكر ملابسه الداخلية، تذكر رائحة صدره، وتذكر رائحة اماكن اخرى، ولم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً.

قال لنفسه: «ولكن كنا هناك اسرى. كنا سجناء، وماذا يستطيع السجين؟ أما في الشرق، فماذا يعنيهم اذا اخذت حماماً كل يوم؟».

وتذكر من جديد احاديث زملائه في الصحراء: «ماذا تظن الصحراء يابيتر؟ ارض خالية، كبيرة. . . كبيرة لدرجة تبدو وكأن لا نهاية لها، رمال، رمال ناعمة، ليس فيها شيء اخضر ابداً، صفراء، قاسية، يابسة، تشبه يداً مصابة بالجذام. أما إذا هبت الريح فإن كل شيء يتطاير، حتى الانسان يتحول إلى طائر. . .».

وقال له زملاء آخرون اشياء اخرى، وحتى الآن لا يصدق، ولا يتصور كيف تكون الصحراء!

قال لباتريشيا:

ـ لسنا ذاهبين إلى الصحراء. . . سوف نعيش في المدن، وإلى الصحراء سنذهب فقط للنزهة!

قالت باتريشيا بأسى، ولكن بسخرية:

ـ وهناك سوف تجد أماكن كثيرة لممارسة هوايتك!

نظر اليها بحزن ثم هزّ رأسه وقال:

ـ لن يتاح لي أن اضيف كلمة واحدة إلى الكتاب قبل العودة إلى هنا. . .

فكر قليلاً ثم تابع:

ـ ليس العودة فقط، يجب أن اعود إلى الجو مرة اخرى، أن اعود إلى بيفرلي، أن اعود إلى ممارسة الصيد فترة طويلة، قبل أن اكون قادراً على كتابة كلمة واحدة.

ـ ولكن قل لي بحق الشيطان. . . ألم يجدوا غيرك لكي يرسلوه؟

ـ وغيري . . . اليس له وضع مثل وضعي؟
ـ قد يكون غير متزوج، قد يكون راغباً في السفر. . .
ـ هم الذين يقررون يا عزيزتي، ثم أن الفترة التي سأقضيها هناك لن تكون طويلة بأي حال من الاحوال!
ـ هكذا دائمًا تبدأ اللعبة . . . هكذا يقولون دائمًا!
ـ ولكنهم اكدوا لي ذلك!
ـ من يدري؟

وشرب بيتر بقايا الكأس. كان يريد أن يذهب إلى فراشه مبكراً، واراد أن تكون باتريشيا إلى جانبه. أن وجودها إلى جانبه في مثل هذه اللحظة يخفف عنه كثيراً، يمكن أن يحس انه لم يعد وحيداً، إن دفئها سيرافقه فترة طويلة، لكن باتريشيا، في تلك اللحظة، كانت تغزل الصوف، كانت تشغل نفسها بطريقة فيها كثير من الملل والعذاب، فلم يستطع أن يقول لها شيئاً، وذهب وحده إلى النوم، دون أن يطلب شيئاً أو أن يقول لها سوى تحية المساء!

لا تزال اوراق الشجر تتطاير، انه يراها في اماكن عديدة، لكن نظراته كانت تتركز دون أن يريد في الزاوية الشمالية لصالة الانتظار، كانت نظراته تخترق الزجاج وتتابع الورق.

قالت باتريشيا لتخلق جواً جديداً:
ـ إن الخصومة بينكما، لم تنته بعد، منذ ايام الاسر، ويجب أن تفعلا شيئاً من اجل انهاء هذه الخصومة. يجب أن تفعلا شيئاً الآن.

ونظرت في وجه ألكسندر قبل أن تمسك بساعد بيتر.

قال ألكسندر:
ـ بيتر لا يريد أن يسافر. . . هذا كل ما في الأمر. لو كان يريد لرأيته الآن فرحاً. . .

قال بيتر:
ـ يخطىء من يظن أني مرغم على السفر. كان بامكاني أن اعتذر،

كان سهلاً أن اقنعهم باختيار واحدٍ غيري. إلا أن هـذا الشرق اللعـين يغريني، واريد أن اذهب.

قال مودي بحذر:

ـ بيتر لا يذهب دون أن يكون مقتنعاً. لكن ليس من السهل أن يفارق الناس الذين يحبهم!

كانت كلمات مودي اقرب ما تكون إلى التجاوب مع الافكار التي تدور في رؤوسهم، التفت اليه بيتر وقال:

ـ انت دائماً تسرقني.. تسرق الافكار التي تخترق رأسي، تعرف كيف تقبض عليها وتعتبرها افكارك!

قالت باتريشيا بتألق:

ـ عرفنا اذن سبب حزن بيتر: لانه يفارقنا الآن...

نظر اليها بيتر وهو يغمز بعينه وتمتد يده إلى خدّها يداعبها، قالت لتنهي الخصام بينه وبين ألكسندر:

ـ ويفارق ألكسندر ايضاً!

كان ألكسندر حزيناً في تلك اللحظة. شعر أنه انسان غير مرغوب، وانه يخلق للآخرين اشكالات لا يريدونها. ابتسم بحزن وقال:

ـ إن حبي لبيتر أكثر مما احتمله.. منذ كنا في معتقل الأسرى وحتى الآن!

تغير بيتر فجأة، ضرب كتف ألكسندر وكأنه يعتذر اليه. قال:

ـ لا اعرف لماذا تنتابني هذه الحالة السوداوية، اشعر اني مخطىء بشكل ما! ووقفوا. بعد لحظات ابتعد ألكسندر ومودي. ظلت باتريشيا وبيتر. وقفا فترة صامتين، كان بيتر ينظر حواليه بضياع، كان يريد أن يتصرف بشكل مختلف، أن يكون انساناً مختلفاً، لكنه لم يقوَ على ذلك. في لحظة من التأمل، كما تقول باتريشيا، قال بيتر:

ـ الصغيرتان، كان من الواجب أن تكونا هنا الآن...

ـ ليس ذلك واجباً يا بيتر.

ـ ولكني سافتقدهما كثيراً. . . كثيراً يا باتريشيا!

ـ اعرف . . . اعرف ذلك، ولكن يجب أن لا تنقطعا عن المدرسة يوماً واحداً.

ـ ويجب عليهما أن تناما مبكراً!

وقبّلها بحرارة. لم يكن يدري لماذا يفعل ذلك الآن، لكنه وجد نفسه مدفوعاً لذلك.

وتحدثا في امور كثيرة، امور تافهة، عن ضرورة أن يهتم بنفسه من حيث مواعيد الأكل والنوم والنظافة والكتابة. . . وطلب اليها، والحّ في ذلك كثيراً، أن تهتم بالصغيرتين وبنفسها. وحين جاء موعد رحيل الطائرة كان بيتر شاحباً وظهر عليه الحزن. لكن كل شيء انتهى بسرعة وبشكل آلي. حتى عندما اقترب من ألكسندر ليودعه، قال له:

ـ يجب أن تدرك كيف يكون الانسان احمق، وكم من الحماقة في قلب الانسان!

اجاب ألكسندر بصخب:

ـ ادرك ذلك يا بيتر، ادركه جيداً ومنذ وقت طويل. . . اتذكر ذلك؟

وهزّ بيتر رأسه، وتذكر اشياء كثيرة. وبدا الجو في اللحظات الاخيرة ودوداً وأقرب إلى الرضى، رغم الحزن. . . واخيراً انتهى كل شيء وسار بيتر نحو الطائرة المتجهة إلى زوريخ. . .

(٢)

اعدت كافة الاشياء بعناية قبل سفره: جناح في فندق انتركونتننتال مدة اسبوع، استقبال في مطار زوريخ، جواز سفر ديبلوماسي يغادر به سويسرا، مع تعديل طفيف في الاسم، تغيير لا يخلق ارتباكاً من أي نوع، ولكنه ضروري. وحدد له في زوريخ مواعيد لاجتماعات، ثم جولات حرة يقررها وحده، ويمكن لادارة الشركة أن تضع تحت تصرفه مرافقاً دائماً وسيارة، إن هو اراد.

هكذا اعدت الامور قبل السفر وابلغ بها. كان له ملاحظات على كل شيء، ابتداء من الجناح في الفندق وانتهاء بالمرافق والسيارة، لكن قيلت له اشياء كثيرة اعتبرها ذكية وحكيمة، لدرجة توجب عليه أن يوافق عليها برضى.

«أنت يا بيتر منذ اللحظة التي تغادر فيها رجل جديد، جديد في كل شيء، ويجب أن تدرك ذلك. البقاء في زوريخ سبعة أيام، والتصرف كأي سائح ثري، واستنشاق الهواء الطلق، ولا مانع من الذهاب إلى المتاحف والملاهي... لقد درست الادارة ما يجب أن تفعله، وكيف

تفعله، ووضعت لك البرنامج. ليس هذا كل شيء... ما تزال هناك امور اخرى يجب أن تفهمها ايضاً، سوف لا يضيرك شيء إن وضعت على عينيك نظارات طبية. وماذا لو اطلقت شارباً يا بيتر؟ سيكون شاربك بين الشقرة والحمرة وسيكون رائعاً!».

ووافق بيتر. كانت موافقته غامضة في البداية، ثم وجد الامر مثيراً لدرجة انه بدأ يتخيل شكله بعد أن يضع على عينيه النظارات الطبية ويطلق شاربيه. راقه كل شيء، واحس أن سنوات كثيرة تنزاح عن كتفيه، وابتسم.

في زوريخ كان كل شيء معداً بدقة. وجد اثنين يستقبلانه في المطار، وقد اظهرا له مودة كبيرة، وتحدثا معه في السيارة وفي صالة الفندق، حيث رافقاه إلى هناك، وكأنهما يعرفانه منذ وقت طويل. وبعد أن تأكدا من أنه لن يكون محتاجاً لأي شيء تركاه بلباقة ليستريح، على أن يمرا عليه في السابعة من ذلك المساء.

وفي الجناح الانيق المطل على الميدان الكبير وجد على الطاولة الصغيرة القريبة من سريره بعض الكتب السياحية وبعض الجرائد والمجلات. كما وجد بطاقات بريدية، وإلى جانبها الطوابع والأوراق البيضاء والاغلفة، لكنه وجد نفسه حزيناً اكثر مما تصور، وانه لا يستطيع قضاء الساعات الباقية حتى السابعة. تجول في جناحه، فكر، تطلع عدة مرات من النافذة. دخل إلى الحمام، وتطلع إلى وجهه في المرآة، ثم جلس وقلّب، دون اهتمام، الكتيبات السياحية، وفكر أن يكتب لباتريشيا، لكنه طرد الفكرة بسرعة «ماذا ستقول عني باتريشيا إن كتبت لها بعد بضع ساعات من تركها؟ يجب أن انتظر، يمكن أن اكتب في اليوم الاخير».

وعاد إلى النافذة مرة اخرى. كانت زوريخ في هذا اليوم من ايام تشرين الثاني باردة، غيوم بيضاء تملأ الفضاء، وتلامس الاشجار العارية التي تطوّق الميدان من كل ناحية. كانت غرفته دافئة لدرجة انه لم يكن يطيق هذه الحرارة كلها، فتح النافذة لحظة شعر بعدها بفرق الحرارة،

فأغلقها. فكر أن يغادر الفندق، ثم فكر أن يستخرج من حقيبة اليد الصغيرة التي كان يحملها بعض الكتب وينشغل بقراءتها، لكن كل هذه الافكار لم تستقر طويلاً في رأسه. تركها تتسرب وتتراجع، وغرق من جديد في التفكير. مرت امامه حياته من جديد، تذكر السنتين اللتين قضاهما في الاسر. بعد أن قبض عليه وجميع ركاب السفينة. كانت سفينتهم في ذلك الوقت تقوم بمهمات استطلاع قريباً من شواطىء ايطاليا. كانت تحمل علماً بنمياً، ولم يكن احد يتصور انها قد تتعرض إلى الاحتجاز بما فيها ومن فيها، لكن الغواصة الالمانية حين اطلقت عليها بعض القذائف وخرقت الجزء الخلفي منها، لم يكن امامها إلا الاستسلام، وتبين أن المعدات التي فيها كانت من الدقة والأهمية بحيث أن كثيراً من البحارة لم يقدر ذلك. جرى الحديث حول هذا الموضوع في وقت متأخر، حين كانوا في احد المعسكرات في جنوب المانيا، أما البحارة الاحد عشر الذين قتلوا فقد كان ذلك بلاهة، كما قال الكابتن تاوسند، «لأن مقاومة غواصة امر جنوني، وكان من الواجب أن يتم الاستسلام فوراً بعد اكتشاف مهمتنا. صحيح أن الجميع كانوا مستعدين للموت، لكن الأمر لن يتغير».

بعد أن قضى بيتر فترة صعبة للغاية خلال السنتين اللتين تم اعتقاله فيهما، وبعد أن انتهت الحرب، كان انساناً معذباً وضائعاً، لقد اثرت عليه الحرب كثيراً، خاصة الفترة الاخيرة من الاعتقال، بحيث أصبح سوداوي المزاج، سريع الغضب. فكر أن يهجر مهنته نهائياً ولا يعود أبداً كموظف في شركة الحسابات العامة، بل وفكر أن يستقر في الريف لكن الإنسان لا يستطيع أن يقرر وحده.

نهض بيتر من مقعده وقد شعر أنه استسلم اكثر مما ينبغي لذكريات بعيدة.

أما التحاقه بشركة البترول فقد كان طموحاً يعذبه لانه حتى اللحظة الاخيرة ظل معلقاً وحائراً بين موافقة الشركة على طلبه أو قبول وظيفة في

شركة ملاحية؛ وفكرة الذهاب إلى الريف والعيش هناك شغلته بعض الوقت، لكنها ظلت حلمًا مثل كثير من الاحلام التي تعبر رأس الانسان في اوقات التعب او الضجر!

في شركة البترول بدأ موظفاً عادياً، لكن بيتر، كما يقول عن نفسه دائمًا، «انسان غير عادي»؛ إن اخلاصه للعمل في كثير من الحالات يؤرقه كثيراً، حتى أن خطيئة، مهما كانت صغيرة، يمكن أن تسبب له حالة عصبية لا يعرف كيف يقاومها، او يتغلب عليها، وهذه الصفة بالذات، رغم انها سبب كثير من العذاب الذي يعانيه، وحتى السوداوية والشك في حياته، هذه الصفة ذاتها كانت وسيلة للتقدم في العمل، وكانت الرابطة الخفية التي تشده إلى رؤسائه أو تشد رؤساءه اليه!

انتفض مرة اخرى، وكان إلى جانب النافذة يطل على الميدان، واعتبر أن استسلامه لهذه الذكريات لا يليق به، خاصة في هذه المرحلة التي يريد أن يبدأ فيها حياة جديدة مليئة بالمخاطر والاهمية، كما قال رئيسه. اتجه إلى حقيبة اليد الصغيرة واخرج كتاباً بعنوان «تأثير الحضارة الفارسية على الحياة الاجتماعية والدينية والفكرية في الشرق الاوسط». تطلع باعجاب إلى العنوان، وقدر أن بحثاً مثل هذا لا بد وانه استغرق فترة طويلة من الزمن. أن الذي يستطيع أن يكتب مثل هذا الكتاب يجب أن يعرف عدة لغات شرقية، وأن يكون قد عاش في الشرق فترة من الزمن، لكي يلمس تأثير حضارة معينة على غيرها من الحضارات. كان يريد أن يبدأ بقراءة الكتاب في الطائرة، لكن لسبب خفي أجَّل ذلك، قال لنفسه باصرار «يجب أن لا اقرأ هذا الكتاب إلا في الليل، حين اكون هادىء النفس ومستلقياً في الفراش» ووجد نفسه يبدأ القراءة.

حين رن جرس الهاتف في الغرفة المجاورة اصابته للحظة رعشة مفاجئة وكأنه شعر بحالة اقرب إلى السقوط. كان مستغرقاً في القراءة والتفكير حين رنّ الهاتف، وكاد أن ينكر ذلك، أو يتصرف بحماقة، لكن تطلع إلى الساعة وهو في طريقه إلى الهاتف. كانت السابعة تماماً وادرك

انهم جاؤوا.

في الصالة رأى احد الرجلين يخف نحوه ليستقبله وهو يودع المفتاح. بدا الرجل مرحاً، ولكن في اللحظة التالية، اشعر بيتر، دون كلمات، وهو يشير بيده، بأهمية ما، التفت بيتر ليستطلع، رأى في زاوية الصالة رجلين جالسين، وبهمسة صغيرة، قال بيتر بتساؤل بريء:

ـ هل تحب أن تتناول مشروباً؟

اجاب الرجل بيديه ووجهه:

ـ انهم ينتظروننا. هناك.

وما كاد بيتر يخطو بعض الخطوات حتى نهض الرجلان. كان احدهما مسناً ثقيل الحركة، وجهه قاسي الملامح، خاصة بالحواجب الكثيفة التي تجلل عينيه، أما الآخر فقد بدا طويلاً اكثر مما ينبغي، وعلى وجهه ملامح الطفولة والبله في وقت واحد.

قال الرجل المسن:

ـ نحن سعداء يا مستر ماكدونالد لرؤيتك هنا.

وتقدم نحوه ماداً يديه الاثنتين.

شعر بيتر بأهمية اضافية لنفسه لم يكن يتوقعها. تقدم بخطوات واسعة ومضطربة نحو الرجل وسلّم عليه بطريقة بدت مضحكة، قال:

ـ لي الشرف أن التقي بالسادة...

واراد أن يضيف اسماً. حاول أن يتذكر مسؤولي الشركة الذين عرفهم من خلال الكتب، من خلال الرسائل التي تصل مقر الشركة من جميع الفروع، لكنه لم يتذكر اسماً يمكن أن يعطيه لهذا الرجل أو ذاك بسهولة.

قال الرجل بهدوء وابتسامة واثقة اقرب إلى التحدي:

ـ راندلي

وتولى راندلي تقديم زميله. امسك بيد بيتر اليسرى فوق الساعد، ودفعه بخفة ولكن بطيبة ايضاً وقال:

ـ مستر نلسون. . مستر ماكدونالد.

قال نلسون وصوته يزحف من منخريه بصعوبة:

ـ قدّرت تماماً أن يكون مستر ماكدونالد بهذا الشكل: مربوعاً، في منتصف العمر، قوي البنية. . .

ثم أضاف بلهجة مختلفة:

ـ هل استطيع أن اقدر أن مستر ماكدونالد يهوى الرياضة؟ اقصد يمارسها؟

شعر بيتر ماكدونالد انه وسط رجال يريدون أن يقتحمـوه دفعة واحدة، أن يسلبوه كل طاقته على التصرف السهل المباشر، ورغب من اعماق نفسه أن يرد عليهم دفعة واحدة، خاصة المستر نلسون، لكن الجو كان ثقيلاً دافئاً، بحيث انه شعر بالحرارة اكثر مما يطيق جسده، وهذه الحرارة المفاجئة انسته أن يقول كل ما يريد، أن يتصرف بالحرية التي يحاول الانسان ان يفرضها ثم يألفها ويعتبرها شرطه الاساسي للحركة. انتابه شعور بالانقباض. كان يريد أول الامر أن يقول لمستر نلسون «وانت اية رياضة تمارسها يا مستر نلسون؟» وفكر أن يقول «هل انت بحاجة إلى هذا الطول كله يا مستر نلسون؟» لكنه فجأة وجد نفسه يقول:

ـ انا سعيد بهذا اللقاء، ويمكن أن اتحدث عن نفسي، اقصد عن الرياضة التي امارسها في وقت لاحق.

نزفت الكلمات من فمه كما ينزف جرح. كانت ثقيلة ومرتبكة. قال راندلي:

ـ المستر نلسون يحب الرياضة، خاصة التنيس والخيل. . وضحك راندلي ضحكة محكمة صغيرة، لكنها واثقة. ولم يترك الامر هكذا، التفت إلى الرجل الذي التقى بيتر وقال بلهجة آمرة:

ـ يمكننا أن ننطلق الآن. . .

ـ نعم، سيدي، أن المسافة إلى هناك لا تستغرق اكثر من عشرين دقيقة.

ـ حتى لو وصلنا مبكرين، فسوف يكون امامنا وقت لنشرب كأساً اخرى!

وضحك راندلي، وهزّ رأسه دلالة الرضى، واشار بكثير من الاحترام إلى بيتر يطلب منه أن يقود هذا الموكب لمغادرة الفندق.

(٣)

قال له راندلي، في احد اللقاءات الاخيرة:

ـ قد تبدو الأمور صعبة في البداية، لكنك ستكتشف بنفسك كيف انها سهلة للغاية. كيف؟ تماماً كما يتصور الانسان قبل أن يطلق شاربيه. لفترة طويلة يتصور انه لن يمتلك شاربين، انظر إلى نفسك الآن في المرآة يا بيتر، لقد بدأت الحمرة تظهر فوق شفتك بوضوح، وخلال الايام العشرة التي ستقضيها في بيروت ستجد نفسك وكأنك ولدت بشاربين.

وضحك راندلي بقوة، وربت على كتف بيتر؛ أما الكتب التي اعطيت له فقد بدت اول الامر مملة حين قلبها في الفراش، قبل أن ينام، ثم ما لبث أن وجدها لذيذة واستغرق فيها. كان الكتاب الاول بعنوان: «المفاوضات الصعبة»، ويتحدث هذا الكتاب عن الطريقة التي يدير بها المتفاوضون المناقشات بهدف الوصول أو عدم الوصول إلى نتائج. كانت في الكتاب تفاصيل كثيرة غاية في الدهاء، واحب أن يتعلمها بسرعة. اما الكتاب الثاني فقد بدا له غريباً للغاية، ومستر راندلي حين طلب اليه أن يقرأ هذا الكتاب قبل غيره، لم يفهم ملاحظته جيداً، فالكتاب لا يعني

اكثر من قصة معقدة يتخللها كثير من الافكار السقيمة، كما سماها بيتر، لانه يتناول «حياة سجين في الايام العشرة الاخيرة قبل الفرار» تفاصيل صغيرة، احلام، ذكريات، حكايات تافهة مع الحرس، ومع الممرض، وكلها بهدف التضليل، لكي يستطيع أن يختار اللحظات المناسبة للفرار. أما الكتاب الاخير الذي طلب منه أن يقرأه بعناية فقد كان «حساب الاحتمالات»، وفي هذا الكتاب فصول طويلة عن لعبة الشطرنج، اللعبة التي لم يحبها طوال حياته!

أما المناقشات التي دارت في هذه الايام فقد كانت من الطرافة والدهاء لدرجة لم يكن يتصور ان اياً من العاملين معه في الشركة يقدر عليها. كانت تتخلل المناقشات ادوار تمثيلية طويلة، كما بدت له أول الأمر، لكن اكتشف في النهاية أن ما يهم المستر راندلي، بالدرجة الاولى، أن يلقنه درساً في كيفية التخلص من الاشياء الصعبة، وأن يتدرب على كيفية معرفة الآخرين. وهذه المهمة لم يضع لها الاسم بنفسه، هذا ما اكده المستر راندلي ذاته:

ـ مستر ماكدونالد.. مهما فعلت من اشياء رائعة لن ينظر اليها احد باهتمام، كل ما نريده منك ان لا تصل إلى اية نتيجة في المفاوضات. ستبدأ معهم البحث، ستطول المناقشات، سوف تقضي اياماً كثيرة وانت تبحث، لكن دون أن تصل لاية نتيجة. هذا ما نسميه التخلص.

عنّت له اسئلة كثيرة كان يريد أن يطرحها على راندلي، لكن الطريقة التي أدار فيها راندلي الاجتماعات تركته حائراً مبهوراً، فكفّ عن توجيه الاسئلة. سيطرت عليه فكرة أن يتقمص دور مستر راندلي بحذافيره. كان راندلي يجلس بين ثلاثة رجال، ويطرح سؤالاً، كأن يقول:

ـ ليست لدي الآن اية افكار، من يريد أن يطرح فكرة؟

وتتوالى الأفكار، كانت افكاراً متباعدة غريبة، وفي كل مرة يكتشف أن راندلي قادر على الوصول إلى الحلول المناسبة.

ـ ابدأ معهم، يا بيتر، من حيث يريدون، لكن يجب أن نوصلهم إلى حيث نريد. اتفهم ما عنيت؟

ويهز بيتر رأسه بحيرة. ويردد في نفسه: «ابدأ معهم من حيث يريدون، لكن المهم أن نوصلهم حيث نريد».

ـ انظر يا مستر ماكدونالد. لنفترض أن الأمر بدأ بالشكل التالي:

«نحن نعترف، ايها السادة، بجميع الإجراءات، لا نقول لهم الاجراءات التي اتخذتموها انتم، نقول كلمة عامة، ثم بعد ذلك نقول: ويهمنا الآن أن نصل إلى نتائج ترضي الطرفين. انظر يا بيتر لم نقل إلى النتائج التي ترضيكم، وبعد ذلك نقول لهم: لنبدأ القصة من أولها، إن البدايات الصحيحة تؤدي إلى نتائج صحيحة، ونضع نحن الفرضيات والبدايات التي نريدها. ونتوقف طويلاً عند مقاطع معينة، لكن المهم يا مستر بيتر أن تفهم بدقة ماذا يريدون. ليس من الضروري توجيه اسئلة مباشرة. يمكن أن نسأل اسئلة بعيدة، عن الزراعة مثلاً، عن تربية الحيوان، ويمكن أن نسأل عن مصاريف البلاط، الامر كله لا يتعدى أن يكون بداية، لكن دون أن نصل إلى نتائج، إلى نهاية».

قبل أن يغادر بيتر زوريخ كانت الامور في ذهنه غائمة مشوشة، لكنه مع ذلك فهم العمل الذي يجب أن يقوم به. إن مهمته لا تتعدى الحرب في جبهة ثابتة. وهذا التعبير لم يخترعه لنفسه، مستر راندلي قال له وأكد عليه «ليس مهماً أن تحقق نصراً من أي نوع... الشيء الوحيد المطلوب الآن، في مرحلة الشهور القادمة، أن لا نترك الآخرين يحققون نصراً علينا. وأن لا يُترك للآخرين تحقيق النصر، معناه أن نشغلهم، أن نجعلهم في قلق دائم، في خوف دائم، وفي نفس الوقت نلوّح لهم دائماً أن شروطنا سهلة ويمكن أن نتفاهم معهم، لكن دون أن نصل إلى أية نتائج، وفي ظل هذه الحالة تعمل ويعمل الذين معنا لتحقيق الاهداف الاخرى...»؛

طلب من مستر راندلي بعض المساعدين. وطلب منه معلومات

حول المفاوضات التي جرت في الفترة الاخيرة ونقاط الخلاف. كانت طلباته عادلة وضرورية، هذا ما قاله لنفسه، ولو أنه لم يطلبها لنظر إليه راندلي على أنه ابله ولا يزيد عن أن يكون شخصاً من هؤلاء الذين لا يعرفون أية مهمة كلفوا القيام بها.

ـ ابدأ معهم يا بيتر. كل يوم اطلق امامهم فكرة، قل لهم لنحاول ايجاد طريقة، أما ما هي الطريقة؟ كيف يتم الوصول اليها؟ فإن احداً لا يعرف. وإذا سألوك يا بيتر فلا تخجل من أن تقول لهم اشياء كنت تخاف أن تقولها امام الناس الآخرين. أن صورتك يا بيتر كرئيس للمبيعات انتهت، ومع انتهاء هذه الصورة تنتهي الاستجابة لرأي الطرف الآخر. لا شك انك تتذكر تلك القواعد السقيمة الماضية، كنت تعتبر المشترين دائماً على حق وتحاول أن ترضيهم. الصورة الآن انك المشتري الذي لا يرضى؛ لكنه لا يرفض ايضاً ولا يقبل، يترك الامور معلقة، «اريد أن ادرسها» «اعطوني فرصة لكي افكر فيها» «يجب أن اسأل مستشاري القانوني»، «من الضروري العودة إلى مقرّ الشركة لأخذ رأيها» هكذا نريد الامور يا بيتر. وهؤلاء الناس لهم صفتان: الحماقة والسرعة، انهم حمقى لا يعرفون شيئاً، لا يعرفون كيف يفكرون، كيف يتصرفون، ولذلك فإن كل افكارهم وتصرفاتهم تتسم بهذا المقدار الكبير من الحماقة. وايضاً متسرعون شديدو الغضب. يتصورون أنه يمكن قطع المسافة بين الارض والقمر في لحظة، الامر الذي لا يمكن أن يتحقق ابداً، لكنهم لا يسلّمون، ولا يعترفون بالخطأ ايضاً. وفي نطاق السرعة يرتكبون مزيداً من الحماقات. يجب أن تتخيل جزءاً كبيراً من حماقاتهم وتتحملها، تبتسم لها، لأن كل خطوة حمقاء تقرب الطريدة من الصياد...

اثناء الاجتماع التالي، والذي جرى القسم الاساسي منه، في القاعة الكبيرة، تحت البناء الواسع القديم الذي تحتله الشركة في الشارع الثالث، قال بيتر: «إن راندلي، هذا الرجل المسن، يتمتع بقوة مذهلة لا يمتلكها شباب تقل اعمارهم عنه عشرات السنين».

لقد بدأ الاجتماع في غرفة راندلي الواسعة، في الطابق الاول. في الثامنة وعشر دقائق كان الموعد، ومن النظرة الاولى التي القاها بيتر على الغرفة والرجل المسن وراء طاولته، ادرك أن راندلي قد وصل قبله بفترة طويلة، وربما كان مجتمعاً مع اناس آخرين، ادرك بيتر ذلك من جو الغرفة العابق برائحة السيجار، لم ير دخاناً كثيراً لكنه شعر أن هواء الغرفة مليء بتلك الرائحة، ورأى سيجار راندلي وقد تبدد ثلثاه.

بعد وقت طويل في احاديث متواصلة، تخللتها اسئلة وجهها راندلي ببساطة، واشترك معه بضعة اشخاص آخرون، دخل نلسون، وادرك راندلي أن الساعة قد بلغت العاشرة. قال راندلي وهو يمسح وجهه بيده التي بدت لبيتر في تلك اللحظة قصيرة اكثر مما ينبغي ومليئة:

ـ يمكن أن تستريحوا ايها السادة، وسألحق بكم بعد قليل.

حين وقف بيتر تقدم منه نلسون وقال له بتلك الطريقة التي بدت منذ الليلة الاولى مضحكة ولا تتناسب مع جسده الكبير:

ـ لم استطع أن اقول لك كل ما اريد تلك الليلة. ان الويسكي يمنعني، بعض الاحيان، من أن اقول كل شيء. الويسكي بالنسبة للكثيرين يطلق الالسنة اما بالنسبة لي فانه يعقد لساني!

واطلق ضحكة مدوية لا تتناسب مع الكلمات الفجة التي قالها. ابتسم بيتر واقترب راندلي، امسك بهما، وضع يديه على الكتفين، فبدا راندلي قصيراً، قال:

ـ سيكون رجالنا هناك اصدقاء. آه لو اتيح لي أن اكون هناك! وابتسم. بدا متعباً، لكن نظرة لامعة فيها مقدار كبير من التذكر انبثقت من عينيه فأضاف بتحريض:

ـ اصبحت رجلاً عجوزاً... ولقد حان الوقت الذي يجب أن يعمل فيه الأقوياء.

انزل يده، والتي لا شك تعبت في رحلتها الطويلة على كتف نلسون، وربت على كتف بيتر اكثر من مرة وهو يضيف:

ـ الامر هناك لا يحتمل تجارب من اي نوع. الامر جدي اكثر مما ينبغي، لكن ثقتنا كبيرة وليس لها حدود. وسوف نسمع اخباركم الجيدة.

شعر بيتر بالثقة والارتباك، كان يريد أن يقول كلمات مماثلة، أن يؤكد للمستر راندلي انه قادر على القيام بكل شيء، وسيبذل جهده لأن يجعل كل ما يفعله كاملاً ومتقناً، لكن احس بعدم جدوى الكلمات، قال لنفسه «ماذا لو وعدت، لو قلت كلمات كبيرة، ثم تبين اني لم افعل شيئاً؟» نظر إلى مستر راندلي وقال:

ـ ارجو أن تسير الأمور كما يجب!

قال نلسون من منخريه وبتحدٍ:

ـ يجب أن تسير. . . نعم يجب أن تسير، ماذا تظن يا مستر ماكدونالد؟

كان رجلان قد خرجا واثنان آخران ينتظران، شعر أن اللياقة تقضي عدم اشتراكهما في الحديث، انتحيا جانباً واخذا يتكلمان.

قال مستر راندلي ينهي الحديث:

ـ سينضم الينا المستر نلسون بعد ساعة ونواصل الحديث. يجب أن تستريح يا مستر ماكدونالد. وخرج بيتر مع رجلين كانا معه منذ بداية الاجتماع.

في الكافيتريا التي تنبعث من اجوائها موسيقى هادئة أحس بيتر أن الثقة التي يضعها فيه رؤساؤه تجعله رجلا جديدا. انتابه فرح مفاجىء، تمطى قليلاً ليمنح جسده قوة اضافية، جال بعينيه في ارجاء الكافتيريا: اضواء داخلية غير منظورة، لكنها تسبح في كل مكان، وتمنح مقداراً كافياً من الرؤية والراحة. في وسط القاعة الكبيرة بضع درجات تنحدر من جانبين، ثم مجموعة من الطاولات والمقاعد، مقاعد جلدية نبيذية اللون مستديرة، وعلى قاعدة جانبية يقف تمثال لامرأة عارية ترفع بيديها آنية وضعت فيها زهور، أما في الجوانب فكانت مجموعة من المقاعد بالوان متناسقة تشبه نغماً متداخلاً، وعلى الجدران صور. كان يريد للحظة أن يغرق في احد

المقاعد، ويعطي نفسه فرصة يستجمع قواه وذاكرته. كان وهو يسير إلى جانب الرجلين، موضع اهتمام زائد، حين وقف عند المدخل وقفا. جال بنظره في الكافتيريا، فجاملاه، القيا نظرة، وحين سار مرة اخرى اشار احدهما إلى زاوية بدت له اجمل الزوايا واكثر بعداً عن المدخل.

إن شيئاً جديداً يولد في داخل بيتر. حين ترك لندن قبل بضعة أيام احس في لحظات كثيرة باللاجدوى والحزن، وتصور انه اختير لعمل لا يناسبه ولن ينجح فيه، وتذكر ايام الاسر، لكنه الآن يحس بنفسه رجلاً آخر: كان يريد أن يتحدث، أن يستمع بكل جوارحه إلى الرجال وهم يتحدثون، أن يستوعب كل كلمة تقال له!

كان الثلاثة لا يزالون في جو الاجتماع. لم يقولوا هذا مباشرة، لكن من طريقة الاسترخاء، ثم من الابتسامات التي تبادلوها بسرعة، شعر أنه قريب جداً من الآخرين، ولم يستطع أن يمنح نفسه فرصة للانتظار أو التفكير بعد أن احس بطراوة المقاعد ودفئها.

ـ بيرة.. طبعاً؟

ـ بيرة

خرجت الاجابة آلية، وكأنهم لا يريدون ان يكلفوا انفسهم عناء اضافياً. مع الرشفات الاخيرة من الكأس الثانية كانت صورة راندلي تطفو في ذاكرة بيتر كحصان جامح.

«ـ ماذا تظن المستر راندلي؟ سنوات من العمل الذي لا يعرف الهدوء او التوقف. من فنزويلا الى سرواك، ومن سرواك إلى اندونيسيا، ثم إلى اميركا اللاتينية مرة اخرى. واين أيضاً؟ تقريباً في كل مكان. كان مستر راندلي، في البداية مهندساً بحرياً، وهو الآن كل شيء: الادارة، المبيعات، خطط الانتاج، العمليات الخاصة، كل شيء.. كل شيء تقريباً. أما «الاعمال الخاصة» فإن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً في لندن دون مشورته. كانوا يريدون أن يكون هناك، لكن تلك الطويلة السوداوية المزاج لا تتركه يفعل، ومن أجلها يبقى هنا».

كانت اجزاء الصورة تتجمع قطعة قطعة في ذهن بيتر، ومن خلال الكلمات المجزأة، اللمحات السريعة، الرغبة التي تعبر عن نفسها بجموح، تكتمل صورة المستر راندلي.

« ـ ماذا تظن يا مستر ماكدونالد... ؟ إن راندلي هذا لو اراد لكان الآن رئيساً لمجلس الادارة أو مديراً عاماً، لكن ما هو المدير العام؟ المدير العام يعني أكبر راتب؟ يعني الرجل الذي يتخذ أهم القرارات؟ هذا هو وضع المستر راندلي بالضبط! يسافر مرة كل شهر. يقضي هناك يومين أو ثلاثة أيام ويعود. الله ما أكثر ما يكون مختلفاً حين يعود. من ينظر إليه، من يسمعه، يظنه شخصاً آخر. يقول دائماً: هذه الجزيرة ليست مكاناً للضباب فقط، إنها أيضاً مكان للتعفن، ولا أدري متى يدرك الرجال هناك أن أشياء كثيرة تغيرت حولهم ويجب أن يتغيروا! لو قضى المستر راندلي شهرين أو ثلاثة هناك لحملهم بالقوة على أن يغيروا كل شيء، إنهم الآن يستمعون إليه، يتركونه يتكلم، لكنهم بعض الأحيان يفعلون ما يريدون. ».

وحاول بيتر أن يتذكر صور المديرين، صور الرجال الذين فارقهم. بدت له صورهم شاحبة شمعية، واحس أنه يوافق الآن على الكلمات التي يسمعها.

«ـ ليس هذا كل شيء، الذين يعرفون حياته في اميركا اللاتينية، خاصة في ترينداد والمكسيك، لا يقدرون أن يتصوروا الرجل الآن. والتغير الكبير الذي طرأ عليه. كان يشرب كثيراً، يسهر كثيراً، يلتقط النساء من احضان ازواجهن... واخيراً؟ يكون الأول الذي يأتي، يصل قبل أن يصل الجميع. والآن لماذا لا يتذكر ترينداد أو الأماكن الأخرى التي عاش فيها ولا يحب أن يتحدث عن ذلك؟ هذه السويسرية تتصور كل شبح امرأة تطارد المستر راندلي وتنازعها عليه.».

واحس بيتر بحنين لباتريشيا. لكن وجد حياته فقيرة مملة؛ صحيح أنه يحبها، ولكن ليس في حياته شيء يمكن أن يتحدث عنه.

والآخرون.. هل يشاركونه في الحديث عن صيد الاسماك وانواعها وهجرتها ومواسم وضع البيوض؟ كان يحن إلى حياة من نوع آخر، لو أتيح له أن يبدأ من جديد لبدأ بداية أخرى، مختلفة.

«ـ والمستر راندلي رجل لا يحب الخطأ ولا يقبل أي مبرر له. يريد من كل الرجال أن يكونوا مثله، ولكن ألم يخطىء كثيراً حتى تعلم؟».

«ـ ذات مرة، في حفلة الذكرى السنوية، شرب وكان مرحاً مع الجميع، مَرّ على جميع الموائد، وحين سئل عن ايامه الاولى في سرواك، وفيما اذا اخطأ اثناء العمل، بدأ يتحدث عن اخطائه بفخر، لم يكتف بتسميتها اخطاء، قال (تلك الحماقات) لكن فجأة تنبه إلى الفخ الذي وقع فيه، ضرب الطاولة بقبضة يده مغتاظاً، وقطب حاجبيه، وقال: «الوقت للمرح أيها الرجال ويجب أن لا تخطئوا أيضاً وأنتم تمرحون» ونهض!

«هذا هو المستر راندلي»

شعر بيتر بالحصار فانقبض صدره، كان في البداية قد حضّر بعض الأسئلة ليطرحها على الجالسين معه، وكان يريد أن لا تفوته أية تفاصيل أو أسئلة عن المستر راندلي، لكنه الآن يشعر بالارتباك، فقد ارتسمت في ذهنه صورة قاسية لراندلي، وشعر إنه يكرهه أو يخاف منه، وكاد أن يسترسل في أفكاره عن أيام بعيدة، أيام المعتقلات. لكن فجأة التفت فوجد المستر راندلي يدخل وإلى جانبه المستر نلسون، ووراءهما يسير رجل قصير مليء يحمل تحت إبطه مجموعة من الأوراق في ملف وفي يده الأخرى حقيبة سوداء. لا شعورياً وجد نفسه ينهض، وكذلك أحس من الحركة حوله أن الرجال يفعلون. أقبل نحوهم المستر راندلي والسيجار في فمه، بدا وهو يحني رأسه قليلاً ويتطلع إليهم بتلك الطريقة، كأنه يريد أن يتأكد أنهم هم أنفسهم، وأن يستنتج في أية أحاديث كانوا يخوضون خلال الفترة الماضية، لما اقترب انتزع من فمه السيجار، وقال بلهجة عميقة:

ـ ماذا تقول في هذا الكهف يا مستر ماكدونالد؟

وقبل أن يجيبه بيتر تابع:

ـ في مثل هذه الكهوف يمكن عمل كل شيء: الحب والصفقات التجارية وتتويج الملوك وقطع رؤوس الجزر الناضج!

وضحك وضحك الجميع. كانت كلماته تعني أشياء واضحة، أو هكذا فهم بيتر من الجو، واعتبر أن السؤال الذي وجهه إليه المستر راندلي لم يعد بحاجة إلى جواب. لكن المستر راندلي لم ينس الكلمات التي قالها، فبعد ضحكات الرجال حوله عاد إلى السؤال الذي وجهه، آجال فيهم نظرة ورأسه منحنٍ، فبدا وهو ينظر إلى نلسون وقد اقترب من صدره، فتوقف لحظة ثم رفع خلالها وجهه إلى نلسون وغمزه بعينه، ثم التفت إلى بيتر وسأل من جديد:

ـ ماذا تقول يا مستر ماكدونالد؟

ـ عن أي شيء يا مستر راندلي؟

ـ وهل نسيت؟

ـ نسيت؟

ـ ماذا اذن؟

ـ سيدي.. اعتبر أن ما قيل واضح تماماً ولا يحتاج إلى تعليق!

ـ إذن أنت موافق؟

ـ بالتأكيد

ـ ولكن على ماذا يا مستر ماكدونالد؟

شعر بيتر بالضيق، واضطربت في ذهنه الافكار والصور، هل يتعرض الآن لامتحان من نوع جديد؟ وإلا ماذا يسمى هذا الالحاح؟

اقترب منه راندلي، امسك بساعده وضغط، ثم قال وهو ينظر إليه في وجهه تماماً:

ـ يجب أن يكون لك مثل هذا الكهف، وهناك تستطيع أن تمارس الحب وقطع الرؤوس وربما تتويج الملوك أيضاً، بالتأكيد ستفعل!

ابتسم بيتر، أحس أن راندلي يمنحه كل ثقته، وأنه يعطيه فرصة كبيرة، وحين نظر إلى وجه راندلي مباشرة وجد أن الشعيرات الحمراء

تنتشر بكثرة على هذا الوجه وتلوحه، فبدا غامضاً ومنفراً وغريبـاً، ولم يستطع أن يقول شيئاً!

أما في غرفة الاجتماعات الكبرى، إلى جانب الكافتيريا، والتي لا يفصلها عنها سوى ممر طويل، فقد امتلأت الجدران بالخرائط والأنوار القوية، وعلى الطاولة الخضراء الكبيرة التي جلس حولها نفس الرجال، وكان الرجل القصير قد فرد الأوراق ووضعها بترتيب ظاهر أمام المستر راندلي، فقد كان الجو مختلفاً وخطيراً، ولكن كلمات مستر راندلي حين ودعه آخر مرة بدت له أنها تحمل أكثر من تحريض، وكانت تصل حدود الأمر، لكن بإغراء وحزم. قال له:

ـ في بيروت يجب أن تمثل دوراً كاملاً، أن تعيش باستمتاع، ولا بد أن تلعب المرأة الدور الرئيسي، لأن هؤلاء الشرقيين لا يسكرون تماماً إلا بالنساء والكلمات الكبيرة، وبعض الأحيان بالخمر!

ابتلع راندلي ريقه، وأضاف بلهجة جديدة:

ـ في بيروت يا مستر ماكدونالد يجب أن تقيم علاقات نسائية عديدة ومتنوعة. ستكون عاشقاً، ستكون عربيداً، ستكون في لحظات معينة سئماً تبحث عن شيء ما لا تعرفه، وتريد من المرأة أن تساعدك في الوصول إليه، وفي طريقك إلى قلب المرأة تعرف أشياء كثيرة، وعن طريقها توقع الآخرين!

وضحك المستر راندلي، وهو ينهي كلماته:

ـ ستكون المرأة ممتعة لك وللآخرين.. لكن احذر الوقوع جدياً في الحب!

(٤)

الامطار تسقط بغزارة، وبيتر يسقط في حالة من الخوف والتحدي ورغبة العودة، شعر بذلك منذ اللحظة الاولى، وحقائبه تدخل قبله إلى الغرفة الواسعة بفندق السان جورج. كانت الغرفة مطلة على البحر، وكان المطر مجدولاً مثل الحبال وهو ينزل من السماء، أما رياح المتوسط، وهي تحرك الموج امامه وتدفعه بقوة على الصخور، والمراكب الصغيرة الراسية قريباً من شرفة الفندق.. فكانت تولد في نفسه رغبات لا يعرف كيف تنبثق من داخله وتسيطر عليه!

في لحظة قرر أن يكتب لباتريشيا، وجد الأوراق جاهزة تنتظره على الطاولة القريبة من النافذة. جلس وبدأ الكتابة:

«عزيزتي باتريشيا.

منذ وقت طويل، طويل جداً، لم اكتب اليك، ربما كانت آخر رسالة بعثت بها حين كنت في امستردام، قبل ثلاث سنوات، وبعدها لم تكن هناك حاجة إلى الكتابة. ماذا قلت لك في رسالتي تلك؟ هل تتذكرين؟ لا زلت اتذكر، لكن وضعي الآن مختلف تماماً. لم تنقض إلا

ايام قليلة على سفري، لكن مع ذلك اشعر أن هذه الايام من الكَثرة والكثافة بحيث أحس وكأنها فترة طويلة. احاول الآن استعادة صورتك، افشل في لحظات معينة، اعذريني يا باتريشيا، لكن هذا ما يحصل..».

توقف. قرأ العبارات التي كتبها، شعر انه بهذه الطريقة يبدو ضعيفاً وربما تحس باتريشيا أنه لا يحتمل. حاول أن يتذكر صورتها من جديد، حاول أن يستعيد ذكرى ايامهما معاً، طوى الورقة بدقة وهدوء، ومزقها!

كتب على الورقة التالية:

«عزيزتي باتريشيا.

لا استطيع أن اقول لك كلمة واحدة عن بيروت، وصلتها قبل ساعات قليلة، المطر يتساقط بغزارة، لا شيء لدي اعمله الآن. فكرت أن اكتب اليك لأتغلب على الوحشة. لو كنت في وقت آخر، في ظروف اخرى، لحدثتك عن الشرق. اتذكر كلماتك وانت تسألينني عن الشرق، لكن لا استطيع أن اكتب شيئاً مهمًا الآن».

ومن جديد لم يستطع أن يتابع. شعر أن هذه البداية كئيبة إلى درجة لا يحتملها. أهكذا يكتب بعد ساعات قليلة من وصوله إلى بيروت... محطة نصف الطريق؟ الا يستطيع أن يفعل شيئاً آخر سوى هذه الكتابة العاطفية البائسة؟ قال بيتر لنفسه «أن كأساً من الويسكي الآن تقتل الاحزان والسأم، ويجب أن اتناول هذه الكأس»، كاد أن يدق الجرس ويطلب لنفسه كأساً، لكن فكر أن يغادر الغرفة، انه لا يريد أن يبقى وحيداً، ويشرب في الغرفة وحيداً، لو فعل ذلك فكأنه يتعمد أن يعذب نفسه. ماذا لو نزل إلى الصالة، أو إلى البار؟ ماذا لو ترك الفندق وذهب إلى مكان آخر وتناول كأساً مع احد هناك؟ قال لنفسه بيأس «حين يكون الانسان في حالة من الكآبة يفكر أن يشرب للتغلب على هذه الحالة، اما إذا شرب وحيداً فإن كآبته تصبح كابوساً، وانا لا اقدر على احتمال هذا الكابوس».

قرر أن يخرج. قال لنفسه «يمكن أن احدد المكان الذي سأشرب فيه

هذه الكأس اللعينة في وقت آخر» لكنه قبل أن يخرج دخل إلى الحمام ونظر إلى نفسه في المرآة. كانت الشعيرات النامية فوق شفته تعطيه شكلاً جديداً، كانت شعيرات خشنة، ولا توحي انها اصبحت شارباً، فكر أن يزيلها، وفكر أن يبدأ تمرده منذ تلك اللحظة على هذه الاقتراحات السمجة «ماذا يعني إذا صار لي شاربان أم لا؟ ماذا يريدون أن يخلقوا مني؟».

ومرت في رأسه صور الرؤساء... «انهم يرتكبون حماقات كثيرة، وإلا لماذا يصرون على مثل هذه الاقتراحات اللعينة؟» ماذا يعني إذا كان له شارب أم لا؟ ولماذا يريدون أن يمثل هذا الدور الكئيب؟ لقد استوعب تماماً المهمة التي يجب أن يقوم بها. ومهمة من هذا النوع لا تتطلب شكلاً جديداً او تمويهاً كالذي يقترحونه. انهم يطلبون منه اكثر مما يطيق، يطلبون اشياء تافهة ويشغلون الناس بها، لكن فكرة اخرى انفجرت في رأسه: ماذا لو رآه احد الذين عرفهم من قبل؟ وماذا يقول عن المهمة التي جاء من اجلها؟ اجاب نفسه بتصميم: «لا زلت اعمل في شركة النفط ذاتها. وأن انتقل من قسم إلى آخر امر طبيعي، ويجب أن لا اخاف من ذلك أو اتجنبه، وحتى لو سألني بعض الذين اعرفهم من قبل لا استطيع أن انكر».

وتذكر كلمات راندلي «مستر ماكدونالد... تجنب الناس الذين تعرفهم من قبل، لقد اخترناك بالذات لانك لم تكن على صلة بالاجانب، كنت على صلة مع مواطنينا، وهؤلاء لهم طبيعة مختلفة، انهم طينة اخرى، أما الاجانب فإن من لا يعرفهم يحسن اكثر التعامل معهم، ومن أجل ذلك انت تذهب إلى هناك، وهؤلاء الذين التقيت بهم في اوقات سابقة قد لا تراهم ابداً، وإذا صدف والتقيت بأحد منهم يمكن أن تتجاهله. لقد اصبحت الآن، يا بيتر، انساناً جديداً: النظارات الطبية، الشاربان، اسلوب العمل، كل شيء.. كل شيء فيك تغير».

تلمس شاربيه للمرة الأخيرة وهو ينظر إلى المرآة: اشواك صغيرة

قاسية الملمس، نافرة بعناد، ولا تزيد عن أن تكون قذارة لا يريـدها لنفسه. وعنت له الرغبة في أن يضحك: «وماذا لو رأتني باتريشيا بهذا الشكـل؟» اجاب نفسـه بتصميم: «لكن الآلاف من الناس في لنـدن يمتلكون مثلها، ولكثيرين أيضاً لحى طويلة ولا تشكل بالنسبة لهم أو بالنسبة للآخرين متاعب من أي نوع» تنفس طويلاً، ثم قال بطريقـة مسرحية ليقنع نفسه:

- أي رجل في الدنيا لا يمتلك، في البداية، لحية أو شـاربين . وان وجود اللحية أو الشاربين تخلقه المصادفة أو الرغبـة. اليس كذلك يا ايها السادة؟

ومشى بخطوات قوية واثقة، ونزل في المصعد، بعد أن اتخذ قراراً!

في البار كانت مجموعات صغيـرة من الرواد قـد اتخذت امـاكن متفرقة، وحين طلب كأساً من الويسكي مـع الثلج، نظر بتحبب إلى الجرسون، وغمز بعينه، واشار أن تكون الكأس مضاعفة!

انها المرة الاولى التي يصل فيها إلى هذا الشرق اللعين، كما يحب أن يطلق عليه. الفندق يشبه فنادق كثيرة غيره في اماكن عديدة من العالم: الصالات الكبيرة، اللغة، اللوحات على الجدران، الموسيقى، واستخرج من جيبه قلماً وورقة وبدأ يكتب:

«الساعات الاولى في بيروت مليئة بـالمطر ولا تثـير في نفسي أية دهشة. الشارع، من المطار حتى الفندق، يحمل ملامح متنوعة، لكن صفة الكآبة تغلب على كل شيء. كان الناس وهـم يتـراكضون في لحـظات معينة، هرباً من المطر، لا يوحون إلا بصورة الارانب المذعورة. اشرب الآن وحيداً، الامر الذي لا اريد أن اكره، اشعر برغبة محادثة انسان، ولكن اين وكيف؟».

وبدأت الاسئلة تتساقط في رأسه كالحجارة: لماذا كان قاسياً هكذا مع ألكسندر؟ لماذا يشعر بالحزن الآن؟ وهل سينجح في هذه المهمة التي اوكلت اليه؟

قال لنفسه «اذا استمر المطر هكذا فإن الدنيا ستبدو صغيرة، خانقة، وملعونة ايضاً».

وشـرب. وشرب مرة اخرى، وحين طوى الورقة التي أمامه والتفت حواليه وجد أن عدداً اكبر من الناس انتشروا وملأوا المساحات الفارغة التي كانت من قبل. لم يفطن للبشر ولم يحس بوجودهم، رغم الضوضاء، كان مستغرقاً في حالة خاصة، الحالة التي تسميها باتريشيـا «اللحظات السوداء» وتمنى لو كانت باتريشيا معه، وتمنى اكثر من ذلك لو انه تصرف بشكل مختلف مع ألكسندر في المطار. وامتلأ رغبة مفاجئة لو أنه يستطيع أن يغادر المكان إلى مكان آخر.

سمع كثيراً من قبل عن بيروت، هذه المدينة الخطرة. هنا يلتقي كل شيء بكل شيء. هنا المهارة والمصادفة، اضافة إلى المال والرصاص، وكل هذه تخلق للمدينة طعماً متميزاً، أما المستر راندلي فقد اوضح له الأمر بكلمات مباشرة:

«في بيروت تبدأ.. لديك اموال كثيرة، عش كأي ثري يعرف كيف ينفق امواله بمهارة ويستمتع بها. في بيروت تبدأ الرحلة، ستكون رحلة طويلة، اقصد من حيث المسافة، وهناك ستتعرف عـلى بعض الناس، وهؤلاء يصلون اليك دون مشقة، وسوف تتعرف على النساء، كن ماهراً في الحالتين.. يا بيتر!».

وعادت اليه الصور من جديد:

«سيتصلون بك تلفونياً من خارج الفندق، في اليوم الثالث، بعد الساعة الخامسة «ـ مستر بيتر؟» «ـ من يتحدث مع ماكدونالد؟» «ـ أريد أن اتحدث مع المستر بيتر!» «ـ تقصدون...» وتضحك وتقول: «ـ ربما كان احد يطرق بابي.. آسف لحظة، يمكن أن تتصلوا بي فيما بعد» «ـ فيما بعد؟» «ـ نعم.. لنقل في السادسة غداً» «ـ ولكن يمكن أن ننتظر حتى تتأكد إذا كان احد يطرق الباب» «ـ.. لا .. افضل الاتصال في وقت آخر.. نعم في السادسة، لأن من يطرق الباب لا يستطيع أن ينتظر،

وانتم تعرفون» وتضحك بطريقة توحي بالمعرفة « ـ المرأة. . المرأة الواقفة على الباب لا تستطيع أن تنتظر طويلاً. . وانتم تعرفون معنى أن تنتظر امرأة» « ـ إذن في السادسة مستر ماكدونالد» « ـ ارجو ذلك».

حين كان يتحدث في التلفون في اليوم الثالث، بدا له الصوت ضعيفاً مرتبكاً واقرب ما يكون إلى الخوف المشوب بالاحترام. لم يطل الحديث، ولم يجر بنفس الدقة التي افترضها مستر راندلي، رغم أن بيتر كان بحاجة لأي انسان يتحدث معه، لكن الرجل، على الطرف المقابل، فهم الحديث القصير واعتذر بمسكنة، واكد، اكثر من مرة، انه سيتصل في السادسة.

في السادسة اتصل، لكن ليبلغ بيتر أن امراً طارئاً قد حدث، ويعتذر طالباً تأجيل الموعد إلى التاسعة من صباح اليوم التالي. قال بيتر بغضب:

ـ ولكني لا استطيع، ثم أن لدي في الوقت نفسه موعداً مع امرأة. . . ولذلك ستمرون ظهراً، لنقل في الثانية عشرة.

ـ ولكن. . .

ـ لا تقلقوا الناس يا ايها الرجال الشرقيون.

وتضحك وتتابع:

ـ ماذا لو قلنا في الثامنة مساء؟

«في الثامنة لا تكون في الفندق، وفي اليوم التالي، الساعة العاشرة صباحاً، في الصالة الكبيرة، تشاهد رجلين وامرأة. طبيعي سوف تشاهد عشرات النساء والرجال، الرجلان اللذان اعنيهما، والمرأة، من نوع آخر، الأول قصير، الثاني طويل ابيض الشعر، والمرأة جميلة. . جميلة جداً، وإلى هنا، يا بيتر، لا اعني شيئاً. هناك عشرات الناس المليئين، القصار، ومثلهم أو اكثر الطوال القامة وشعورهم بيضاء. وتسألني والمرأة الجميلة؟ لا شيء ايضاً. . . هناك الجميع يستعينون بالنساء الجميلات، أما بالنسبة لنا، فيجب أن نتأكد من أشياء صغيرة قد لا تلفت نظر احد: الطويل

الابيض الشعر يضع قرنفلة حمراء في عروة سترته.

ـ وهل يجب أن نلتقي في الفندق مستر راندلي؟

ـ هذا ما اردتك أن تسأل عنه يابيتر.

ويشعر بيتر بالزهو، ولكن في نفسه يتساءل: «والرجل الآخر الذي وعدته في الثامنة».

ـ اما الرجل الآخر، الذي اتصل تلفونياً، فلن تسمع صوته مرة اخرى لقد انتهى دوره!

ـ وماذا نستطيع أن نفعل مع الرجلين والمرأة؟

ـ ما تستطيع أن تفعله مع الرجلين اخبرك به فوراً... اما مع المرأة فهذا ما أريدك أن تخبرني به بعد أن تعود!

ـ اقصد مع الرجلين!

ـ اولاً.. يجب أن يتم اللقاء خارج الفندق، في مكان اسمه بار الوردة، المكان لا يبعد عن السان جورج اكثر من مائتي خطوة، سوف تكتشفه بسهولة، ويجب أن تفعل ذلك قبل الموعد؛ وثانياً يجب أن تذهب إلى هناك وحيداً، اقصد دون نساء، لأن جزءاً من اللعبة أن تغازل المرأة التي ستأتي مع الرجلين، والآخرون ينظرون إليك، اطلب لهم كؤوساً من الويسكي، لهم ولغيرهم، حاول أن تتصرف وكأنك تريد هذه المرأة التي اكتشفتها بالمصادفة. قد تجد نساء اخريات، نساء اجمل، لكنك تريد هذه المرأة بالذات لسبب غامض، للمصادفة، للجمال الخاص، لطريقتها في الضحك أو التدخين، لأنها تجلس قريباً منك. سوف تجد طريقة تبرر ذلك، وسوف يدعونك، وتجلس معهم، وهنا تبدأ مهارتك يا بيتر. المرأة طوال الجلسة هي من تريد، انظر اليها، تحدث معها، حاول أن تتصرف وكأنك لا ترى غيرها، حتى إذا التقيت بهم في اليوم التالي تستدرجهم بسبب المرأة، بسببها وحدها، إذا نجحت في ذلك تكون قد قطعت نصف الطريق، اما إذا فشلت فسوف تضطر للبقاء هناك فترة اطول، اتسمع ما اقول لك يا بيتر؟ ومن اجل ذلك حاول أن تتصرف بمهارة، جرب نفسك

مع النساء الأخريات. خلال الايام الاولى، تعرف على النساء، سوف تجدهن في الفندق، في الاماكن القريبة، بيروت مكان مليء بالنساء، ويجب أن تتصرف... لديك الكثير من المال والوقت، ولديك اللباقة والمهارة، اليس كذلك يا مستر ماكدونالد؟».

«في اليوم التالي، على شرفة السان جورج، المطلة على البحر، إذا لم يقع المطر، سوف تتابع هذا الدور، الحديث عن اشياء تهم المرأة، اضحك بصخب، اطلب الويسكي منذ الصباح، تصرف بطريقة توحي وكأنك لا تزال تعيش في احلام الليلة السابقة، الليلة التي لم تحقق فيها هدفك، لأن الرجلين والمرأة تركوك قبل أن تصل».

«اي انسان يراك لا يمكن أن يظن لحظة واحدة انك تريد غيرها، حين تطمئن، حين تتأكد تبدأ المرحلة الثانية».

قبل أن تبدأ المرحلة الثانية كتب بيتر لباتريشيا الكلمات التالية:

«عزيزتي الرائعة باتريشيا».

دعيني اقول لك مباشرة اني احبك، الشرق ورياح المتوسط تجعلني عاطفياً وكسولاً إلى درجة كبيرة، لذلك لا اريد أن اكتب كثيراً. بيروت تختلف عن امستردام، وتختلف عن المدن التي رأيناها معاً. تختلف عن باريس، دبلن، نيس... وماذا اقول لك ايضاً؟ ألا زلت تسأليني عن الشرق؟ لا استطيع أن اذكر لك الآن سوى أن الشمس لا تزال دافئة..

أنا اليوم أعيش في جو من الدفء، لو كنت أمتلك شجاعة كافية لنزلت إلى البحر، هل تستغربين؟ دعيني اقول لك اني لا احتاج هنا إلى معطف أو إلى ملابس ثقيلة. اصبحت هنا سمكة تسبح في الشمس. الجبال الخضراء تبدو من شرفة الغرفة التي انزل فيها. البحر يلامس اقدام الفندق. الناس هنا لا يظهر فرحهم من حزنهم، يركضون، يجلسون ببلاهة في المقاهي. والمقاهي هنا كثيرة، متنوعة، والنساء لا يدخلن اغلبها! اما اذا سرت من الفندق الى وسط المدينة فاشعر أني اغرق في بحر من البشر الذين ينظرون إلى المحلات وكأنهم لا يفعلون شيئاً سوى

ممارسة هذه الهواية! لا اعرف كيف يعيش الناس هنا، لكنهم في الغالب منفرون، كثيرو الكلام، يتكلمون باصوات عالية للغاية، الأمر الذي لا استطيع أن افهم له سبباً. اريد أن اقضي وقتاً اطول، يا عزيزتي، في هذه المدينة العجيبة. بيروت تشبه الكرنفال: عشرات الاشكال والازياء والجنسيات والالوان. والانسان لا يستطيع أن يميز فيها شيئاً خاصاً، عدا الاحياء الفقيرة، تبدو هذه الاحياء اكثر وضوحاً وازدراء من الاشياء الاخرى، لا استطيع الادعاء اني عرفت اشياء كثيرة هنا، لكن ماذا تتصورين أن افعل غير التجول والنظر إلى المحلات والناس؟ واغرب شيء يا باتريشيا هنا النساء! في الوقت الذي ترين فيه امرأة رائعة الجمال، وتلبس كما تلبس النساء في لندن وباريس، تجدين إلى جانبها نساء من نوع آخر يلبسن اثواباً مختلفة، ويضعن ألحفة سوداء على اجسادهن ووجوههن، ويسرن كما تسير المواكب. وكل شيء هنا يحتمل الغش، لذلك لا اطمئن ابداً... اشم رائحة اللحم الذي يقدم إلي من قبل أن اتناوله، اتحسس جيوبي بين لحظة واخرى خوف أن اسرق. اسير بكثير من الحذر والانتباه لكي لا اصطدم بالمارة أو ادعهم يصطدمون بي، واقضي وقتاً مهماً في الفندق. انت تقدرين أن نزلاء الفندق من الاجانب، ومع هؤلاء يمكن أن يقيم الانسان علاقات دون خوف، طبيعي انها علاقات سريعة وعابرة، ولكنها تبعث على الاطمئنان اكثر من العلاقات التي يمكن أن تقام مع السكان الاصليين للبلاد... والسكان الاصليون، رغم الابتسامات الكثيرة التي يوزعونها، ورغم انهم يتعمدون الحديث مع الاجانب لأظهار معرفتهم باللغات، وبعض الاحيان لمساعدتهم، فلا يمكن أن يطمئن لهم الانسان، ربما كانوا يفعلون ذلك لكي يحققوا بعض المنافع.. وربما لكي تسهل السرقة بالنسبة لبعضهم!

عزيزتي باتريشيا.

بيروت محطة في الطريق، سأكتب لك عنها في وقت آخر، وقد لا افعل اذا كانت المدن الأخرى التي سأزورها اكثر اهمية، بيروت تشبه كل

شيء ولا تشبه شيئاً، ويبدو أن المدن الساحلية كلها تتمتع بهذا المقدار الكبير من البلاهة والتنافر، لكن بيروت فوق ذلك كله مدينة خطرة، لأن فيها اشياء لا يجدها الانسان في مكان آخر.. الشمس مثلاً!

أحييك واقبلك يا باتريشيا، وسأكتب لك مرة اخرى في الايام القادمة».

«بيتر»

كان يريد أن يضيف لما كتبه اشياء اخرى، لكن الكلمة الوعرة التي صادفته في الطريق اضطرته إلى التوقف. كان يقصد بالخطورة الحقيقية اشياء محددة: النساء... والآخرين... الذين ينتظرون مثله بداية الرحلة الطويلة إلى أماكن اخرى. وبيروت محطة، محطة رئيسية على الطريق!

(٥)

سارت الامور في بيروت كما قدر لها تماماً، لم تظهر صعوبات أو متاعب من أي نوع. الشاربان لم يعـودا يزعجانه، ومنظر وجهه اصبح مألوفاً حين يتمعن في المرآة والنظارات الطبية على عينيه. أما النساء فقد كن كثيرات، وقد مثل مع اثنتين أو ثلاث منهن ادواراً ناجحة، احس بعدها انه يعود إلى ايام بعيدة، حين كان يقضي وقتاً ممتعاً في سـوهو أو في البارات القريبة منه.

كـان بيتر إذ ذاك محبـوباً ومـرموقـاً لدرجـة تثير التسـاؤل لنفسه وللآخرين، لكن كثيراً ما يبدد التساؤلات بهذه العبارة التي لا يعرف كيف اكتشفها، كان يقول:

ـ أن تكون محبوباً من النساء، أمر غامض، حتى للانسان نفسه، اسأل المرأة، اسأل نفسك: ماذا تحب في هذه المرأة؟ لأول وهلة لا تستطيع أن تجيب، وحين تبدأ الاجابة تجد أن كل جواب يحتمل مقداراً كبيـراً من الخطأ لم تكن تتصوره من قبل!

أما حين قرر الزواج من باتريشيا فقد كان الامر حماقة، كما قال بيتر

لنفسه فيما بعد.

«كنت احتاج إلى عطف امرأة؛ وكانت باتريشيا تمتلك مقداراً من الوضوح والوسامة والصمت، وهذا كل ما كنت اريده في ذلك الوقت، وانتهى كل شيء بسرعة، قلت لها لنتزوج يا باتريشيا. . . وتزوجنا».

الآن يستعيد لحظات قديمة تنبعث منها رائحة الشباب والرعونة. صحيح أنه لن يتورط كثيراً، ولن تبقى من هذه العلاقات اية آثار، لكن المهمة التي جاء من اجلها تقتضي منه أن يلعب اللعبة كلها، وباتقان. هنا يمكن أن يبدو رجلاً يبحث عن اللذة. صحيح انه لم يعد شاباً، لكنه لا يبدو كهلاً أو مسناً، مازال قادراً على الالتقاء بالنساء، والشرب، والسهر، والضحك بصخب، ان الرجال في هذه السن، حين يكونون بعيدين عن البيت، يميلون إلى علاقات فيها مقدار من المتعة، وحين يرتحلون مرة اخرى لا تبقى من هذه الاشياء سوى ذكريات صغيرة، وحتى هذه لا تلبث أن تزول وتنتهي وحدها.

المرأة الاولى في بيروت التقطها من بار الفندق: يونانية، طويلة، جميلة، وكان فيها مقدار كبير من الحزن. لم يكتشف هذا الحزن إلا في وقت متأخر، بعد أن سهرا معاً ورقصا معاً، وبعد أن وافقت على الصعود معه إلى غرفته، أما بعد ذلك فقالت له:

ـ ماذا لو ذهبنا إلى مكان آخر نواصل السهر هناك؟

فقد وجد انه يحب هذه الفكرة، إذ لا يزال يتمتع بالتألق الذي يجعله يرقص امام الآخرين ويصخب، وحين اختارا باراً من البارات الكثيرة المنتشرة على الزيتونة، وبدأت تلك الاغاني التي تولدها لحظات السكر والعذاب والذكرى، بدأت ماتيلدا، وكان هذا اسمها، تغرق في بحر من الشفافية ثم الصمت، حتى اصبحت في النهاية حزينة. كان رجاؤها حاراً لما طلبت من بيتر أن يوصلها الى شقتها في رأس بيروت، حين فعل ووقفا معاً عند مدخل البناء الكبير الذي كانت تسكن فيه بدا له انه لا يستطيع أن يصعد معها أو يطلب منها شيئاً، واحس في نفس الوقت

انه غير قادر على أن يمنحها شيئاً، ثم بدت له في لحظة وكأنها تعشق فيه انساناً آخر، أو انها تمثل معه دوراً طلب منها القيام به. استيقظت في نفسه لحظات الخوف والسوداوية والشك، وقرر أن يتوقف. قبلها بسرعة واعتذر انه لن يستطيع اللقاء بها في اليوم التالي، ويمكن أن تتصل به بعد ذلك، وسوف يتفقان.

وابتعدت ماتيلدا لكن وجهها الشفاف ظل متألقاً في ذاكرته. وصوتها، المخدوش ـ بتلك البحة الصغيرة يجعله لذيذاً معشوقاً، اما احاديثها عن الاشياء الرائعة فلا يعتقد أنه سمع مثلها من أمرأة، وهذا ما ولّد في نفسه الشك أن امرأة مثل هذه لا يمكن أن تقضي حياتها في البارات أو تنتظر عاشقاً لا يأتي، ومع ذلك فإن بيتر لا يريد أن ينساها بسرعة.

أما المرأة الثانية التي استهوته، وفكر فيها بعض الوقت، فقد كانت مضيفة لاحدى شركات الطيران. كانت في طريقها من نيويورك إلى بانكوك، لكنها في بيروت توقفت إذ شعرت انها لا تستطيع مواصلة السفر. كانت متعبة، واقرب إلى المرض، لكن هواء بيروت انعشها، وفجأة وجدت نفسها تدخل في حوارٍ مع بيتر حين التقيا في الصالة الشرقية للفندق. وظلّا معاً.

قالت له اليانور حين اقترح عليها ان يذهبا معاً الى البار:

ـ لا اشرب إلا قليلاً رغم اني طوال السفر على الطائرة لا افعل شيئاً سوى تقديم كؤوس الويسكي! في السفرات القصيرة، في الاجواء العاصفة، يشرب الرجال اكثر، اما حين تعبر الطائرات المحيط فإن الرجال يستسلمون إلى الراحة أو الخوف في تلك المتاهات الطويلة المظلمة...

سألها بيتر ببراءة:

ـ وعبر المحيط انتم تستمرون في تقديم المشروبات.. لكن الناس لا يشربون اليس كذلك؟

ـ نحن مستعدون لتلبية الطلبات في كل وقت عدا الاقلاع والهبوط كما تعرف، وضحكت، ثم تابعت: لكن الرجال يكفّون عن الشرب لأسباب لا افهمها!

ـ جميع الرجال؟

ـ طبيعي الامر لا يخلو من وجود اناسٍ مذعورين، لا يكفون عن الشرب لحظة واحدة، وهناك رجال لا يعرفون كيف ينامون، لذلك لا يجدون شيئاً سوى أن يتغلبوا على السأم والأرق بأن يشربوا بين فترة واخرى.

ـ هكذا إذن عبر المحيط... وماذا في الرحلات الاخرى؟

ـ في الرحلات الاخرى تجد مزيجاً من البشر لا تعرف كيف اجتمع على طائرة واحدة، أو الى أين يذهب هؤلاء البشر، ولذلك ولكي يتغلبوا على الارتباك، وبدافع حب الظهور، يطلبون كثيراً من المشروب حتى لو لم يشربوه كله!

ـ غريبة هي تصرفات البشر!

ـ وفي الرحلات القصيرة لا يقتصر الأمر على الرجال، حتى النساء يشربن.

ـ والآن يا اليانور هل تحبين أن تشربي؟ لنعتبر رحلتنا قصيرة، وفي هذه الرحلة يشرب النساء والرجال!

ـ بالتأكيد سأشرب شيئاً.. ما دامت الرحلة قصيرة!

وشربت. شربت حتى أكثر مما قدّر، واكتشف انها أكبر سناً مما قدر في البداية. لاحظ ذلك اول الأمر من تجاعيد صغيرة في الجبهة، ثم من الاسنان الذهبية في داخل الفم، لكن اليانور ظلت زاهية وظلت تغني بطريقة مثيرة. كانت تضع رأسها على كتفه وتغني، وفي اللحظات الكبيرة، عندما تبدو لها الكلمات ذات معنى خاص، كانت تميل برأسها دون أن ترفعه عن كتفه وتنظر اليه بطريقة معينة ليفهم.

وفي تلك الليلة تأكد بيتر أنه يستطيع أن يفعل أشياء كثيرة رائعة.

كانت اليانور في البداية أكثر تألقاً منه، وكانت أحاديثها تتسم بذلك القدرمن الذكاء والنضوج، الأمر الذي افتقده اول ما بدآ الحديث، لكن شيئاً فشيئاً انتقلت الكرة اليه. اصبح يقودها في مسالك غريبة، حدثها عن سوهو والليالي الرائعة فيها، وتحدث معها عن ايام الشباب، وكيف كان يستطيع الركض لمدة ساعات دون أن يحس بالتعب، وهذا ما جعله يتحمل معسكر الاعتقال اكثر من غيره، لكن الأمر لم يستمر طويلاً بعد ذلك. حين وصل معها إلى هذه الاحاديث ترك لها أن تساعده في الوصول إلى تلوين اللقاء بينهما، أما الاحاديث الصعبة، احاديث الحرب وايام الموت البطيء، فقد مرّ عليها بسرعة، لما شعر أن عيني اليانور غامتا بالحزن وما يشبه رغبة التوقف ومغادرة المكان.

قضى مع اليانور يوماً كاملاً وليلتين، وفي هذه الفترة استطاع أن يجدد نفسه، وأن يشعر بدمائه تركض في عروقه. واليانور، رغم ثقتها الكبيرة، رغم انها تستطيع أن تقبل أو ترفض، كانت سهلة، وفي احضانه تحولت إلى قطة صغيرة، حدثته طويلاً عن كليفورنيا، والحت عليه أن يزورها هناك، وقالت انها تنام معه دون شعور بالذنب من أي نوع، رغم انها ستتزوج في الربيع القادم. حدّثها بكثير من الغموض عن باتريشيا، واعتبر أن الغموض الذي لجأ اليه لا يقتصر على هذا الأمر وحده، انه يتناول مهمته كلها، ولذلك يجب أن يكون متحفظاً، فلا يندفع إلى مواقف أو كلمات لا يريدها!

حين ودعها في اليوم الثالث تعلقت برقبته كالقطة، فعلت ذلك امام الطيار ومساعديه وثلاث من المضيفات، حتى أن احدى المضيفات صرخت بتلك الطريقة الاميركية المليئة بالاستغراب:

ـ اليانور... انك تفعلين شيئاً رائعاً.. تماماً كما تفعل ممثلات السينما!

قال بيتر لموظف الاستعلامات:

ـ لن أكون هنا طوال هذا اليوم، ولذلك ارجو أن تطلب من الذين

سيتصلون بي أن يفعلوا ذلك مرة اخرى.. غداً!

كان بيتر يعني الرجل الذي تحدث اليه في اليوم السابق، والذي تصرف معه بتلك الطريقة، كما طلب منه راندلي، وكانت تلك بداية الدخول في المهمة الجديدة.

(٦)

كان الرجل القصير، والذي يحمل عكازاً، مثلما قدر بيتر تماماً؛ كان وجهه يحمل مقداراً كبيراً من الغموض والعنف. فإذا بدأ يتحدث يمتلىء ذلك الوجه بالتجاعيد، حتى يصبح اقرب إلى الجلد الذي اكتسب ملامح لا تتغير بفعل الزمن والتعب، لـكن إذا بدأ يصغي لبيتر وهو يتحدث اليه فعندئذٍ يتغير وجهه فجأة، ينفرد كله وتزول منه التجاعيد، حتى ليبدو سائباً ليناً كأنه بلا ملامح. أما العينان فتنفتحان بطريقة آلية مثيرة ربما من الدهشة أو المرض أو من شيء آخر ينغل في الداخل.

في قاعة الفندق المطلة على البحر، وفي الطابق الأول، كان لقاء عارضاً. يتذكر بيتر الآن انه رأى في اليوم التالي لوصوله المرأة والرجل المسن، لم يتوقف طويلاً حين رآهما، كانا وجهين مثل عشرات الوجوه التي يلتقي بها الانسان في كل مكان، اما هذه المرة، فقد توقف لحظة، تظاهر انه يتأمل التحف في الخزانة الزجاجية القريبة من المدخل، مرا من امامه، نظرا اليه، اما هو فقد التفت عرضاً، وظلا فترة طويلة ينظران إلى وجوه هؤلاء الاجانب بطريقة توحي وكأنهما على موعد. شك بيتر كثيراً أن يكونا

هما اللذين سيلتقي بهما، لكن عند التاسعة، وفي بار الوردة، وبعد أن احتسى كأسين من الويسكي، الكأس الثانية منهما كانت مضاعفة، دخل الرجلان والمرأة. بدا له منظرهم اشبه بالكرنفال، القصير يدب وكأنه حيوان قطبي، والرجل المسن ينقّل عينيه كالذئب في الوجوه والأشياء التي حوله، اما المرأة فقد بدت جميلة مثيرة وهي تنزع معطفها الأخضر وتعطيه للرجل المسن.

تعمد بيتر أن يترك سجائره في الفندق، واشعل آخر عود ثقاب ورمى العلبة قبل أن يدخل الباب. خلال الدقائق الأولى طلب من الجرسون أن يأتيه بسجائر ونقده ثمنها ودفع له مبلغاً فوق الثمن، وحين تذكر انه لا يحمل ثقاباً طلب من الجرسون أن يأتيه بعلبة ثقاب، ونقده ايضاً مبلغاً جعل الكرسون لا يبتعد عنه، وينتظر اللحظة ليلبي له اية طلبات.

حين انتهت المغنية البرازيلية من غنائها صفق لها بيتر كثيراً. لم يكتف بالتصفيق وقف اكثر من مرة، وحمل كأسه تحية لها. أما الموائد الاخرى، حول بيتر، فقد ضاعت في دخان السجائر والضحكات واقداح الويسكي. نظر إلى الطاولة التي جلسوا اليها، لم تكن تبعد عن طاولته بأكثر من واحدة وحاجز اسمنتي بينهما يحجز قسماً من القاعة، لكنه يفسح مجالاً للمرور حوله من الناحيتين. لم يكن بيتر يريد مكاناً افضل من المكان الذي يجلس فيه، كان يستطيع أن يراقب الباب الخارجي بنظرة صغيرة يلقيها ناحية الشمال ليرى كل داخل وكل خارج، أما البار فقد صار عن يمينه، ولمدى واسع يستطيع أن يراقب الزجاجات التي تحمل إلى الطاولات القريبة، ويستطيع أن يقدر انواع المشروبات ايضاً!

بعد أن جلسوا، وكانوا مترددين، وقد ظهر ذلك واضحاً من التفاتهم الدائم نحو الباب، ومن حركات الرجل القصير العصبية، طلبوا زجاجة ويسكي. كاد بيتر أن يلعب لعبة التمرد، كاد أن يترك تلك الليلة تمر دون أن ينفذ التعليمات. اراد أن يختبر نفسه إن كان قادراً على أن

يترك الطريدة تبتعد ثم يأتي بها مرة اخرى. قال لنفسه: «قد لا تسير الأمور حسب ما نريد، ولذلك يجب أن نستعد منذ الآن إلى المفاوضات والانتظار وربما إلى اشياء اخرى لا ترد في البال» لكنه لم يترك نفسه يذهب بعيداً، انه لا يعمل لحسابه الخاص في الوقت الحاضر. يجب أن يقوم بـدوره كامـلاً، يجب أن ينفذ التعليمـات التي اعـطيت اليـه. وهؤلاء الناس. . . أليسوا هم بداية الطريق الصعبة؟ اذا افلتوا منه الآن يكون كمن اضاع مفتاح الكنز الوحيد الذي بـين يديـه. يجب أن لا يهمل كثيـراً. وفجأة استعاد توقده ونشاطـه. طلب كأسـاً مضاعفـة واستدار بكرسيه.

بدا له الرجل المسن وهـو يستخرج القـرنفلة من سترتـه يشمها ويعيدها إلى مكانها وكأنها اشارة البداية. استرق بيتر نظرة طويلة إلى المرأة، بدت طويلة قليلاً، اطول من باتريشيا، أما وجهها فقد كان ممتلئاً وشامخاً، ورنت منها في تلك اللحظة ضحكة لم يستطع بيتر أن يخفي فرحه بها. أما الرجل القصير فقد كانت عصاه تضرب الارض ضرباً منتظماً موصولاً، لكن هذا الضرب لا يسمع إلا اذا توقفت الموسيقى.

كانت البداية حين رنت ضحكة المرأة. تعمد بيتر أن يرفع كأسه حين رفعوا هم كؤوسهم، وظل كذلك ليشعرهم، بطريقة ما، انه التقط الخيط. تحدثوا فيما بينهم لحظة، التفت على اثرها القصير بانفعال ظاهر، ثم لما التقت بداية الخيوط ادار القصير كرسيه قليلاً، مما افسح لبيتر أن يرى وجه المرأة كله، وأن يقابلها تماماً.

بطريقة غامضة، لكنها تعتمد اصولاً لا تخطىء، بدأت اللعبة.

وعادت لبيتر لحظات من الحلم: أن يتمرد، أن يعود إلى اسماكه، أن يسافر إلى كليفورنيا ويلتقي باليانور مرة اخرى، أن يرى هذه اليونانية الغامضة والحزينة ويعرف هل تنتـظر بحاراً أو لا تنتـظر احداً! وفكـر بباتريشيا والصغيرتين، ماذا لو اكتشفت باتريشيا انه يقوم بدور قذر؟ ولكن ما هي القذارة؟ انه يقوم بواجبه. هكذا قالوا له في لندن وفي زوريخ، انه

يعمل من اجل الامبراطورية، وهل ينسى انه حاول تقديم دمه في الحرب من اجل الامبراطورية؟ كاد أن يموت، كان على ظهر السفينة حين ضربتها المدمرة الالمانية، اهتزت السفينة وكادت تغرق، وهو.. ألم يسقط ويتدحرج على طول المساحة التي تفصل بين المقصورة العليا وذلك الممر الذي يوصل إلى مؤخرة السفينة؟

رفع بيتر كأسه ليشرب وحده، لكنه بطريقة آلية ومشحونة تطلع نحوهم، كانوا ينتظرون تلك اللحظة، كانت المرأة أول من رفع الكأس، شربت مقداراً كبيراً، ورفعت عيناها، أو هكذا بدا لبيتر، وترافقت رفّات العينين بابتسامة مشرعة كأنها دعوة، أما الرجل القصير فقد كانت هزات رأسه اشبه بتحية، والرجل الأبيض الشعر فعل شيئاً مماثلاً لكنه اقرب إلى التمثيل، فقد هزّ رأسه عدة مرات كأنه يتحدث.

كانت تلك البداية، غنت بعدها البرازيلية مرة اخرى، وامتلأت القاعة الصغيرة بالدخان اكثر من السابق، وتقارب الناس بطريقة تدل أن احداً لا ينظر إلى احد، وقرر بيتر أن يبدأ.

حمل كأسه والبرازيلية تغني ولوح لها، دار حول نفسه مرة أو مرتين، ثم اقترب من الطاولة الأولى وقال بطريقة مسرحية:

ـ هل تقبلون ضيفاً غريباً؟

كان على الطاولة شابان وفتاتان، نظروا اليه بدهشة ممزوجة بالحيرة، لكنهم ترددوا في أن يقولوا كلمة واحدة، رفضاً أو قبولا. تركهم في حيرتهم والتفت إلى الطاولة الأخرى، ناحية اليمين، ثم التفت إلى ناحية اليسار...

انتظروا هم أن يأتي. لا شعورياً افسحوا له مجالاً. نظر بتأكد رصين اليهم، وكأنه يختبرهم للمرة الأخيرة قبل أن يتخذ قراره. تقدم خطوة، حركت المرأة كرسيها لتفسح له مجالاً بينها وبين الرجل القصير. تقدم خطوة اخرى، لم يبق بينهم سوى الخطوة الاخيرة. ابتسم، قال بنفس الطريقة المسرحية:

ـ هل تقبلون ضيفاً غريباً؟

قالها بطريقة قاسية وبصوت عالٍ ليسمع الذين حوله.

قال الرجل القصير:

ـ ونحن غرباء، يا سيد، ويمكن أن تتفضل!

وتقدم بيتر تلك الخطوة، فجأة، وكان لا يزال واقفاً، وضع كأسه على المائدة، ووضع يديه على كتفي الرجل القصير والمرأة. وبدا كأنه يتحدث اليهم بطريقة ودودة:

ـ لا يعرف الغريب إلا الغرباء!

ـ بالتأكيد.. بالتأكيد.

ـ ويمكن أن يكونوا اصدقاء.

ـ هذا ما نريده...

في تلك اللحظة كان الجرسون، الذي اعطاه بيتر كثيراً، وتحدث اليه عدة مرات، قد احضر له كرسياً ووضعه وراءه، حيث كان لا يزال يستند إلى كتفي المرأة والرجل، حتى اذا مسّ الكرسي ساقيه التفت بانفعال وكأنه احس بخطورة ما، لكن ابتسامة الجرسون وراءه انقذته، التفت، اعتدل في وقفته، قال الجرسون بتهذيب:

ـ هل استطيع أن اطلب لك كأساً جديدة؟

قال الرجل القصير:

ـ لكن زجاجاتنا لا تزال تنتظر، تفضل، يا سيدي، بالجلوس ولنشرب معاً كأساً.

حين جلس بيتر قال الرجل القصير:

ـ دعني، يا سيدي، أقدم لك اصدقائي: ميرزا محمد، رجل اعمال، السيدة شيرين عباس، أما أنا فاعتقد أنك تفضل معرفة الاسم الأسهل: عباس، اما اسمي كاملاً فهو رضا صفراوي عباس، واصدقائي ينادونني عباس!

قالت المرأة، وهي ترفع كأسها:

ـ لنشرب في صحة الرجل الذي لم يذكر بعد اسمه!
ضحك بيتر بصخب. قال بصوت عالٍ:
ـ سيدتي الجميلة تواسي الغرباء، تشرب قبل أن تعرف اسماءهم!
وشـربوا. بعد أن وضعوا الكؤوس على المائدة، قال بيتر:
ـ ماكدونالد بيتر... هذا هو اسم الرجل الغريب الـذي يجلس معكم الآن.
ـ ماكدونالد! ألم اخطىء يا سيدي؟
هكذا سأل الرجل القصير.
ـ نعم بيتر. م. ماكدونالد.
ـ من بريطانيا.. كما اعتقد؟
هكذا سأل الرجل الأبيض الشعر.
قال بيتر بفخر:
ـ من بريطانيا العظمى!
ثم تطلع إلى المرأة طويلاً وابتسامة ماكرة ترتسم على وجهه وسأل:
ـ والسيدة والسادة.. من اية بلاد غريبـة؟ وفي بيروت؟
ـ من احدى ممالك الشرق.

قال الرجل القصير ذلك بسرعة وضحك بارتباك. كانت كلماته آخر امكانية لاكتشاف القرابة التي قد تجمعهم أو تفرقهم. رفع بيتر كأسه وقال:
ـ لنشرب في صحة جميع الممالك والامبراطوريات.
وشربوا. اراد الرجل القصير أن يصب لبيتر، لكن بيتر رفع كأسه دلالة أنه ما زال في الكأس بقايا، ونظر إلى الرجل وغمزه.
قالت المرأة لتخلق جواً اليفاً:
ـ انتم... اقصد في سكوتلاندا، صنعتم الويسكي وتشربون بهذه الطريقة؟
ـ اية طريقة؟

سأل بيتر وابتسامة واسعة وعيناه تنظران اليها باستفسار.

ـ أن تشربوا كما يشرب الذين علمتوهم.

ـ كيف. . سيدتي؟

ـ هكذا.

دقت كأسها بكأس الرجل الاشيب بصخب، ورفعت إلى شفتيها كأساً مليئة حتى منتصفها، وحركتها للمرة الأخيرة قبل أن تشرب.

قال الرجل القصير وهو يرفع كأسه ويتكلم بوجهه كله، وبانفعال:

ـ أن نشرب الكأس حتى آخرها.

وشرب، وشربت المرأة والرجل الاشيب، أما بيتر فقد شرب من كأسه الجديدة كمية كبيرة، لكنه استبقى مقداراً في الكأس.

قالوا له في لندن، يجب أن تكف عن الشراب حين تجد أن الشراب اصبح لذيذاً. لا يريد أن ينسى هذا الدرس بسرعة، لو فعل ذلك لانساق وراء كؤوس اخرى، وعندها لن يستطيع أن يمنع نفسه، قد يتصرف بطريقة لا تليق بالمهمة التي جاء من اجلها. وماذا إذا كان هؤلاء الرجال يمثلون معه دوراً؟ ماذا إذا كانوا مرتبطين بجهة اخرى؟ الا يحتمل أن يكون بين الذين ارسلوا التعليمات من ارسلها ذاتها إلى جهات اخرى، وهذه الجهات تقوم معه بدورها؟ ماذا يقول لهم في لندن؟ ماذا يستطيع أن يقول لمستر راندلي؟ كان العرق يتصبب من وجه راندلي وهو يقوم بادواره التمثيلية. قال له بتأكيد حاد: «كل هذه التعليمات لا تفيدك شيئاً إن كنت غبياً يا مستر ماكدونالد. اعذرني إذا قلت هذه الكلمات، لكن يجب أن تعرف، ما نقوله الآن لا يتعدى أن يكون قواعد عامة، بوصلة، اما تطبيق القواعد، اما قراءة البوصلة، والوصول إلى الميناء الأخير، فيعتمد على القبطان. . . وأنت هناك القبطان. إحـذر من تداخل الخيوط، كن حذراً كالثعلب، وكن حريصاً كالذئب، وكن كثير الخوف كالأرنب، أنّ هذه الصفات لا تسيء. . لا تسيء ابداً، وسوف تفهم كل شيء اذا استعملت ذكاءك بالطريقة المناسبة».

وشربوا. . . وشرب معهم، وفي النهاية اصرّ الرجل القصير أن يدفع الحساب، لكن بيتر كان اسرع منه، وكانت استجابة الجرسون لبيتر سريعة وحاسمة حين وضع في يديه النقود. وتم الاتفاق على أن يلتقوا في اليوم التالي. . تماماً كما حدد له راندلي. وتأكد بيتر من كل التفاصيل.

(٧)

قال له موظف الاستقبال في فندق السان جورج وهو يناوله المفتاح:

ـ كانت لك مكالمة تلفونية من لندن، يا سيدي، وقالت المرأة التي تحدثت إنها ستتصل بك مرة ثانية في الصباح، في العاشرة، وترجو أن تنتظرها!

كان الموظف وهو يتحدث يدير بين أصابعه ورقة مطوية بعناية، لم ينتبه لها بيتر أول الأمر، لكن حين ضرب على طرف الحاجز الخشبي العالي الذي يفصله عن الموظف، وطلب منه أن يبعث إلى غرفته بكأس من الويسكي، لمح الورقة، قال وهو يهز رأسه:

ـ يجب أن تعلم أن الزوجات لا يتركن الرجال يعيشون بسلام أبداً!

ابتسم الموظف وناوله الورقة. استيقظ بيتر واتسعت عيناه، لم يرَ الابتسامة التي ارتسمت على وجه الرجل، قال وأفكار كثيرة تخترق رأسه:

ـ لا أحب رسائل الليل ابداً!

استدار قليلاً وفض الرسالة. نظر بسرعة إلى التوقيع ليتأكد، حين اطمئن أضاف وهو يخرج بضع ورقات مالية من جيبه ويضعها في يد

الرجل الذي يتابع المشهد بحياءٍ ممزوج بالمعرفة:

ـ شكرا لله إن زوجتي بعيدة بمقدار ثلاثة آلاف ميل!

وضحك، وضحك معه الرجل، ثم تابع:

ـ وطبيعي لن تستطيع أن تراني عبر الهاتف!

ـ بالتأكيد يا سيدي.

ـ وأنت. . لن تقول لها شيئاً.

ـ بالتأكيد. . سيدي.

ـ وسوف لا تنسى بأن ترسل إليّ قدحاً من الويسكي الآن.

ـ بالتأكيد سيدي.

ـ ولتكن مضاعفة.

ـ كما طلبت. . سيدي.

ـ تصبح على خير.

ـ تصبح على خير. . سيدي.

كانت رسالة ماتيلدا صغيرة:

«عزيزي ماكدونالد

مررت اليوم لاراك. كنت بحاجة شديدة إليك، آسفة إني كنت مشوشة وثقيلة تلك الليلة، أرجو أن تنتظرني غداً، سأكون في البار عند السابعة.

ماتيلدا»

إن شيئاً ما في هذه المرأة يجعلها لذيذة وغامضة في نفس الوقت، إنها تختلف عن اليانور في نواح عديدة، فالانسان لا يرتاح إلى حزنها وطريقتها في الحب، ثم إنها تحفظ تلك الاغاني المبتذلة التي يغنيها البحارة وبعض الاحيان اللصوص وقطاع الطرق.

قرأ بيتر الرسالة مرة أخرى. أعجبته فيها كلمة مشوشة وثقيلة. قال لنفسه «وماذا تريد مني هذه المرأة؟» وقرر أن لا يتركها تمر بسلام، حتى لو

كانت إمرأة خطرة، يجب أن يعرف ذلك ويتأكد منه، وبدأت صورتها تطفو في ذاكرته مرة أخرى:

«اليونان رائعة، كل شيء فيها رائع، لكن الانسان لا يستطيع أن يعيش فيها بسلام. آلاف اليونانيين يفضلون الحياة في الخارج، يريدون أن يأكلوا، وأن يظلوا في بيوتهم دون خوف من مداهمة البوليس في آخر الليل» توقفت ماتيلدا عند هذا الحد، وحين سألها بيتر أن تتابع قالت «إننا هنا لا نبحث عن الشقاء، ماذا لو غنينا، ألا تعتقد إن ذلك أجمل؟» وافق بيتر، جذبته بحة الصوت والنظرة المنكسرة، لكن أحس إنها تخفي عنه أشياء كثيرة، عكس اليانور التي تحدثت معه عن كل شيء!

أبعد ماتيلدا عن فكره، فعل ذلك بتصميم، قال لنفسه وهو يمزق الرسالة «كانت رائحة اليونان أثناء الحرب قذرة. رأيت بعض الجزر فقط، لكن كل شيء هناك لا يوحي بالاطمئنان، ثم ألا يتذكرون كيف أنقذتهم بريطانيا من اللصوص».

حين وصل إلى غرفته ذهب إلى النافذة. كان الليل والسكون. وكان يستطيع أن يرى النجوم إذا الصق وجهه بالزجاج تماماً، لكن انعكاس خيال النور الذي يتماوج لا يتركه يتابع رحلته. أحس أن باتريشيا تتابعه، إنها بعيدة وقريبة في نفس الوقت، وإلا لماذا تتصل به من لندن؟ ماذا تريد أن تقول له؟ ألا تستطيع أن تنتظر أو تكتب له ما تريد أن تقوله برسالة؟ ورشف من كأسه، وتذكر شيرين إنها لا تشرب مثله أبداً، وكانت رائعة عندما ثملت، كانت تضع يداً حول رقبة عباس وتمسك بيد ميرزا. كانت في لحظات كثيرة شهية، وبدا إنها تدرك مدى النظرات المحمومة التي يطلقها وتنزلق تحت جلدها.

كانت شيرين، بالقميص البني بازراره العليا المفتوحة، والتي يبرز من خلالها الجزء العلوي من النهدين، بيضاء متوردة، وكانت أقرب ما تكون إلى الضوء الناعم المسكوب بصلابة. راقبها كثيراً، وترك عينيه، حين كان ينظر إليها بجانبه، ترحل بعيداً. انحدر من الإذن وتوقف طويلاً

عند الصدر، عند فتحة القميص المنهدلة الكبيرة، وتعمد اكثر من مرة أن يحتك بها بطريقة لا يمكن أن تخطئها، وحين كان عباس يحاول أن يسترده، بين لحظة وأخرى، كان يضيق بحركاته أو بطريقته في الكلام.

قبل أن يستدير عن النافذة ويعود إلى وسط الغرفة نقر على الزجاج ثلاث مرات بنعومة وكان يقول لنفسه «هذه المرأة جزء من اللعبة، الجميع يعرف ذلك: الأعرج، صاحب الوردة القبيحة، وهي... والمستر راندلي يعرف ذلك أيضاً، وربما عدد كبير آخر يعرف» ثم نقر مرة أخرى، وكانت نقرة أقوى من المرات السابقة وفيها تصميم، وأضاف: «والمستر بيتر... ماكدونالد يعرف ذلك أيضاً».

وضع قدحه على الطاولة الصغيرة وسط الغرفة، وتمطى، أحس أنه لا يريد أن يتابع الشرب، لكن صورة شيرين ظلت تتابعه. تذكر المرة الأولى حين رآها، لم يكن متأكداً تماماً، كانت الوجوه بالنسبة له في اليوم الأول متشابهة لا يمكن أن يميز بينها بسهولة، أما المرة الثانية فقد رآها تماماً، إنه متأكد من ذلك، كاد أن يقول لها، أن يسألها، لكن في اللحظة الاخيرة تراجع، ربما كلمة من هذا النوع، لم يفكر فيها الانسان بالمقدار الكافي، توقعه في خطأ هو في غنى عنه.

قال له مستر راندلي بوضوح «البلاد التي ستذهب إليها مملكة للنساء، النساء يحكمن من وراء ستار، والمرأة بمقدار ما تستطيع أن تحكم، تستطيع أن تفتح أبواباً كثيرة، كما يمكن أن تقتلك، وتسد في وجهك كل الأبواب... لذلك يجب أن تقضي وقتاً في بيروت وتكتشف نساء الشرق. الاقامة في بيروت ضرورية لكي تتدرب!».

وهز بيتر رأسه دلالة الأسف، إنه لم يعرف الشرق بعد. والمرأتان اللتان توقفتا معه حتى الآن لا يمكن أن تعتبر ذات صلة بالشرق، قال وهو يقذف قميصه على السرير الآخر، قبل أن يذهب إلى الحمام «لو عرف راندلي أني في بيروت أطارد الأميركيات واليونانيات لشنقني..».

وأضاف وهو يخطو نحو الحمام:

«وباتريشيا. . . ماذا تريد بحق الشيطان؟ ماذا ستقول عن النظارات الطبية والشاربين؟»

كان بيتر مشوش الذهن تتنازعه رغبات متناقضة، وكان يدرك أن بداية النجاح في المهمة الجديدة أن يسيطر على شيرين، أن يمتلكها بطريقة ما. إنه يستطيع، وشيرين أعطته أكثر من دليل على أنه يستطيع ذلك، وإلا لماذا تقدمت معه بعض الخطوات حين كانوا يغادرون البار وشدت على يده بتلك الطريقة؟

وانفجر وجه عباس. كان وجهاً قميئاً متداخل المعالم؛ أنفه كبير وكذلك شفته السفلى، أما عيناه فلم يستطع أن يميز لونهما، ولكنهما كانتا عينين متعبتين، ورقبته، رغم ضخامتها، كانت سريعة الحركة. وشيرين: كانت أطول من عباس قليلاً، طويلة مليئة، وكان ردفاها عاليين، أما شفتها السفلى فقد كانت تسلية لذيذة لها طوال الفترة التي قضاها معهم. كانت تحرك الشفة، تمصها، تتركها تنهدل بانسياب، تزمها بنزق، لكنها في كل حركة كانت تدرك أنها تفعل ذلك بإثارة فيها مزيج من الشهوة والتحدي. وميرزا، إنه طفل كبير، يضحك بصخب، يحرك رأسه أكثر مما ينبغي دلالة الفهم، وعيناه. . أعجب شيء في وجه ميرزا عيناه. كانتا لا تتوقفان لحظة واحدة، كانتا تتحركان بتلك الطريقة الدائرية وكأنهما مربوطتان إلى الداخل برقاص، كانتا تتأرجحان، تركضان بلا توقف وبلا هدوء، وحين يوجه إليه سؤال تخف حركة العينين لحظة قصيرة لكن المحجرين يتسعان.

ليست هذه المرة الأولى التي يجلس فيها مع بشر من الشرق، لقد سبق له أن التقى مع عدد من الناس، من الباكستان والهند وماليزيا، وكانت له علاقة صداقة مع اثنين من اليابانيين وآخر من افغانستان. . «أما هؤلاء فلا أتذكر إلا اثنين أو ثلاثة مروا بالصدفة، ورغم الأحاديث، ورغم إننا تبادلنا بطاقات الأسماء والعناوين، فلا أستطيع أن أدعي معرفة أو صداقة من أي نوع يا مستر راندلي» ويجيب مستر راندلي «ولكن أنت

الذي وقّعت عقداً مع شركة نيوزلينندية، يـا مستر بيـتر» «نعم مستر راندلي» «كان بين من يمثلون الشركة اشخاص من هذه المنطقة، أنسيت ذلك يا مستر بيتـر؟» «آه.. أعذرني يا مستر راندلي.. نعم كان بينهم بعض الاشخاص الشرقيين لكن لم أعد أتذكرهم، حتى لو رأيتهم الآن. لقد مضت ثلاث سنوات على ذلك» «إنهم أصدقـاؤنا، وسـوف تراهم هناك» «قد لا يعرفونني يا مستر راندلي» «ولكن هؤلاء الشرقيين لا ينسون أبداً، ليس الامر هكذا فقط، مجرد أن يلتقوا بإنسان رأوه من قبل مرة واحدة يعتبرون أنـه أصبح صـديقاً لهـم. ويتصـرفون معـه على هـذا الاساس، يجب أن تنتبه كثيراً يا مستر ماكدونالد» «سأفعل ذلك، بالتأكيد سأفعل ذلك يا مستر راندلي».

قال بيتر لنفسه بعد أن فرغ من حمامه، ودخل إلى الفراش «وماذا إذا كانت هذه الشرقية مريضة..؟ إنهم هنا في الشرق مستودع للأمراض من كل نوع. وفي هذه المدينة كم من البحارة والمسافرين مروا من هنا؟ وكل واحد من هؤلاء يتوقف، يقضي ليلة مع إمرأه. ماذا تفيدني إمرأة من هذا النوع؟ كان يجب أن أتصرف بحزم مع المستر راندلي، إن هذه الأمور لا تدخل أبداً في نطاق العمل، وأية اقتراحات من هذا النوع كان يجب أن ترفض بحزم» وعادت إليه صورة شيرين، قال لنفسه وهو يطفىء النور «سأقطع شفتي هذه المرأة.. إن لم يكن هنا في بيروت فهناك.. وإذا لم يكن الآن ففي وقت آخر.».

ويتذكر بيتر إنه حلم بهذه المرأة، وإنه عض شفتها السفلى حتى أدماها، ويتذكر إنه لعق الدم بلذة، وإن شيرين كانت تضحـك بلذة أيضاً؟

(٨)

كان النهار مشمساً رائعاً على شرفه السان جورج المطلة على بحر شديد الزرقة والسكون. من بعيد كانت تبدو الجبال الخضراء الداكنة مجللة بغيوم صغيرة متفرقة. الحركة على الشرفة عادية لا صاخبة ولا ميتة. كان عدد من نزلاء الفندق والضيوف قد اتخذوا أماكنهم على طاولات متباعدة، يقرأون صحف الصباح، أو يتناولون بعض المشروبات. أغلبهم لم يكلف نفسه عناء ارتداء ملابس رسمية، وهذا ما فعله بيتر، فقد ارتدى قميصاً ملوناً وضع فوقه كنزة مفتوحة، واكتفى ببنطال ازرق داكن، أما النظارة الطبية فلم يتذكرها إلا حين نزل إلى صالة الفندق، مما اضطره إلى العودة مرة أخرى، إلى الغرفة لاحضارها.

حين نظر إلى ساعته وجدها تجاوزت العاشرة ببضع دقائق، لكنه تمهّل قليلاً ليعطي لنفسه أهمية إضافية، وليشعر زواره بهذه الأهمية. أما موظف الاستقبال فكان شخصاً غير الذي رآه في الليلة الفائتة، تقدم منه بيتر، كان الموظف يتحدث إلى أحد مواطنيه، لكن بيتر أشعره إنه يريده التخلص بسرعة من ذلك الشخص ليلتفت إليه. كان الموظف شاباً صغيراً

لا يتجاوز الخامسة والعشرين، ابتسامة كبيرة متقنة، حركات سريعة فيها استجابة واضحة، قال بيتر ويداه ترتاحان على الحاجز الخشبي:

ـ ماكدونالد. . . رقم الغرفة ٣٠٥، ستأتيني مخابرة من لندن قبل ظهر هذا اليوم. سأجلس في الشرفة، أرجو أن تجد من يخبرني حين وصول هذه المخابرة.

ـ بكل تأكيد. . يا سيدي.

هز بيتر رأسه، شعر الموظف وكأن بيتر لا يثق بكلامه بالمقدار الكافي، سأله بتهذيب زائد.

ـ هل استطيع يا سيدي معرفة المكان الذي ستجلس فيه؟

ـ في الشرفة!

ـ لكن أين؟ في أي مكان من الشرفة؟

اعتدل بيتر في وقفته، تطلع حواليه ليتأكد أن أحداً لا يراه أو يراقبه، فلما اطمأن قال:

ـ كيف تنظرون إلى الشرفة؟

ـ تقصد أين هي الشرفة، يا سيدي؟

ـ لا. . هل تنظرون إليها حسب الجهات الأربع أم بطريقة أخرى؟

ـ لا أفهم بالضبط ما تقصده. . يا سيدي.

ـ هل تفهم الانكليزية جيداً؟

ـ كما ترى يا سيدي.

ـ تعال معي إذن لاريك أين سأجلس.

دق الموظف جرساً من تلك الاجراس القديمة، كان أمامه، فجاء أحد العاملين في الفندق، وبطريقة متعالية طلب الموظف، كما فهم أو قدر بيتر، أن يرافق المستر. . ليرى أين يجلس.

وبطريقة فيها من الازدراء والاسف ما عبرت عنها هزات الرأس سار بيتر، كان يقدر أن أصدقاءه قد وصلوا، وحين تعمد أن يتأخر بضع دقائق، لم يكن محرجاً، أما حين لم يجدهم، ووجد أن أي مكان في الشرفة

مناسب لأن يجلس فيه أشار إلى العامل إنه سيجلس في أقصى مكان، قريباً من البحر.

قال له راندلي «لا تظهر احتراماً لهؤلاء الشرقيين، إنهم يحبون من يعاملهم بقسوة. دعهم يفعلون أشياء كثيرة من أجلك، إنهم يحسون بالرضى حين يفعلون ذلك. أما إذا كنت بسيطاً متواضعاً فسوف تجدهم وقد تسلقوا على كتفيك.»

كان يتوقع أن يجدهم «أين هم إذن؟»، وبدأت الشكوك تساوره. ماذا لو قبض عليهم؟ ماذا لو أنهم خافوا من لقائه؟ ألا يحتمل أنهم جميعاً كانوا مراقبين ليلة البارحة وفضلوا أن لا يأتوا هرباً من المراقبة؟

وعاد يتذكر كلمات راندلي «وماذا أيضاً يا مستر ماكدونالد؟ هؤلاء الناس لا يعرفون معنى للزمن، يكذبون كثيراً، يعدون كثيراً، إذا لم تكن حازماً هربوا منك كما تهرب الاسماك، يجب أن لا تتعب من ترداد الاشياء البسيطة أمامهم مرات كثيرة، حتى تتأكد أنهم فهموا، ليس ذلك كل شيء، يجب أن تحدد كل ما تريد بنفسك، حتى التفاصيل الصغيرة التي تعودت أن تتركها لمساعديك، يجب أن تهتم بها، إذا لم تفعل فإن هؤلاء يخلقون لك متاعب كثيرة.»

كان بيتر موزعاً بين الجبال الخضراء التي يراها إلى يمينه، وبين البحر المسكوب أمامه، وكان بين لحظة وأخرى ينظر إلى مدخل الشرفة، ليتأكد أن هؤلاء الناس الذين التقى بهم الليلة الفائتة لازالوا أحياء، وإنهم سيأتون.

حين ظهروا من باب الشرفة تعمد أن يتجاهل ذلك، أشاح بنظره ناحية البحر، أما حين اقتربوا فقد تظاهر انه ينتبه فجأة. نظر إلى ساعته فترة أطول مما تستغرقه الرغبة في معرفة الوقت، كان يريد أن يشعرهم انهم أخطأوا، وأنه انتظر أكثر مما يجب، ولم يقف إلا في وقت متأخر، إذ لم يبق بين طاولته وبينهم سوى مسافة قصيرة!

قال عباس باعتذار مبالغ فيه:

ـ يجب أن تدرك، مستر ماكدونالد، في أية ظروف يعيش الانسان. إنه في هذه المدينة لا يستطيع التحكم بأي شيء.

تجاهل بيتر هذه الكلمات، وأعطى نفسه، منذ اللحظة الأولى، لشيرين، قال بطريقة مفخمة:

ـ اسعدت صباحاً. . . سيدتي الجميلة.

ومد إليها يديه الاثنتين. شعر أن شيئاً في وجهها يتغير، ربما من الخجل أو الارتباك.

ردت شيرين وهي لا تعرف إن كان عليها أن تتقدم قبل أن يتقدم عباس وميرزا أم عليها الانتظار حتى يتضح الموقف:

ـ نحن آسفون للتأخر.

ـ لقد شربنا كثيراً الليلة الفائتة، وأفهم لماذا يتأخر الانسان!

قال هذه الكلمات ونظر إلى ميرزا محمد. كان هذا يتلفت حواليه، وعيناه تدوران بتلك الطريقة الموغلة بالحذر، قال ميرزا:

ـ كان يجب أن نذهب إلى مكان بعيد عن الفندق، ونغادر السيارة هناك، ثم نأخذ سيارة أخرى. لم نقدر الزمن الذي تستغرقه رحلة من هذا النوع، لكن احتياطاً مثل هذا كان ضرورياً!

قال بيتر بكثير من التبسط واللامبالاة:

ـ ادرك هذا أيها السادة. يجب أن نبدأ يومنا بالسعادة. . ماذا تظنون؟

دفع عباس عصاه، وقد شعر أنه وجد مخرجاً. أزاح بيد واحدة كرسياً لشيرين لكي تجلس، أما هو فقد ذهب إلى الناحية المقابلة من الطاولة، وبرجله دفع الكرسي إلى الوراء، وجلس، وجلسوا!

كانت شيرين في ثوب أزرق، وتضع فوقه معطفاً دون أن تلبسه، وعلى شعرها وضعت شالاً صغيراً بلون يتناسب مع المعطف الرمادي، وكانت تضع نظارات سوداء كبيرة، بدت في ذلك الصباح وكأنها خرجت لتوها من حمام ساخن، كانت بشرتها رقيقة، ووجهها متورداً، أما شفتها

السفلى فقد تركتها فترة سائبة، فظهرت ممتلئة سخية، ثم بدأت تغزل لسانها فوق الشفة، حتى عادت إلى طريقتها في الليلة الفائتة. أما عباس فقد ظهر هذا الصباح أكثر سمنة مما قدر بيتر حين رآه في المرة الأولى. كانت الحمرة في عينيه تغلب على أي لون آخر، ووجهه متقلص من الأرق أو من حالة مرضية. الوحيد الذي كان زاهياً، كما في الليلة السابقة، ميرزا، كان شعره الأبيض لا يدل على عمره، فقد بدا في ضوء النهار كتلة من البياض، وبدا قوامه مشدوداً، ووجهه واضحاً متماسكاً، أما عيناه، فقد راقتا كثيراً لبيتر، حتى إنه تعمد أن يراقب هاتين العينين ليتأكد إن كانت تدلان على ذكاء أم خبث أو شهوة!

قالت شيرين لتبدأ حديثاً:

ـ هل نام المستر ماكدونالد نوماً مريحاً جيداً؟

ـ وماذا تظنين إذا كان الرجل بعيداً عن المرأة. . . أقصد عن زوجته؟

قالت شيرين بخجل.

ـ أقدر ظروف الرجال الذين يسافرون وحيدين!

قال ميرزا:

ـ الأفضل أن يسافر الانسان دون زوجة وأولاد، إن الزوجة والاولاد يخلقون متاعب أكثر مما يدخلون البهجة إلى القلب.

قال عباس:

ـ الافضل أن يسافر الرجل وحيداً.

وضجوا بالضحك. كان ضحكاً مبالغاً فيه، لأن شيرين عضت على شفتها بسرعة. كأنها نادمة أو راغبة بشيء ما.

قال بيتر:

ـ هل أفهم أن المستر عباس نادم؟

ـ وهل استطيع أن أندم في مثل هذه الظروف؟

قالت شيرين بدلع:

ـ كان من السهل أن أبقى هناك.

- شيرين.. أنت تعرفين أن لا أحد يأتي في هذا الوقت ليقوم بسياحة!

- أقصد إن السفر مع الزوجة لا يزعج أحداً.

قال ميرزا:

- شكراً لله إن أولادي أصبحوا كباراً ولا يحبون السياحة مع والدهم!

وضحكوا مرة أخرى!

قال له مستر راندلي «لا تخف من مغازلة المرأة أبداً، وهم لن يغضبوا. أمام الناس تمثلون دوراً كل ما فيه الصخب والثراء والجنس والخمر، لا تخطىء يا بيتر، إذا حاولت أن تكون جدياً أكثر مما ينبغي خسرنا الكثير. أنتبه لما أقول لك.»

وطلب بيتر لشيرين كأساً من الجن. اعترضت في البداية، لكنه أقنعها إن كمية الليمون أو التونك في الكأس ستكون كبيرة لدرجة يمكن أن توهم نفسها بأن ما تشربه ليس له علاقة بأي نوع من أنواع الخمور. أما لنفسه فقد اقترح، وبصوت عالٍ، البيرة، وكان يظن أن السيدين سيشاركانه في طلب البيرة أيضاً، لكنه فوجىء أن عباس طلب لنفسه كأساً من الويسكي، وظل ميرزا حائراً فترة من الوقت، ثم قرر أخيراً أن يشارك عباس، ويطلب الويسكي أيضاً.

قال عباس برصانة أفسدت معالم وجهه تماماً:

- لقد تعودنا، يا مستر ماكدونالد، أن نتغلب على الغثيان وضعف الشهية والدوار بأن نواصل الشراب منذ ساعات الصباح الأولى، من يرنا نشرب الويسكي، في مثل هذا الوقت، يظن إننا حمقى.. لكن من يجرب هذه الطريقة يجد أنها علاج لأمراض وحالات كثيرة!

بدا الاستغراب على وجه بيتر، إنه الآن يسمع فلسفة جديدة. قال لنفسه «هذا الشرق يخلق لنفسه أوهاماً ويعيش فيها» سأل ميرزا ليتأكد إن كان يشارك عباس بهذه الفلسفة:

ـ أظن إنك توافق مستر عباس على هذه النظرية!

فوجيء ميرزا بالسؤال، دارت عيناه دورات إضافية وكأنه يستعد لموقف صعب، وبعد انتظار وتردد قال:

ـ سمعت عن هذا كثيراً، لم أجرب الويسكي قبل الساعة الثانية عشرة، أما البيرة فقد شربتها مرات كثيرة، وهي فعلاً تساعد على خلق التوازن!

ـ لماذا إذن تريد الويسكي الآن؟

ـ كل شيء جديد رائع، التغيير يا مستر ماكدونالد... نعم التغيير، ثم لا أريد أن أترك مستر عباس يشرب الويسكي وحيداً.

ـ وتتركني أشرب البيرة وحيداً؟

قالت شيرين بدلال وخبث:

ـ أنا التي سأشاركك، ألا تريد مشاركتي؟

ـ لا أحلم بأحلى من هذه المشاركة، من هذا الاتفاق الرائع!

بدأوا يشربون، وحين طُلب بيتر إلى التلفون كان قد انتهى من زجاجة البيرة الثالثة، وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة والنصف. شيرين لم تشرب غير كأسها، أما السيدان فقد طلب كل منهما كأساً جديدة.

قال ميرزا وهو يفرغ بقايا كأسه الأولى في الكأس الجديدة:

ـ دعني أقول يا سيد عباس إن العلم هو التجربة، وبعد اليوم لن انتظر واتعذب حتى الثانية عشرة لأشرب مرة أخرى، سأشرب قبل ذلك، ولن أندم.

ضحك عباس بصخب، وكأنه كسب رهاناً ورد بسرعة:

ـ ألم أقل لك ذلك؟

ـ يجب أن يغيرّ الانسان كثيراً من عاداته، إن التغيير حياة جديدة!

حين عاد بيتر وقف بين شيرين وميرزا، نظر إلى البحر وإلى الجبال، وبدا إنه يحاول خلق جو معين، فلما نظروا إليه وطال سكوته، هز رأسه

وقال:

- كل شيء أصبح قريباً، وكل شيء بعيد في نفس الوقت، تصوروا... كنت اتحدث الآن مع لندن وكأني أتحدث معكم، كان الصوت واضحاً والكلمات تنسكب في أذني كأنها تأتيني من الغرفة المجاورة، ومع ذلك..

ومد جسده، لامس وسطه كتف شيرين، وهو يلتقط كأس البيرة ليشرب واقفاً، ولكي يستطيع أن يتابع حديثه. بدا لهم وهم يسمعونه كأنه يخفي مفاجأة من نوع ما، ظلوا صامتين، رشف من كأسه رشفة كبيرة، وتابع:

- لكن بمقدار الشمس الساطعة هنا، بمقدار الدفء، فإن لندن تغرق الآن في مطر لم تشهده منذ سنوات بعيدة.

واستدار على مهله، ربت على ظهر عباس ثم جلس بهدوء وقال:

- نعم.. الاشياء قريبة وبعيدة في نفس الوقت!

اثّرت كلمات بيتر بميرزا، وجدها كلمات كبيرة خارقة، قال:

- سبحان الله.. سبحان الله(*).

وغرق ميرزا في تأمل مثالي عميق، قالت شيرين لتوضح الموقف:

- مستر ميرزا يؤكد أن هذه الاشياء من فعل الله.

ضحك بيتر بسخرية وهو يهز رأسه، التفت إليه ميرزا وكأن الضحكة جرحته، قال بيتر مستدركاً:

- طبيعي كل شيء من فعل الله، لكن تصوروا مدى الفرق بين بيروت ولندن!

استرد الجميع انفاسهم، وتذكر بيتر كلمات راندلي «هؤلاء الشرقيون بمقدار ما يظهرون من البساطة فإنهم غامضون، لا تعرف ما يدور في رؤوسهم، إنهم يفعلون الشيء ونقيضه. دعني من كل ما يفكرون فيه، إن كانوا يفكرون، المهم أن تحافظ على الاشياء المقدسة، إذا

(*) قال هذه الكلمات بالعربية.

التقيت بواحد لا يشرب فلا تحاول أبداً أن تذكر الخمر أمامه. إذا وجدت واحداً مؤمناً فيجب أن تظهر إيمانك العميق. إذا دخلت إلى أماكنهم المقدسة فاحذر أن ترتكب خطأ أو حماقة، إن هؤلاء الناس يقدسون مظاهر كثيرة، ونحن نعرف باعماقنا مدى سخافتها، لكن يجب أن نجاريهم بالمقدار الضروري. ولا تبالغ كثيراً يا مستر ماكدونالد. هل فهمتني يا مستر ماكدونالد؟» ويتذكر بيتر أن راندلي لم يمهله لكي يجيب، أضاف بلهجة حزينة «أنا متأكد إنك لم تفهم كلمة واحدة مما قلت لك، وسترتكب حماقات كثيرة.».

حين أصرّ بيتر أن يشربوا كأساً جديدة قال عباس بصرامة وتباهٍ:

ـ لن نذوق هنا قطرة واحدة، يجب أن ننتقل إلى مكان آخر.

وتغيرت لهجته وأضاف.

ـ سنذهب إلى مكان تناولنا فيه الغداء قبل ثلاثة أيام.

واستدرك بطريقة مغرية:

ـ وقد احبته شيرين كثيراً.

وقّع بيتر ورقة الحساب ووضع فوقها مبلغاً من النقود، وخرجوا.

(٩)

كانت الايام الثلاثة الاخيرة في بيروت أيام عمل، التقى بيتر خلالها بعباس وميرزا وشيرين. المرة الأولى في وسط بيروت، في إحدى العمارات الكبيرة القريبة من البحر، أما المرتان التاليتان فكان اللقاء في بيت جبلي، وانضم إليهم في اللقاء الأخير شخص قدم لبيتر باسم أشرف آية الله.

قال له راندلي «لن أقول لك الكثير عن الرجال الذين ستلتقي بهم في بيروت. إنهم، بكلمات، أصدقاؤنا، لكن هذا لا يعني أن نسلّم بكل ما يقولون، يجب أن نكتشف الطريقة التي يفكرون بها، العلاقات الحقيقية التي لهم. لقد قالوا لنا الكثير، لكن هؤلاء الشرقيين يتكلمون كثيراً، يعدون، يحلمون كثيراً، وهم أيضاً كسالى ويفضلون أن يظلوا في أماكنهم ولا يفعلون شيئاً، يجب أن نتأكد يا مستر ماكدونالد.»

ـ لنقل أن الأمور سارت كما يجب، يا مستر ميرزا، كم تقدر المدة التي نحتاجها؟

ـ لن تكون المدة طويلة!

ـ شهر. . شهران. . كم تقدر؟

ـ ربما كذلك.

ـ وهل يحتمل أن تطول أكثر من ذلك؟

ـ لقد رتبنا كل شيء، نحن نحتاج فقط إلى معونتكم. وأية معونة نحتاج؟ يجب أن تستعملوا القوة. إن نزول أول مجموعة من الرجال على اليابسة كافية لسقوط هذا العجوز، ألا تظن ذلك يا سيد عباس؟

ـ ربما. لا... بالتأكيد... بالتأكيد!

قال بيتر بنفاد صبر:

ـ ولكن ما نريده شيئاً آخر أيها السادة...

التمعت عينا ميرزا وبدأتا بالدوران القلق السريع، إن شيئاً ما لا يسير كما يجب، وإلا كيف يتصور هذا الرجل أن الأمور ستسير؟ أما عباس فقد مد رجله السليمة على طولها، وكأنه وقع في بحيرة من اليأس. خيّم الصمت فترة تعمدها بيتر لتستقر كلماته في عقولهم، وبعد ذلك تابع:

ـ التدخل... إنزال قوات، لا نفكر فيه الآن، ما نريده شيئاً آخر.

ـ شيء آخر؟

هكذا سأل عباس باهتمام:

قال بيتر بهدوء:

ـ ما نريده الآن الزمن. نعم الزمن؛ توقف قليلاً، غيرّ لهجته وتابع:

نريد تحويل الزمن إلى عنصر يعمل لمصلحتنا؛ إنه الآن يعمل لمصلحتهم. كيف نستطيع أن نغيرّ الزمن؟

سأل ميرزا باهتمام:

ـ أفهم يا مستر ماكدونالد إن شيئاً ما يتم تحضيره، وإن ما نحتاج إليه هو الوقت؟

ـ نفترض ذلك.

قال ميرزا بأسى:

ـ ما هو الزمن؟ عشر طلقات مدفعية ومائة جندي، هذا هو الزمن. إذا فكرتم بشكل آخر تخطئون كثيراً، لقد خسرتم كل شيء، وخسرنا معكم، وحان الوقت لأن تفهموا ذلك.

ـ لن أبحث الآن يا مستر ميرزا بالجنود والمدفعية والطلقات، إن الأمر أكثر تعقيداً مما تتصور، ثم ألا تظن أن طلقة واحدة من مدمرة تكفي لأن تجمع الناس حول هذا العجوز مرة أخرى؟

ـ دفعة صغيرة في ظهر العجوز تكفي لأن ترميه على الأرض، لا أحد معه الآن، إنه يحارب بهذا الذئب الذي يمد لسانه كما تمد الحية لسانها، يحرض الناس، يتكلم ببذاءة، يشتم، يصرخ في الشوارع، يسافر إلى كل مكان ولا يفعل شيئاً سوى الشتيمة. إن أول طلقة، أول جندي ينزل على اليابسة سيجعل الناس يهربون، كل واحد يريد النجاة برأسه، وسوف ترى بعينيك كيف يسقطون!

ـ قالوا لي في لندن إن الأمور تختلف عن ذلك كثيراً.

ـ تختلف عن ذلك؟

ـ لنفترض إن الأمور كما تقولون، لكن الطلقات والجنود. . .

ضحك ميرزا، قال وعيناه تتسعان من الثقة والمعرفة:

ـ من خبرتي، أفهم إن الأمر يحتاج إلى تحضير، لكن لنتفق على هذا الشيء يا مستر ماكدونالد.

ـ لنتفق على شيء واحد الآن: ما نحتاج إليه هو الزمن كيف نستطيع أن نضعهم في جوٍّ نوحي لهم فيه أن الأمور تسير بسلام، واننا سنصل معهم إلى نتائج، هذا ما أقوم به الآن أيها السادة، وغير ذلك لنتركه إلى وقت آخر.

ـ الناس، جميع الناس، معنا يا مستر ماكدونالد، صحيح أن هناك مجموعات صغيرة من المشاغبين مع هذا العجوز، لكن هؤلاء جبناء، يخافون كثيراً من أصوات الرصاص، وإذا رأوا جندياً أجنبياً يؤدون له التحية وهم يرتجفون. يجب أن تفهموا ذلك يا مستر ماكدونالد!

ـ أفهم ذلك يا مستر ميرزا، لكن كيف نستطيع أن نجعلهم يظنون اننا نريد الوصول إلى إتفاق معهم؟

ـ كل محاولة إتفاق، كل كلمة من هذا النوع، يا مستر ماكدونالد،

تجعلهم أقوى. سيقولون للناس «اتفقنا، نحن في طريق الاتفاق، انتظروا، اصبروا ولا تخافوا من شيء» هذا الامر يا مستر ماكدونالد يجعل اقتلاعهم بعد ذلك صعباً، إنهم كالسوس يضربون في كل مكان. إذا تركناهم أكثر، إذا وعدناهم بالاتفاق، فسوف نصبح غرباء وغير قادرين على شيء، يجب أن ترسلوا قواتكم فوراً!

قال عباس:

ـ إذا كنتم تريدون وقتاً لتحضير شيء يصبح الأمر مفهوماً، أما إذا كنتم تتصورون شيئاً آخر فإن الحالة ستسير نحو الأسوأ!

ـ قال له راندلي «لا تقل لهم شيئاً نهائياً، إنهم عنيدون، إذا تصوروا ان لنا رأياً غير رأيهم فسوف يصبحون خصوماً لنا، دعهم يظنون أن ما يقولونه وحده الصحيح، لكننا وحدنا سنفعل ما نراه ضرورياً وصحيحاً. ماذا أعني يا بيتر: قل لهم أن أفكارهم هامة جداً، وستنقلها فوراً إلى لندن، وإن الرد سيكون إيجابياً وسريعاً، لكن إلى حين وصول الرد ما رأيكم، أيها السادة، أن نبدأ معهم المفاوضات؟ إذا قالوا لا، قل لهم ماذا نستطيع أن نفعل لأجل تعقيد الموقف بيننا وبينهم غير أن نجلس معاً ونتكلم قليلاً لنختلف..؟ دع عشرات الأفكار ترد إلى رأسك، إذا لم يقبلوا هذه الأفكار ستجد غيرها. ستجد فكرة يتقبلونها».

ـ أفهم رأيكم أيها السادة. نحن متلهفون أكثر منكم لأسقاط هذا الرجل الخطير، لكن ألا تتصورون بأننا نحتاج إلى بعض الوقت؟

قال ميرزا بانفعال:

ـ الأمر لا يتعدى مئات من الجنود. وهم موجودون على مسافة أميال من الشاطىء، خلال ليلة واحدة يمكن أن يكونوا على اليابسة... وينتهي كل شيء.

ـ ولكن ماذا لو فشل هؤلاء الجنود ألا تظن أن الأمور ستتعقد أكثر؟

ـ ولماذا يفشلون؟ هل يفشل الذين خاضوا المعارك الكبرى وانتصروا فيها؟ إن ضربات أقدام الجنود من بعيد تجعل الأرض ترتج تحت هذا

العجوز. تعالوا أنتم. . ونحن سنكمل الباقي!

ـ بالتأكيد ستفعل لندن ذلك، لكن لنحاول معهم شيئاً خلال بعض الوقت.

ـ لكن متى يا مستر ماكدونالد متى؟ إننا لا نستطيع الانتظار أكثر من ذلك!

قال عباس بانفعال ولينهي النقاش:

ـ لنقل خلال شهر أو شهرين!

قال ميرزا:

ـ لماذا شهر أو شهران؟

قال بيتر وهو يبتسم.

ـ لقد سألتكم في البداية، أيها السادة، كم نحتاج من الوقت لاسقاطه، قلتم شهرين. . أليس كذلك؟!

ـ ولكن كل يوم يمر على هذا الثعلب يجعل الأمر أكثر صعوبة.

قال ميرزا ذلك وعيناه تدوران بسرعة أكثر من السابق، وكأنه اكتشف أمراً لم يكن يتوقع أنه قادر على اكتشافه، لما اطمأن أن فكرته أصبحت واضحة ومقنعة سأل بلهجة فيها تحدٍ:

ـ ماذا تقول يا مستر ماكدونالد إذا كنت مع القوات التي ستنزل؟

ضحك بيتر، وقال بصخب:

ـ أنا لم أطلق منذ وقت طويل طلقة واحدة. لا أستطيع أن أقول شيئاً حول الموضوع. دعونا نشرب قليلاً لنفكر بطريقة أفضل.

راقت الفكرة كثيراً لعباس، كان بحاجة ماسة لمثل هذا الاقتراح. إن كأساً واحدة الآن تغيِّر الجو وتولِّد توقداً في الذهن يجعل كل شيء ممكناً.

لم تنتظر شيرين، فبعد الوجوم الذي خيّم عليها طوال هذا الحديث، وحاولت خلاله الانشغال بأمور عديدة، نهضت بحيوية، دارت حول نفسها دورة كبيرة فرحة وقالت قبل أن تنطلق:

ـ إن كأساً من الويسكي الآن تخلق منكم رجالاً من نوع آخر. . .

وانحنت بطريقة مسرحية مع هزات رأسها. وتابعت ويدها ممدودة إلى الأمام ولكنها مبسوطة ومتسائلة في نفس الوقت:

ـ أليس كذلك؟

قال ميرزا بثقة:

ـ بالتأكيد سنكون رجالاً من نوع آخر!

قالت شيرين وقامتها تعتدل ولهجتها تتبدل.

ـ خفت أن تتعاركوا. . . أن تختلفوا! وتبدلت نبـرة صوتهـا وهي تتابع، من ينظر إليكم تتكلمون هكذا يظنكم أعداء.

هز عباس رأسه بأسف، وجاء صوته عميقاً مليئاً بالمرارة:

ـ المشكلة ان أصدقاءنا كثيراً ما يسيئون فهمنا. لو أنكم يا مستر ماكدونالد سمعتم كلامنا منذ البداية لكان هذا العجوز تراباً منذ وقت طويل.

قال بيتر بدعابة.

ـ بالتأكيد سيموت هذا العجوز صاحب الوجه الخشبي، لكن دعه يتألم في حياته اكثر، ألا تريد أن تمنحه هذه الفرصة التي بحث عنها كثيراً؟ لقد مات منذ اللحظة التي امتدت يده إلى هذه النار المقدسة، إن هذه النار تحرق كل شيء. . وسوف ترى بعينيك يا مستر عباس!

اجاب عباس بمرارة:

ـ سوف نرى، لكن بعد أن يقتل الكثيرين، بعد أن يثير الآلام والجوع في كل مكان، بعد أن يجعل الأوغاد ينهبون كل شيء، إنه الآن يبذر بذوراً لا يمكن اقتلاعها بسهولة. لقد تعود الناس في هذه الايام أموراً لم يكن أحد يتوقع أنهم يمكن أن يفكروا بها أو يقدموا عليها!

قال ميرزا:

ـ دعونا الآن نشرب في صحة الأيام الآتية.

بعد أن وضعت شيرين الاقداح وزجاجة الويسكي والثلج، ذهبت

إلى الغرفة المجاورة والمتصلة بالغرفة التي كانوا يجلسون فيها، وتـركت الموسيقى تنساب. كانت موسيقى خفيفة، وكأنها آتية من مكان بعيد! قال بيتر:

ـ في مثل هذا الجو يمكن أن نصل إلى كل شيء، واعقد المشاكل، أكبرها، يمكن أن ترتخي في هذه الموسيقى، وتذوب في قعر الكـأس. ماذا تقول سيدتي الجميلة؟

قالت شيرين باغراء:

ـ أنـا متأكـدة من شيء واحد: سـوف تتفقون، لكن يـا مستر ماكدونالد أنت لا تقدر الظروف التي نعيش فيها. إن كل يوم يمر علينا أطول من سنين بكاملها، ولم يعد الناس يطيقون احتمالاً أكثر من ذلك، وهذا ما كان عباس يريدك أن تفهمه!

رفع رأسه بطريقة مسرحية، وقال:

ـ أفهم ذلك يا سيدتي.. وأنا جئت لكي نتفق!

ـ لكي نلوي رقبة هذا العجوز، أما ذو اللسان الطويـل فسوف نجعله كباباً(*)..

هكذا قال عباس بصوت بطيء مشحون بالحقد.

قال بيتر:

ـ هل وصل رجلنا؟

رد عباس:

ـ اليوم في السابعة مساءً تصل طائرته.

ـ لنفكر منذ الآن بأكثر من حـل. لنشرب ولنفكر..

وبدأوا يشربون، وتغير الجو...

حين نزل بيتر وميرزا من الجبل كانت أفكار كثيرة تملأ رأسيهما بعد المناقشات التي دارت، لكن صورة شيرين كانت تتراقص كأنها قطعة ريح، وبدا لكل منهما، بعد الكلمات والنظرات التي انزلقت تحت الجلد،

(*) قال الكلمة بالعربية

إن شيرين كالاسفنجة مستعدة لاستقبال وامتصاص النظرات والقبلات..
وكل شيء آخر، وأغلب الوقت الذي استغرقه الطريق من الجبل إلى بيروت ظلا صامتين، لكن بطريقة ما شعرا أنهما يخوضان معركة، وأنهما خصمان!

(١٠)

كان أشرف آية الله في طريق عودته من لاهاي، وكان توقفه في بيروت مدة يومين لا يثير انتباه أحد ولا يخلق شكوكاً من أي نوع، وقد رتب موعد وصوله اثناء وجود بيتر في بيروت للاتفاق على الخطوط الرئيسية، وعلى طريقة للاتصال في المستقبل.

كان أشرف عنصراً فنياً، كما يحب أن يطلق على نفسه. يتقن ثلاث لغات، الانكليزية والفرنسية والاسبانية، إضافة إلى المام واسع بالقضايا القانونية. ونتيجة دراسته في كلية لندن فقد كان للحياة الانكليزية تأثير واضح على سلوكه وملابسه وطريقته في الحياة، ثم جاءت فترة السنين التي قضاها في فنزويلا وفرنسا ليكتسب صفات جديدة من وسط الجو الدبلوماسي، زيادة على اللغة الاسبانية. أما العمل الذي يمارسه الآن فهو امتداد لأعمال سابقة، وقد برهن على معرفة ولباقة في المفاوضات، وكان بعد زواجه من فتاة مكسيكية بعيداً عن جو السياسة، بل ويكرهها، لأنه يعتبر «خدمة الوطن» في الاستقرار وسيادة القانون، وهو بطبيعته ضد الفوضى والعنف. أما طريقته في العمل فكانت علمية كما يصفها وتتسم

بالدقة والحياد، لأن العلم، كما اعتاد أن يردد أمام أصدقائه، «محايد، ولا يمكن أن ندخل إليه عواطفنا»، علاقاته مع رؤسائه تتسم بالاحترام وعلاقاته مع مرؤوسيه فيها كثير من الحزم.

حين كان يسافر ويفاوض كان يقوم بواجبه، دون حماس، أما حين بدأت الاضطرابات فقد فكر أن يغادر الوطن نهائياً، لكن صلة القرابة التي تربطه بعباس، وشعور الامتنان الذي يكنه له، بعد أن ساعده كثيراً في تأمين المنحة الدراسية إلى لندن أول الامر ثم تعيينه في السلك الدبلوماسي بعد ذلك، جعله يوافق على البقاء، بانتظار الأيام التي ستأتي، حيث ينتهي حكم الشارع والرعاع وتزول الفوضى وتعود سيادة القانون.

قبل السفر إلى لاهاي أبلغه عباس، انه سيكون في بيروت، وانه ينتظره هناك، وحدد له الفترة وشيئاً عن احتمالات المستقبل، وقد تحفّظ اشرف قليلاً في البداية، لكن طريقة عباس في التعامل وعلاقاته معه لم تتركه متردداً فترة طويلة، فقد وافق على أن يساعد ضمن مجال «اختصاصه».. وهذا ما كانت لندن تريده!

كانت الساعة الأولى من اللقاء مبارزة خفية بين بيتر وأشرف آية الله؛ كل يحاول أن يكتشف الآخر، يختبر الآخر، وقد تخللت الاختبار لحظات صمت طويلة. كان كل واحد خلالها يحاول أن يجر المياه ناحيته، فبيتر أعجبه هذا الرجل الهادىء، الذي يتكلم ببطء، وينظر في عينيه مباشرة.

أما أشرف فقد ارتاح لوجه بيتر، واعتقد للحظات انه التقى به في لندن ذات مرة، حاول أن يتذكر، لكن ذاكرته لم تسعفه، وكان مستعداً، نتيجة هذا الشعور من الثقة، أن يمنح الكثير لبيتر، لكن، كما تعود، لم يكن عجولاً لأن «أصعب الاشياء هي ألذّها» كما تعلم.

كان تدخل عباس في النقاش مرات عديدة سبباً في أن يتفق الرجلان بسرعة:

ـ ما نريده مستر آية الله أن نصل إلى نتائج مرضية للطرفين.

ـ هذا ما أفكر فيه مستر ماكدونالد!

ـ ويجب أن نبذل الكثير لاستقرار الاوضاع مجدداً وخلق قواعد صالحة للتعامل.

ـ إن سيادة القانون ووضوح القواعد أمران أساسيان مستر ماكدونالد، وأنا.. في جميع مراحل عملي، كنت اصرّ على ضرورة اعتماد القانون. إن في القانون حماية وضماناً لحقوق الجميع، والتجاوز يجر تجاوزاً آخر، وهذا بدوره يؤدي إلى الفوضى.

ـ نكاد يا مستر آية الله نكون متطابقين في وجهات نظرنا، ولو كان الامر بيننا لما وقعت مشاكل من أي نوع.

قال عباس بانفعال:

ـ ولكن ماذا يجب أن نفعل؟

قال بيتر بخبث:

ـ هذا هو السؤال.

ـ أعتقد أنه يمكن الوصول إلى نتائج إيجابية مرضية للطرفين، يا مستر ماكدونالد.

هذا ما قاله آية الله.

ـ كيف..؟ كيف يا مستر آية الله؟

ـ هل يمكن الموافقة على التأميم، على الاجراءات التي تمت؟

هكذا سأل آية الله.

ـ ولكن دعني أسألك بطريقة أخرى: هل تعتبر الاجراءات التي تمت صحيحة أم خاطئة؟

ـ وماذا يفيدنا أن نبحث بهذه الطريقة؟

ـ إن بحث الأمور من بداياتها، وبطريقة صحيحة، يؤدي بنا إلى نتائج صحيحة.

ـ ما هي البدايات الصحيحة؟

ـ باعتبارك قانونياً، اعتقد إننا لو بدأنا بالقانون نجد أن كل ما اتخذ

من إجراءات مخالف للقانون.
- اتفق معك تماماً يا مستر ماكدونالد!
- ما دمنا متفقين، كيف يجب أن نتابع الأمور الآن؟
- ماذا تقصد؟
- اقصد كيف نستطيع أن نعود إلى حكم القانون؟
- ولكن الأمر لم يعد مطروحاً بهذا الشكل. لقد تم تجاوز هذه المرحلة منذ وقت طويل، واعتقد أن الجماعة هناك غير مستعدين لبحث الموضوع بهذا الشكل، يعتبرون ما حصل غير قابل لإعادة النظر أو البحث، وكل ما عدا ذلك يمكن الاتفاق عليه: التعويض، القضاء، أي شيء آخر.
- وهل تتصور إنه يمكن الوصول إلى نتائج ضمن هذا المنطق؟
- يبدو أن الأمور أصعب كثيراً من قناعاتنا.
- ولذلك يجب أن نعمل شيئاً!
- أن نعمل شيئاً؟
- أقصد يجب معالجة هذه المشكلة بشكل مناسب!
- كيف؟
قال ميرزا:
- ليس أمامكم إلا حل واحد: أن تضربوا بقوة.
قال عباس بحقد:
- قلت لك يا مستر ماكدونالد، إن الأمور أكثر تعقيداً مما تتصور، وليس أمامنا سوى أن نمزق هذا العجوز، أن نجعله آلاف القطع، ليس وحده بل وهؤلاء الأوغاد الذين جعلوا كل شيء مباحاً، الذين داسوا الدين والأخلاق وأموال الناس بأقدامهم، وأباحوا لأنفسهم أن يفعلوا كل شيء دون قانون.. دون شرائع..
توقف لحظات ثم تابع:
- يجب أن نكفّ عن معالجة الأمور بهذه الطريقة العقيمة. يجب أن

نضرب، أن نضرب بشدة، هذا هو الحل.

قال بيتر بهدوء

ـ إن مستر آية الله يستطيع أن ينقذ الموقف كله!

انفتحت عينا أشرف من الدهشة، وسرت في داخله نشوة للكلمات التي سمعها، لكن ظلت الأمور غامضة، سأل وابتسامته تزداد اتساعاً مع كل كلمة:

ـ كيف.. يا مستر ماكدونالد، استطيع الانقاذ؟ أقصد كيف استطيع المساعدة؟

* * *

وفي تلك الليلة رقصوا على أنغام هادئة، بعد أن أعدت الاشياء بعناية، وكان ذلك الاحتفال في الليل الشتائي البارد بداية لأمور كثيرة...

لكن بيتر وهو يدفع حساب الفندق في اليوم التالي وجد نفسه لا شعورياً يقول للموظف الذي التقاه في تلك الليلة:

ـ لا بد أن أعود إلى هنا، وفي وقت قريب. إن بيروت مدينة رائعة. كل شيء فيها رائع: خاصة النساء.

وابتسم..

وتذكر اشياء كثيرة: لكن صورة شيرين بثوبها الشفاف الذي يكشف عن جزء كبير من ظهرها وكتفيها، وضغطات يدها وهي تشبك اصابعها وراء ظهره، ثم صورة هذا الشاب الهادىء، كانتا ترفرفان وتدفعان خطواته. وظل شيء واحد يجعله يفكر ويتردد قليلاً: ميرزا.. هل هو غبي أكثر مما ينبغي؟ هل هو ذكي أكثر مما ينبغي؟ ولماذا هذه الحركة السريعة المجنونة في عينيه؟ وماذا عن علاقته بشيرين؟

القسم الثاني

إذا لبست اللباس الشرقي، كن شرقياً بكل معنى الكلمة. أترك على الساحل كل ما هو إنكليزي وتبنًّ العادات الشرقية بكاملها، ويمكن للأوروبي، إذا انطلق من هذا المستوى، أن يتغلب على الشرقيين في ميدانهم الخاص، لأن دوافعه أقوى من دوافعهم، وحماسه أشد من حماسهم، فإذا تغلبت عليهم في هذا المجال فإنك تكون بذلك قد خطوت خطوة واسعة نحو النجاح الكامل. إلا أن ضغط العيش والتفكير بلغة لا تفهمها فهمًا كاملًا، واضطرارك إلى تناول أطعمة لا يهضمها إلا الوحوش، وإلى لبس الملابس الغريبة والسلوك بمسلك الغريب، بالاضافة إلى انعدام الهدوء والعزلة وإمكانية الاستراحة من تقليد الآخرين شهراً بعد شهر.. ومصاعب التعامل.. وقساوة المناخ.. أمور ينبغي التفكير بها بشكل جدي قبل ركوب هذا المركب الخشن.

لورنس

(١)

قال بيتر لسائقه بتبسط زائد:

ـ يمكن أن تنتظرني في مكتب الشركة، أريد أن أسير على قدمي واستنشق هواء نقياً!

استغرب السائق، ظن أن في الأمر خطأ ما، ولا بد أن المستر ماكدونالد سيدرك هذا الخطأ، لكن بيتر لم يلتفت إلى السائق ولا أحس باستغرابه. إنطلق بخفة ورشاقة؛ وزيادة في محاولة الوصول إلى مشاعر عادية، تضفي على تصرفاته البراءة، أخذ يصفر ويفرك يديه، لكن في لحظة انتبه إلى نفسه وقرر أن يكون أكثر اتزاناً لئلا يلفت نظر أحد.

في الأسواق المكتظة التي سبق أن مر بها في السيارة، بدأ يحس هذه المرة إن الاشياء التي يراها أكثر واقعية وبؤساً، وتتسم بالكثير من القسوة والقذارة. قال في نفسه وهو ينظر إلى رجل عجوز يبيع السجائر في دكان صغير: «هؤلاء الشرقيون ولدوا للموت. الموت ينبع من كل شيء فيهم، من النظرات، من التأمل الأبله، من الرخاوة. إنهم أموات بمعنى معين» وشد قبضة يده ليؤكد قوة الحياة في جسده وليستشعر بالامتلاء الحقيقي.

كان مقرراً في نفسه أن يبدأ حياة جديدة، حياة تختلف عن الحياة التي اضطر إليها خلال الشهر الأخير. إذ بعد أن استراح في الاسبوع الأول، واعطى لنفسه فترة كافية للتأمل، قرر الخطوات الصغيرة التي يجب أن يتخذها في نطاق تنفيذ مهمته: زار عدداً من الناس الذين كان يفترض زيارتهم، حضر حفلات كثيرة أقامتها السفارة والشركة على شرفه، استطاع أن يقيم علاقات، خاصة مع السكرتير الأول للسفارة، باعتبارهما يشتركان في هوايات واحدة، واكتشف أنه يحب طريقته في المعاملة والحديث. بعد هذه الفترة، والتي تخللتها جلسات عمل قال «إنها مملة وغير منتجة» وتحدث مع السفير عن بعضها وطلب منه المشورة، كما كتب إلى مقر الشركة يقول لهم: «الأمور تسير في الطريق الصحيح، ويمكن أن ننفذ بعض المهمات دون تعقيدات كثيرة». بعد هذه الفترة كان يجب عليه أن يبدأ في التعرف على الحياة من الداخل. قال له مستر راندلي «لا تثق إلا بما تراه عيناك، يجب أن ترى كل شيء، لا تكتفي بأن تنظر إلى الأشياء نظرة السياح، إذا اكتفيت بذلك، يمكن أن تدفع ثمناً غالياً؛ كما لا تنتظر أن تأتيك الأشياء بنفسها، يجب أن تذهب إليها.. لا تتعب من ذلك يا مستر ماكدونالد.»

خلال الاسبوع الثالث، زار المتحف، وأخذ هناك عدداً من الصور. وزار بعض الجوامع مع السكرتير الأول، المستر ميتشيل، وتحدث طويلاً عن الفن الشرقي، وعن طبيعة حياة الشرقيين، ونظر باهتمام ممزوج بالاستغراب والقرف إلى الرجال والنساء الذين يصلّون ويبكون في هذه الجوامع.

وقال في نفسه «هؤلاء الشرقيون يخافون من شيء ما... وإلا لما تصرفوا بهذا الشكل.»

واحس بتداخل عواطفه، واعتكار مزاجه، وشغلته مناظر هؤلاء الناس. فكر في ذلك كثيراً، وفي إحدى الليالي حلم بامرأة كانت تقف إلى جانب ضريح وتبكي، ثم ما لبثت هذه المرأة أن هجمت عليه وأخذت

تقبله وتشد على جسده، وهو بين أن يستجيب لها أو أن يدفعها، بقي فترة من الزمن حائراً، ثم أخذ يتلفت حواليه ويطلب النجدة، لكن في لحظة اقترب منها كثيراً، احتضنها وغمر رأسه في صدرها، ثم في لحظة أخرى ضربها وأبعدها عنه بقوة، شعر إنها تريد أن تأكله، وفجأة نهض من النوم والعطش والخوف يسيطران عليه، ويتذكر أنه ظل فترة طويلة، بعد ذلك، يحاول النوم، والنوم لا يأتيه، وقد خرج إلى الشرفة، رغم البرد القارس، ونظر إلى المدينة النائمة، وتطلع إلى السماء، وفكر بباتريشيا، وفكر بلا جدوى الاشياء!

كانت الاسواق في هذه الفترة من السنة بليدة وفارغة من البضائع، أو أنها أقل امتلاء من الأيام الأخرى، خاصة أيام الصيف والخريف، وكأنها تنتظر شيئاً ما. ونتيجة لذلك كانت الحركة بطيئة، والحياة أقرب إلى الرخاوة. كان الناس يتحركون ببطء واضح، أما أصحاب الدكاكين الصغيرة فأميل إلى الراحة وطلب الدفء، وكأن الاشياء المعروضة أقرب إلى الابتذال أو متروكة. وفي هذه الفترة من السنة تكون الشمس موجودة وغير موجودة، إذ تظهر وتغيب باستمرار، غير تاركة في النفس سوى احساس باهت بالضوء، أما الدفء فلا وجود له.

فكر بيتر بشراء بعض الحاجات. صحيح أن حاجاته كلها تؤمن بمجرد أن يطلبها من السكرتيرة زينب، أو من كبير الخدم محمد، بحيث أن فكرة شراء بعض الحاجات بنفسه لا ترد على البال، نظراً للصعوبة التي تواجهه في العثور عليها أو الاتفاق على اسعارها. ويتذكر أقوال بعض اصدقائه الذين سبقوه إلى الشرق: «عجيب أمر هؤلاء الشرقيين، إن أفضل شيئين بالنسبة لهم: المساومة والبخشيش. أي شيء عندهم قابل للمساومة، وأي شيء تشتريه يجب أن تضيف عليه البخشيش، لذلك يمكن أن تشتريهم وتصبح صديقاً حميًا لهم إذا استجبت لهذين المطلبين أو لاحدهما على الاقل؛ تظاهر بالبله تماماً؛ إذا عرضوا سعراً تردد قليلاً، ساوم، ثم وافق بشكل ما مع ابتسامة، وإذا استطعت فبعض الكلمات

التي توحي برضاك واقتناعك.

أما إذا رأيت أناساً لا يحبون المساومة، ويظهر ذلك من الجهامة في الوجوه، أو سوء الخلق أو النظر إليك بكراهية، فلا تتردد في أن تترك لهم بعض القروش الزائدة، تظاهر إنك لا تملك قطعاً صغيرة، تعمد أن تخطىء في الحساب، تصرف بشكل ما لتترك لهم شيئاً زائداً. إذا فعلت ذلك اشتريتهم إلى الابد.»

كان يروق لبيتر في تلك اللحظات أن يمتحن قناعاته فقرر أن يشتري بعض الاشياء، وأن يحتك بالناس، لكن بدا حائراً متردداً فيما يمكن أن يشتريه. كان ينظر إلى الوجوه، يتأمل بدهشة؛ ينظر إلى المحلات التي يمر بها فلا يجد أحداً أو شيئاً يمكن أن يغريه. قال له مستر راندلي «كيف تقوم العلاقات يا مستر ماكدونالد؟».

«إن هذا الأمر سهل جداً وصعب جداً. والعلاقات هناك، يا بيتر، تختلف كثيراً عما هي عليه هنا، بعد أن تشتري حاجات معينة من مكان ما تعمد أن تنسى بعضها؛ إذا نسيتها وسرت تمهل في سيرك، إذ ربما اكتشفوها، وعندها قد يلحقون بك لاعادتها، هنا يمكن أن تتصرف بكثير من المهارة، يجب أن ترجع إلى نفس الدكان، أن تشكرهم بحرارة، ولا تنس أن تعطي لقاء ذلك هبة، ولتكن كبيرة، وإذا امتنعوا، وقد يحصل ذلك بسبب التدين، فحاول أن تشتري أشياء أخرى، ويجب أن تكون كثيرة هذه المرة، وعبّر عن امتنانك وتقديرك، قل لهم إن هذه الاخلاق تروقك كثيراً، وهي بالذات السبب في التقدير الذي يحظون به. ولا تنس يا مستر ماكدونالد أن تعود سريعاً مرة أخرى إلى ذلك الدكان وتشتري منه. تصرف معهم وكأنك تعرفهم منذ وقت طويل، أو إنك أصبحت لهم صديقاً. إن الشرقيين يحبون كثيراً أن يتحدثوا عن الطرائف التي تظهر من الغربيين، وهذه الطرائف تشكّل حبالاً قوية تشدهم إليك.»

حين تذكر هذه القصة كان يمر بدكان لبيع الملابس الشعبية. بدت له الملابس مجموعة من الخرق الملونة البلهاء، سأل نفسه: «لماذا يجب

الشرقيون هذه الالوان كلها وكيف يوفقون بينها؟» هز رأسه دلالة السخرية وأجاب: «هذه الملابس تمثل بلاهة الشرقيين!» ودخل المحل. تطلع باهتمام، تلمس قطع الملابس، ابتسم للرجلين الواقفين داخل الدكان، ولأحد المشترين، وبدا الصمت والانتظار يخلقان في نفسه توتراً. «كيف يجب أن أتصرف؟ ماذا يجب أن أشتري؟ وإذا اشتريت شيئاً هل استفيد منه؟» قال له مستر راندلي؛ «لا تتردد كثيراً ولا تسأل عن نفع الاشياء التي تشتريها. إن خلق حركة من نوع ما في بعض الاوساط ضروريٌ، هذا ما نريده، وعبّر أنت عن ذلك بكل القوة التي تستطيعها. إن حركة مثل هذه يمكن أن تخلق حولها دوائر لا نهاية لها. سيقولون لأنفسهم ولبعضهم، بعد أن تشتري بسخاء: «انظروا كيف هم اسخياء هؤلاء الاجانب، وما أرق معاملاتهم، إنهم بمجرد أن يوجدوا في مكان تتحرك حولهم كل الاشياء: الاسواق، والتجارة، وحتى الحياة».

وبطريقة تمثيلية لا تفتقر إلى البراعة اشترى بيتر اشياء كثيرة. وفكر أن يجعل من هذه الدكان محطة له يعود إليها بين فترة وأخرى، إذ ما كاد ينتهي من دفع الثمن، حتى طلب إلى أحد الرجلين، والذي كان يعرف كلمات فرنسية قليلة وينطقها بطريقة رديئة، أن يحزم الحاجات التي اشتراها وأن يعطيه العنوان، لأن السائق سيمر لأخذها.

كان مشهداً احتفالياً حين سلّم بيتر على الرجلين، وداعب ولداً صغيراً دخل مع أبيه إلى نفس الدكان، وقال إنه سيرسل اصدقاءه للشراء، لأنه لمس المعاملة الجيدة والبضاعة التي كان يحلم بها منذ زمن طويل. وقال إنه لن يتردد في المرور عليهما بعد فترة لشراء اشياء أخرى. ولم ينس أن يسأل الرجلين عن اسميهما وأن ينطق هذين الاسمين بكثير من البطء وبشكل مضحك أيضاً!

بعد ذلك مرّ بيتر على ثلاثة دكاكين أخرى، وتعمد أن تكون متباعدة. اشترى من الدكاكين الثلاثة، وتصرف بنفس الطريقة، مع اختلاف يسير. وحين استأجر سيارة لتوصله إلى مكاتب الشركة، تعمد أن

يتحدث مع السائق، لكن السائق بدا متجهمًا شارد البال، وقدر بيتر أن تطويرا ما يجب أن يدخل على أسلوبه في التعامل، لكي يستطيع الدخول إلى قلوب الآخرين. قال في نفسه «يمكن كسب الآخرين جميعهم إذا لم يكونوا على عداء سياسي معك. المعادون يجب سحقهم، وهؤلاء قليلون، أما غيرهم فيمكن كسبهم بسهولة» وظل ينظر من نافذة السيارة إلى الشوراع والابنية، والوجوه، وابتسم في سره وهو يستعرض الاشياء التي اشتراها. وفكر أن يحاور السائق وأن يقيم معه علاقة من نوع ما، قال للسائق برعونة وبشكل مفاجىء:

ـ هل هذه السيارة لك؟

ـ لا

ـ لمن؟

ـ لاصحابها!

ـ وأنت؟

ـ أعمل عليها

ـ كم تأخذ راتباً؟

ـ ماذا؟

ـ كم يعطونك نتيجة القيام بعملك؟

وحرك أصابعه كأنه يعّد نقوداً، وكان قد اقترب كثيراً من كتف السائق وأخذ ينظر إليه. لم يجب السائق، هزّ كتفيه دلالة الرفض أو عدم فهم الكلمات التي قالها بيتر.

سأل بيتر باصرار:

ـ أقصد. . . كم تحصل من العمل الذي تقوم به؟

ولم يجب السائق، وبدا متضايقاً. أراد بيتر أن يستدرجه لكن بطريقة مختلفة.

سأله من جديد:

ـ كم عدد أولادك؟

ردّ السائق بعصبية وسرعة: ستة

ثم أخذ يستعمل منبه السيارة بشكل يوحي وكأنه يريد اشغال نفسه، أو خلق ضجيج يمنع بيتر من الحديث، لكن بيتر شعر أنه يجب عمل شيء ما. أخرج من جيبه ورقة نقود كبيرة، طواها على شكل مستطيل ومدها إلى الأمام، كأنه يريها للسائق أو يعرضها عليه لكي يأخذها.

قال السائق بعصبية مكتومة:

ـ لم نصل بعد أيها السيد!

ـ أعرف إننا لم نصل، لكن يمكن أن تستلم الأجرة منذ الآن!

التفت السائق قليلاً إلى قطعة النقد المطوية والممدودة، لما تأكد إنها كبيرة، سأل بيتر:

ـ اليس عندك أصغر منها؟

وبدون اهتمام وباستعلاء رد بيتر.

ـ لا. . أيها السيد.

أخذ السائق قطعة النقود ووضعها في إحدى الفتحات أمامه، وهي واقفة، وهز رأسه دلالة عدم الاهتمام. وأسرع قليلاً في سيره، ثم فجأة خفف سيره والتفت إلى بيتر:

ـ أريد أن أصرف قطعة النقود. . . أتسمح لي؟

ـ ولكن يمكن أن تحتفظ بها كلها!

هكذا رد بيتر بصوت خافت وابتسامة ذات معنى.

هز السائق كتفيه دلالة الاستغراب وعدم الاهتمام وساد الصمت من جديد. كانت أفكار كثيرة تموج في رأسيهما، وكان بيتر يريد أن يجعل قطعة النقد جسراً يعبر عليه إلى السائق، ويشعره أن الطريقة التي تعامل معه بها لم تكن لائقة، والسائق تتوزعه الرغبة في أن يأخذ قطعة النقود كلها، دون أن يلتفت لطريقة ماكدونالد في التصرف والتعامل، أو أن يرد عليه بطريقة ما تشعره أن النقود لا تعني كل شيء في هذه الدنيا.

عند مكاتب الشركة قال السائق لبيتر وهو يستخرج الورقة النقدية من الفتحة أمامه:

ـ يمكن أن تصرف هذه الورقة الآن إذا أردت!

ـ ولكن قلت لك إنها من حقك... أقصد أنه يمكن أن تأخذها كلها!

وهز السائق رأسه، لكن ظلت ملامحه مشدودة، وما كاد بيتر ينزل ويترك الباب مفتوحاً حتى أغلقه السائق بغضب وأحكام وتحرك بسرعة، وفي الهواء تطايرات كلمات من فمه. أما بيتر فقد استغرب كثيراً هذا الذي يراه أمامه، قال وهو يخطو خطواته الأولى على الممر العريض باتجاه الدرج: «هؤلاء الشرقيون لا يعرفهم حتى الله، إنهم غريبون في كل شيء: أشكالهم، تصرفاتهم، سلوكهم ولا يعرفون ماذا يريدون، كما لا يعرفون الاصدقاء من الاعداء.»

(٢)

من الأمور التي حرص بيتر عليها كثيراً، منذ بداية وصوله، أن يكتب يومياته. صحيح أنه انقطع لبضع ليالٍ عن كتابتها، لأسباب مختلفة، إلا أن اللوحة العامة التي رسمها، لكل الاشياء حوله بدت له واضحة، وكان راضياً عنها. قال لنفسه وهو يقلب الدفتر الازرق: «هذه الاوراق وحدها يمكن أن تكون كنزاً ثميناً، إذ لو نشرت، دون أن اتطرق إلى محتويات الدفاتر الاخرى، خاصة الدفتر الاحمر، فسوف تكون ممتعة وذات فائدة لمن سيأتي بعدي، ويمكن أن يستمتع بها الانسان حتى لو لم يكن محباً للسفر، أو لم يصل إلى هنا ابداً» وبدأ يقلب الاوراق.

«تبدو هذه المدينة كبيرة، لكنها ليست كأي من المدن الكبيرة التي رأيتها. اشعر تجاهها بحقد. كل شيء فيها قبيح ومخيف، لا أدري كيف استطيع قضاء شهور عديدة هنا، إن مجرد التفكير بذلك يخلق في النفس انقباضاً يصل حدود المرض. لاعترف بسرعة وأقول أن جميع الناس الذين جاءوا من قبل، وقضوا هنا سنوات طويلة، وربما في ظروف أصعب، يستحقون التقدير والمكافأة. كيف يمكن للانسان أن يعيش هنا؟ القذارة في

كل مكان، انعدام الامن يهدد كل انسان، البدائية في كل الاشياء: الملابس، التصرفات، الطقوس الدينية. لا أن كلمة «البدائية» لا تعني شيئاً، يجب أن تحدد الامور بدقة أكبر. إن حالة من التخلف والوحشية تبرز في جميع مناحي الحياة. يتكلمون بصوت عالٍ. ينظرون إلى الانسان بارتياب مستمر وكأنه عدو. يغشّون في الحاجات التي يبيعونها. . . وماذا أيضاً؟

كان يجب أن أتردد طويلاً قبل المجيء إلى هذه المدينة اللعينة. إن كل يوم أقضيه هنا يعادل شهوراً في أماكن أخرى. حتى الاعتقال والمعسكرات، حتى الايام القاسية الطويلة التي قضيتها أثناء الحرب الاخيرة، أكثر رحمة من الايام التي أعيشها الآن!

لكن مهلاً مستر ماكدونالد، إذ ما دمت تريد كتابة أشياء تنفع مواطنيك ذات يوم، فيجب أن تكتب بطريقة أخرى، لأن الطريقة التي تكتب بها الآن أقرب إلى الهذيان، أو الشعر. إن هذه الطريقة تصور عالماً داخلياً لا يدركه أحد غيرك، أما الآخرون، أما الذين يمكن أن يقرأوا ما تكتبه، فيجب أن يكونوا على بيّنة، أن تقول لهم لماذا أنت قلق إلى هذا الحد؛ ما هي المصاعب التي تواجه الانسان هنا؛ كيف وصلت إلى هذه الحالة النفسية التي حولتك إلى شاعر!».

طوى بيتر الدفتر الازرق ووضعه فوق الدفاتر الاخرى. هذه الدفاتر تشكّل عالمه في كثير من الليالي. قال لنفسه: «يجب أن أتبع أسلوباً جديداً في الكتابة، يجب أن أكتب أشياء واضحة، ومنذ الآن إذا لم أفتح عيني على اتساعهما، وانظر إلى كل ما حولي نظرة فاحصة فسوف لن يكون لكل ما أكتب قيمة.»

لا شعورياً جرّ الدفتر الاحمر، قلّبه، شعر وهو يقرأ بعض الصفحات بالرضا عن نفسه، وتأكد في تلك اللحظة، إنه سيكون موضع حديث مسؤوليه وتقديرهم، «ما اكفأه ماكدونالد. ليست الكفاءة وحدها هي التي تميزه، إنه شديد الدهاء وبعيد النظر» «اتعرف يا مستر أكس ميزة ماكدونالد؟ إنه يستطيع الحياة في الظروف الصعبة ويتكيف معها بسرعة،

يساعده على ذلك إنه صبور، لقد تعلم الصبر من الاعتقال ومن صيد السمك» «تماماً. . . لأن العمل الذي يقوم به الآن يحتاج إلى الدهاء والصبر».

ويغيب بيتر في أحلام لذيذة، يحس معها أنه محور الدنيا، وأن أشياء كثيرة تتوقف على الطريقة التي سيتصرف بها. قال لنفسه بزهو «يجب أن أحصر ذهني أكثر مما فعلت حتى الآن، ويجب أن تظهر النتائج في وقت أسرع.» وأخذ يحلم من جديد، ويتيه في أفكار بعيدة وغامضة، قال لنفسه بصوت عالٍ وهو ينهض لكي يملأ لنفسه كأساً جديدة من الويسكي:

ـ ما دام الامر يتعلق بالدهاء فسوف يرى هؤلاء البدائيون كيف أنهم لا يحسنون شيئاً. صحيح أنهم الآن يكابرون، لكن حين يسقطون على رؤوسهم سيدركون قواعد اللعبة، وعندها يدركون كم كانوا أغبياء!

وقلب الدفتر الاحمر على صفحة وقرأ:

«يمكن القول الآن إن الأمور أفضل من قبل، صحيح إنه لا يزال أمامنا وقت للانتظار، وأن مزيداً من الاتصالات يجب أن تجري، لكن الخطورة التي بدأت تظهر في الاسابيع الاخيرة ان اصدقاءنا يخفون عنا بعض الأمور، وان محادثات بدأت تجري في جو من السرية والغموض. ربما استطعنا الحصول على معلومات إضافية، حول هذه المحادثات، في مطلع الاسبوع القادم، صديقنا ك. م أبدى استعداداً أثناء اللقاء الأخير لتزويدنا بمعلومات من الداخل، لكن يطالب لقاء ذلك أن ندفع له مبلغاً كبيراً يشترط أن يوضع المبلغ في أحد البنوك السويسرية، في حال موافقتكم على المبلغ يمكن أن يودعنا رقم الحساب، وأرى أن نوافق. الآخرون يدفعون بسخاء، والمال وحده هو الذي يمكن أن يحسم الموقف كله».

قال بيتر لنفسه وهو يتابع تقليب الاوراق. «حين يقدم الانسان اقتراحات ذكية ويستجيب لها الآخرون، فلا بد أن تسير الأمور سيراً حسناً. ثم ماذا يعني هذا العجوز لولا الدعم الذي يلقاه من الخارج؟ الشارع؟ الشارع لا يعني شيئاً، هؤلاء الرعاع يمكن أن يتحولوا في لحظة واحدة».

وشرب بيتر جرعة كبيرة من الكأس، ورفع رجليه على الطاولة التي أمامه، تمطى ثم ابتسم، قال في نفسه: «يمكننا أن نفعل مثلهم تماماً، يمكن أن نشرب أكثر منهم، يمكن أن نضع ارجلنا على الطاولات كما يفعلون، ويمكن أن نلبس ملابس ملونة أيضاً ونذهب إلى السهرات، لكنهم حمقى هؤلاء الاميركيون، إنهم لا يفعلون الشيء المناسب في الوقت المناسب، إنهم مجرد خنازير في رقابهم أطواق من الذهب. ماذا تعني هذه التصرفات الرديئة التي يتصرفونها؟ ماذا تعني الملابس المزركشة التي يلبسونها في السهرات؟ ألا يشعرون أنهم عراة؟ ألا يشعرون بالخجل؟»

وأحس بفخر لأنه ليس أميركياً، وتمثلت أمامه صورة هوفر، بنظراته الشيطانية وضحكاته التي تشبه سقوط الحجارة. «هؤلاء الاميركيون شرقيون من نوع آخر. صحيح ان قسماً كبيراً منهم هاجر من بريطانيا ومن القارة، لكن السنين الطويلة التي قضوها هناك، الاعمال الرديئة التي مارسوها منذ أن وطأت أقدامهم الأرض الجديدة، الأخلاط الغريبة من اللصوص والمجرمين والمجانين، خلقت هذا النوع الكئيب الذي نراه الآن. لقد فقدوا أصولهم الحقيقية، أصبحوا نوعاً جديداً من البشر، وهذا النوع لا يعرف شيئاً سوى المال، المال بالنسبة لهم التاريخ والقوة والحضارة... وكل شيء.»

وتذكر بيتر لقاءاته العديدة مع هوفر وارنولد وماكس. إن شيئاً غامضاً لدى هؤلاء الرجال يخلق الحيرة في نفسه، «إنهم أطفال، معتوهون، لكنهم يعرفون أيضاً ما يريدون. إنهم يريدون كل شيء!»

كانت لقاءاته الأولى مع هؤلاء الرجال تتسم بكثير من التهذيب والرغبة في التعاون، لكنه يحس أن لهم عالمهم يختلف كثيراً عن عالمه. في لحظات معينة يلجأون إلى استفزازه، «أنتم الذين دفعتم الأمور لأن تصبح هكذا. ماذا تريدوننا أن نفعل الآن؟ عليكم أيها الانكليز أن تلتقطوا الكستناء من النار بأصابعكم، لا أن تستعملوا أصابع الآخرين. لقد انقضى الوقت الذي كنا نجري فيه وراءكم كما تجري الكلاب. نعم يجب

أن تـدركوا ايـة تغيرات هـامة وقعت في هـذا العصر، وأين أصبحت بريطانيا.»

كان بيتر يسمع كل ذلك بصبر وأدب، ويحاول دون تعب أن يناقش مع ذلك الرجال بهدوء، لكن في لحظات معينة يفقد سيطرته على نفسه ويتصرف بروح مشاكسة، ومع ذلك فإن هذه الـروح لا تدوم طـويلاً، بسرعة يتذكر «تجنب الدخول في معركة من أي نوع، لا نريد معارك يا مستر ماكدونالـد. سوف يحـاول الآخرون جـرك إلى معارك يفـرضونها عليك، هل ستجر إليها؟ بالتأكيد لا يا مستر ماكدونالد، إن الغضب، الانفعال، الخشونة... إن حالات مثل هذه تكشف أشياء كثيرة. يجب أن تبقى عواطفك ومواقفك طي الكتمان، يجب أن لا تقع أسيراً لحالات مثل هذه.»

ويقرأ في دفتره الأحمر:

«أثناء اللقاء الثالث مع هوفر جرى الحديث بالشكل التالي:

ـ كيف تقوّمون الاوضاع الآن يا مستر هوفر؟

ـ لا يعرف الانسان ماذا يريد هؤلاء الشرقيون. إنهم يطالبون بأشياء كثيرة متناقضة وكل يوم لهم مطلب يختلف عن مطلب اليوم السابق!

ـ تقصد أن لهم مطالب محددة يريدون وساطتكم من أجل حلها؟

ـ لا أقصد شيئاً محدداً، لأنهم هم أنفسهم لا يقصدون شيئاً!

ـ ولكننا عرضنا أن نتفق معهم، وحددنا المطالب.

ـ وهل حددتم مطالبكم بوضوح؟

ـ نعم... لقد فعلنا ذلك.

ـ كيف كان رد فعلهم تجاه هذه المطالب؟

ـ لا يمكن أن تقدر رد الفعل بدقة، إن وجوههم لا توحي بشيء، أما شراستهم فتبدو واضحة بشدة في الشارع... ألا تلاحظ ذلك؟

ـ نعم. نعم، لكن لا تأبهوا كثيراً لما يجري في الشارع!

ـ وهل يمكن الاعتماد على مقاييس معينة لمعرفة الاحتمالات؟

ـ إن الامور معقدة أكثر مما ينبغي، ونرى أن تترك الآن، فالزمن يحلّ كثيراً من المشاكل التي تبدو صعبة أو مستعصية الحل!

ـ ماذا تقترحون أن نفعل الآن؟

ـ يمكن أن نساعدكم كثيراً، ولكن قبل الحديث في ذلك، كيف تتصورون علاقاتهم مع «الآخرين»؟

ـ إنهم يلعبون على حبال كثيرة، ولم يستقروا بعد. إن استقرارهم بداية النهاية لنا كلنا، فإذا استطعنا أن نفعل بعض الاشياء التي من شأنها منع الاستقرار، يمكن اجبارهم في النهاية على التسليم.

ـ هل تتصورانه يمكنهم التراجع؟

ـ بالتأكيد يا مستر هوفر، لقد وصل بهم الافلاس إلى درجة لا يمكن معها أن يستمروا. ماذا تظن أنت يا مستر هوفر؟

ـ معلوماتنا تشير إلى إمكانية إتفاقهم مع «الآخرين»، وفي هذه الحالة سوف تصبح الأمور أكثر تعقيداً وأكثر صعوبة!

ـ وهل نستطيع أن نفعل شيئاً معاً لكي نمنعهم من الاتفاق مع «الآخرين»، وبالتالي إجبارهم على التسليم بمطالبنا؟

ـ هذا الامر قابل للدرس، ولكن لا أتصور أن الأمور بلغت هذه الدرجة من السوء كما تحاول أن تتصورها أو تعرضها يا مستر ماكدونالد.

ـ سوف تبلغ هذه الدرجة وأكثر منها!

ـ أنتم الانكليز ميالون إلى التشاؤم.

ـ وأنتم الأميركيون ميالون إلى التفاؤل!

ـ لنترك الأمر الآن... ولنتحدث عن أشياء أخرى، في وقت آخر يمكن أن نصل إلى تحديد الأمور... ماذا تقول؟»

هذا ملخص الحديث الذي دار بيني وبين مستر هوفر، ويمكن أن أضيف ما يلي:

الأوضاع في الداخل تزداد سوءاً يوماً بعد آخر، الاسعار ترتفع، المواد الضرورية غير موجودة، التذمر في أوساط واسعة يـزداد ويقوى،

والحالة بصورة عامة الآن لا تقاس بالسابق، خاصة وان الحماس الاوضاع الراهنة ضعيف ويتقلص كل يوم.

العلاقات بين أطراف الحكم سيئة، ويمكن أن تزداد سوءاً في الفترة القادمة، خاصة وان كل طرف يعرّض بالاطراف الأخرى، ويعتبرها مسؤولة عن المصاعب، ولا تبدو في الافق أية احتمالات لتحسن العلاقات فيما بين الاطراف، أو قدرتها على الاستمرار. ان تحركنا لتحريض الاطراف ضد بعضها يمكن أن يؤدي إلى نتائج إيجابية هامة وسريعة، ويمكن أن نفعل أشياء كثيرة في هذا المجال، خاصة إذا لوحنا للجانب المعتدل بإمكانية التنازل والاتفاق، في حال قدرته على التخلص من المتطرفين. إن هذه المسألة من الأهمية بحيث تتطلب دراسة عميقة وسريعة.

ما يشير إليه الاميركيون من احتمال الاتفاق مع «الآخرين» لا يعدو أن يكون من جملة المخاوف الاميركية التقليدية، وأرى ذلك أمراً مستبعداً في الوقت الحاضر، رغم الضغوط الشديدة التي يتعرض لها الحكم من الشارع، ورغم المصاعب المالية الكبيرة التي تواجهه.

في رسالة قادمة يمكن التأكد من بعض الأمور، خاصة وأن بعض اصدقائنا وعدوا بمعلومات هامة يمكن أن تصل في غضون أيام.

(٣)

يتذكر بيتر اليوم الأول، ثم الايام التي بعده ـ كان اليوم الأول لوصوله بارداً، تلك البرودة الزجاجية التي تتسرب إلى العظام مباشرة، فتجعل للحياة طعمًا خاصاً. كره كثيراً هذا الجو، وتمنى لو أنه جاء في وقت آخر، حتى إنه فكر عدة مرات بالعودة خلال الاسابيع الثلاثة الاولى، لكن لم يجد عذراً مقبولاً يمكن أن يتذرع به ويعود. وبعد ذلك، وبالتدريج، أخذ يتعود. زالت آلام المعدة التي لازمته في الفترة الاولى، وأحس أن الشمس حين تشرق تحمل دفئاً حقيقياً، عكس شمس لندن في مثل هذه الفترة من السنة. وفي نفس الوقت بدأ يحس أن لوجوده أهمية كبيرة وتأثيراً واضحاً، فقد استطاع وضع بعض القواعد الاساسية «للعبة». بدأ المفاوضات دون ابطاء، واقنع الطرف الآخر إن الأمور المعقدة يمكن أن تجد حلا، واشعرهم كذلك أن الاتصالات المباشرة سوف تساعد على إزالة كثير من سوء التفاهم الذي ميز المرحلة السابقة.

وفي الفترة الاولى، زيادة على برودة الطقس التي سبّبت ازعاجاً مباشراً لبيتر، فإن المظاهرات، التي لم تكن تهدأ يوماً واحداً، أشعرته

بالخوف واليأس. كانت المظاهرات صاخبة عنيفة، وتتميز بذلك الطابع الذي يمكن أن يؤدي إلى القتل دون تردد. وجوه الناس محتقنة، أصواتهم عالية وفيها بحة التعب والتحدي. تصرفاتهم وردات فعلهم سريعة حادة، وكل شيء تمليه اللحظة أو الاشخاص الذين يقودون المظاهرات.

تعمد بيتر أن يراقب المظاهرات بنفسه، وأصر على الذين يعملون بأمرته بأن يترجموا كل شعار أو هتاف في هذه المظاهرات. كان يريد أن يعرف أدق التفاصيل، لكي يدرسها ويستنتج منها الاحتمالات والنتائج. وكان يرى فرقاً كبيراً بين هذه المظاهرات والمظاهرات التي رآها في لندن أو تلك التي سمع عنها في أماكن أخرى.

إن ما يراه الآن شيئاً أقرب إلى الجنون... الجنون الكامل، وإلا ماذا يعني هذا الصراخ والتحدي والعنف؟ وما هي النتائج التي يمكن أن تترتب عليها؟ وأخيراً ضد من هذه المظاهرات؟ كان يتساءل في نفسه، ويسأل الذين يلتقي بهم، ويحاول أن يصل لبعض التقديرات التي يمكن أن يطمأن لها، لكن أحداث اليوم التالي، مظاهرات اليوم التالي، تغيّر من قناعاته وتجعله يعيد النظر بتقديراته السابقة.

كان يرى مظاهرة تحمل شعارات وتردد هتافات من نوع معين، فيحاول أن يقدر من خلالها اتجاه الرأي العام ومطالبه. ويدرس طبيعة المشتركين في هذه المظاهرة وأية قوى يمثلون، وما يكاد يصل إلى بعض التقديرات، حتى يرى مظاهرة آتية من الجهة الأخرى، وبكثير من العناية والاهتمام يدرس شعارات المظاهرة والهتافات التي ترددها، ويتمعن بالوجوه المحتقنة التي يراها تمر تحته، ويرقبها من وراء النافذة، ويرى شبهاً في أشياء كثيرة، لكن الامر يظل غامضاً بالنسبة له.

ولزيادة الدقة في المقارنة يرجع إلى الصور التي التقطها ليدرس هيئات الناس المشتركين: الفقراء هم الاساس في المظاهرات كلها، التي تأتي من هذه الناحية أو من تلك، يرى ذلك بوضوح، من الملابس، في الوجوه المعروقة، من الاشكال التي لا تخفى؛ وكذلك من التصرفات التي

تفضح نفسها. كان أكثر المشتركين في هذه المظاهرات يجلسون على الارض، دون تبرم، ودون تردد، وكانوا يخرجون أرغفة الخبز من جيوبهم أو من صدورهم ويأكلون بلذة، وكانوا يقدمون إلى الآخرين. كان أغلبهم يأكل الخبز وحده أو مع بعض الاشياء البسيطة. وكان الكثيرون منهم يبصقون أو يمخطون في الشارع دون خجل أو اعتبار. . . «إن هذه التصرفات كلها لا يفعلها إلا الرعاع» هكذا كان بيتر يقول لنفسه عندما يراهم يفعلون ذلك!

لقد سبّبت له المظاهرات كدراً حقيقياً. كيف يستطيع أن يفعل شيئاً في هذا الجو من الانفعال والضغط؟ كيف يستطيع أن يغيّر في هذه الثوابت الاساسية الراسخة ويخلق شيئاً جديداً؟

بعد وصوله ببضعة شهور بعث رسالة إلى لندن يقول فيها:

«لليوم الرابع على التوالي تقوم المظاهرات، مظاهرات صاخبة وضخمة، وتخللتها أعمال عنف ضد الشركات الاجنبية. أحرق المتظاهرون دمية تمثل بريطانيا العظمى وأحرقوا العلم البريطاني، كما سدوا عدة شوارع رئيسية في العاصمة.

ليس بمقدوري المقارنة بين هذه المظاهرات والمظاهرات التي انفجرت السنة الماضية، لكن السكرتير الاول للسفارة يقول أن مظاهرات هذه الايام أكبر وأكثر عنفاً.

إذا استمرت المظاهرات بهذا الشكل فإن تعقيدات إضافية محتملة، وقد اشعرت الوفد المفاوض هنا بضرورة تأمين جو مناسب وهادىء، لأن أية مفاوضات تجري الآن سوف تتأثر بهذا الجو، وتكون عرضة لضغوط الشارع، الأمر الذي لا يمكن أن نقبل به.

حصلت عدة صدامات بين المتظاهرين، ويبدو أن الاختلاف السياسي يلعب دوراً اساسياً في ذلك. ويمكن أن يكون هذا الاختلاف عاملاً إيجابياً لمصلحتنا، إذا أحسنا استثماره.

لم تحصل أية صدامات بين المتظاهرين وقوات الأمن، رغم التخريب

الذي نتج عن بعض المظاهرات، الأمر الذي يؤدي إلى إضعاف هيبة السلطة ويخلق ضغوطاً إضافية عليها. هناك معلومات تشير إلى أن أطرافاً معينة، داخل السلطة، وراء هذه المظاهرات، بهدف تعزيز مراكزها، وتقوية أوضاعها في الصراع الذي تخوضه فيما بينها. كما أن هناك معلومات أيضاً تؤكد أن جهات خارجية وراء هذه المظاهرات.

أرى أن نلجأ إلى أسلوب حازم في الرد، وأن نمهد لذلك بحملة صحفية واسعة، إذ لا جدوى الآن في أية مفاوضات، خاصة إذا استمرت المظاهرات الحالية أو إذا تطورت. وفي وقت قريب سوف أوافيكم برسالة مفصلة، ويمكن أن تتضمن رأي بعض اصدقائنا في الاجراءات التي يجب اتخاذها في المرحلة القادمة.»

وكتب بيتر في دفتره الازرق عن انطباعاته في الايام الاولى، لكن ظلت اشباح المظاهرات تسيطر عليه تماماً. كتب في الصفحة الحادية عشرة ما يلي:

«المظاهرات هنا تختلف كثيراً عن المظاهرات التي تجري في لندن. المظاهرات هنا عبارة عن خليط غير متجانس من البشر والشعارات والملابس والاشياء. المشاركون تتراوح أعمارهم بين الخمس سنوات والستين سنة. الاطفال في مقدمة المظاهرة كالطيور الصغيرة، ويبدو أن هذه التسلية تدخل على نفوس الاطفال الفرح والتغيير، خاصة وإنهم يرقصون ويحملون العصي ويقلدون الكبار، ويصدرون التعليمات إلى أصحاب الحوانيت، كما يوقفون السيارات، ويتصرفون في حالات كثيرة تصرفات تبدو أكبر من أعمارهم، والملاحظ على هؤلاء الصغار أنهم فقراء، يبدو ذلك من ملابسهم، من شعورهم الشعثة، ومن خلو أقدامهم من الاحذية رغم البرد القارس!

أما الكبار فإنهم خليط غير متجانس أيضاً: طلاب جامعات، عمال، اساتذة، رجال سياسة، فلاحون، عاطلون عن العمل، متسكعون. الملابس أقرب إلى الكرنفال، وما عدا الافندية، أي الاساتذة

والطلاب ورجال السياسة، ـ فملابس هؤلاء أفرنجية ومتجانسة تقريباً ـ، فإن الآخرين خليط عجيب، حتى لا تكاد ترى اثنين أو ثلاثة يلبسون زياً واحداً أو متقارباً. وكذلك أغطية الرأس، فإن كل واحد يضع على رأسه أي شيء يصادفه، وهم يستعملون هذه الاغطية في زيادة الهياج والتحريض؛ إذ يلجأون إلى رميها في الهواء ثم التقاطها، يفعلون ذلك في لحظات معينة وكأنهم يلعبون، لكن العرق الذي يتصبب من وجوههم، الجدية التي تطبع ملامحهم، الانفعال الذي يسيطر على حركاتهم وتصرفاتهم في كثير من الاحيان، تضطرك إلى اعتبار كل ما يفعلون جدياً إلى أقصى حد. المظاهرات هنا لا تعرف النظام والترتيب، والمتظاهرون لا يعرفون الصفوف ولا يحتملون أي مظهر من مظاهر الدقة أو السيطرة: مجموعة هنا، ومجموعة هناك، ولكل مجموعة أعلامها وشعاراتها وزعماؤها. يحملون بعض الرجال على الاكتاف، وهؤلاء يصرخون بأعلى أصواتهم، ويزيدون التحريض والانفعال، ولا يكتفي هؤلاء الرجال برفع أصواتهم والقاء الاناشيد، إنهم يلجأون أيضاً إلى استعمال أيديهم في زيادة الحركة والتحريض، كما يحركون مؤخراتهم باستمرار، وكأنهم على ظهور الخيل، ويبدو أن الكلمات التي يستعملونها والاناشيد التي يرددونها تتطلب إيقاعاً خاصاً، تساعد الحركات على ضبطها وادائها. وهؤلاء الرجال الذين يلعبون دوراً بارزاً أثناء سير المظاهرات يتنقلون من كتف لآخر، وكثيراً ما يتقدم المتظاهرون ويتزاحمون من أجل حملهم، ويصدف أن تقع بعض الحوادث المضحكة اثناء انتقالهم على الاكتاف، فقد صادف أن رأيت أحدهم يسقط، ورأيت آخر يكاد ينفسخ من الوسط نظراً لانتقال إحدى ساقيه من الكتف الذي كان محمولاً عليه إلى كتف جديد وبقاء الساق الأخرى على كتف الرجل الأول. إن حالات مثل هذه كثيراً ما تقع، خاصة وان انتقال هؤلاء الرجال يجري في فترة قصيرة، ربما لكي لا يتعب الذين يحملونهم، أو رغبة من الجميع في المشاركة.

يظل المحرضون يقومون بالدور الاساسي إلى حين وصول المظاهرات

إلى أحد الميادين، عندها ينتهي دور هؤلاء ليتقدم الزعماء السياسيون. الزعماء يلقون الكلمات والاشعار، وكثيراً ما استعملوا الشتائم البذيئة في وصفنا. تتخلل الكلمات والاشعار هتافات، غالباً ما يرددها المحرضون أنفسهم، ويتبع هذه الهتافات التصفيق، ثم يعود الزعماء من جديد إلى الكلام. وفي حالات عديدة تمتد الكلمات وتستمر وقتاً طويلاً، ويبدو أن الناس العاديين لا يميلون إلى هذا النوع، إذ تجد أن الهدوء الذي يسود الجو في بداية أية كلمة لا يلبث أن يتحول إلى همهمات صغيرة ثم إلى ضجيج، الأمر الذي يدفع المهيجين والمحرضين إلى الهتاف والصراخ، وهذا بدوره يعقبه هدوء يتيح للخطباء أن يواصلوا كلماتهم وأشعارهم!

الخطباء تماماً كالمحرضين: وجوههم متجهمة، يستعملون أيديهم كثيراً، ويبدو أن الشرقيين بصورة عامة يحبون استعمال الايدي، أو أن الأيدي تعتبر وسيلة إضافية في التعبير. وإلا كيف يمكن تفسير هذه الحركة المستمرة؟

وفي هذه المظاهرات لا تشارك النسوة إلا بمقدار محدود، إذ غالباً ما يقفن على أبواب البيوت، وحين تمرالمظاهرات يخرجن من أفواههن أصواتاً معينة، ويرددن كلمات غامضة متداخلة، حتى أن كثيراً من الذين عملوا معي كان يستعصي عليهم فهم بعض الكلمات أو ترجمتها. وفي حالات معينة كانت النسوة يرمين على المظاهرات التي تمر أوراق الاشجار الخضراء والعطور وقطعاً من الحلوى، وعندها يتراكض الصبية الصغار لخطفها، وهذا يفسد وقع المظاهرات ويؤخرها، لكنه يقابل من الرجال بحماس منقطع النظير، ويدفعهم في حالات مثل هذه إلى الانفعال الشديد والهياج!

من أين تبدأ المظاهرات وإلى أين تتجه؟ لا أحد يستطيع أن يقدر. إذ يمكن أن تبدأ اليوم من هذا المكان، لتنتقل في اليوم التالي إلى مكان آخر. ويمكن أن تنتهي في مكان معين، لكن يمكن أن تنتهي في أي مكان غيره. ونفس الأمر يمكن أن يقال عن الوقت. قد تبدأ المظاهرات في الصباح الباكر وقد تبدأ وقت الغروب، إن ذلك يعتمد على المزاج أو

الطقس أو عوامل أخرى لا تبدو واضحة أو منطقية.

إن عشرة صبية قادرون على أن يبدأوا مظاهرة، إذ يكفي أن يركض هؤلاء في الشوارع ويصرخوا حتى يجاريهم الكبار. إن عدوى المظاهرات سريعة وتنتقل من مكان إلى آخر بمنطق خاص في هذا البلد لا تعرفه البلاد الأخرى.

إن الشعوب البدائية تلتذ كثيراً وهي تقوم بأعمال العنف، ورغم أن الشرطة لاتقاوم المظاهرات، إلا أن حوادث العنف كثيرة لدرجة لا تخلو مظاهرة واحدة منها، وتقع في بعض الحالات حوادث قتل. صحيح انني لم أرَ حادثة قتل حتى الآن، إلا أن الزملاء الذين قضوا فترة أطول هنا يؤكدون أن حوادث كثيرة وقعت في مرات سابقة!

الطبيعة تلعب دوراً في زيادة أو تقليص حالات الهياج والعنف. وربما كان أحد دوافع الفقراء للمشاركة في هذه المظاهرات محاولة التغلب على البرد والكسل، ففي داخل هذه الكتل المتهيجة يزول البرد، ومن العنف الذي يمارسونه لا يشعرون أنهم بحاجة إلى أماكن دافئة. أما إذا سقطت أمطار غزيرة فإن المظاهرات تتفرق دون أن يطلب أحد، وكثيراً ما يتخلل ذلك المزاح والضحك بصوت عالٍ والقيام بحركات تمثيلية.

إن دراسة التصرفات التي ترافق المظاهرات، وتحليل نوعية الجماهير المشاركة فيها، والتعرف على الناس الذين يمارسون تهييج الجماهير، ومعرفة الدوافع الكامنة وراء كل ذلك، إن دراسة مثل هذه يمكن أن تلقي أضواء واضحة على تكوين هذه الشعوب وتفسير سلوكها. ودراسة مثل هذه يجب ألا تكتفي بمرحلة معينة، إذ ربما رصد مراحل متعددة من شأنه أن يفسر الظاهرة أكثر ويعطيها أبعاداً تختلف عما يمكن أن يقدره الانسان من النظرة الأولى.

ربما كان الحديث عن المظاهرات أمراً لا يستحق هذه الصفحات كلها، ولا يستدعي التوقف طويلاً، لكن كيف يستطيع أي أجنبي أن يتجاهل حالة مثل هذه إذا كانت هي المشهد الاساسي الاول الذي ملأ

عينيه وفاجأه قبل كل شيء؟ كيف يستطيع أن ينسى ذلك المنظر المرعب الذي استقبله منذ اللحظات الاولى لوصوله إلى مدينة جديدة وإلى شعب جديد؟»

(٤)

لا يمكن فهم هؤلاء الشرقيين بسهولة، إذ بقدر ما هم بسطاء بقدر ما هم في غاية التعقيد والغموض. حتى أقرب الناس إليك لا تستطيع أن تكتشف ما يدور في رأسه، إذ كثيراً ما تفاجئك تصرفاته وردود فعله. لماذا يتصرف الناس بهذا الشكل؟ لماذا تكون ردات فعلهم على هذا النحو، علماً بأن المنطق والتقدير السليم للأمور يدفعانك إلى تصور شيء آخر؟ سأبقى فترة طويلة غير قادر على الاجابة على مثل هذه الأسئلة. ودون الدخول في أية تفاصيل، لا بد من التأكيد أن هؤلاء الشرقيين لهم طبائع خاصة وغريبة، فهم أقرب إلى الحذر والارتياب، يشكون كثيراً في كل شيء، رغم الثبات الظاهري الذي تلمسه في وجوههم. انهم أقرب إلى الحيوانات المتوحشة، لا يثقون بالآخرين، ولا يمكن أن يفسر سلوكهم وتصرفاتهم بحسن نية، وهذا الشيء تلمسه في كل المستويات، من سائق التاكسي حتى قمة السلطة. يبدون أغلب الأحيان مهذبين، يستمعون بأدب، يبتسمون، ينظرون إليك نظرة ودودة، لكن تحس وراء هذا كله أنهم لا يثقون أبداً في كل ما تقول أو تفعل!

أمين، الخادم الذي يظل في الغرفة الصغيرة المجاورة لغرفتي، ينتظر أن يلبي أي طلب بسرعة خارقة، لا يمكن أن ادّعي معرفته، رغم مرور ستة شهور على إقامتنا المشتركة. لا يذهب إلى بيته إلا مرة في الأسبوع، يذهب مساء الخميس ويعود مساء الجمعة، وخلال هذه الفترة القصيرة، والتي غالباً ما تكون أقل من أربع وعشرين ساعة، خلال هذه الفترة يعود إنساناً جديداً، وكأني أراه لأول مرة في حياتي. ألمس ذلك من نظرته الأولى إليّ: انه يتفرس في وجهي، ينظر إليّ بعينين جديدتين، كأنه يريد أن يكتشفني، أو كأنه يريد أن يتأكد فيما إذا عرفت عنه شيئاً جديداً، ولا يقتصر الأمر على النظرات، إن ردات فعله تجاه كل طلباتي تختلف عما أعرفه فيه. حين يعود يصبح بطيئاً في الفهم وفي الاستجابة، كما يتعمد أن يحك رأسه دون ضرورة، وتبدو يده مضطربتين حين يضع لي الثلج في كأس الويسكي، ويحرك صحن السجائر من موضعه دون داعٍ أو ضرورة، ويتلفت كثيراً حواليه.

قلت لأمين ذات مرة أريد أن أصل لقرار أخير:

ـ سوف أصرفك من الخدمة يا أمين، ماذا تقول؟

بدت على وجهه علامات الخوف أكثر من علامات الاستغراب والتساؤل، ولفترة غير قصيرة بدا وكأنه لا يصدق الكلمات التي قلتها، وزيادة في تحريضه، قلت:

ـ اعتبر نهاية هذا الأسبوع نهاية عملك عندي.

ـ ولكن ماذا فعلت، يا سيدي، حتى تطردني؟

ـ أنت رجل مسن: يداك ترتجفان، سمعك ثقيل، ويجب أن تستريح

ـ ما زلت قوياً، يا سيدي، وأستطيع أن أفعل كل شيء!

ـ لا.. لم تعد قوياً.. ويجب أن تستريح.

ـ لا أستريح إلا إذا عملت يا سيدي، إذا تركت العمل يمكن أن أموت بعد أسبوع.

ـ إنك تسهر كثيراً، وتتعب، وهذا التعب بالذات سيؤدي إلى موتك بسرعة.

ـ تخطىء كثيراً إذا فكرت هكذا يا سيدي، فأنا لا أعرف الراحة إلا بالعمل.

ـ لا يمكن أن تقنعني يا أمين، ويجب أن تستعد لتترك العمل.

ـ ولكني لا أستطيع.. لا أستطيع.

ـ سوف أطردك.

ـ ولكنك لن تفعل ذلك، يا سيدي، ولن تتركني أموت جوعاً.

ـ وماذا إذا دفعت لك راتبك على أن تبقى في البيت؟

ـ ولكن، يجب أن أعمل.

ـ لست بحاجة إليك.

ـ أنا بحاجة إليك يا سيدي.

ونظر إليّ أمين نظرة فيها انكسار وحزن كأنه يستعطفني، قلت له بسرعة وبلهجة جديدة:

ـ كنت أمزح معك يا أمين، سوف أدفع لك مكافأة في نهاية هذا الشهر، وسوف تبقى عندي حتى آخر يوم لي في هذا البلد.

فجأة تغيرّ وجهه ونظراته، لكن ظل شاكاً في كل ما قلته، سواء حول صرفه من الخدمة أو إعطائه مكافأة. قال لي بصوت هادىء مليء بالشك:

ـ هل أحضر مزيداً من الثلج يا سيدي وأصنع العشاء؟

ـ ولكن لم تقل لي رأيك حول انتهاء عملك وحول المكافأة.

ـ أنت رجل طيب ولا تفعل إلا شيئاً طيباً!

ـ هل تريد أن تؤثر عليّ وتحملني عل اتخاذ قرار لمصلحتك؟

ـ ولكنك لن تفعل شيئاً يؤذي رجلاً مسناً!

ـ قلت لك: سأدفع لك راتبك على أن تبقى في البيت.

ـ أريد أن أبقى هنا، معك، يا سيدي!

ـ ولكن لماذا؟ قل لي بحق الشيطان؟
ـ لأخدمك، لأكون إلى جانبك، يا سيدي.
ـ ولكني لا أحتاج إلى هذه المساعدة.
ـ بل تحتاجها.
ـ يمكن أن يؤمنها لي رجل غيرك.
ـ ولكني أستطيع أن أقدم المساعدة التي تحتاجها يا سيدي.
ـ وماذا لو شربت معي كأساً يا أمين؟
ـ لا أشرب يا سيدي، أنت تعرف ذلك جيداً.
ـ هل الدين يحرّم ذلك؟
ـ بالتأكيد يا سيدي.
ـ ولماذا تسمح لي أن أشرب؟
ـ لك أن تفعل ما تشاء يا سيدي ولكن الله سيعاقب الذين يشربون.

وصمت. كانت عيناه تضحكان في هذه اللحظة، وكأنه لم يصدّق أية كلمة قلتها، أو كأنه يشعر بلذة أن الله يمكن أن يجعله أفضل مني، أو يجعلني موضع عقوبة. قلت استفزه:

ـ أنا لا اؤمن بشيء يا أمين. أقصد إن ليس بعد الموت شيء، ماذا تقول؟

ظل صامتاً فترة طويلة، لكن لاحظت على وجهه علامات التحدي والخوف والشهوة، ولاحظت أكثر من مرة أنه حاول الكلام، لكنه يتوقف في اللحظة الأخيرة، ولكي يغير الجو كله، سألني من جديد إذا كنت بحاجة إلى الثلج أو إلى اعداد الطعام، لكن ظل أمين شيئاً محيراً. لأن تصرفاته كلها لا تدل على الاستقرار أو الهدوء.

إن غني، الذي يعمل في بيت عباس، هذا الشيطان المهرج، الخطر، يشبه أمين كثيراً، وان كان أكثر دهاء ويتظاهر، بعض الأحيان، بالبلاهة، ليقول كل ما يريد. ان غني أو أمين، أو أي واحد غيرهما ليس

ظاهرة فردية!

أمين ليس واحداً، إنه كل الشعب. والذي لمسته عند أمين ألمسه أو ألمس شيئاً شبيهاً له عند الآخرين: الخدم، السواق، الذين يعملون في الحديقة، الحرس. انهم ينظرون إليّ كأني دمية، لا يملّون أبداً من النظر إليّ وكأنهم لا يصدقون وجودي، أو يعتبرونه شيئاً مختلفاً عن وجودهم، وكثيراً ما نظرت إليهم فجأة فرأيتهم يراقبونني، وحتى في حالات معينة كانوا ينظرون إلّي من النافذة، كنت أراهم واكتشف تصرفاتهم الرديئة، وكنت أعاقبهم، لكن لم يتوقفوا أبداً عن المراقبة. هل يراقبونني فعلاً؟ هل يريدون شيئاً محدداً؟ افترض ذلك. وعلى ضوء هذا الافتراض اتصرف، لكن لاحظت أيضاً أنهم لا يريدون أشياء هامة. تعمدت أن أترك بعض الأوراق، تعمدت أن أترك كمية كبيرة من الفلوس، المحلية والأجنبية، تعمدت أن أقوم بأعمال معينة، لكن أغرب شيء انهم لم يقوموا بتصرفات يمكن أن يفهم منها المرء إحساساً خطراً أو ذا قيمة.

مع ذلك يجب أن يراقب الإنسان تصرفاتهم بحذر، ويجب أن ينتبه أشد الانتباه، إذ ربما كانت هذه التصرفات على درجة كبيرة من الدقة والبراعة، بحيث تظهر لأول وهلة وكأنها بريئة أو لا تثير الشك، حتى إذا اطمأن الانسان ولم تساوره المخاوف لجأوا إلى ما يريدون!

وماذا أيضاً؟

إنهم أحياناً يتظاهرون بعدم الفهم ويتسترون وراء ذلك، وربما لجأوا إلى الصمت أو ترديد بعض الكلمات. إنهم يحاولون بأساليب شتى ألا يقولوا شيئاً محدداً. يقولون كلمات عامة لا تعني شيئاً، يقولون «لا نعرف»، يهربون، يكذبون ويتظاهرون بالبراءة. سألت أمين، وسألت أحمد، وسألت عدداً آخر من العاملين عندي لماذا يلجأ الشرقيون كثيراً إلى الكذب، لم أظفر بجواب مقنع. أمين وحده قال لي ذات مرة بعد أن الححت عليه كثيراً لكي يفسر لي هذه الظاهرة العجيبة:

ـ الكذب ملح الرجال!

ـ ملح الرجال؟ ماذا تعني؟
ـ اقصد يا سيدي أن الكذب ضروري في حالات معينة!
ـ في حالات معينة؟ أية حالات؟
ـ عندما لا يجد الإنسان وسيلة إلا أن يكذب!
ـ ماذا تعني؟
ـ لا أعرف بالضبط لكن في حالات معينة يضطر الإنسان إلى الكذب.
ـ ولكنهم هنا يكذبون كثيراً، في كل شيء، في كل وقت!
ـ لا أعرف..
ـ وهل بدأت تفعل مثلهم يا أ أمين؟
ـ ماذا تقصد يا سيدي؟
ـ لماذا تكذب علي الآن؟
ـ لم أفعل، لم أكذب يا سيدي!
ـ لماذا تقول لا أعرف وأنت تعرف؟
ـ ماذا

طبيعي لم أخرج بأية نتيجة، لكن يبدو أن هذه الطريقة تتيح لهم خيارات عديدة يريدونها أن تظل أمامهم، ولذلك يتصرفون بهذا الشكل!

هل لعب الدين دوراً في خلق هذه الشخصية المتناقضة؟ وهل للتاريخ دور في اتباع هذه الأساليب الملتوية واللجوء إلى الغموض؟

لا يمكن أن يجزم الانسان بذلك، لكن لا يمكن أن يعتبر هذه العوامل بعيدة أيضاً. إن أية عادات أو صفات في شعب من الشعوب تقررها أمور عديدة، ويبدو أن الدين لعب دوراً بارزاً في حالة التناقض والغموض التي تميز الإنسان الشرقي.

يضاف إلى ذلك أن حالة الفقر المسيطرةفي هذه البلاد تدفع الإنسان إلى الاحتيال وإلى اتباع الأساليب الملتوية، والتي من شأنها أن تفسح لهم مجال الحياة والاستمرار، لكن بالمقابل ألا يحق للإنسان أن يتساءل إلى أي مدى يمكن للصدق أن يلعب دوراً أكثر نفعاً في خلق مجالات للحياة؟

والدين. . . ألم يكن عاملاً إيجابياً في الغرب لخلق قواعد للتعامل بعيدة عن الكذب والغموض والتناقض؟

إن التمعن في حياة الشرقيين يكشف أموراً على جانب كبير من الغرابة!

ويجب على الانسان أن ينتبه إلى قضية أخرى تميز الشرقيين: قضية المبالغة في كل ما يقولون أو يفعلون. إن الكلمات لا تعني لهم شيئاً محدداً، وهم لذلك يقولون أشياء كثيرة لا يعنونها. إنهم أبنـاء اللحظة الحاضرة. يمكن أن يجعلوا أكثر الأمور صعوبة أسهلها وأقربها، حتى إذا جاءت اللحظة التي تطالبهم فيها بالتنفيذ وقفوا أمامك كالبلهاء لا يعرفون عما تتحدث أو لا يعرفون كيف يتصرفون!

والحياة الشرقية أيضاً مليئة بالقذارة والسرية والتلون.

ولا يقتصر الأمر على البشر وسلوكهم بل يتعداه إلى الطبيعة ذاتها.

البرد قاسٍ، ويزيده قسوة بدائية الوسائل المستعملة للوقاية منه. في الهواء الطلق، حين تكون درجة البرودة دون الصفر، يوقدون حطباً في أوعية بدائية جداً، يخترعونها في اللحظة، ويجلسون حولها. الدخان يملأ الجو، رائحة الحطب المحروق الرطب تملأ الرئات، الريح الباردة تذرو الرماد لتدخله في الأفواه، والعيون. بكلمة واحدة أن الشعور بالدفء الذي يحصلون عليه هو بالدرجة الأولى شعور نفسي لا واقعي، وما يرافق ذلك من تصرفات فظة وكلمات كبيرة ليس لها أي مدلول أو معنى!

إذا انتهى فصل الشتاء هجم الربيع فجأة.

فصل الربيع هنا لا يمكن أن تخطئه روح الإنسان، حتى قبل أن تراه عيونه. إنه شيء خارق. يتفجر بشكل مباغت دون تمهيد أو إنذار، عدا بضعة أيام من الحر المفاجىء السريع، تعقبها حالة لا يمكن وصفها. كل شيء يتبدل: رائحة الهواء، رائحة الأرض، شكل الطبيعـة بأشجـارها وأزهارها وطيورها وفراشاتها، حتى الحشرات الصغيرة التي تربض عميقاً في الأرض، تخرج إلى السطح فجأة، وتشارك في هذا المهرجان الغريب!

في الأماكن الأخرى، في بريطانيا، وحتى في القسم الجنوبي من فرنسا، المحاط بالجبال والمعروف بدفئه النسبي، يبدأ الربيع يعلن قدومه باحتفالات صغيرة متلاحقة: بتحسن الهواء التدريجي، بطول النهار، بانقطاع الأمطار أو تباعد سقوطها، ثم تبدأ الأشجار تخضر، وإن كان بخجل، حتى إذا انتصف شهر مايو، وأصبحت الشمس حارة، بدا الربيع ظاهراً جميلاً كاملاً.

هنا لا يبدأ الربيع هكذا، إنه إنفجار مفاجىء ولا يمكن للإنسان أن ينساه أبداً.

ورغم الرطوبة في الجو، والتي تسببها أمطار غزيرة مفاجئة، فإن رائحة الطبيعة تصخب في عقل الإنسان وقلبه حتى تكاد تخنقه وتشعره بمدى ضآلة المخلوقات إزاء حالة الخلق الكبرى.

لا يمكن أن أنسى أيام الربيع في هذا الشرق أبداً!

لكن بمقدار الصخب الذي تفجره الطبيعة في لحظات مجنونة مثل هذه، بحيث يتعذر على الإنسان أن يتذكر ما قبلها، فإن هذا الصخب ينتهي فجأة أيضاً، وبشكل سريع، ليأتي بعد ذلك صيف لا يعرف الرحمة أو التوقف.

الشرق بكلمة واحدة: الشمس.

حين تتسلّق الشمس الأفق الشرقي، ومنذ اللحظات الأولى، تبدأ الدنيا تغلي، ثم تشتعل، وأخيراً تلتهب، وتظل هكذا طوال النهار وقسماً طويلاً من الليل. وإذا كانت الحرارة تنسكب من السماء خلال ساعات النهار كلها، فإنها تنبع من الأرض، من الجدران، من الأشجار، من كل شيء، بعد أن تختفي الشمس وراء الأفق الغربي.

الشمس هي إلاهة الشرق، هي التي تكوّن كل شيء فيه. والشرقيون يخافون الشمس ـ الإلاهة أكثر مما يحبونها، ويمكن رؤية آثارها في الحياة كلها هنا. في الوجوه، في الرمال التي تدفعها الصحراء، في الأرض العطشى المتشققة، في الجفاف القاسي الذي يبدأ من يباسة شفاه

الأطفال حتى احتراق الأشجار؛ ولذلك تراهم هنا لا يذكرون الشمس إلا همساً، عكس ما يتردد في الأشعار الانكليزية، وفي لوحات أوروبا، وفي الشوق الانكلوسكسوني للاستحمام بها والبحث عنها.

وتنعكس آثار الشمس هنا على الحياة كلها، فالحياة أثناء النهار كسولة ملولة نزقة. كما تظهر آثارها في أخلاق الناس وسلوكهم، إنهم في هذه الفترة من السنة، وهي في الحقيقة معظم أيام السنة، لا يميلون إلى الكلام، ولا يطيقون الثرثرة، وهي إحدى هواياتهم، ويفضلون النوم، ويلجأون إلى كل الأساليب السهلة التي من شأنها مقاومة الحرارة: يضعون أرجلهم في أوانٍ مليئة بالماء، يضعون خرقاً مبلولة على رؤوسهم وجباههم، يشربون كميات كبيرة من السوائل، يرشون الأرض، أينما جلسوا بالماء، ولا يملّون من أن يكرروا ذلك مرات عديدة طوال الليل والنهار!

ونتيجة لهذا الجو فإن البيوت أعدت بشكل يوفر أقصى حدٍ من البرودة، لذلك فإن جميع البيوت تقريباً، عدا الحديثة، يبنى قسم كبير منها تحت الأرض، على شكل مغاور وبدون نوافذ، إلاّ مداخن هوائية ملتوية تصل هذه المغاور بالسقوف، وتسمح بوصول الهواء الرطب إلى داخلها، لكن جوها يبقى عفناً وبعيداً عن الشروط الصحية. في هذه المغاور، والتي تسمى السراديب، يقضي الناس معظم ساعات النهار، حتى الأطفال الذين لا يمكن التحكم بحركاتهم، يجبرون على البقاء فيها، لأن تعرضهم إلى الشمس يمكن أن يؤدي إلى الوفاة الفورية.

أما في الليل فإن الناس، كالنمل، تماماً، يخرجون إلى الهواء؛ إذ بعد ساعات طويلة قضوها تحت الأرض، يخرجون، ويظلون هكذا حتى مطلع شمس اليوم التالي. وحين ينامون فإنهم ينامون تحت السماء مباشرة، على سطوح البيوت، داخل البساتين، على الأرصفة، المهم ألا يكون فوقهم غطاء من أي نوع، وكأنهم بهذه الطريقة يعرضون أجسادهم للهواء لعله يمتص الشمس العالقة في كل ذرة من ذرات هذه الأجساد.

قيل لي أن عدداً كبيراً من الفقراء ينامون في المقابر، لأن المقابر هنا

على شكل مغاور كبيرة تحت الأرض، وفي هذه الأماكن الرطبة يمكن أن يتقوا حرارة الشمس أو يخففوا من آثارها؛ وقيل لي أيضاً أن عدداً وفيراً من الناس ينامون النهار كله، حتى إذا جاء الليل انطلقوا يعملون ما كان يجب أن يعملوه في النهار! ويفاخر بعض الناس أنهم لم يروا الشمس من وقت طويل، وفي هذا دلالة كافية على الكراهية التي يكنونها لهذه الآلهة!

كل غريب يلاحظ طبيعة الحياة الرخوة في الأسواق والشوارع خلال ساعات النهار، أما إذا جاءت ساعة الظهيرة فإن المدينة تصبح خاوية وكأنها مهجورة. لا يمكن أن تلتقي بانسان، وحتى الذين تلتقي بهم مصادفة، فإنهم عبارة عن جثث فاقدة الحركة والحياة. إنهم نيام تماماً، أو عاجزون عن أية حركة، وفي حالة من الرخاوة والتلاشي، بحيث لا يستطيعون أن يؤدوا عملاً، أي عمل. تجد بعضهم وقد وضع كرسياً كبيراً في مدخل حانوته واستلقى عليه، وتجد بعض الحوانيت مفتوحة وأمام أبوابها كراسٍ فارغة موضوعة في منتصف الأبواب، دلالة أن لا أحد فيها، وبعضهم يضع عصياً بشكل مائل دلالة أن الحانوت مغلق. وحين تعود الحياة إلى الشوارع، عند الغروب، تعود بطيئة ثقيلة وفاقدة للحيوية أو النشاط، لكن بتقدم الساعات، وبحلول الليل، تعود الحياة تدريجياً.. وهكذا!

الليل هنا سر كبير، إذ بمقدار الخشونة الجارحة التي يتميز بها النهار، فإن ليالي الشرق تشبه ربيعه، وقصيرة مثل الربيع أيضاً.

في الليل يطيب الهواء، وفي الليل تتفتح خلايا الانسان للحياة والشهوة والغرق في الأشياء. تصبح لذة الحياة، في الليل المتأخر، جارحة ومتفجرة وراغبة في أن تفعل وتتفاعل، ويبدو أن هذه الحالة سبباً في السرية التي تميز حياة الشرق والشرقيين، إذ في هذه الليالي تطول حياة الناس وتستمر، ولأنها طويلة ومستمرة ترافقها الأحاديث والهواجس والأفكار والأحلام، ومع الخوف تنتقل كل الأشياء إلى الداخل، تماماً كما ينتقل الناس من فوق الأرض إلى تحتها، ويرافق ذلك تكوين الحياة

وتفاعلها لتصبح في النهاية سراً غامضاً حتى لأصحاب السر أنفسهم!

إن الطبيعة أحد الأسباب الرئيسية في أن يكون الشرقيون هكذا، وهذه الطبيعة ذاتها تؤثر على الأجانب والحيوانات وكل شيء أيضاً. فالأجانب يميلون في البداية إلى تحدي الطبيعة. يرفضون قبولها أو الامتثال لها، لكن إزاء ردود فعل الشرقيين وتعاملهم معها هكذا، لا تلبث العدوى أن تنتقل تدريجياً إليهم. أعرف مواطنين لنا أصبحوا يفضلون النوم خلال النهار، بعد وجبة الغداء مباشرة. وأعرف عدداً كبيراً من الأجانب يمارسون السهر الشرقي، تماماً كما يفعل الشرقيون، وتبريرهم لذلك أيضاً قسوة الطبيعة!

أما الحيوانات فأقل ما يقال عنها أنها حيوانات شرقية: كسولة، بليدة، بطيئة الحركة وعديمة الاستجابة. يقف الحمار ساعات طويلة في مكانه تحت الشمس المحرقة لا يتحرك. أما القطط والكلاب وغيرها من الحيوانات، فإنها لا تستجيب مطلقاً لدعوة الأكل، بل تفضل الأماكن الرطبة وتجلس وتنام فيها ساعات طويلة، معرضة نفسها للأذى والمخاطر دون أية إمكانية لمقاومة ذلك. وتنشط هذه الحيوانات في الليل، تماماً كالإنسان.

ويمكن لأي غريب أن يتابع الموضوع إلى ما لا نهاية ليرى أثر الطبيعة في تشكيل الحياة والانسان في هذه البقعة من العالم، وإذا كانت هناك ضرورة الاشارة إلى الطبيعة فلكي يرى الإنسان نتائجها وأثرها في موقف الإنسان الشرقي تجاه الأشياء الأخرى!

* * *

(٥)

«لا يمكن أن تستمر الأمور هكذا. إن كل يوم جديد يمر يجعل الحل أبعد وأكثر صعوبة. يجب أن تفعلوا شيئاً حازماً وسريعاً. الأميركيون بدأوا بالوصول إلى هنا على نطاق واسع، وأصبحوا أقل ميلاً للتشاور معنا حول الخطوات التي يجب اتخاذها. معلوماتنا تشير إلى أنهم بدأوا بمغازلة العجوز ووعدوه بقرض. حين سألت هوفر عن ذلك انفعل ونفى ذلك بشدة، وانفعاله ونفيه دليلان يؤكدان أن بحثاً مثل هذا يجري الآن. قال لي هوفر امس، في ساعة من الساعات التي يتحرر من صفته كمسؤول ويجري الحديث بيننا دون اتفاق سابق أو ترتيب:

«ـ أرى أن تتركوا الأمر، لأن العجوز على وشك أن يتفق مع «الآخرين»، وكل محاولة للتضييق عليه من شأنها أن تدفعه أكثر بالاتجاه الآخر.

ـ وهل الاتفاق مع «الآخرين» أصبح أكيداً؟

ـ ألا ترى الصمت الذي يحيط بتحركاتهم كلها؟ ثم ماذا يعني عدم ظهور الثعلب خلال الأيام الثلاثة الأخيرة إن لم يكن قد ذهب إلى هناك؟

ـ وما الحاجة لسفر الثعلب ما دام ممكناً ترتيب الأمور كلها هنا؟

ـ ولكن «الآخرين»، لا يثقون حتى يضعوا عيونهم في عيون الذين يتحدثون معهم. وهذه الطريقة وحدها تمكنهم من أن يكتشفوا إلى أي مدى تعني الكلمات التي يقولونها الحقيقة!

ـ ألا يصدقون رجالهم هنا؟

ـ يصدقون ولا يصدقون. إن «الآخرين» شرقيون بمعنى ما، أنهم مليئون بالشك، ولا يمكن أن يتأكدوا حتى ترى عيونهم وتلمس أيديهم ويتذوقوا!

ـ إنك تبالغ كثيراً يا مستر هوفر، وأنتم أكثر خوفاً وشكاً من أية جهة كانت!

ـ لا نخاف أحداً ونعرف كيف نتصرف!

ـ لا أشك أبداً يا مستر هوفر، ولكن ماذا يمكن أن نفعل الآن؟

ـ أن نستمر فيما نحن فيه!

ـ ماذا تعني؟

ـ أن نستمر في شرب الويسكي... ألا توافق؟

ـ بالتأكيد مستر هوفر، ولكن ماذا يمكن أن نفعل إضافة إلى ذلك؟

ـ أن نبحث عن النساء والأكل الطيب...

وضحكنا، لكن لأسباب مختلفة، فقد أحس هوفر أني أريد معرفة خطواتهم القادمة، وهو لا يريد أن يتورط في أي حديث بهذا الشأن!

وفي النهاية استطعت أن أفهم، وبالتقدير، انهم ينوون فعل شيء ما، لم يفصح، ولم أستطع أن أحدد بالضبط ماذا سيفعلون، لكن أحس بذلك وأتوقعه.».

في الأيام الأخيرة جاء عدد كبير من الأميركيين. اكتشفنا ذلك بالصدفة، من خلال إحدى الأخطاء الصغيرة التي وقع فيها ماكس، دون تعمد، وقد كان ثملاً بعض الشيء. طلب عدداً من بنادق الصيد، وحين سألناه عن العدد الفعلي الذي يريده قال إن عدداً من الذين جاءوا هواة

حقيقيون للصيد.

ـ وكم عدد هؤلاء.

ابتسم وهز رأسه بطريقة معينة دلالة أنه فهم!

حين بدا السؤال مكشوفاً، قلت له:

ـ كم بندقية تريد؟ أجاب بعصبية:

ـ اواه.. كل ما أقصده أن لدينا مجموعة من الأصدقاء لا يملكون بنادق للصيد.

ـ بالتأكيد ليسوا من هنا.

ـ وكيف تسنى لكم أن تعرفوا!

ـ بالتقدير. وهؤلاء جاءوا من الولايات المتحدة للسياحة. أليس كذلك؟

ـ إن هؤلاء السياح مزعجون أكثر من أي شيء آخر. طلباتهم لا تنتهي، ومستر هوفر لا يتردد في تلبية أي من الطلبات السخيفة التي يتقدمون بها!

في وقت متأخر أحس ماكس بالخطأ الذي وقع فيه. حاول بأشكال كثيرة، وعدة مرات، أن يعود للموضوع، قال إن هؤلاء السياح خليط من العجائز والرجال المسنين، ومن جنسيات مختلفة، وليسوا أميركيين. وعاد من جديد للموضوع مرة بعد أخرى، حتى بنادق الصيد التي طلبها في البداية، لم يلبث أن تنازل عنها، وقال إنه بحاجة لاثنتين فقط!

ماذا يفعل هؤلاء؟ متى جاءوا وإلى متى سيبقون؟ وما هي الصفة التي تنكروا بها؟ لا أحد يستطيع الآن أن يعطي اجابة قاطعة، لكن سنراقب هذا الأمر بدقة، وفيما إذا توفرت لكم وسائل للمراقبة أو التأكد يمكن أن تتثبتوا من ذلك. كما أن صديقنا في المطار وعد أن يقدم لنا قوائم كاملة بأسماء المسافرين الذين قدموا إلى البلاد وجنسياتهم خلال المدة الأخيرة، لكن يبدو أن هؤلاء الشياطين لم يأتوا كلهم عن طريق المطار، وإنما تعمدوا الدخول من مراكز الحدود المختلفة، لكي يخفوا الأسباب الحقيقية وراء مجيئهم، كما أن بعضهم لا يأتي مباشرة إلى العاصمة.

سنحاول التأكد من ذلك خلال الفترة القريبة القادمة، أما الآن فإن أهم شيء مراقبة الأصدقاء. ما هي التوصيات أو الاقتراحات التي تقدمونها في هذا الشأن؟»

وكتب بيتر في يومياته حول السأم الذي بدأ يسيطر عليه، والرغبة في اجازة يقضيها مع باتريشيا والصغار. وفكر أن يذهب إلى جنوب فرنسا فترة قصيرة، وكانت حياته الماضية تمر أمامه كشريط من المصاعب والظفر. لكن الأيام التي يعيشها الآن، ظلت تفرض نفسها بقوة، وظلت تخلق في نفسه حالة من الخوف والهواجس والأحلام.

كتب في دفتره الأزرق يقول:

«الحرارة... الحرارة هنا لا تصهر كـل شيء، وإنما تبلده. كنت أتصور قبل مجيئي إلى هنا أن قدرة الانسان تتناسب تناسباً طردياً مع حرارة الطقس، إذ كلما بدأ الطقس يميل إلى الدفء، كلما زادت قدرة الانسان على الحركة والعمل. أتذكر الأيام الشديدة البرودة في لنـدن، إذ رغم العادات الجيدة التي تعودتها أثناء الخدمة العسكرية، فقد كنت انتـزع نفسي من الفراش بصعوبة، وأحس بخيبة حقيقية عندما يصفعني البرد.

الجو هنا لا يطاق، وحتى درجة الحرارة التي يعلنونها في الجريدة الانكليزية التي تصدر هنا ليست حقيقية، وفي تعليل ذلك يقول الخبثاء: إن الاعلان عن الحرارة ببضع درجات أقل، جزء من الخلق الشرقي الذي يهوى المساومة والمفاوضات القاسية، والتأثير على الأجانب. وقد يكون وراء هذا التصرف محاولة لخلق طمأنينة زائفة لدى الذين يقرأون اللغة الانكليزية من الأجانب أو من أهل البلاد؛ علمًا بأن الجرائد التي تصدر باللغة المحلية كثيراً ما ذكرت أرقاماً مختلفة لدرجة الحرارة عن الجريدة الانكليزية.

كيف يلبس الشرقيون وماذا يأكلون؟

حين كانت السيارة تقطع الطريق بين المطار والفندق شعرت بسرور غامر، قلت لنفسي: «أنت محظوظ جداً يا بيتر... لقد وصلت إلى المدينة فى يوم عيدها، وفي مثل هذه الأعياد تسقط الأقنعة ويتصرف النـاس

ببساطة، وهذا ما أريده في اليوم الأول على الأقل، انه فأل حسن».

ودون أن التفت إلى مستر جيمس ظللت أرقب الشارع ووجوه البشر والأشياء. إن النظرة الأولى لأية مدينة تترك في النفس شعوراً ما، صحيح أن هذا الشعور لا يلبث أن يتغير تبعاً لعوامل كثيرة، على رأسها زيادة الاطلاع والمعرفة، إلا أن الشعور الأول من الأهمية والتأثير بحيث يظل عالقاً بالذاكرة فترة طويلة من الزمن.

بعد أن تشربت عيناي هذا الكرنفال المستمر، الذي بدأ من مشارف المدينة، وظل ينمو ويتسع والسيارة تتجه إلى المركز، قلت لمستر جيمس:

ـ أشعر بسعادة حقيقية يا مستر جيمس لأني وصلت في وقت مناسب، أقصد هذا اليوم، وسوف يكون هذا فألاً حسناً!

ردّ مستر جيمس:

ـ وأنا أشعر بالسعادة للتعرف عليك يا مستر ماكدونالد!

شعرت أننا نتحدث عن أمرين مختلفين، وبدت لي كلمات مستر جيمس مجاملة، كما أحسست أن الطريقة التي اتبعها في نقل مشاعري وأفكاري يجب أن تحمل مقداراً كافياً أو مناسباً من الوضوح، وإن حياة الأسرار لا تنطبق على كافة الأشياء ولم يحن دورها.

قلت لمستر جيمس:

ـ وأنا سعيد بالتعرف عليك يا مستر جيمس، ومما يزيد في سعادتي اني وصلت إلى المدينة في يوم العيد.

ـ يوم العيد، ماذا تقصد؟

ـ يبدو لي من جميع ما أرى أننا في يوم عيد.. أليس كذلك؟

ـ ماذا رأيت يا مستر ماكدونالد؟

ـ انظر... انظر ألا ترى الأشياء حولنا؟

وبدت الحيرة على وجه المستر جيمس، تطلع باهتمام عبر نافذة السيارة، من الناحية التي كنت أجلس فيها، ليتأكد، وبعد أن دار بعينيه طويلاً، والتفت إلى الخلف، سألني من جديد:

ـ ولكن ماذا رأيت يا مستر ماكدونالد؟
ـ ألا ترى ملابس الناس؟ ألا ترى تجمعاتهم؟
ـ بالتأكيد أرى ذلك كله، لكن ما علاقته بالذي قلته من قبل؟
ـ اسمع. . إن سوء فهم وقع بيننا. ونحن الآن نتحدث عن شيئين مختلفين. . .

وتجمعت في رأسي أفكار كثيرة ومرت تساؤلات، قلت لنفسي: «لقد بدأت رحلة الغباء يا بيتر، ويجب أن تتوقف عن ذلك فوراً». قلت للمستر جيمس:

ـ مستر جيمس: أول انطباع لدي أن المدينة تعيش أحد أعيادها. هذا ما أحسه من ملابس الناس، انهم يلبسون أزياء كثيرة ومختلفة، وهذا بالنسبة لي الدليل على أن اليوم يوم عيد، هل أنا مخطىء في ذلك؟

وانفجر المستر جيمس بضحكة مدوية طويلة، شعرت معها بالحرج وبشيء من الخجل. قلت لنفسي: «لقد اكتشف جيمس شيئاً خارقاً يدل على غبائي، وإلا لما تصرف بهذا الشكل».

وبعد أن هدأت ضحكاته التفت إليّ وقال بصوت خفيض مليء بالمودة:

ـ أنت في الشرق يا مستر ماكدونالد، ومعنى ذلك أن كل شيء في الشرق مختلف عن بريطانيا، عن أوروبا، عن العالم كله.
ـ ماذا تقصد؟
ـ أقصد كل شيء، بدءاً من الملابس وانتهاء بالموت.

وبشكل مباغت التمعت في ذاكرتي صور كنت قد رأيتها من قبل: صور رجال شرقيين إلى جانب الجمال والحمير. وتمثلت لي في لحظات أشكال أولية للملابس التي يلبسونها، لكن ما أراه الآن شيئاً مختلفاً.

قلت للمستر جيمس ببراءة:
ـ هل الناس يلبسون هذه الأزياء دائماً؟
ـ نعم يا مستر ماكدونالد، هذه هي ملابسهم!

قال ذلك بتأكيد حازم، وكأنه يلقي درساً، وليثبت لي جهلي، وما يجب عليّ أن أتعلمه، بما في ذلك ضرورة الصبر والانتظار، قبل أن أطلق أفكاراً أو كلمات كبيرة!

سألت بضيق:

ـ ولكنني أرى مجموعة متنوعة ومتنافرة من الملابس يا مستر جيمس!

ـ هكذا يلبس الشرقيون يا مستر ماكدونالد!

كان هذا أول درس في رحلتي الجديدة. صحيح أني رأيت أزياء متنوعة في بيروت، لكن ما أراه الآن شيئاً مختلفاً تماماً. أزياء من كل الأنواع، أنواع لا تخطر على البال مطلقاً، ولا يمكن أن تكون أزياء حقيقية يلبسها الناس في كل الأوقات. انها مجموعة متنافرة من الألوان والأشكال، حتى انه يصعب العثور على مجموعة، في مكان واحد، تلبس الزي ذاته.

ودون كلمات كثيرة، ان الانطباع الذي يتولد في الذهن من رؤية هذا السيل من الملابس المختلفة تسير إلى جانب بعضها في الشارع، لا يختلف عن مشاهدة كرنفال. لكن مع مرور الأيام، أصبحت أقل حرجاً في التدقيق بالأزياء، وبدأت أرى شيئاً من التشابه في قسم كبير منها، مع فروق بسيطة يحرص كل إنسان على أن يتميز بها عن الآخرين!

ألوان الملابس بدائية جداً، ولا تتعدى الألوان الرئيسية، أقصد ألوان الطيف الشمسي، وإن كانت الملابس السوداء هي الغالبة عدا فترات الصيف، إذ يتبدل اللون الأسود ويحل مكانه الأبيض. يضاف إلى ذلك أن الجميع يحرص على ارتداء مجموعة من الألوان في وقت واحد، وأغلب الأحيان ألوان متنافرة، الأمر الذي يجعلك تحس بانعدام «هارموني» الألوان عند هؤلاء. إنهم يجمعون على أجسادهم ملابس فضفاضة ومتداخلة جداً، ولا أعرف كيف تثبت هذه الأقمشة على الأجساد، وتسمى بعد ذلك ملابس. إذ لو حاول أي إنسان أن يقلدهم، أو يفعل مثلهم، لأصبح مضحكاً. وفي وقت متأخر، بعد أن تعودت عيناي على رؤية هذه الأقمشة وألوانها، حاولت أن أقلدهم، ولقد تسنى لي ارتداء

قسم منها أمام المرآة. لكن في كل مرة نظرت إلى نفسي، أو نظر إليّ أحد من الأصدقاء، انفجرت بالضحك للغرابة المفزعة التي كنت أظهر بها. لم يكن أي شيء في مكانه، رغم المحاولات الكثيرة والمتقنة في التقليد والوقت الطويل الذي أقضيه من أجل ذلك.

بكلمة واحدة: إن ملابس الشرقيين تعكس طبيعتهم وتفكيرهم. ومهما حاول الانسان أن يصوّر هذه الملابس فسوف تبقى الصورة التي ينقلها ناقصة ومشوهة، وسوف يحتاج أيضاً إلى مجموعة من المصطلحات الخاصة للتعريف بها.

صحيح أن عدداً كبيراً ومتزايداً يلبسون الآن الزي الأوروبي، لكن يحس الإنسان أنهم يفتقرون إلى فلسفة هذا الزي، إذ كثيراً ما يلجأون إلى المبالغة، وتظهر منهم دلائل كثيرة تؤكد أن لا علاقة لهم بالزي الأوروبي: من الألوان الصارخة التي يفضلونها، من التناقض الكبير ما بين لون الزي ورباط العنق أو لون الجوارب، الأزرار الملونة الكبيرة التي يضعونها لأكمام القمصان، ومن العطور التي يستعملونها أيضاً.

ليس هذا فقط، فقد اعترف لي عدد من الشرقيين، ونحن نتحدث عن الملابس، أنهم ينتظرون اللحظة المناسبة لكي يتخلصوا من الزي الأوروبي، إذ حالما يصلون بيوتهم يخلعون هذا الزي فوراً ويستبدلونه بملابس شرقية ملونة، وفي الملابس الشرقية يقضون الوقت، ويستقبلون الزائرين، ولا يتحرجون أيضاً من الخروج بها إلى الشوارع والجلوس في المقاهي، حتى أن الإنسان ينكر تماماً بعض الذين عرفهم حين يراهم بالملابس الشرقية.

إن هذا الأمر لافت جداً للنظر، وأقل ما يوصف به أنه دليل واضح وأكيد على ازدواج الشخصية لدى هؤلاء الشرقيين.

لقد أنكرت أحد الخدم العاملين لديّ لما رأيته ذات مرة يلبس الملابس الشرقية. لقد بدا لي إنساناً جديداً لم أره من قبل، خاصة حين وضع على رأسه تلك الخرقة الشرقية، وكدت أقبض عليه، ظناً مني أنه

رجل غريب تسلل إلى الدار بقصد إجرامي!

إن ما قلته عن الملابس الشرقية شيء يسير للغاية، وهذا ينطبق فقط على سكان المدن، وليس كل المدن. ففي المدينة الواحدة تختلف الأزياء وتتنوع إلى أقصى حد، من حيّ إلى آخر، ومن مستوى إلى آخر. الفقراء بصورة عامة، أقرب إلى التشابه، وان كانت ملابسهم تتميز بالقذارة الشديدة، عكس الفقراء الانكليز، إذ أنهم رغم فقرهم يحرصون على نظافة الثياب وأناقتها. إن الشرق والنظافة في حالة عداء مستمر.

في القرى تبدو الملاس متشابهة أو واحدة، حتى لتغدو الملابس الأوروبية نابية ولافتة للنظر. والافندية حين يعودون إلى قراهم يتخلون عن الملابس الأوروبية حال وصولهم، وإلا أصبحوا عرضة للسخرية والتندر من قبل أقربائهم وأصدقائهم.

ما ينطبق على ملابس الرجال يمكن ملاحظته، وبشكل أقوى وأكثر وضوحاً، في ملابس النساء أيضاً، وإن كان متعذراً على أي رجل أجنبي أن يعرض لهذا الأمر دون أن يقع في الخطأ. فالنساء هنا عالم آخر، عالم ليس له أية علاقة بالعالم العلني، ومن الصعب جداً أن تتاح للأجنبي فرصة كاملة للاحتكاك بعالم المرأة الشرقية، إلّا في النطاق الذي تريده المرأة، وفي مجالات محددة أيضاً.

في المرات التي أتيحت لي فرصة التحدث إلى نساء شرقيات، وكان ذلك أوّل الأمر في بعض الدعوات، ثم بعد ذلك بالعلاقات التي قامت بيني وبين بعض العائلات الراقية، تبين لي أن المرأة الشرقية مخلوق مختلف عن الرجل الشرقي وعن المرأة الغربية. إن لها عالماً خاصاً وغريباً، إذ بمقدار ما تبدو شديدة الرغبة في إظهار مفاتنها، من خلال الملابس الصارخة الألوان، والمساحيق والأصباغ التي تستعملها في طلاء الوجه والأظافر، ومن الزينة المبالغ فيها كثيراً، خاصة استعمالها كمية كبيرة من الذهب، توزعها على جسدها بكثافة وبشكل بدائي، على يديها الاثنتين، وعلى صدرها وأذنيها، إضافة إلى ما تعلقه على الملابس. فإن هذه المظاهر

تثير الحيرة والتساؤل. وبمقدار رغبتها في إظهار هذه المفاتن، وإن كان بشكل فجٍ، فإنها تخاف نفسها وتخاف الآخرين كثيراً، لذا تظهر شديدة التردد، ميالة إلى الصمت، وحين تتحدث اليها، عن أي امر من الأمور، تصاب بحالة من الارتباك، أقرب إلى الخوف، وتتلفت حواليها باستمرار، وكأنها تحس أنها تقوم بعمل فاضح، وان الآخرين يراقبون كل كلمة وكل تصرف!

لكن هذه المرأة ذاتها، الخائفة المترددة، تنقلب إلى مخلوق آخر، مختلف كل الاختلاف، في الفراش، أو حين تكون وحيداً معها. تصبح جريئة لدرجة التهور، شبقة، عنيدة في بعض اللحظات، ضعيفة ومستسلمة في لحظات أخرى، وتعرف كيف تغري أصعب الرجال وأكثرهم بروداً، إن أرادت ذلك. وهي لكثرة تفكيرها في الجنس ورغبتها الهائلة في ممارسته تعرف كيف تكون فنانة لدرجة الاثارة، ويبدو أن جسدها الطري، والذي يفرز رائحة خاصة لا يمكن للإنسان أن ينساها حتى بعد مرور فترة طويلة، ربما نتيجة استعمال مساحيق معينة او الاستحمام بمياه خاصة معطرة ومشبعة ببعض النباتات، أو ربما نتيجة الأكل أو الجو، نتيجة لهذا السبب أو ذاك فإن المرأة الشرقية تعرف كيف تدخل إلى قلب الرجل تمهيداً للسيطرة عليه، وقد قيل لي أيضاً إن قدرة المرأة الشرقية في السبطرة ليست ناشئة عن قدرتها الجنسية فقط، إذ يضاف إلى ذلك عنايتها الزائدة بمعدة الرجل، فهي تحرص على اعداد الأطعمة الخاصة، وتعتني عناية فائقة في تحضيرها، وبذلك يكتمل الطوق حول الرجل ولا يستطيع الفكاك منه!

هل تشارك المرأة الشرقية في الحياة العامة؟ هل تلعب دوراً، أي دور، في القضايا الأساسية بشكل مباشر أو غير مباشر؟

من الصعوبة الاجابة عن مثل هذه الأسئلة بكلمات، وقد تبدو بعض الاجابات عجولة وغير دقيقة.

صحيح أن مشاركتها في الحياة العامة محدودة وغير فعالة، وأغلب

الأحيان غير ظاهرة، فهي دائمًا ظل لزوجها، لكن الحياة العامة الظاهرة، لا تعني بالضرورة كل شيء، لأن أغلب القرارات، في هذا الشرق، لا يُعرف من يتخذها أو متى أو لماذا. كل شيء يصنع في الظلام، ووراء الأبواب المغلقة، وبسرية كاملة. حتى قيل كثيراً إن أهم القرارات وأخطرها يتخذ في مخادع النوم. من يتخذها؟ لماذا؟ من هنا يبرز، أو يفترض، دور المرأة. فالتردد الذي يميز تصرفات وحياة الشرقي، لا يمكن حسمه إلا بعملية تحريض مستمرة وخارجية، من قبل الناس الأقرب إلى من يتخذ القرار، وليس أقرب إلى الرجل الشرقي من المرأة بالذات. ومن هنا تلعب دوراً خفياً.

المؤسسات في الشرق شيء وهمي. الأحزاب والدولة والمجالس وكل الأشكال الظاهرية الأخرى لا تزيد عن أن تكون ديكوراً لأن هناك دائمًا الفرد الذي يفرض ما يريد، وعلى الآخرين أن ينفذوا ويطيعوا. وفي نطاق التنفيذ يلجأون إلى بعض الصيغ المقتبسة عن الغرب، كأن تعرض القرارات للمصادقة، وأن تناقش في المجالس أو المؤسسات، لكن ليس من أجل تغييرها أو تعديلها أو الاعتراض عليها، وإنما من أجل إبراز عبقريتها والاشادة ببراعة وذكاء واخلاص الذي اتخذها.

إن هذا الاستطراد في عرض بعض اللوحات الشرقية لا يقصد منه سوى إبراز حالة الخفاء في الحياة الشرقية، وبالتالي دور المرأة في هذه الحياة.

لا يشترط في المرأة التي تلعب مثل هذا الدور أن تكون دائمًا الزوجة، إذ ربما قامت الأم بهذا الدور، خاصة إذا كانت قوية الشخصية ومسيطرة، وهي في هذه الحالة تفرض وجودها وهيمنتها على الجميع، وإن كان ذلك يتم غالباً بصورة خفية وغير مباشرة. ويلعب الدين هنا دوراً، لأن الشرقيين يعتبرون رضا الله مستمداً من رضا المسنين، خاصة الآباء والأمهات. وإذا كانت الأم غير موجودة، أو غير قادرة على القيام بهذا الدور، فلا بد أن توجد امرأة أخرى للقيام به، وقد تكون الأخت أو العشيقة أو أية امرأة أخرى.

لا يمكن أبداً مقارنة وضع المرأة الشرقية بوضع المرأة في الغرب، إنها هنا لا تظهر، وتغلف نفسها بالبراءة والبساطة وعدم المعرفة، وتلجأ إلى جملة من الأساليب، وغالباً ما تكون الحيلة على رأسها، لكي تصل. وقد ذكر بعض الشرقيين، أثناء الحديث عن هذا الموضوع، أن المرأة لا تلجأ إلى أسلوب محدد من أجل الوصول، إن لها عشرات الأساليب، ولكل امرأة أسلوبها الخاص، ولكل وقت أسلوبه الخاص أيضاً. قد تلجأ المرأة إلى البكاء، إلى الاغراء، إلى الحيل الصغيرة، لكنها لا تتوقف ولا تمل حتى تصل.

من الصعوبة تصديق ذلك كله، لكن الشرق بلد العجائب، ولذلك يمكن تصديق كل شيء فيه!

في الفترة الأولى لاقامتي واجهتني مشكلة الطعام؛ الطعام في الشرق جزء من الغرابة التي يتصف بها كل شيء فيه!

ففي كل بقاع الأرض، حسب ما نقرأ ونعرف، يتم تحضير الطعام بطرق علمية وبهدف تأمين الطاقة الضرورية للإنسان، أما هنا فإن «الفن» يصل ذروته، فالطعام الشرقي من التعقيد والتنوع والكثافة إلى درجة كبيرة. إذ لا يمكن معرفة المواد الأولية المحضر منها، لأن الاختلاط والتداخل وتعقيد الصنعة تجعل من المتعذر على أي إنسان، حتى الشرقي، أن يقدر كيف صنع أو العناصر التي تكونه. وكثيراً ما أثار هذا الموضوع استغراب النساء وسخريتهن حين يتبرع الرجال الشرقيون في تحديد أو تفسير نوعية الطعام الذي يقدم أو كيفية تحضيره. كان الرجال يبدأون.. لكن بعد الكلمات الأولى تضيع الأفكار وتختلط، وحين تبدأ النسوة بتصحيح الأخطاء ويسردن كيفية التحضير، فإن الغرابة على وجوه الشرقيين كانت تبدو واضحة لأنهم يشعرون أنهم أكثر جهلاً مما تصوروا أو قدروا!

الشرقيون لا يأكلون بقصد الفائدة، إنهم يأكلون بقصد اللذة. ووجبات الطعام بالنسبة لهم طقس من الطقوس الخرافية التي يمارسونها وهم في حالة من الغيبوبة، بحيث يتعذر على أي واحد منهم أن ينتزع نفسه من هذه الحالة بسهولة. غالباً ما تراهم يأكلون، على أرصفة

الشوارع، في الدكاكين، في المقاهي، وحتى في دور السينما، وفي الأماكن العامة الأخرى. وإذا تعبوا من الأكل الدسم، الذي لا يملونه أبداً، ملأوا جيوبهم بأنواع من الحبوب، وبدأوا بشكل بهلواني، يلقونها في الهواء ثم يلتقطونها بشفاههم أو ألسنتهم، وكأن كل واحد عقد رهاناً بينه وبين نفسه على أن لا يتوقف.

إنهم يأكلون في كل وقت. ويأكلون كميات كبيرة، لكن أغلب هذه المواد عديمة الجدوى، إضافة إلى التلبكات العديدة التي تولدها.

منذ الصباح الباكر يبدأون الأكل، وحتى ساعة متأخرة جداً من الليل لا يتوقفون، وهذه الظاهرة ليست مقصورة على الأغنياء، إنها ظاهرة عامة يقابلها الانسان في الأحياء الفقيرة، وفي المقاهي القذرة وفي الشوارع أيضاً. وإذا كانت الضرورة في المناطق الباردة تقضي بأن يأكل الإنسان كمية معينة من المواد الدهنية، فإن الشرقيين يأكلون هذه المواد في أقسى الصيف حرارة، بحيث لا يتصور العقل امكانية هذه الأجساد على تحمّل هذا القدر المخيف من المواد، وما تأثيرها.

لا يقتصر الأمر على الكمية التي يأكلونها أو نوعية المواد المصنوعة منها، بل يتجاوز ذلك إلى نوعيات عديدة ومختلفة المذاق من البهارات والمشهيات التي يلجأون إليها في سبيل خلق محفزات إضافية للأكل. وحتى في أرقى المطاعم الشرقية وأعلاها سعراً يقدمون، دون طلب ودون سؤال، كميات كبيرة من المواد الفاتحة للشهية، لخلق تحريض إضافي في المعدة من أجل مزيد من الأكل. إنهم يملأون عشرات الصحون بأشياء لا قيمة غذائية حقيقية لها، ورغم المحاولات العديدة التي لجأت إليها، سواء بتحريض من قبل الشرقيين، حين يلحّون عليك في الأكل، ويقدمون أنفسهم قدوة لكي تقتدي بهم، أو بتحريض ذاتي، لتذوق هذه الأطعمة والمشهيات، فقد انتهت تلك المحاولات إلى الفشل الكامل. إن كثيراً من الأطعمة التي يقدمونها لها مذاق حاد أو حامض، ولها نكهة خاصة من الصعب على أي رجل غربي أن يستسيغها، ويبدو أن عدداً كبيراً من المواد

التي يستعملونها، لا وجود لها في أماكن أخرى، أو على فرض وجودها، لا يمكن للإنسان أن يفكر بامكانية تذوقها أو أكلها. وهذه المواد ذاتها، وإن كانت تقدّم في المطاعم الجيدة لفتح الشهية، فإن الفقراء يأكلونها على أنها الطعام الأساسي. إنهم يأكلون منها كمية هائلة لكي يملأوا بها بطونهم الكبيرة الخاوية، ويضيفون لها بعد ذلك كميات كبيرة من الماء يشربونها من الأواني المعدنية الملوثة التي يضعونها على الطاولات، دون اقداح في الغالب، أو بقدح واحد يتناوب الشرب فيه عشرات الناس!

في أحاديثي مع معظم الأجانب الذين قابلتهم، تأكدت أن لا أحد منهم يستطيع استساغة الطعام الشرقي، ويبدو أن أياً منهم لم ينج من حالات مرضية طويلة وصعبة نتيجة هذا الطعام، الأمر الذي أصبح معه مثيراً للرهان والتحديات، حين يجتمع بعض الغربيين، ويتحدثون عن الطعام الشرقي، وإمكانياتهم على تناول كميات منه، في غالب الأحيان ينتهي الأمر. بسرعة حين يفكر المتراهنون بالأوقات الصعبة التي قضوها مرضى، نتيجة هذا الطعام!

وما ينطبق على الطعام ينطبق أيضاً على الحلويات الشرقية، إنها خليط من المواد المتناقضة صنعت بطريقة خاصة، وهي شديدة الدسم والحلاوة، بحيث يتعذر على الإنسان أن يتناول أكثر من كمية محدودة، لكن الشرقيين يسرفون جداً في تناولها، ويتفاخرون، والابتسامات تملأ وجوههم، حين يقولون بطريقة غامضة ومحببة أنها تفيدهم جداً في الفراش، ولولاها لخربت الدنيا وفقد الانسان كثيراً من المتع الضرورية!

وإذا استرسل الانسان ليتابع رحلة الحياة الشرقية، في هذا المجال، يجد الشيء الكثير. فالشرقيون يسرفون في كل شيء، خاصة الشراب. انهم يشربون كميات كبيرة من المياه، ويشربون كميات أكبر من السوائل الأخرى، وغالباً الشاي الثقيل، وبعض الأحيان، خاصة في الشتاء، يشربون أنواعاً من السوائل يزعمون أنها تدفىء عظامهم، وهي شديدة الحرقة ومذاقها لا يستسيغه الأنف أو الحلق بسهولة. وفي المرات القليلة

التي اضطررت إلى تناول كميات محدودة من هذه السوائل شعرت بالغثيان ورغبة التقيؤ، الأمر الذي اضطرني أن أرفض بحزم أية محاولة لتكرار مثل هذه التجارب البائسة.

لا يقتصر شراب الشرقيين على المنبهات أو المنشطات كما يسمّون بعض السوائل، بل يتعدى ذلك إلى المسكرات أيضاً. إن لهم مشروباتهم المحلية الخاصة، وهي شديدة الفعالية وتأثيرها سريع، ولها مذاق خاص وغريب أيضاً. وبعض الأجانب إن كان قد تعود عليها بمرور الأيام، فإن الكثيرين لم يستطيعوا تناولها لأكثر من الرغبة في تذوقها ومعرفة آثارها ونتائجها.

والشرقيون، بمقدار الاسراف الذي يميزهم في الطعام، فإن اسرافهم في الشراب يفوق ويتجاوز كل الحدود. إنهم يشربون بنهم ودون توقف. وغالباً ما يشربون في الليل، وما عدا حالات خاصة ومحدودة، فإنهم لا يشربون في النهار. ورغم المانع الديني لا يخافون ولا يترددون أثناء الشراب. حين يشربون تتغير طباعهم كثيراً، يصبحون بشراً من نوع مختلف، يصبحون أكثر عنفاً وصخباً، ويميلون إلى المعارك والغناء والبكاء. لقد رأيت بعيني عشرات المرات بشراً يبدون في منتهى التوازن والمنطق قبل الشراب، وبعضهم أقرب إلى الخجل والصمت، لكن حين تدور الخمرة في رؤوسهم يتحولون إلى بشر آخرين. يصبحون عدوانيين، ويظهرون كرهاً حقيقياً للأجانب، ويلجأون كثيراً إلى استعمال الأيدي: يضربون الطاولات، يشدون على الزجاجات والأقداح، يضربون رؤوسهم بالجدران، وليس أسهل من قيام المعارك الطاحنة في مثل هذه الحالات. أنهم سريعو التهيج والاثارة، وحتى أقرب الناس إلى بعضهم لا يلبثون أن يتحولوا إلى خصوم، وقد يستعملون الأيدي في فض المناقشات وقد يلجأون في لحظات أخرى إلى البكاء. إن ظاهرة البكاء في الشرق من أبرز المظاهر التي يقابلها الانسان لدى السكارى، وحين يبكون يصبحون كالأطفال الصغار بتصرفاتهم، وبرغبتهم في أن يستندوا إلى صدر أو جدار

وأن يبوحوا بأشياء لا يستطيعون أن يقولوها في الأوقات الأخرى!

لعل واحداً من أكثر الأسئلة الذي أثار حيرتي: لماذا يشرب الشرقيون؟ أو يمكن وضع السؤال بالشكل التالي ليكون أكثر دقة: لماذا يشرب الشرقيون بهذه الطريقة وبهذا المقدار؟

إنهم يشربون، خاصة في البداية، بسرعة، وكأنهم يحاولون الانتقال دفعة واحدة من حالة نفسية أو عقلية معينة إلى حالة أخرى مختلفة. وخلال فترة قصيرة، وبعض الأحيان بكشل مفاجيء يتغيرون تماماً: ترتفع أصواتهم، تصبح أقرب إلى الصخب. يتحدثون جميعهم في وقت واحد، أو ينقسمون إلى مجموعات صغيرة، وغالباً كل اثنين وحدهما، ويتحدثون، وكل المحاولات للسيطرة على الجماعة وإعادتها إلى الوحدة التي كانت تميزها في البداية تنتهي إلى الفشل، ما عدا الأحاديث عن الجنس والنكات البذيئة. إن أحاديث من هذا النوع، كما قيل لي، تلقى عندهم فضولاً لا يمكن مقاومته، إذ من جديد يغرق الصخب أو تحل مكانه الاشارات الفاضحة والتمثيل الكامل، وقد لاحظت أن الرجال الذين يقومون بهذه الأدوار غالباً ما يكونون ثانويين في البداية، لكن لا يلبثون أن يصبحوا محوراً للاهتمام بعد ذلك.

إذا انتهت مثل هذه الأحاديث، ينفجر الصخب مرة أخرى، ويكون أكثر عنفاً واتساعاً، ويشارك فيه الجميع، على شكل قهقهات مجنونة وعربدات، ويرافق ذلك استعمال الأيدي، بضربات على الأكتاف غالباً، وبتحديات تأخذ أشكالاً مختلفة، لكن أكثر ما تكون هذه التحديات بكميات جديدة يشربونها، وعلى دفعات سريعة، وفي حالات عديدة تندلق المشروبات على ملابسهم وعلى الطاولات، لكن لا يبالون بذلك أبداً، وكأنه جزء من طقوس الشراب. ويغيرون نوع المشروبات التي يتناولونها مرة بعد أخرى، وتتكوم على الطاولات الصغيرة الزجاجات الفارغة وبقايا الطعام والاقداح وعلب السجائر والجرائد، وبعض الأحيان الكتب، بحيث أن نظرة سريعة لهذا العالم تعطيك قناعة كاملة عن هذا الشيء

الذي يشبه المستودع للفوضى والاضطراب والتداخل. إذ كيف يمكن أن تلتقي الكتب بأعقاب السجائر، بالزجاجات الفارغة؟ وكيف يمكن للصحون التي يتناولون منها الطعام أن تصبح بعد لحظات مستودعاً لرماد السجائر وبقايا الأكل وقسماً من الجرائد؟

والشرقيون يتميزون بعناد لا يعرف الحدود ولا يتوقف، يظهر ذلك بوضوح أثناء الشراب، إذا ما يكاد أحدهم يتباطأ حتى يصبح هدفاً للنقد والسخرية، ثم يصبح محاصراً ليشرب بسرعة أكبر، فإذا انتهى أكرموه بسرعة وبكميات هائلة، ولا يتركونه حتى يشرب من القدح الجديد. هكذا تظل الدائرة تدور حتى يتحول الرجال الصامتون، الذين كانوا في بداية السهرة في منتهى الخجل والتردد، إلى أخوة متخاصمين، أو إلى ممثلين وقد استشاطوا انفعالاً وغضباً، وبدأوا يتدفقون بالشعر والأغاني. وتتقارب الطاولات في مثل هذه الحالات، ليصبح جميع الذين في المكان أصدقاء أو متعارفين، وليشاركوا في الصخب المتزايد باستمرار، حتى يظهر ما يغيّر هذه الصورة أو يقطعها لفترة قصيرة، كدخول رواد جدد، وغالباً ما يكونون سكارى، أو قيام مجموعة أخرى من زاوية بعيدة بحركة تمثيلية لتسرق لنفسها الأضواء والاهتمام. وفي حالات كثيرة تنفجر خصومات مفاجئة يتخللها استعمال الأيدي والمقاعد والزجاجات الفارغة، هذا فضلاً عن الأصوات الهادرة الصاخبة، ويمكن لوضع مثل هذا أن ينهي السهرة أو يدفع بعض المحايدين إلى التدخل من أجل تسويتها أو فضها، لكن لا تسير الأمور على هذا الشكل أو ذاك دائمًا، لأن المفاجآت هنا هي التي تفرض وجودها وشروطها على الجميع.

وكما ذكرت ان حالات البكاء شديدة الظهور في هذه الأماكن، لكن غالباً ما تجري في الزوايا، أو ضمن مجموعات صغيرة لا يتعدى أفرادها الاثنين أو الثلاثة، وتأخذ شكلًا يائساً، وأقدّر أن تكون أسبابها عاطفية أو سياسية بالدرجة الأولى.

هذه لوحة سريعة لجانب من طريقة الشراب الشرقية، ويظل السؤال

قائمًا: لماذا يشرب الشرقيون بهذه الطريقة وبهذه الكميات؟

لا يحصل الإنسان على جواب مقنع لمثل هذا السؤال. كل واحد يعطي جواباً يختلف عن اجابات الآخرين، وكل واحد يفسره بالطريقة التي تروق له.

يقولون أن هموم الشرق من الكثرة والقسوة لدرجة أن الإنسان يريد أن يتخلص منها أو ينساها بأسرع طريقة وأسهلها، وليس مثل الشراب طريقة للنسيان.

ويقولون أيضاً أن الشرقيين يسرفون كثيراً في كل شيء، والشراب من جملة الأشياء التي يسرفون فيها، دون غاية أو قصد خاص.

ويقولون أيضاً إن الشراب يولّد لذة، وهم بحاجة إلى هذه اللذة.

وهناك عشرات الاجابات والمبررات التي تقال في تفسير هذه الظاهرة، لكن يبدو لي أن الخمرة بالنسبة للشرقيين شيء خاص تماماً: إنها التحدي للطبيعة والدين والضعف والخجل والفوارق الاجتماعية والدينية، إضافة إلى أنها الوسيلة المتاحة للخروج من ضغط الأحداث والهموم، بحيث أن أي سكير تقابله في الشارع يتحول في لحظة خاطفة إلى بطل تاريخي، وإلى نموذج للقوة والعبقرية!

إن ظاهرة السكر الشرقي أكثر الظواهر التي تستدعي الدراسة والاهتمام، لأن اكتشاف جذورها اكتشاف للشرق كله، وهذه الظاهرة لا يمكن أن تموه نفسها أو أن تختفي وراء ركام التقاليد الغامضة، والأديان الموغلة في القدم. إن هذه الظاهرة من الوضوح والمباشرة بحيث تعطي نفسها للغريب دون مشقة، ويمكن أن تكون مفتاحاً لفهم الشرقيين بصورة عامة.

* * *

القسم الثالث

اكسب ثقة زعيمك واحتفظ بها. إياك أن ترفض الخطط التي يتقدم بها، لكن تأكد من عرضها عليك أولاً. وافق عليها دائمًا، ثم بعد أن تمتدحها اعمل على تعديلها بشكل يدل على أن التعديل هو من اختراعه. ولما تصبح الخطة متفقة مع آرائك اجعله ملتزماً بها، واضغط عليه قدر الامكان لكي يقوم بتنفيذها، وليكن ضغطك عليه غير مكشوف بحيث لا يشعر به أحد سواه.

لورنس

(١)

«راندلي... تعال، يا سيدي، تعال، انظر إلى ما يجري هنا؛ ما دمت بعيداً يمكن أن تقول أي شيء، يمكن أن تكتب أو تقول كلمات بلهاء وتتصورها مليئة بالذكاء والحكمة، وبعد أن تقولها أو تكتبها تمدّ رجليك، تتمطى، تسبح في دخان سيجارك الأزرق، ويملؤك احساس عميق بالغبطة: «إن كل شيء رائع ويجب أن ننتصر» لقد كانت حياتك مجموعة من الانتصارات، وحتى الهزائم التي لحقت بك، تبدو لك الآن لذيذة منعشة، هكذا تتصور الأمور، يا سيدي؛ الوضع هنا، الآن، يختلف كثيراً. التعليمات التي تبعثها إليّ غير قابلة للتنفيذ، إنها مجرد رغبات رجل حالم. تعال... يجب أن تأتي، لتتأكد بنفسك، تقول: «اتركوا الأمور تسير ببطء، العجوز يترنح، معظم القوى أصبحت قريبة منا، وحتى الشارع والناس الذين يملأونه سوف تتغير وضعيتهما قريباً، المطلوب الآن التأكد من أصدقائنا. إذا كانت هناك ضرورة لبعض العمليات العسكرية أو الحصار اكتبوا لنا، من المؤكد أن عمليات مثل هذه ستكون محدودة، ولا تتعدى آثارها الحرب النفسية، ابعثوا إلينا برأي نهائي

حول هذا الموضوع».
قال بيتر لنفسه بسخرية:
«نعم العجوز يترنح، لكنه سينتفض فجأة ويقلب الدنيا على رؤوسنا. أعرف هؤلاء الشرقيين، أعرف كيف يفكرون وكيف يتصرفون. في لحظات معينة يبدون مسالمين وديعين وأقرب إلى العجز والتسليم الكامل، لكن في لحظات أخرى ينتفضون، وكأنهم يفيقون من نوم، يتحولون فجأة إلى حيوانات كاسرة، لا يمكن لأحد أن يقدر كيف سيتصرفون. آه لو استطاع الانسان أن يقدر ماذا ستكون الخطوة التالية. لو استطعنا ذلك لأصبحت الأمور من السهولة إلى درجة يمكننا أن نفعل كل شيء. إن سلاح الشرقيين: السرية، الغموض، الطفرات المجنونة، التي لا يمكن لأي إنسان غيرهم توقعها.

ليس هذا كل شيء، يقول المستر راندلي أن معظم القوى معنا. من أين للمستر راندلي هذه المعلومات؟ وهل يطمئن الإنسان إلى مثل هذا التقدير؟ لقد سمعت الكثيرين يتدفقون في الحديث والوعود، ولو كنت مجنوناً مثل المستر راندلي وصدقت ما يقولون لانتهى كل شيء منذ وقت طويل، لكن هؤلاء الشرقيين ليس لديهم سوى الحديث، وفي الساعات الصعبة يجبنون أو يقفون مع الذي يعطيهم أكثر، هذا الشيء لا يعرفه المستر راندلي، أو يهرب منه. هؤلاء الشرقيون مع أنفسهم ومع الشيطان، وفي الكثير من الأحيان لا يقدرون مصالحهم، أو يتصرفون بطريقة حمقاء. العسكر غامضون، متحفظون جداً، ورجالنا القدامى يعيشون في أحلام الماضي، تحولوا إلى رجال مترهلين، بطيئي الحركة، وتمتلىء جماجمهم بتلك التفاصيل الصغيرة والتافهة حتى ليصعب مجرد الحديث معهم!

هذه هي الصورة الآن. لا. إنها جزء من الصورة، أما الأجزاء الأخرى فهي التي تثير هواجسي في الليل والنهار. أصدقاؤنا الأميركيون شديدو المودة حين نلتقي معهم، يضحكون بصخب، يشربون، يحركون اكتافهم وشفاههم دلالة الاستخفاف، لكنهم في نفس الوقت لا يرغبون في

الأحاديث الجدية. اصبحوا في الفترة الأخيرة أكثر ميلاً للابتعاد عنا أو الالتقاء بنا. حين نلتقي يقولون لنا: «انتظروا، يمكن إقناع العجوز، يمكن استغلال القروض التي سنقدمها له من أجل تلبية مطالبكم»، ويفترضون عشرات الفروض الأخرى. يبدو أنهم غير مهتمين، أو لهم مشاغل من طبيعة مختلفة، ولذلك يصعب الوصول معهم إلى أية نتيجة. المستر راندلي يقول: «هؤلاء الرعاة تافهون، ما زالوا بحاجة إلى وقت طويل لكي يتعلموا. صحيح انهم يملكون الكثير، ويمكن أن يمنحوا ويشتروا، لكن القضية المطروحة أكثر تعقيداً من أن يفهموها. ولا تعالج كما لو أن الانسان يشتري ثوراً. . . .»

نعم يا مستر راندلي، القضية ليست شراء ثور أو مجموعة من الثيران، لكنها في النهاية ليست شيئاً مختلفاً من حيث الجوهر، ويجب أن ننظر إلى سلوكهم وطريقة تعاملهم مع الأشياء بشكل جديد مختلف عن السابق. ألم يخدعونا في أماكن كثيرة من العالم؟ ألم نهزم حين دخلنا معهم في المنافسة؟ صحيح أنهم كانوا يدفعون أكثر منا، وأنهم يمتلكون روح المغامرة، ويراهنون دون خوف، لكن المشكلة المطروحة الآن أكبر من هذه التفاصيل الصغيرة، وأكثر تعقيداً مما تبدو للوهلة الأولى. يقول المستر راندلي: «هذه البقعة من الأرض لنا، ولا يمكن لأية قوة في العالم أن تنتزعها منا، نحن نعرف كل شبر فيها، ولا أبالغ إذا قلت لك يا بيتر أننا نعرف كل رجل. لقد أحسنّا لكل إنسان هناك، ماذا تكون أحوالهم لو أننا لم نساعدهم؟ من يدفع لهم أطنان الذهب كل عام؟ وماذا يعنون لو أننا لا ندفع لهم ونساعدهم؟ إن العمل الذي نقوم به أكثر من كونه نوعاً من أنواع التجارة. انه، في جانب أساسي منه، عمل حضاري، عمل إنساني، ويجب أن لا نتردد في القيام بدورنا هناك. هل يستطيع أحد أن ينكر الجهود التي بذلناها؟ إن كل شيء ينطق بذلك: المدارس، المستشفيات، الطرق. . . بكلمة واحدة: لقد صنعنا منهم شيئاً». ولكن المسألة ليست بهذه السهولة يا مستر راندلي، إن هؤلاء الشرقيين نوع من البشر يختلف

كثيراً عن المألوف. في مرات عديدة كنت أسمع من أصدقائنا كلمات قاسية، وكنت ألمس السخرية. كانوا بعض الأحيان يقولون: «لقد انقضت على وجودكم هنا عشرات السنين، ولقد حصلتم من هـذا البلد على خيرات لا تقدر ولا توصف، فماذا كانت النتيجة؟ انـظروا إلى العقد والمصاعب التي نعاني منها، انظروا إلى الأحقاد التي تولدت، هذه الأحقاد لم تعد مقصورة عليكم، لقد امتدت لتطال كل من له علاقة بكم. إن أخطاء كثيرة وقعت وتسببت بالمشاكل والمآسي التي نعاني منها الآن».

إن طباع الشرقيين التنكر وعدم الاعتراف بالجميل، لقد لمست ذلك بنفسي، ومن خلال قضايا عديدة، فهل يستطيع المستر راندلي الاطمئنان؟ يكتب إليّ المستر راندلي: «لمست لديك خلال الفترة الأخيرة شكوكاً كثيرة حول بعض اصدقائنا، وإني إذ اختلف معك في تقييم بعض الأشخاص وبعض المواقف، وأطلب إليك أن تظل شديد الانتباه، لا اتفق معك البتة في أن يتحول هذا الشك إلى سلبية، أو أن يحس أصدقاؤنا بهذه الشكوك. إن الشرقيين مصابون بعقد نفسية مزمنة، وهم شديدو الكبرياء، ولذلك يمكن لأي تصرف خاطىء، حتى لـو كان مجـرد كلمات، أن يجعلنـا نفقدهم. كن مرناً إلى أقصى حد، والاجتهادات الجديدة التي كتبتها في رسالتك الأخيرة موضع دراسة منا، لكن تعليماتنا السابقة لا تزال هي الأساس، ويجب أن تنفذ بدقة ودون ابطاء...»

لم يكتف المستر راندلي بهذه الكلمات، جاء من قبله رسول خاص. تناقشنا طويلاً حول عدد كبير من المسائل. بدا لي برود الن نسخة مشوهة من راندلي. طريقته في الكلام والتصرف تشبه رجلاً مسناً، مع أنه لم يتعدَّ الخمسين. كان بطيء الكلام، غبياً، وجاء ينقل إليّ نفس الكلمات التي قالها لي راندلي برسائله. ماذا يريدونني أن أفعل؟ وأين هي التعليمات السابقة؟ المسرحيات الهزلية التي قام راندلي باداائها في زوريخ؟ كان يقول لي: «كل هذه الأشياء مجرد أفكار أولية، اشـارات، طريقـة من طرق التصرف، يجب أن لا تقلدها. المهم أن تعرف كيف تتصرف يا بيتر...

لا تكن أحمق». . الآن مستر راندلي القابع على بعد آلاف الأميال لا يكف لحظة واحدة عن التدخل في جميع الشؤون الصغيرة والكبيرة. ويطلب مني أن أنفذ التعليمات الكئيبة التي يرسلها إليّ. لا يكتفي بذلك، يرسل إليّ هذا الغبي المزكوم باستمرار، ليلقي عليّ محاضرات مملة تافهة، ويقول لي في النهاية: «هكذا طلب إليّ المستر راندلي أن أبلغك، ويجب أن تمتثل للأوامر تماماً، ليس لدينا الوقت لكي نضيعه الآن في اجتهادات وأفكار خرقاء».

تعال يا مستر راندلي. . . يجب أن ترى الأشياء بنفسك لتتأكد أن الأفكار البائسة التي تملأ رأسك غير قابلة للتنفيذ، وأن الانتصارات التي تحققت في ترينداد وسرواك واندونيسيا قد لا يتحقق لنا مثلها إذا اتبعنا التعليمات الكئيبة التي تبعث بها إلينا بين يوم وآخر.

يجب أن نغيّر قسمًا كبيراً من الأساليب الرثة التي طالما اتبعناها في الماضي، إذا لم نفعل ذلك خسرنا كل شيء، تأكد من ذلك يا مستر راندلي، يجب أن تثق فيما أقول. صديقنا (. . .) أصبح هذه الأيام عنيداً وعصبياً، وبعد مناقشات متعددة معه، بحضور (. . .) يبدو لي أن استمرار العلاقة غير مجدٍ في المرحلة الحالية. اضطررت إلى اللقاء به عدة مرات، وفي أوقات متباعدة. حاولت الوصول إلى نتائج لكنه كان يهرب ويؤجل الاتفاق على نقاط محددة، بحجة مزيد من الدراسة والاتصالات. قد تكون الاعتقالات التي تعرض لها بعض أصدقائه سبباً في الخوف أو التحفظات التي يبديها، لكن الأمر مع ذلك يثير الاهتمام والتساؤل، وفي حال اصراركم على ضرورة التعاون وبحث كافة القضايا معه أرى أن يتم ذلك بحضور (. . .) لأن له تأثيراً خاصاً عليه؛ في نفس الوقت الذي أرى أن تقطع علاقته بـ (. . .) لأن السلبية التي ظهرت في هذه العلاقة يمكن أن تؤدي إلى أضرار كبيرة.

* * *

هكذا كانت تدور الأفكار في رأس بيتر، بعد انقضاء فترة طويلة على إقامته وعمله. أنه يتساءل بتعجب «هل استطاع بيتر ماكدونالد أن

يقضي فعلاً هذه الفترة كلها؟» ويهز رأسه وشعور الفخر والأسى معاً يترافقان في نفسه. كان يتصور أن إقامته لن تطول إلى هذه الدرجة، هكذا قال له راندلي، يتذكر ذلك بوضوح شديد، وهو نفسه لم يكن يصدق أنه قادر على البقاء والاحتمال. . هكذا!

في مرات كثيرة عاودته الرغبة لأن يترك كل شيء ويسافر. وفي جميع رسائله كان يكتب طالباً السماح له باجازة يقضيها في أرض الوطن، لكن في كل مرة أيضاً، وفي كل الاجابات عن رسائله، كان يجد مستحيلاً عليه السفر. صحيح أنهم اتبعوا معه وسائل اقناع متعددة، إضافة إلى الاغراءات، لكن الشيء المهم الذي كان يمنعه من السفر فعلاً هو ذلك التحدي الذي يحسه في داخله. «كيف أستطيع السفر في هذ الظروف؟ وماذا إذا حصل شيء أثناء غيابي؟» وكان يسأل نفسه أيضاً «هل أترك كل ما بنيته تعبث به الأيدي الأخرى؟ وماذا إذا فشلنا بعد هذا الانتظار وبعد هذا التعب؟ هل أقول لهم أنني كنت في إجازة، وإن الآخرين هم الذين تسببوا بهذه النتائج؟ ولو اقتنعوا فعلاً هل يمكن أن أغفر ذلك لنفسي؟» وكان يجيب بكآبة: «لم يبق إلا القليل. ومن انتظر شهوراً طويلة يستطيع الانتظار فترة إضافية أخرى. . . صحيح أن الحياة هنا في منتهى الصعوبة والتعقيد، لكن العادة هي الأقوى في الحياة، والانسان قادر على التعود، حتى على الحياة الصعبة». ويتذكر بيتر أيام الاعتقال، ويتذكر الأيام القاسية التي مرت عليه، ويتلفت حواليه، يرى أن الأوضاع لا بد أن تنتهي لمصلحته. «سأعود منتصراً، يجب أن أطلب اجازة طويلة بعد العودة مباشرة، سأقضي جزءاً من الاجازة في الريف، ثم أذهب إلى جنوب فرنسا، وفي هذه الفترة سأغيرّ نمط حياتي، سأنام طويلاً في النهار، لن أفعل شيئاً في ساعات بعد الظهر أو المساء، أريد أن أشعر بالراحة الحقيقية، راحة الجسم والعقل في وقت واحد. لكن هل يتركونني أفعل ذلك؟ في الفترة الأولى «نحن بحاجة ماسة إليك»؛ «عليك أن تضع لنا السياسة التي يجب أن نتبعها هناك. لقد أصبحت يا بيتر واحداً من أكثر

الخبراء أهمية بالنسبة لهذه المنطقة، إننا نعتمد عليك تماماً، وأنت الذي تستطيع أن تقدم آراء واقتراحات صائبة. لا يمكن أن تتخلى عن واجباتك يا بيتر في هذه الفترة الدقيقة، حتى لو طلبنا منك ذلك. لن تفعل. يمكن أن تأخذ اجازة طويلة بعد فترة شهر أو شهرين، أنت تعلم أن هذه الفترة من الأهمية بحيث يترتب عليها كل شيء في المستقبل».

كان يحلم كثيراً، وكانت الرغبات تختلط، بحيث يجد نفسه عاجزاً عن مخالفة التعليمات التي تأتيه. «الأمر لا يتعلق بقضية شخصية يا بيتر، الأمر أكبر من ذلك بكثير وأخطر. يجب أن تتمتع بمرونة إضافية لكي تستطيع الوصول إلى نتائج أفضل، نحن نقدر جميع الملاحظات التي وردت منك، وسوف تكون موضع اهتمامنا ودراستنا، لكن المهم في هذه المرحلة أن تكون أكثر دقة في تنفيذ التعليمات».

في وقت من الأوقات كان بيتر يحس بالضيق والحصار، «لندن غبية، كل الناس هناك أغبياء، نعم انهم كذلك، كيف يتصورون، للحظة واحدة، ان التعليمات البائسة التي يبعثون بها يمكن أن تنفذ؟ على راندلي وادوارد والآخرين أن يأتوا ليروا الأشياء على حقيقتها. لو جاء أي واحد منهم ورأى الأمور التي أراها، ثم قرأ من جديد التعليمات التي كان يرسلها، لشنق نفسه على أول شجرة يصادفها، نعم يجب أن يفعل ذلك. وبيتر لا يريد أن يكون غبياً لهذه الدرجة. نعم لا أريد أبداً، لكن ماذا أفعل؟ كيف استطيع إقناع اولئك السادة القابعين هناك في الأقبية وفي الغرف الزرقاء الذين ينظرون إلى الأشياء من وراء الدخان وآلاف الأميال ثم يقولون: بيتر افعل... بيتر لا تفعل، بيتر.. لا تكن غبياً، بيتر يجب أن تنفذ التعليمات بدقة. وماذا يريدون من بيتر أيضاً؟».

(٢)

بعد انقضاء شهور عديدة على إقامة بيتر في هذه المدينة، نشأت له خلالها علاقات واسعة، وأصبح شخصاً مرموقاً في أوساط عديدة، بدأ يكتب مذكراته، تماماً مثل عدد آخر من مواطنيه الذين سبقوه إلى هذا المكان أو إلى أماكن أخرى، وكتبوا عن تلك الأمكنة.

كان يريد أن يكتب كل شيء، أن يكتب عن هذه البلاد وبشرها ومناخها، أن يكتب عن جوامعها وعن طبيعة الحياة التي تتشكل وفق نمط غريب ومختلف عما عرفه أو قرأه. انه يريد أن يفعل ذلك، لكن طبيعة الأعباء اليومية التي تواجهه جعلت ذلك صعباً، واضطرته لأن يكتب أفكاراً متداخلة وسريعة في أغلب الأحيان، إضافة إلى أنه كان يهرب متعمداً من كتابة أشياء هامة شغلته في هذه الفترة. كان يريد أن يكتب عن علاقاته النسائية، لكن شعوره بالذنب، في لحظات معينة، كان يمنعه من ذلك، رغم أن هذه العلاقات جزء من المهمة التي جاء لتنفيذها، وكانت تشكلّ بالنسبة له واحة صغيرة وسط هذه الحياة القاسية المجدبة!

إن هذه العلاقات من التعقيد بحيث يعجب لنفسه كيف استطاع أن

يقيمها وماذا يريد منها. لقد نشأ قسم من هذه العلاقات بالصدفة، لم يخطط لذلك ولم يرده، فجأة وجد نفسه يغرق تدريجياً. كان الأمر، في البداية، مجرد مزاح عابر لا يلبث أن ينتهي كما انتهت علاقات كثيرة سابقة... «لكن النسوة الشرقيات من طبيعة مختلفة تماماً، انهن مفتاح الشرق وأعظـم أسراره، وإذا كن قادرات على العطاء بدون حدود، فإنهن في نفس الوقت شريرات وقادرات على الانتقام أيضاً». هكذا كان يقول لنفسه حين يتذكر علاقته بشيرين خاصة، وكان يحس أن ما قاله راندلي حول المرأة ليس صحيحاً فقط، بل هو الحقيقة بعينها. «كيف يتسنى لي أن أعرف ما يدور في عقول من حولي لو أن شيرين لم تقل لي؟» يسأل نفسه ويشعر بغبطة داخلية انه استطاع الوصول إلى معرفة الجوانب الغامضة في حياة هؤلاء الرجال الذين يتعامل معهم.

في أوقات معينة كتب عن علاقاته النسائيه، لكنه لم يسمح لنفسه أن يقول كل شيء. ثم في فترة لاحقة، وبعد أن قرأ ما كتبه من قبل، طوى الأوراق وأخفاها، لأنه أودع فيها كثيراً من الأفكار التي لم يتصور انه يمتلكهـا. كان يكتشف نفسـه في لحظات معينـة يكتب بطريقـة مؤثـرة وعاطفية، وكان يكتشف في لحظات أخرى أن ما كتبه لا يتعدى مجموعة من الهلوسات الصبيانية لا تليق برجل مثله، في مثل سنه ومنصبه والمهمة التي جاء من أجل تنفيذها، وكان يتساءل: «ماذا لو وقعت هذه الأوراق في أيدٍ أخرى؟» ويضحك بحزن ويجيب: «لأظهـرت بيتر ماكدونالد انساناً تافهاً جديراً بالرثاء والسخرية!»

وإذا كان بيتر يريد الآن أن يمر على كثير من الأمور مسرعاً فإنه يجد نفسه يتوقف طويلاً طويلاً عند علاقته بشيرين.

فبعد أيام قليلة من إقامته في هذه المدينة الملعونة، وفي الوقت الذي بدت له شيرين في بيروت سهلة وشهية، ويمكن أن تسقط في أحضانه في أي وقت يشاء، اكتشفها هنا امرأة أخرى. بكثير من الخبث حاولت أن تبقي بينه وبينها مسافة، حاولت ذلك بتعمد ظاهر وبإثارة. كانت تبتعد

بالمقدار الذي لا تبدو فيه مستحيلة، لكن لا تقترب أيضاً. كانت أكثر جمالاً هنا مما كانت عليه في بيروت، وإن حاولت بدراية فائقة أن تخفي هذا الجمال وأن تظهره في نفس الوقت. أما الشراب فقد أصرّت أن لا تشرب أول الأمر. بذل معها جهداً أثناء السهرة الأولى، وكان ميرزا وعباس واثنان آخران وزوجاتهم في هذه السهرة، لكن رفضت، فأحس بيتر بالاهانة وفسر الأمر لنفسه أن شيرين لا تشرب لوجود الآخرين، ولو أن الوضع الآن مثلما كان في بيروت لما ترددت. في المرات اللاحقة، رفضت بطريقة فيها اثارة وتحدٍ، وكان ميرزا وعباس هما الوحيدين. لم يستطع بيتر أن يجد تعليلاً لهذا التصرف، وإزاء الحاحه أوضح عباس أن شيرين شربت قبل فترة وسكرت، وكان هناك بعض الغرباء، وإذا كان لا بد من أن تشرب الآن فيجب أن تفعل ذلك بمقدار، وأمام الأصدقاء فقط!

هكذا بدأت الأمور، وهذه البداية أثارت بيتر وجعلته يتشبث ويفكر كثيراً فيما يريده من شيرين، ويسأل نفسه عن عواطفه وموقفه منها. وشيرين كانت تدرك أنها بمقدار ما تخلق في نفسه الاثارة، وتستعصي عليه، يمكن أن تقتحمه وأن تلعب الدور الذي تريده.

لقد أعجبها كثيراً في بيروت، وكان من السهل أن تتطور العلاقة بينهما، لكن لاحساسه أنها ثمرة ناضجة ويمكن الوصول إليها في أي وقت، ترك اللعبة إلى وقت لاحق. «لا تتعجل يا بيتر... أنت ترى الدعوة في عينيها، وتراها وهي تقلب شفتها السفلى بتلك الطريقة الشيطانية، الأمر لا يحتاج إلى ذكاء خارق لمعرفة ما تعنيه هذه الحركات، انها شديدة الوضوح، وما دام الأمر هكذا أتركها الآن. إذا تركت المرأة بعض الوقت فلا بد أن تحرضها، وبعد ذلك يسهل عليك أن تفترسها، أما إذا كانت متهيجة فإنها تفترسك، هل تريد لهذه المرأة أن تفترسك» هكذا كان يقول بيتر لنفسه وهكذا كان يتساءل.

شيرين هنا امرأة جديدة، جديدة تماماً! صحيح أنها كانت تجلس بعض الأحيان في غرفة أخرى، لكن الغرف متصلة فيما بينها بأبواب

عريضة مفتوحة وشرفات مشتركة وحواجز لا تشبه الحواجـز. وطريقـة شيرين في أن تجلس هناك، على المقعد المقـابل، وعينـاها تهيمـان بين اللوحات المعلقة والشرفة والرجال، متشـاغلة بين فتـرة وأخرى بـأشياء تصنعها، كأن ترتب بعض الزهور أو قطع الأثاث، أو تغيّر الأسطوانات، ان طريقتها هذه كانت أكثر اثارة مما لو كانت تجلس معهم وتشارك في الأحاديث التي يخوضون فيها. ورغم المحاولات التي بذلها بيتر لأن يجرّها إلى هذه الحلقة الصغيرة، لأن يجعلها تقترب، كانت شيرين تحافظ على هذه المسافة التي أرادتها.

ويوماً بعد آخر تشتعل شيرين في ذاكرته. وفي المرات التي زارهم في البيت ولم يرها، كان يشعر بالغيظ والتحدي. كان يتساءل بطرق مختلفة عن الأسباب التي منعتها من الظهور. كان عباس يجيب بطريقة بسيطة، كأن يقول انها خارج البيت، أو أنها متعبة، لكن بيتر يحس أن وراء هذه الاجابات، التي تبدو مباشرة وبريئة، شيئاً آخر، لأن اشارات صغيرة في مرات معينة، خلقت لديه احساساً أن العلاقة بين عباس وشيرين، وإن بدت في الظاهر ناعمة وأنيقة، يتخللها الغموض والتحدي، وتتسم بذلك الشيء الذي يبدو مرغوباً للنظرة الأولى، لكنه شيء مليء بالاحتمالات والمخاطر.

كانت شيرين ذات شخصية قويـة، تتصرف بحـدة، وإن كانت حريصة على أدق المظاهر والتفاصيل. كانت حـين تجلس إلى المائـدة. وبطريقة مليئة بالاغراء، ترتب أماكن جلوسهم. كانت وهي تسكب لهم الطعام تتحدث حول طريقة اعداده، وما يجب أن يأكلوا منه. وكانت تحذّر بطريقة مثيرة ألّا يأكلوا أكثر مما يجب، لأن بعد هذا الطعام ستقدم أنواعاً من الحلوى صنعتها بنفسها، وفي التفاتاتها وحركاتها يحس بيتر أنها توزع لطفها واغراءها بطريقة مدمرة، حتى عندما تخاطب عباس بتلك اللهجة المثيرة، كان يحس بيتر أنها تخاطبه. كانت كلماتها تنزلق في أذنيه ناعمة مغرية، وأقرب إلى الجنس، أما حركاتها فلا تحتاج الى تفسير، كانت حركات شديدة الوضوح: ترمي شعرها إلى الخلف بسخاء، تتمطى ،

تتأوه بصوت عال واضعة يدها على فمها ثم تعقب ذلك بضحكة رنانة، وتعتذر انها فعلت ذلك. أما حين تجلس معهم فتتعمد، في مرات كثيرة، أن تخلع الحذاء وتضع القدمين فوق كرسي صغير، أو تتركهما يداعبان الأرض. وحين تجلس بعيداً، على ذلك المقعد الذي يشبه العرش، فكثيراً ما كانت ترفع الساقين وتضعهما على كرسي مقابل، وفي كل حركة من هذه الحركات، كانت تشتعل الرغبة في صدر بيتر ويحس أنه لا يقوى على احتمالها. كان يريد أن يفعل شيئاً، أن ينهض ويهجم عليها، أن يضمها إلى صدره ويشدها بقوة حتى تصرخ، أن يحملها على ساعديه ويلف بها ويرقص، هكذا كان يفكر، وهكذا كان يشتهي. وشيرين بمقدار ما كانت تقرأ هذه الرغبات في عينيه، تتحداه بمزيد من الاثارة والتمنع.

* * *

لم يطل الأمر كثيراً، فبعد أن أصبح بيتر نجمًا مألوفاً في الكثير من السهرات التي تقيمها السفارات والشخصيات الثرية، وغالباً ما كان يدعى إليها عباس وشيرين، بدأ غزوات الاثارة. كان يتعمد الاقتراب من بعض النساء، ويتحدث معهن بمرح زائد، ويضحك بطريقة لافتة للنظر، وفي بعض الأحيان يتعمد الذهاب إلى شرفة، أو إلى صالة أخرى، ويبدو ساهماً أو حزيناً. كان يقوم بذلك لكي يثير شيرين ويتحدّاها؛ وشيرين تقاوم، تتظاهر بعدم الاهتمام، تنظر بعيداً لكي لا ترى، لكنها في الداخل تشتعل، تمتلىء رغبة في أن تكون الوحيدة محور اهتمامه!

هكذا جرت اللعبة في البداية، وبمرور الزمن أخذت تتشكل وتأخذ مجرى غامضاً في نفس الوقت. أنهما الآن يلعبان لعبة خطرة وشيقة. لم يكن أي منهما يعرف نتائج هذه اللعبة، لكنهما يلعبانها بكثير من الرغبة والشوق.

سأل بيتر نفسه: «ماذا أريد من هذه القطة؟ وهل ما أفعله الآن جزء من المهمة التي جئت من أجلها، أم أنها لعبة يلعبها الرجال حين يكونون بعيدين عن بيوتهم؟» ودون تردد يقول لنفسه بتأكيد: «ليذهب

راندلي إلى الجحيم. انني أشتهي هذه المرأة، اشتهيها تماماً ولا تهمني النتائج بعد ذلك..»

اللعبة تستمر، تتصاعد، تتراجع، تتصاعد مرة أخرى، تسير بخط متعرج، متلون، والحياة من حولها يتزايد وقعها، حركتها، تتوقف في لحظات معينة وكأنها انتهت إلى شكل لا يمكن أن يتغير، وفي لحظات أخرى تنطلق بغزارة وسرعة حتى كأنها لن تتوقف أبداً.

(٣)

المظاهرات تنفجر، تتزايد يوماً بعد آخر، يتساقط القتلى والجرحى، تغلق المدينة، تهتز الدولة كلها، ويملأ الخوف بيتر.

«لقد انتهينا إلى الأبد، لا يمكن أن نستعيد مركزنا هنا مرة أخرى، ومن العبث استمرار المحاولة. انني أحس رائحة الخطر تنبع من كل مكان، ويجب أن احتاط كثيراً، فهؤلاء الرعاع يمكن أن يقتلوا أي إنسان دون تردد. وإذا قتلت؟ ستعتذر الحكومة، تقول ان الأمر وقع خطأ وسوف نعاقب المسؤولين، وينتهي بيتر ج. ماكدونالد إلى الأبد!» ويتساءل بمرارة: «ماذا أريد من هذه اللعبة كلها؟ لماذا تورطت وجئت إلى هذا البلد الكئيب؟ وماذا إذا انتصرت الأمبراطورية واستعادت مركزها السابق؟ بضع جنيهات إضافية على الراتب؟ وسام استحقاق! شهادة تحفظ في الملف وتقول أن بيتر ج. ماكدونالد قدم خدمات جليلة إلى الأمبراطوريه؟» ويغيب في أحلام مضطربة، كان لا يجد اجابات يرتاح إليها في كل الحالات، لكنه في حالات كثيرة ينتفض بكبرياء ويقول لنفسه: «المسألة

تتعدى هذه الأسئلة التافهة، بل وتتعدى شخصي أيضاً. المسألة تتعلق بالمبادىء، تتعلق بالمصالح الكبرى للأمبراطورية، وتتعلق أيضاً بمستقبل الحضارة. إن ما أفعله هنا يتجاوز كثيراً الفوائد الشخصية والأوسمة والشهادات في الملفات، لقد وجهت لنا هنا إهانة ولن نتسامح فيها. لقد مرّغ شرف الأمبراطورية في الوحل حين أقدمت هذه الدولة على اتخاذ هذه الاجراءات، متنكرة لأبسط قيم العدالة والمنطق، ضاربة عرض الحائط بالمواثيق والقوانين. لا لم يقتصر الأمر على ذلك، لقد تجاوزه كثيراً: اضطر رجالنا إلى الرحيل خلال أربع وعشرين ساعة. لقد وقف البريطانيون في قاعة المطار وفي الميناء مثل القطط المذعورة ينتظرون الرحيل. كانت البنادق بأيدي رجال الجيش الذين يطوقون المطار والميناء، وكأنهم يطوقون مجموعة من القتلة واللصوص. إن منظر مواطنينا، وهم يتكومون بالعشرات، في قاعة المطار، تبعث على الفزع وتحرك الدماء في الأفاعي أيام الشتاء. ماذا يظن هؤلاء حين يضطرون رجالنا إلى الاستسلام والسفر الذليل؟ هل يتصورون أن نرفع لهم قبعاتنا ونشكرهم بحرارة على هذه الأفعال؟ هل يظنون أن تصرفاتهم هذه تتسم بالمنطق وأنهم الآن يردّون لنا الجميل؟ وأين ذهبت جهود مئات وآلاف الرجال الذين جاءوا إلى هذه البلاد في أصعب الظروف وأقساها؟ هل يتذكرون كم بذلنا من الجهود والعرق لكي نصنع منهم بشراً؟ لكنهم شرقيون. . . نعم انهم شرقيون، ولا يعرف الانسان متى يتلقى منهم الضربة، انهم لئام إلى درجة لا تصدق، ليسوا لئاما فقط، أنهم يفعلون كل شيء من أجل الاساءة، وكأن الاساءة جزء من تكوينهم وحياتهم!

وبريطانيا العظمى، أمبراطورية الماضي والحاضر والمستقبل تتلقى الصنعات ولا ترد عليها؟ متى كان يحصل ذلك؟ إن الشرقيين لا يقرأون التاريخ، ولا يعرفون وقائعه. هل نسوا كيف صبرت بريطانيا على نابليون سنين طويلة، وتركته كطفل صغير يلهو ويعبث في أنحاء واسعة من العالم، حتى إذا تجاوز حدوده، وتصور أن الدنيا أصبحت له، كسرت أضلاعه

وبعثته إلى تلك الجزيرة ليموت فيها! لو أن الشرقيين قرأوا التاريخ لما أقدموا على مثل هذه الحماقات، لكن شكراً لله انهم لم يقرأوا، ولن يدركوا كيف سنتصرف. صحيح ان حركتنا ثقيلة، لكنها حركة متقنة. حين نتحرك لا نتوقف أبداً، ونكنس أمامنا كل هذه الحثالات. يجب أن نفعل ذلك، وإذا لم نفعل فإن الفوضى ستعم الأرض وسوف يتطاول الصغار على الكبار، وتبدأ هذه البلدان الصغيرة المنسية تفرض أسلوبها ومنطقها في العلاقات الدولية. يجب أن نفعل أشياء كثيرة من أجل مصلحة الحضارة والانسانية، ومن أجل مصلحة هذه الشعوب ذاتها. ماذا يظنون أنهم سيفعلون دون رعاية ومعونة الأمبراطورية؟ وماذا إذا تركناهم دون عقاب؟ إلا تتوالى الأزمات والمصائب بعد ذلك؟»

هكذا كان يفكر، وهذه الأسئلة التي طرحها على نفسه أو طرحها الآخرون عليه، لم يجد مشقة في إيجاد الأجوبة لها. صحيح أن الآخرين لم يكونوا يتفقون معه تماماً، لكن وضوح هذه الأجوبة وحسمها لم يتركا في نفسه لحظة شك واحدة. طبيعي كان يقول الأشياء بأساليب متعددة، تتلاءم مع الجهة التي يخاطبها، وكثيراً ما كان يمتنع عن قول كل ما يريد، لكن القناعة لديه كانت كاملة راسخة، ولم يكن يستفزه ويثيره سوى موقف لندن، إذ في أحيان كثيرة كان يضطر إلى الامتثال للأوامر التي تأتيه، لكن يجد في هذه الأوامر غباء مطلقاً، ويتمنى لو يستطيع الجلوس مرة أخرى مقابل راندلي وغيره من المديرين ويناقشهم، بالتأكيد سوف يقنعهم، وسوف يكتشفون بُعد نظره وصحة أحكامه. انهم الآن بعيدون، والحديث معهم، عبر الرسائل، مهما كان واضحاً، لن يكون مجدياً.

كانت هناك باستمرار مخاوف عديدة لم يستطع أن يبددها في عقول الآخرين، وكانت هذه المخاوف تسبب له عذاباً متزايداً. كان يريد الاستغناء عن عدد من الأصدقاء، وكانت لندن لا تشاركه الرأي. كان يقول لنفسه بغيظ: «المسألة لا تتعلق بالوفاء، إنها أكبر من ذلك بكثير. لندن تريد أن تبقى وفية لأصدقائها... ومن هؤلاء الأصدقاء؟ مجموعة

من الناس الشرهين التافهين. نعم انهم كذلك. ولا يقتصر الأمر على التفاهة والشراهة، انهم مجموعة من العجزة الذين يتعبون الانسان أكثر مما هم قادرون على مساعدته. إنهم يعيشون أحلام الماضي، ويتبعون الأساليب القديمة، وإن استمرارنا بالاعتماد عليهم سيفقدنا المبادرة ويجعلنا أقل قدرة على مواجهة احتمالات المستقبل. يجب أن تقتنع لندن أن هؤلاء الرجال اهترأوا، اهترأوا تماماً، انهم الآن أشبه بالجوارب المخروقة، ولا بد من استبدالهم. يمكن أن نعطيهم ما يكفيهم وأكثر من ذلك، لكن دون الاعتماد عليهم أو التعاون معهم. هناك جيل جديد ممن درسوا في الغرب، إن هؤلاء، إذا أحسنا التعاون معهم، يمكن أن يكونوا رجالنا في المستقبل، وهؤلاء، كما يبدو لي، مستعدون إلى أبعد الحدود، لأنهم يفهمون حضارتنا، يفهمون دوافعنا، ويفهمون لماذا نتصرف هكذا وماذا نريد، إضافة إلى كونهم ذوي خبرة عالية، وهم جيل المستقبل، شئنا ذلك أو لم نشأ، إن هؤلاء أفضل بالنسبة لنا عشرات المرات من أولئك المحنطين الكسالى.. والحالمين.

يجب أن تقتنع لندن بذلك، ومستر راندلي الذي كتب إليّ قبل أيام «اترك هؤلاء الصبية، إنهم قليلو التجربة والخبرة، وانهم عبء علينا في الوقت الحاضر». إن مستر راندلي لا يزال يعيش في القرون الماضية، يتصور أن الرجال الذين تعاون معهم في فترة قديمة سابقة ما زالوا يتمتعون بنفس الطاقة والحيوية. إنه يخطىء كثيراً حين يجبرنا على الاستمرار في التعاون مع هؤلاء، وهو نفسه، لو قدر له أن يأتي ويلتقي بهم من جديد لقال لي: «مستر ماكدونالد هيا، ادع عدداً من حفاري القبور وأصنع قبراً كبيراً لنلقي فيه هذه الجثث» أنا متأكد من ذلك، لكن مستر راندلي لا يزال يحلم وعقله مملوءاً بالأحلام والماضي!

... إضافة إلى مخاوفي الكثيرة من أصدقاء الأمس، انظر إلى الأميركيين. انهم يجيئون على شكل سياح ورجال أعمال، لكنهم يفعلون شيئاً غامضاً، لا أستطيع أن أحدد بالضبط ماذا يعملون، لكنهم بالتأكيد

يفعلون شيئاً رديئاً. في لقاءاتنا معهم يبدون في منتهى البراءة والسذاجة. يقضمون السيجار ببذاءة. يضحكون ضحكات صاخبة مدوية. يستمرون في ارتداء هذه الملابس الملونة التي تشبه ملابس مخلوقات السيرك، لكنهم بالتأكيد لا يكتفون بذلك، ولم يأتوا هنا لدراسة الآثار واللغات الشرقية والتقاط صور الجوامع والصحراء، وحين نشدّد عليهم الحصار يهربون، لا يكتفون بالهرب، يشتموننا أيضاً، يقولون أن طريقتنا في التصرف أدت إلى هذه النتائج، وان الأمور ليست إلى هذه الدرجة من السوء. يقولون ذلك ولا يضيفون شيئاً آخر، يخافون من التورط. لكنهم في المقابل، وكما تؤكد المعلومات، لا يتوقفون ولا يهدأون. عرضوا على العجوز أن يقدموا له مساعدات سخية، وأن يتوسطوا لدينا. وعرضوا أن يقوموا بمشاريع مجنونة، وفي هذا الوقت بالذات!

لا أفهم هؤلاء الأميركيين، ولا أعرف كيف يفكرون، أو لماذا يتصرفون بهذ الشكل. وراندلي لا يصدق أنهم جاءوا، ولا يتصور للحظة واحدة انهم قادرون على خلق المتاعب لنا. يقول: «من تريدنا أن نحارب يا بيتر؟ في البداية تطلب منا التخلي عن اصدقائنا، أن نقطع علاقاتنا معهم، أن نغيّرهم كما تغير الجوارب. حسناً، ثم انك لا تكتفي بذلك، تريد الآن أن نحارب حلفاءنا! وماذا تريد أيضاً قل لي بحق الشيطان...».

لم يكتفِ راندلي بأنْ يكتب لي ذلك، فعن طريق مبعوثه، برود الن ووليم تومسون، بعث إليّ يقول: «لو كنت أمامي الآن لما ترددت لحظة واحدة في أن أشد أذنك، في أن أطلب إليك الوقوف ساعات طويلة ووجهك إلى الجدار عقاباً لك على الحماقات الكثيرة التي ترتكبها!».

انني أفهم الدوافع وراء كتابة راندلي، ووراء كلماته، لكن المأساة انه لا يفهمني، ولا يريد أن يفهم أياً من الأفكار التي أقولها له، وما دام الانسان في مثل هذا الوضع عليه أن يحارب على جبهات كثيرة، وعليه أن ينتصر في النهاية!

أكاد أجن من هذه الحماقات كلها، فالانسان حين يقيّد ويطلب منه أن يحارب سوف يكون محارباً رديئاً، وسوف ينهزم. أحس بملامح الهزيمة تملأ روحي، أحسها تماماً. ولا يقتصر الأمر على الأصدقاء، فالأعداء في الجهة الأخرى، يسنّون سكاكينهم تمهيداً لذبحنا جميعاً. صحيح انهم مؤدبون حتى الآن، لم يسيئوا إليّ إساءة واحدة، ويتصرفون بلباقة في المناقشات والعلاقات، لكن الانسان لا يستطيع أن يطمئن إليهم. ابتساماتهم الواسعة، المجاملات في بداية كل لقاء، الأحاديث حول الطقس، إن هذه الأشياء كلها تتراجع وتنتهي حين نبدأ بطرح القضايا الجدية؛ فجأة يتحولون إلى أناس كأنك لم تلتق بهم من قبل: تختفي الابتسامات تماماً لتحل مكانها نظرات شريرة حقودة. تتراجع كلمات المجاملة الدافئة الناعمة لتصبح كلمات عدوة مليئة بالتحدي والتهديد. أما البحث عن الحلول فيتحول إلى كشوف عن الماضي. وأي ماضٍ؟ يعتبرون جميع الخدمات التي قدمناها لهم تعدياً على حقوقهم، ويا ليتهم يستعملون الكلمات المهذبة، انهم يستعملون نفس الكلمات التي يرددها الشارع ويهتف بها الرعاع. يقولون إننا لصوص؛ سرقنا خيراتهم كلها، امتصصنا دماءهم، مارسنا معهم سياسة التجويع والاذلال، وخلقنا لهم من المصاعب والكوارث ما لا يمكن إصلاحه أبداً!

انهم بين لحظة وأخرى يتحولون إلى مخلوقات شريرة غاضبة، ولولا الحصانة التي يتمتع بها موظفونا، ولولا أننا ضيوفهم لفتكوا بنا.

في ظل هذا الجو المليء بالخطر، على بيتر ماكدونالد أن يتصرف. عليه ألا يرتكب حماقات من أي نوع، هكذا يقول لي مستر راندلي، برسائله، عن طريق المبعوثين الكسالى الأغبياء الذين يرسلهم بين فترة وأخرى. وعليّ أن أنتصر..!

بين أحضان شيرين، هذه المرأة التي أفسدتني وأفسدت حياتي، يمكن أن أصل إلى أشياء كثيرة. يمكن أن أصل إلى جنون الغبطة التي لم أتصور

أن الشرق يمتلكها، ويمكن أن أصل إلى معرفة ما يدور في المدينة وما تفكر فيه، وعندها سوف أعـرف كيف انتصر عـلى الرجـال الشرقيـين وعلى راندلي. . وعلى أشياء كثيرة في هذه الحياة!

(٤)

كيف يمكن للرجل أن يعيش في هذا الشرق دون امرأة؟ وماذا لو جاءت باتريشيا والصغيرتان؟ هكذا سأل بيتر نفسه، أجاب وابتسامة صغيرة ترتسم على شفتيه: بالتأكيد سوف تقضي الجزء الأكبر من وقتها تأخذ حمامات شمسية، وحين تفرغ من ذلك ستهرع إلى الأسواق الضيقة المليئة بالعفونة لتشتري أشياء تافهة، ستقول لي والفرح يملأ صوتها والتعجب والاستغراب تنطق بهما كل حركة من حركاتها: «انظر يا عزيزي ما أروع هذه الأشياء. انها صناعة يدوية. ما أدق هذه الصناعة وما أروعها، في لندن سيفتحون أفواههم من الدهشة حين يرونها، سوف لن أتوقف عن شراء هذه الأشياء. انظر إليها يا بيتر... انها قديمة، انها تحفة حقيقية، سوف لن ننتظر سنوات طويلة حتى تصبح كذلك، ماذا تقول يا بيتر؟» وانظر إلى الأشياء، أقول لها كلمات مجاملة، استغرب اننا قطعنا آلاف الأميال وجئنا إلى هنا لنشتري هذه الحاجات التافهة، العديمة الجدوى، والقبيحة في نفس الوقت، لكن ماذا تفعل مع النساء!

ويغرق بيتر في أفكاره، حين يستعيد ارتباطه فيماحوله. يشعر انه كان

حكيمًا حين جاء وحيداً. لـو كانت بـاتريشيـا هنا لجعلت حيـاتي أكثر صعوبة. «يجب أن تقول لي الحقيقة كلها يا بيتر. لا تغضب، لقد رأيت كل شيء. ما هي علاقتك بهذه المرأة الشرقية القـاسية؟ قـل لي ولن أغضب. . .» وتحمل باتريشيا حقيبتها في اليوم التالي وتسافر إلى لندن! «لم أعد أستطيع احتمال رؤية هذه المرأة. انها لا تكتفي بهذه العلاقة، تريد أن تشعرني بها، أن تقول بصوت عالٍ: ماذا تظنين، يا سيدتي، إن أبسط امرأة شرقية تستطيع أن تفعل ما لا تستطيعه أية امرأة غيرهـا. وحتى بيتر. . . زوجك، يتحول في أحضاني إلى طفل صغير شـديد الـطاعة والضعف، هل تعرفين ذلك؟ هل أقول لك كل شيء؟ لا. . لن أقول لك يا سيدتي، يمكنك أن تري كل شيء بنفسك، انظري إلى الهالات الزرق تحت عينيه، انظري إلى يديه حين يحمل الكأس. انظري إلى. . . هل أقول لك إلى ما يجب أن تنظري؟ ولكن أنت ستعرفين كل شيء في الليـل، وسوف تتأكدين بنفسك، ومع ذلك فإني أفعل من أجله أشياء كثيرة لكي يستطيـع. هل تستطيعين أنت؟»

كانت هذه الأفكار تمرق في رأسه بسرعة، وكان يبدو مشتتاً وأقرب إلى الشعور باللذة والتعب. حين ينظر إلى الفترة السابقة يجد أن حياته تغيرت كثيراً، لم يعد يشعر بالثقة كما كان من قبل، نكنه يشعر بالتحدي، وشيرين بمقدار ما دخلت حياته وسيطرت عليه، يخاف من هذه العلاقة ولا يعرف كيف تتطور وماذا سينتج عنها.

في البداية: الاستحالة؛ لكنها الاستحالة المرغوبة التي يبحث عنها، يريدها؛ شيرين تعرف كيف ومتى تبدأ:

- يبدو لي من الصعب معرفة كيف يفكر الرجل الانكليزي وكيف ينظر إلى المرأة. . .

- إنه مثل الرجال الآخرين. هل تتصورين أن هناك فرقاً بين الرجل الانكليزي وغيره؟

- أقول لنفسي في أحيان كثيرة انني لا أفهم نظراتك وتصرفاتك!

ـ وفي أحيان أخرى تفهمينها. . . أليس كذلك؟

ـ بالتأكيد يا مستر ماكدونالد!

ـ يجب أن تقولي لي ماذا فهمت وماذا لم تفهمي!

ـ أقول لك؟

ـ نعم يجب أن تقولي!

ـ ولكن لا أجرؤ!

ـ لا تجرؤين؟ انك امرأة خطرة!

ـ انني امرأة ضعيفة لا تحسن التصرف. هذا كل ما في الأمر!

ـ ما أروع هذا الضعف!

ويتغير صوته ويتابع بلهجة مليئة بالاغراء والتحدي:

ـ هذا الشرق مليء باللذة والغموض، ولا يمكن للانسان أن يعرفه إلا إذا اكتشفه من الداخل. لكن هل يستطيع الرجل الغربي أن يصل دون مساعدة الآخرين، أقصد دون أن تساعده امرأة؟

ـ ماذا تعني يا مستر ماكدونالد؟

ـ ما أعنيه، بكل بساطة، يا سيدتي، ان الانسان الغربي لا يعرف كيف يتصرف، يظن في كل لحظة انه ارتكب خطأ، ويجب أن يدفع غالياً نتيجة هذا الخطأ، هذا ما أظنه في حالات كثيرة، ولذلك أبدو متردداً في كل خطوة، ليس التردد وحده، إن لدي شكوكاً كثيرة حول صحة تصرفاتي. . .

وضحك بخبث وأضاف:

ـ يبدو أنني كنت واضحاً، هل فهمت يا سيدتي؟

ـ إنني الآن أكثر جهلاً من قبل، كنت أظن شيئاً، كنت أفكر بشيء، وأنت الآن تقول شيئاً مختلفاً!

ـ هل رأيت يا سيدتي! كنت أريد أن أعبر عن بعض الأفكار التي تجول في رأسي، استعملت أسلوباً بسيطاً ومباشراً، والنتيجة كما رأيت!

ـ ماذا تعني؟

ـ تقولين أنك لم تفهمي ما قلته!

ـ اقصد.. اقصد...

وضحكت بصوت عالٍ وهزت رأسها بطريقة مثيرة. ضحك بيتر ونظر إلى عينيها. في تلك اللحظة أحس تماماً انها فهمت كلماته كلها، وأنها تحاوره لتثيره وتجبره على أن يقول أشياء لم يكن مستعداً لقولها في هذه اللحظة. قال ليخلق في نفسها طمأنينة ووعداً:

ما زلنا بحاجة إلى مزيد من الوقت لكي نتعرف على بعضنا أكثر مما فعلنا حتى الآن!

ـ اتفق معك يا مستر ماكدونالد...

وتوقفت لحظة، بدت خلالها مترددة، عبرت عن ذلك بأكثر من اشارة، ثم ابتسمت وهي تنظر إليه باغراء وتضيف:

ـ هل أستطيع أن أسألك سؤالاً محدداً يا مستر ماكدونالد؟

ـ يمكن أن تفعلي ذلك.. بكل سرور.

ـ وهل ستقول الحقيقة كلها؟

رفع بيتر يده كأنه يقسم، وقال:

ـ سأقول الحقيقة، كل الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة!

وضحك بصخب وضحكت معه، لكن بطريقة اشعرته انها هزمت، وساد بينهما الصمت. نظر إليها بوجه فرح وسأل:

ـ ألا تسأل سيدتي..؟

هزت رأسها دلالة الرفض، لكن بطريقة شعر بيتر انها تسيطر عليه، وكان في شوق لأن يعرف ما يدور في رأسها. قال باصرار:

ـ أنا، يا سيدتي، على استعداد كامل للاجابة. هل أطمع في أن توجهي إليّ الأسئلة التي تريدين؟

قالت بدلال:

ـ لنترك هذا الأمر الآن، ويمكن أن نتحدث في أمور أخرى!

ـ أمور أخرى؟

ـ نعم يمكن أن نتحدث عن الطقس، عن الأزياء، أو عن أية

أشياء أخرى تحبها، ألا تحب أن نتحدث عن ذلك؟

ـ بكل تأكيد يا سيدتي، لكن كنت أفضل أن أسمع اسئلتك. انني متلهف لسماعها!

ـ لا شيء يا مستر ماكدونالد. . . إنها مجرد أسئلة غبية!

وضحكت مرة أخرى ونهضت. نظرت إلى الشرفة وإلى الغرفة الأخرى، كأنها سمعت صوتاً وتريد أن تتأكد منه. أمالت رأسها قليلاً، وبطرف عينها نظرت إليه. كانا في هذه الساعة وحيدين، أول مرة يكونان هكذا. صحيح ان عباس تركها أكثر من مرة، وغاب بعض الوقت، لكنه في كل المرات كان داخل القصر. كان يذهب إلى غرفة مجاورة، يتكلم بالتلفون، يتحدث إلى بعض الزوار، أو كان يجلس في الشرفة في حالة من التأمل. في هذه المرة، وبعد أن جاء بيتر بدقائق، رن جرس الهاتف وخلال أقل من دقيقة اعتذر عباس بعمل طارىء. فكر بيتر أن يغادر ويأتي مرة أخرى، لكن عباس قال إنه لن يغيب فترة طويلة، «نصف ساعة مستر ماكدونالد، على أبعد تقدير، وسوف أحاول العودة قبل ذلك إذا تمكنت. .» ظل بيتر متردداً لحظة صغيرة، لكن انقذته كلمات شيرين:

ـ يمكن أن ننتظره يا مستر ماكدونالد، سوف نتحدث بعض الوقت، وسوف لن أكون مضجرة!

والتفتت إلى عباس وقالت بغنج:

ـ يمكن أن تذهب، لكن أرجو ألا تتأخر يا حبيبي، إذا تأخرت فإن المستر ماكدونالد سيقول إن الشرقيين لا يفون بوعودهم!

قال عباس بصخب:

ـ بالتأكيد لن أتأخر. مسافة الطريق، وقد أكون هنا قبل أن تبدأوا الحديث!

كانت هذه البداية. أراد بيتر أن يطول حديثه مع شيرين، أن يستمر، لكن حين وجد نفسه وحيداً معها بدا أكثر تردداً مما كان يتوقع

ولجأ إلى هذه الطريقة الملتوية في الحديث. لقد كانت الساعة التي غابها عباس غنية موحية، أحس بيتر أنه يشتهي هذه المرأة أكثر من أي وقت سابق، وأحس أيضاً أن حديثهما، رغم وضوحه، لذيذ بهذه الطريقة؛ ولو أن كل الكلمات قيلت، أو لو أن شيرين سألت الأسئلة التي دارت في رأسها لاختلف الأمر. قال بيتر لنفسه: «كانت طريقتها في الحديث شديدة الاغـراء. انها مرة من المـرات القليلة التي أحس أنني أحب الغموض وأبحث عن شيء أعرفه ولا أعرفه، وهذه المرأة أكثر ذكاء مما تصورت. انها الآن أقرب إليّ من أي وقت سابق، ولا بد أن أصل. انتظر بعض الوقت يا بيتر. . انتظر».

في وقت متأخر أخذت العلاقة شكلاً جديداً:

ـ هل نلتقي الليلة يا شيرين؟

ـ أما زالت لديك القوة لتسأل مثل هذا السؤال؟

ـ تعالي وسوف ترين؟

ـ ماذا؟

ـ سترين. . انني قوي إلى درجة كبيرة!

ـ ولماذا لم تكن هكذا في المرة السابقة؟

ـ كنت متعباً، هذا كل ما في الأمر. والليلة يجب أن تأتي.

ـ لا أريد أن آتي لكي لا أصاب بالخيبة مرة أخرى!

ـ الخيبة؟ لتحّل عليك اللعنة ايتها المرأة ـ البئر.

ـ يمكن أن تقول أي شيء، لقد رأيت بنفسي، لم يقل لي ذلك أحد، هل تستطيع أن تنكر؟

ـ ولكن أنت. . .

ولم يستطع أن يتابع، كان يريد أن يقول أشياء عديدة، لكن شعر فجأة بالضعف. قال لنفسه: «هذه المرأة قادرة على امتصاص الدمـاء، ويمكنها خلال فترة قصيرة أن تحوّل أي رجل إلى هيكل عظمي، حتى الجلد تستطيع أن تمتصه، أنا متأكد من ذلك». وشعر أنه ضعيف أمامها،

أنه يريدها، يريدها في كل وقت، لكن حين يضع يده فوق صدرها، حين تنزلق يده إلى فخذيها تنفجر الحرارة في صدغيه، فجأة يتحول إلى مخلوق أبله لا يعرف كيف يسيطر على نفسه. لقد قال لنفسه عشرات المرات: «كن هادئاً. أهدأ يا بيتر، تصور شيرين للحظات أنها قطعة من الحجر، من المرمر البارد، تمتع بالنظر إلى الجسد الشهي، أترك عينيك تسبحان في هذا الملكوت، تأمل كل خلية فيه، تأمل في كل لحظة، وسوف تكتشف أشياء مذهلة، لا يمكن أن يكون هذا الذي تراه مجرد جسد امرأة. انه مستودع ملعون من الحرارة والشبق والقوة، ولا يمكن أن يكون جسد امرأة. . .» كل المحاولات للسيطرة على النفس انتهت إلى الفشل، يجد بيتر نفسه كديك هائج، خلال لحظات يقفز فوقها، وخلال لحظات ينتهي، يصاب بعدها بحالة من الهبوط لا يعرف كيف تأتيه بهذه السرعة. يحس أنه متعب لدرجة الألم، يريد أن يغرق رأساً في نوم عميق لكي يستعيد قواه. يريد أن يغطس في ماء حار لعلّ الماء يرده إلى نفسه. وهو حين يفكر بهذا كله تكون تلك النمرة قد امتلأت رشاقة وخصباً وجنوناً، تصرخ بتلك الطريقة الموجعة، تنشب أظافرها في ظهره، تشده بقوة، ويحس أن كل خلية في جسدها تتحول إلى مخلوق مستقل، كل خلية تحارب وحدها، تفترس جسده، تلدغه، تنزلق تحت جلده، تصرخ في عروقه، وتلفحه أنفاسها، أنفاس ملتهبة، متوترة، تندفع بقوة، تتصاعد، تخنقه، وتتفاعل في قلبه مشاعر الألم بالرغبة. ماذا يصنع؟ ويسمع صوتها المخنوق وهو يصرخ به:

ـ أين أنت؟ لماذا هربت؟

ـ أنا معك يا شيرين.

ـ آه يا خائن. اقترب. . . اقترب اكثر . . اكثر . . . .

ويجمّع عظامه في محاولة يائسة لأن يمنحها شيئاً، لكن قواه تتراجع، تتلاشى، ويحس بالخيبة وهو يسمعها تصرخ:

ـ كل مرة هكذا. أتريد أن تعذبني؟ اقترب. .

ـ نعم نعم يا شيرين؟

ويحس بالتخاذل أكثر من قبل وهو يرفس برجليه الهواء في محاولة اخيرة لأن يمنحها ما تريد، لكن يديها، وهما تطبقان على كتفيه، وهما تحاصرانه، تتحولان إلى قوة مدمرة كاوية، وتمرر وجهها على صدره، ويحس برائحتها تملأ رئتيه، ويريد أن يفعل شيئاً، أن يفلت، أن يغرق في نوم عميق، أن يسقط في ماء ساخن. . .

في تلك اللحظة المجنونة يريد بيتر أن يصرخ، أن يهرب نهائياً، لكن السقطة التالية، ثم ذلك الهدوء المباغت والصمت يولدان في نفسه مشاعر من الحيرة والخيبة. كان يقول لنفسه حين يسمع انفاسها تتراجع تدريجياً «انها شيطان على شكل امرأة. لا توجد امرأة مثلها ابداً.» ويتذكر النساء اللواتي مررن في حياته. يتذكر عدداً كبيراً، يحاول أن يسترجع وجوههن واللحظات التي قضاها معهن، حين كان شاباً، قبل عشرين سنة، وكان متأكداً من قوته، وقدرته على مداعبة النساء بطريقة معينة ليزيد تحريضهن. حتى في تلك الأيام البعيدة لا يتذكر انه كان ضعيفاً، أو شعر بأية امرأة تمتصه هكذا. قال لنفسه بحزن: «لا يمكن أن يبقى الإنسان قوياً إلى الأبد، وهذه المرأة أكثر من أن يتحملها إنسان أو يشبعها!» وفكر أن قوة شيرين الخارقة ليست مجرد نزوة معه أو هو مصدرها. قال بيأس «آه لو كنت ثوراً. . . إن الثيران، حتى وهي تنزف من أفواهها وأنوفها تستطيع أن تظل قوية ولا تعرف التوقف!»

مرت هذه الصور في رأسه متداخلة مسرعة، وفجأة اكتشف شيرين تحدّق في عينيه وقد اقتربت منه كثيراً؛ قالت وهي تضحك:

ـ يا صغيري بيتر. . . يجب أن تختزن قواك، حتى إذا عدت مرة أخرى إلى لندن تكون قوياً وتستطيع أن تمنح اللذة لتلك التي تنتظرك هناك!

ـ ألا تأتين هذه الليلة؟

ـ الليلة لغيرك. . . قلت له ذلك!

ـ أنت كل ليلة لا أعرف لمن!

ضحكت باثارة وشدّت شعره، أمسك بيدها وقربها من فمه، كان يريدها هذه الليلة، لكنها كانت تهرب. وهذه الطريقة بمقدار ما تحرضه وتزيده لهفة تجعله في وضع لا يعرف كيف يلّح أو كيف يتصرف!

لا يريد أن يتذكر الآن كيف كانت الليلة الأولى حين ناما معاً، إن مجرد التفكير بذلك يجعله مجنوناً؛ أما كيف تطورت العلاقات بعد ذلك، فإن بيتر يحس بالزهو وبعض الأحيان يصيبه الغرور فيضحك بصوت عال ويقول لنفسه «ما دامت ملكة الشرق هذه تركع عند قدمي فإن الشرق كله سيتعلم الركوع بسرعة، وسوف يركع. حتى هذا العجوز المعروق الوجه سوف يفعل ذلك».

كانت علاقته بشيرين تتسم بالتهور الـذي لا يعرف التـوقف أو التراجع، وعباس بمقدار ما يريد أن يتغاضى عن هذه العلاقة، كان يريد أيضاً أن يبقى محبوباً، من قبل الاثنين معاً. كان يريد رضا شيرين، ويحس بالثقة والقوة إن كانت معه. أما حين تبدأ تفترسه، حين تتخفى وراء الصمت والغضب فإنه يحس بالدوار والتلاشي؛ وعلاقته مع بيتر تتميز أيضاً بذلك الاحترام الغامض المشـوب بالغيظ، حتى بيـتر نفسه يستغرب أن يكون عباس هكذا، قال لنفسه: «إن هذا الرجل لم يعد قادراً على شيء، وربما كان منذ البداية ضعيفاً وإلا كيف أصبح هكذا؟»

(٥)

عرف بيتر أن العلاقة بين عباس وشيرين تتسم بمقدار كبير من التداخل والغموض، فهذه المرأة النمرة، كما سماها بيتر منذ رآها أول مرة، لا تعرف الاستقرار، كثيرة الصخب، تدخن بشراهة، تغضب وترضى بسرعة، وهي بمقدار ما تحب الحياة تنتابها في أوقات معينة رغبة لا تقاوم للعزلة، فلا تحب أن ترى أحداً. وعباس الذي يحبها بوله ظاهر، يخاف النزوات المجنونة التي تنتابها، لذلك فهو يبذل جهوداً كبيرة من أجل أن يبعدها عن كل ما يسبب لها الحزن. كان يتغاضى عن حماقاتها، كما يسمي مرحها وعلاقاتها، وكان يعتبر هذه العلاقات لا تتعدى الأمور المشروعة أو الصغيرة، كان متأكداً من ذلك، أو كان يريد أن يقنع نفسه بذلك، وإلا كيف يفسر اعترافاتها له؟ كيف يفسر الدموع الصغيرة التي تتساقط من عينيها حين تضع رأسها على كتفه وتطلب منه المغفرة؟

« ـ عباس... اغفر لي. أريد أن أغسل قدميك ثم أشرب الماء...!

«ـ هل ارتكبت حماقة جديدة ايتها الدجاجة النزقة؟

«ـ أبداً يا حبيبي . .

«ـ ماذا اذن؟

«ـ إن الحب الذي أحسه تجاهك، يا حبيبي، يمنعني من النوم!

«ـ أمن أجل هذا تطلبين المغفرة؟

«ـ ألا أستحق ذلك يا حبيبي؟

«ـ آه . . يا شيرين، ما أروعك. ماذا سأصبح لو لم تكوني معي؟ ان الحياة بدونك، يا حبيبتي، لا تستحق أن تعاش!

«ـ أحبك أكثر آلاف المرات حين تتحدث معي هكذا.

«ـ آه يا شيرين . . لو استطيع أن أتحدث معك هكذا إلى الأبد. إن عواطفي تجاهك لم تعد تحتاج إلى براهين جديدة. حتى الكلمات أنت لست بحاجة إليها، أنت ترين وتعرفين كل شيء!

«ـ ولكن أريد أن أسمع صوتك دائماً يسكب في أذني هذه الكلمات، إني أريدها، بحاجة إليها. وحين تصمت، حين تمتنع عن أن تقولها، أبحث عنها لدى الآخرين لعلّي أجدها!

«ـ وهل وجدتيها لدى أحد غيري؟

«ـ أتغفر لي إذا قلت لك؟

«ـ لا أدري . . لا أدري!»

ويصمت عباس لحظة، ينظر إليها بحزن، يرى دموعاً صغيرة تتساقط من عينيها، يمسح الدموع، يرفع رأسها إليه. إن عواطفه في هذه اللحظة متشابكة لدرجة لا يعرف كيف يتصرف، ماذا يقول لها. يخيم صمت قاس، تشهق شهقة صغيرة، تسحب نفسها منه، ترتمي على أريكة، يخرج صوت بكائها صغيراً متردداً أول الأمر، ينظر إليها وما زال واقفاً في مكانه، يريد أن يفعل شيئاً، لم يعد يحتمل أن يرى هذه القطة حزينة متعبة هكذا. يتقدم خطوات مترددة مملوءة بالهزيمة، وهو بمقدار ما يريد أن يسمع كلماتها، يخاف أن تجرحه هذه الكلمات. يجلس إلى جانبها على الأريكة، يرفع رأسها، يرى بقايا دموع، وبقايا الشهقات في أنفها،

يقول لنفسه بمرارة «لا يمكن أن تفعل شيئاً مسيئاً، وإذا كان هناك خطأ فهو خطأي» ويتذكر حياته معها، يتذكر وهي تتعلق برقبته، يسمع صوتها في كل الصمت المخيِّم، يقول بانكسار:

«ـ لا أريدك أن تذكري لي اخطاءك. لقد سامحتك ونسيت كل شيء!

وتظل على الأريكة، تحرك رأسها برفض، تشهق من جديد، ترفس الأرض بقدمها، يشد عباس شعرها برقة، يرفع إليه وجهها. عينان مغسولتان بالدموع وقد شابتهما حمرة خفيفة، وجه طفولي مليء بالنزق والوداعة، شعر أسود فاحم يتداخل في حلقها، وعلى جبينها، يرفع الشعر، يجفف الدموع، تنظر إليه بسرعة، يسأل بأسى:

«ـ ماذا تريدين مني يا عزيزتي؟

«ـ أن . . أن تسامحني.

«ـ ماذا فعلت لكي أسامحك؟

«ـ لقد اخطأت!

«ـ اخطأت؟

ومن جديد تبكي، تدفن رأسها في صدره، تشهق، تشهق، وهو لا يقوى أن يراها هكذا.

«ـ عزيزتي. . عزيزتي شيرين، يجب أن تتوقفي، لم أعد احتمل!

«ـ وكيف أستطيع أنا أن احتمل؟

«ـ ولكن ماذا فعلت يا عزيزتي؟

«ـ اتغفر لي؟

«ـ انك لم تفعلي شيئاً يا عزيزتي. أعرف كم أنت طاهرة وبريئة، لكنها الأوهام التي تملأ رأسك.

«ـ لم أفعل شيئاً رديئاً، لكن. . . .

«ـ انهضي يا عزيزتي، فإذا غسلت وجهك سوف تصبحين امرأة أخرى!

- امرأة أخرى؟

- أقصد . . سوف تصبحين شيرين التي أعرفها وأحبها!

- أنت اذن لا تحبني!

- لا أحبك؟ هيا يا عزيزتي، يجب أن تكفي وتتوقفي عن هذه الحماقات!

- هل غفرت لى؟

- ولكني غفرت لك منذ البداية!

- حتى إذا كانت حماقتي كبيرة!

- أيا كانت هذه الحماقة . . .

- لقد تحدثت مع (. . . .) وامسك يدي وضحكنا وقال لي أحبك.

- أهذا كل ما في الأمر؟

وتصرخ شيرين بانفعال حزين:

- وهل تريدني أن أفعل أكثر من ذلك؟ هل أسمح لنفسي أن أفعل أكثر من ذلك!

- ظننت أن في الأمر شيئاً خطيراً

- ولكن هذه الخطيئة لا يمكن أن أنساها وأغفرها لنفسي. منذ ليلة البارحة وأنا أعيش في الجحيم، أتريدني أن أفعل أكثر من ذلك؟

- إنك لم تفعلي شيئاً يستحق أن تلومي نفسك عليه. ثم ان هذا الأحمق (. . .) حين يشرب كأساً لا يدري ماذا يفعل.

- ولكنني أنا التي فعلت. لقد استجبت لمداعباته!

- وماذا تستطيع امرأة رقيقة وخجولة مثلك أن تفعل مع رجل سكران؟

- كان يجب أن ابتعد عنه، ان انهره. لقد اخطأت يا عباس حين تركته يتمادى.

- لا أعرف لماذا تحبين أن تعذبي نفسك هكذا. أن ما حصل لا

يستحق أن تقوليه لأحد، وأنت لا تكتفين بأن لم تنسي هذه القضيـة التافهة، بل تعذبين نفسك أيضاً، تتصورين أن خطيئة كبرى وقعت، ومن أجلها لا تنامين الليل، والآن تطلبين المغفرة! ما أبسط قلبك وما أعذبك يا عزيزتي شيرين!

«- وهل غفرت لي؟

«- لا . . لأن ما حصل لا يستحق الغفران.

«- أتريد تعذيبي من جديد؟

«- ولكن لماذا يا شيرين؟ لماذا تحسّين أن كل ما تفعلينه خـطيئة وتطلبين من أجله المغفرة؟

«- هذا ما حصل . . وهذا ما أحسه!

«- اغفر لك. نعم . . اغفر لك كل شيء إذا كنت تريدين ذلك!

ويمتلىء وجهها بـالضحك، تهجم عليـه، تقبله، تحتضنه، تقـول بحزن:

«- أنت أروع رجل يا عباس، وأحبك أكثر من أي وقت سابق!»

* * *

حصلت هذه القصة بعد الزواج ببضعة شهور، هكذا روى بعض الخبثاء لبيتر في وقت من الأوقات، حين كانت شيرين الصغيرة تملأ جو القصر بمرح الطفولة، بعد أن انتقلت إليه، اثر حب عاصف بينها وبين هذا الرجل المسنّ القوي. وتحدياً لقيم سائدة؛ فقد انتزع عباس هذه الفتاة الصغيرة من بيت كانت تدور حوله الهمسات، وذلك بعـد وفاة زوجته ببضعة أسابيع، كان يقول لنفسه ولبعض الذين تحدثوا معه عن ذلك:

«انها مسألة شخصية، مسألة زواج. ولا يمكن لهذه الفتاة الصغيرة أن تتحمل اخطاء غيرها. ثم يجب الاعتراف أن كل هذا الذي يقال مجرد هراء. أعرف أهل الفتاة، أعرف كل شيء عنهم، انهم أطهر من ماء السماء، ولا أحد له الحق في أن يعترض، انها مسألة شخصية، وكل

إنسان يعالجها بالطريقة التي تلائمه».

وشيرين الصغيرة، الصاخبة الضحكات، القطة التي تجلس على الأرض واضعةً رأسها على ركبتي عباس، تنظر إليه بلهفة، تتفرس في وجهه، تراقب كل حركة من حركاته باستطلاع ممزوج بالاعجاب، وتصرخ بتوجع ممزوج باللذة حين تنام معه في الفراش، شيرين الصغيرة بدأت تكتسب ملامح جادة حازمة بمرور الأيام. زال خوفها تماماً من كل ما في القصر. أصبحت تستطيع أن تبدّل أماكن الاثاث واللوحات بثقة. أصبحت توجه تعليمات حازمة للخدم دون خوف من عدم الاستجابة أو من غضب عباس. أصبحت تستعمل كلمات التأنيب إن وجدت خطأ على المائدة أو نقصاً في الصالون. أما حين بدأت تتعلم الانكليزية، بمساعدة معلمة أرمنية مسنة، فقد وجدت أنها لا تستطيع الاستمرار بهذه الطريقة، وبواسطة هذه المعلمة التي قالت عنها لعباس ذات مرة، حين طلبت استبدالها، «لا تسمع، والكلمات حين تنطقها تخرج مبعثرة من بين أسنانها. بكلمة.... لن أستطيع أن أتقن الانكليزية بهذه الطريقة». وحين ذهبت هذه المعلمة وجاءت أخرى، بدت لشيرين أول الأمر مرحة فتية، لكن ما لبثت أن طلبت تغييرها أيضاً. لأن «هذه المرأة غبيّة وأشعر معها أني عصبية إلى أقصى حد، ولا يمكن أن أتعلم..» وأصرت أن يكون الذي يعلمها رجلاً «لأن الرجال أكثر جدية، ويشعر الإنسان معهم بالواجب وضرورة الاتقان...» وهكذا استبدلت شيرين معلميها واحداً بعد آخر، وكانت دائماً تجد السبب الذي يقنع عباس!

صورة شيرين الآن تختلف كثيراً عن أيام سابقة: الفتاة الخجولة التي تفضل أن تذهب بنفسها لتحضر الماء من أجل أن تشرب، انتهت إلى الأبد. المرأة التي تزغرد ضحكاتها وتملأ القصر حين يكون عباس موجوداً، كوسيلة لفرض الوجود والتغلب على الخوف، تحولت إلى التحفظ، وتعتبر أن الضحك، بصوت عالٍ، مظهر سوقي لا يليق بامرأة مثلها. أما القوام الضامر، والذي كان عباس يسميه قوام الغزال، فقد تغيرّ أيضاً: أصبحت

شيرين أقرب إلى الامتلاء، لكن ظل لحمها مشدوداً، دون ترهل، وظلت البشرة البيضاء شديدة الشفافية. أما الشعر فقد تغيرّ مرات كثيرة، ظلت تغيرّ تسريحاتها بين فترة وأخرى، ولم تتردد في أن تصبغ شعرها مرات عديدة، وبألوان بدت في بعض الأحيان مضحكة، حتى استقرت على شعر قصير مائل إلى الشقرة. كان الشعر، بالتسريحة واللون اللذين استقرت عليهما، محبباً ومفضلاً عند عباس، إذ ظل يسخر ويلجأ إلى مداعبات ناسية كلما رأى شعراً جديداً إلى أن بدا راضياً حين انتهت إلى هذا الشكل، وأكد لها بعبارات حارة روعة اختيارها، وأنه منذ كان صغيراً كان يحلم بامرأة لها مثل هذا الشعر!

مع كل التغيرات التي كانت تحصل باستمرار يتغير الاثنان. فعباس الذي بدا في السنين الأولى بعد الزواج قوياً، ما لبث أن ظهر مسناً وبدأت قواه، أو بعض قواه، تتراجع، وتضعف، كما أصبحت سيطرته على كل من حوله أضعف من قبل، رغم أن مظاهر هذه القوة ظلت مستمرة، خاصة حين يغضب. كان إذا غضب يتصرف بقسوة، يتخذ قرارات لا يتراجع عنها. اما شيرين، فبعد أن امتلأت بالثقة وتأكدت من سيطرتها على كل شيء، أصبحت تشعر أن الحياة التي تعيشها خاوية مضجرة، رغم مظاهر الرفاه والغنى. كانت تبحث عن أشياء هي نفسها لا تدركها، تحس أنها بحاجة إلى أشياء كثيرة لكنها بالتأكيد ليست الأحذية أو الملابس الجديدة، لأن ما عندها من هذه أكثر مما تقوى على النظر إليه، أو احتماله. صحيح أنها امتلكت أشياء كثيرة، بعضها لم تعد بحاجة إليه، لكنها لم تكن مستعدة أن تفرّط بأيٍ مما تملك. كانت تترك الأشياء تتكدس، كانت تجد لها أماكن كثيرة للحفظ، وتحرص على أن تفعل ذلك بنفسها، لكن بمرور الأيام تجد أن كل ما حولها مملاً كئيباً. عزت الأمر في البداية إلى عدم الانجاب. حاولت الكثير من أجل أن يكون لها ولد، لكن بعد أن يئست، وتأكد لها أن الأمر متعلق بها، وليس بعباس، رغم تقدمه في السن، بدأت تكيّف حياتها بشكل جديد. أخذت توسع علاقاتها

بالأصدقاء بذلت جهداً كبيراً في إعادة ترتيب القصر وتأثيثه. اهتمت كثيراً بالحديقة. ربت عدداً من القطط والكلاب، لكن كل هذه الأمور لم تنسها حالة الضجر، ولم تزل الكآبة العالقة في نفسها.

وبمرور الأيام أصبحت امرأة عصبية سريعةَ الهياج، تثور لأتفه الأسباب، ويمكن في حالات غضبها أن ترتكب حماقات لا حد لها. يمكن أن تطرد أياً من الخدم لأتفه الأسباب. يمكن أن توجه الشتائم لأي إنسان يقابلها أو يبدي ملاحظات على تصرفاتها، وحين لا تجد ضحية أمامها أو حين لا تكتفي بما فعلت، كانت تعتكف أياماً في غرفتها، لا تغادرها أبداً. وفي مثل هذه الأيام يغرق القصر في صمت مطبق، وتسيطر حالة من التوتر الخطر، لأن أي خطأ، أي تصرف غير مألوف، قد يؤدي إلى نتائج مدمرة. . .

كان عباس ينظر إلى مثل هذه الحالات التي تصيب شيرين بخوف ممزوج بالشفقة. كان يبذل أقصى ما يستطيع من الجهود لإنهاء «الاضراب» كما يسمي هذه الحالة. كان يمنع اقتراب الخدم من غرفتها، يحمل إليها الأكل بنفسه، يلجأ إلى كل الأساليب من أجل أن ترضى. كان في لحظات معينة يستغرب تصرفات شيرين، وتراوده فكرة أن ينهي علاقته بها، لكن مثل هذه الفكرةلا تتوقف طويلاً، إذ ما يلبث أن يشعر بحاجة إليها، ويعتبر نفسه السبب في ما تعانيه. فيوجه إلى نفسه اللوم ويفكر في الوسائل التي يجب أن يتبعها لترضى وتنهي الاضراب. كانت مثل هذه الحالة تطول أو تقصر تبعاً لموقفه، ففي المرات التي يروق مزاجه، ويصمم على أن يخرجها من هذا الجو، يلجأ إلى أساليب لا حدود لها من الاغراء: السفر، الهدايا، الحفلات. . وبعض الأحيان يسجل باسمها بعض الأراضي أو العقارات في المدينة. كان يفعل ذلك ثم يفاجئها بما فعل، وكثيراً ما يحمل لها بطاقات السفر ويطلب إليها اعداد الحقائب خلال ساعات، وحين تحتج أن الوقت غير كافٍ، أو أنها ليست في وضع مناسب ذلك اليوم، كان يعتبر جوابها رضى، ومزيداً في اكرامها يطلب تأجيل

السفر، وبطريقة تمثيلية متقنة يبلغ شركة الطيران أن بعض الأمور الطارئة اضطرته إلى هذا التأجيل. كان يفعل ذلك وينظر إليها ويغمز. .وكانت ترضى.

أصبحت حالة من القناعة ترتكز على التسليم الغامض تتحكم بحياتهما، وتعطي لهذه الحياة مساراً لا أحد منهما يريد أو يستطيع أن يغيره أو يتحداه. كانا يشعران أن روابط غامضة تشدهما إلى بعض، وان الأخطاء في حياتهما جزء من هذه الحياة وضرورية لهما. وإذا كانت شيرين، في الفترة الأولى، وبدوافع غامضة، تعتبر أن ما يقع لها من أحداث صغيرة تتطلب المغفرة وتتظاهر أنها لا تقوى على احتمالها، وتبكي طويلاً من أجل أن يسامحها عليها، انتهت شيرين هذه إلى الأبد لتولد مكانها امرأة أخرى: امرأة تقبل على الحياة بشهوة جارفة. تعتبر أن كل ما تفعله حق من حقوقها، وأن الحياة إذا لم تكن بهذا الشكل تبدو مملة. هذه المرأة بمنطقها الصلب وروحها المتوثبة التي لا تعرف التراجع، استطاعت أن تفرض على عباس هذا المنطق. وعباس الذي استجاب بدوافع غامضة متداخلة في البداية، والذي شعر بالاهانة أول الأمر، ما لبث أن تناسى هذه الأشياء الصغيرة، واعتبر أن علاقته بشيرين تتجاوز ذلك وأكبر منه، ولا يمكن أن يترك «الزوابع في الأذن» تفسد حياته.

شيرين الجامحة التي تريد أن ترتوي، أصبحت شديدة البراعة في كل شيء، حتى حين تتعمد الغش في لعب الورق، كانت تفعل ذلك ببراعة يحسدها عليها اعتى المقامرين وأشدهم دهاء وخبثاً. كانت براعتها تتخفى وراء ابتسامات شفافة، أو الذهول المصنوع من الحزن، وكان الآخرون يغفرون لها حين يكتشفون أخطاءها، لأن وراء ذلك الاكتشاف الاعتراف والسخاء والاعتذار.. وبعض الأحيان دمعة صغيرة تسقط دون ارادة شيرين أو رغبتها!

«الأخطاء تأتي وتفرض نفسها»، هكذا قالت شيرين بحزن وهي تهز رأسها، «حتى لو لم أردها فهي تفرض نفسها، ان قوة غامضة هي التي تدبر كل شيء في هذه الحياة»

حين التقت ببيتر في بيروت قالت لنفسها بتصميم لا يعرف الرحمة أو التراجع «لن يكون هذا الرجل مثل أيٍ من الرجال الآخرين. انه ثعلب، لكن إذا سقط فسوف يكون سقوطه مدوياً، وأنا التي أريد أن أدفعه في ظهره ليسقط»

وفكرت بأشياء كثيرة في الليلة الأولى وفي الليالي التالية، وقالت لعباس في الفراش، وهي تحتضنه بقوة وتبذل جهداً كبيراً من أجل تهييجه بسرعة، وكانت تفكر ببيتر:

ـ انك تستطيع أن تفعل أشياء كثيرة... لكن يبدو انني أصبحت باردة أكثر مما تطيق... ألم أصبح باردة؟

وضحك عباس بصخب ولذة، واستطاع في تلك الليلة أن يفعل شيئاً تصوره خارقاً!

(٦)

. . . وعباس الضعيف المفتون بهذه المرأة ضعيف امام هؤلاء الاجانب! لا يريد أن يعترف، حتى أمام نفسه لا يريد أن يعترف. لكن كل موقف، كل خطوة من خطواته تؤكد ذلك. يقول لنفسه بثقة وتصميم: «المسألة ببساطة أن الانسان يستطيع الاعتماد على هؤلاء والثقة بهم. لا يعرفون، مثلنا، الكذب والنفاق. انهم صادقون، مستقيمون، وهم لا ينسون شيئاً أو أحداً. ثم لماذا الانكار؟ هل يستطيع احد أن يعمل شيئاً دون مساعدتهم؟» ويمر شريط الذكريات حافلاً في رأسه!

لا يتذكر متى جاءوا. كان صغيراً حين جاءوا إلى هذه البلاد؛ كان ابوه فقيراً مثل ملايين الفقراء، غيره. «لكن كان، رحمه الله، ذكياً، والرجل الذكي يحسب كل شيء بتعقل وتبصر، فلا يندفع ولا يرتكب حماقات. الكثيرون من الرجال في قريتنا والقرى المجاورة ركبهم الشيطان. اوصاهم المرحوم أن يضعوا عقولهم في رؤوسهم فلا ينجروا وراء عدد من الحمقى، لكن النصيحة في مثل هذه الايام، لا تفيد. ماذا فعلوا؟ كانوا مجانين تماماً. تصوروا أنهم قادرون على محاربة الانكليز، هكذا كانوا يفكرون.

طبيعي القصة كلها اصبحت معروفة: مات الذي مات، قتل الانكليز عدداً كبيراً منهم، أما الباقون فلا يزالون مثلما كانوا: فقراء، جهلة، وسيبقون كذلك حتى قيام الساعة. مساكين...

«كان الوالد، رحمه الله، لا يحب اعمال الشغب والعنف، وطوال فترة العصيان ظل بعيداً عن الاشتراك في هذه الأعمال. كان رجال القرية يفرضون عليه أن يقدّم المال لمساعدة الثوار، كان يدفع مضطراً، لكن كان يقول لهم في وجوههم: ستندمون. اتركوا هذه الاعمال السخيفة انها لا تجدي ولا تنفع، لكنهم كانوا يسخرون منه، ويؤكدون له أن الانكليز سينهزمون. كانوا يعيشون في الأوهام. المهم أن الوالد ظل بعيداً عن هذه المشاكل، وبعد الواقعة المعروفة انكسر الثوار. صحيح أن المعركة كانت طويلة وشاقة، لكن النتيجة أن الثوار انكسروا. القصة ليست هنا، القصة انه في احدى المعارك، واثناء تقدم الانكليز صنع الثوار لهم كميناً وقتلوا عدداً منهم وفرّ الباقون. كان بيتنا في طرف القرية، واثناء الهرب لجأ ثلاثة منهم، الينا. كان ذلك بعد الغروب بقليل، التقى بهم ابي، كادوا يقتلونه، لكن الله سلّمه، جاء بهم إلى بيتنا وظلوا عندنا ثلاثة أيام. كانوا خائفين في البداية، ظنوا أن ابي مع الثوار ولا بد أن يخبر عنهم، لكن بعد مرور اليوم الاول، واستمرار حالة الهدوء، ثم بعد مجيء بعض الثوار قريباً من بيتنا بحثاً عن الفارين، وما فعله ابي لتضليلهم، تأكدوا أن ابي يختلف كثيراً عن اولئك الاشقياء. المهم بعد أن انتصر الانكليز كافأوا ابي. ان هؤلاء الانكليز لا ينسون ابداً، اعطوه مساحات واسعة من الأرض، قريباً من النهر، وخلال فترة قصيرة تحسنت احواله. طبيعي حسده كثيرون، لكن للحقيقة، لولا جهده وعمله لما استطاع أن يخلف لنا شيئاً. كان يشتغل كثيراً، كان يراقب الفلاحين بنفسه، ولا يترك ذلك للوكلاء. كان ينتقل على فرسه من قرية إلى قرية دون تعب وفي كل الاوقات، ويشرف بنفسه على كل شيء. المهم... في فترة سنتين أو ثلاث سنوات أصبح ابي واحداً من الناس المعروفين والاقوياء، ليس في منطقتنا وحدها، وانما

في كل البلاد، ونتيجة التغيرات الكثيرة التي حصلت في تلك الفترة وافق على أن يصبح نائباً.

«الكثيرون ممن كانوا يملكون اكثر منه انتهوا إلى الافلاس الكامل، لانهم جنّوا في تلك الفترة وانضموا إلى الثوار أو ساعدوهم. الانكليز من هذه الناحية لا يرحمون احداً، صحيح انهم لا يظلمون احداً، لكن أي انسان يقف في وجههم يجب أن يدمروه. كل الناس الذين وقفوا ضدهم نالوا جزاءهم. شردوهم، نقلوهم من مكان لآخر، صادروا اراضيهم، نفوهم إلى الهند وافريقيا. المهم أن الناس الذين لم تكن لهم علاقة ظلوا على حالهم، لم يصبهم شيء: الغني ظل غنياً والفقير ظل فقيراً، أما الذين تعاونوا معهم، حتى لو كان ذلك بالصدفة، فقد حصلوا على كل شيء.

«بعض اقربائنا، وكان فيهم اغنياء، تعاون مع الثوار، لكن ماذا كانت النتيجة؟ بعد أن كانوا يتصدقون على ابي بين فترة واخرى، اصبحوا يلجأون اليه، اصبحوا فقراء، ولا يملكون شيئاً.

«كان المرحوم والدي يقول: يجب أن تعرف اتجاه الريح. إذا عرفت اتجاهها وسرت مع هذا الاتجاه لا يمكن أن يصيبك مكروه، أما إذا اردت أن تعاند، إذا ركبك الشيطان، فسوف تدفع ثمن ذلك.

«كان رحمه الله ذكياً وعرف كيف يتصرف. وهؤلاء الانكليز لم يتركوا احداً إلا عرفوه، ولم يتركوا مكاناً إلّا ووصلوا إليه، ولو أن الوالد غدر بهم، لو انه بلّغ عن هؤلاء الثلاثة الذين لجأوا إلى بيتنا، لكان والدي مقتولاً من اليوم الأول لانتصارهم، لكن رحمه الله حماهم، وأطعمهم، وضلل الثوار عنهم..

«في اليوم الثالث بعد الانتصار جاء إلى ابي قائد انكليزي وقال له أن بريطانيا العظمى لن تنسى الخدمة التي قدمها، وان هذا الموقف الذي وقفه لا يدلّ على العقل فقط بل ويدل على الرجولة ايضاً، وقد حضنه القائد وقبله، وكان معه اثنان من الجنود الثلاثة الذين اختبئوا في بيتنا!».

هذه القصة كان يرويها عباس للخاصة من اصدقائه، وكان يضيف اليها تفاصيل جديدة بين مرة واخرى. وفي احيان كثيرة كان يقول لنفسه:

«لا يمكن أن يكون الانسان غداراً، فهؤلاء الانكليز لم يسيئوا لنا، صنعوا منا بشراً، عمروا البلاد، انشأوا المدارس، فتحوا الطرق، فضوا على الامراض، عملوا اشياء كثيرة هامة... فكيف يستطيع الانسان أن يتنكر لذلك! كيف يستطيع أن يقف ضدهم؟ ان الكلاب لا تفعل ذلك!».

هكذا كان يجيب نفسه، ويحار لكل ما يقع حوله في الوقت الحاضر.

«هل يمكن لهذا الجنون أن يستمر؟ لقد حاول آباء هؤلاء، فماذا كانت النتيجة؟ لقد انتصر آباؤهم لبعض الوقت، او توهموا ذلك، لكن الانكليز كانوا اقوى، قلبوهم بين يوم وليلة! هل يمكن للرعاع الجدد أن يستمروا؟ ثم أن الانكليز اذكياء ولا يفتقرون إلى القوة، صحيح انهم تعودوا الصبر، وعرفوا طبيعة اهل البلاد، لكنهم لا يستطيعون الصبر طويلاً على هذا الذي يجري الآن. لا بد أن يسقط هؤلاء الرعاع، بالتأكيد سيسقطون. وإذا كان الانكليز في البداية قد تأخروا وظلوا لا يعرفون الناس لفترة طويلة، فقد اصبحوا خلال هذه السنين يعرفون كل شيء، وهم الآن قادرون على العودة في أي وقت يريدون، فاذا عادوا هذه المرة يجب أن تعلق المشانق في كل مكان، تماماً مثلما حصل في المرة الأولى. ان الرحمة لا تجدي مع الغوغاء. يجب أن يكون الانسان قاسياً وقلبه لا يعرف الرحمة، بهذه الطريقة يمكن أن ترجع الاحوال إلى سابق عهدها وتستقر. حين تركنا لهم الحرية، حين قلنا لهم اصبحتم عقلاء ويمكن أن تحكموا انفسكم، وحين تركت الامور تسير على اساس العقل المتحضر والديمقراطية بدأوا. لم يبق أي ابن كلب إلا ووقف على عمود كهرباء، او حمله الناس على اكتافهم وهتف ضد الانكليز والمتعاونين معهم. الآن... يجب أن تعالج القضية بطريقة جديدة: يجب أن ترتفع آلاف المشانق، يجب أن تمتلىء السجون بهؤلاء الصعاليك الكسالى الذين لا يعرفون شيئاً سوى تحريض الناس وشتم الأغنياء. يجب أن تعزز الاجهزة بحيث يمكن معرفة متى ينام الرجل مع امرأته. إذا لم نفعل ذلك فسوف تقع الف ثورة، واذا كانت الثورة لم تصل إلى كل الرؤوس هذه المرة، فلا يمكن ضمان السلامة في

المرات القادمة. يجب أن نبذل كل جهدنا من اجل اقناعهم بالتحرك السريع. انني لا افهم الانكليز هذه المرة، يبدون صبورين اكثر مما يتصور الانسان أو يتحمله. هل اصبحوا عاجزين ام انهم ينتظرون اللحظة المناسبة؟ وهذه اللحظة الم تحن؟ يجب أن اقنع ماكدونالد بكل الوسائل، وإذا ظل عنيداً هكذا يجب أن اذهب إلى لندن، لقد اصبح ماكدونالد متعباً في الفترة الاخيرة. يبدو ساهماً ضائعاً، لا اعرف كيف يفكر أو بماذا يفكر. ان الجيل الجديد من الانكليز اقل كفاءة بالقياس إلى الجيل السابق. هؤلاء جاءوا ايام الانتصارات وايام العزّ والراحة، لم يتعبوا، لم يشقوا، الذين جاءوا إلى هنا من قبل هم الذين بنوا هذا البلد حجراً حجراً، والذي يبني البيت يختلف كثيراً عمن يسكن فيه دون تعب. الامور هذه الايام مقلقة، ورغم ابتسامات ماكدونالد وتأكيده انه ارسل طلباتنا إلى لندن، وانه سيعمل كذا وكذا، اشكّ انه فعل ذلك، وإذا فعل فلا بد أن يكون الامر قد حصل دون رغبة أو قناعة. صحيح أن علاقتي بماكدونالد لا يتطرق اليها الشك ابداً، لكن يبدو أن فارق السن بيننا يلعب دوراً في خلق هذه الفجوة. احس بثقافته، ببعد نظره، بحسن تقديره للامور، واحس اكثر من ذلك بذكائه الخارق وحسن تصرفه. لكن تومسون، ارنولد، مايكل، الآخرين، كانوا اكثر قدرة منه على الحركة، كانوا اسرع في اتخاذ القرار. في هذه الايام تمر الساعات الطويلة في مناقشات حمقاء، طبيعي لا استطيع أن اقول له رأياً كاملاً، وقد يكون وراء هذا البطء تدبير حكيم، لكن لا ارتاح إلى هذه الطريقة في المناقشة والتصرف. الا يحتمل أن يكون ماكدونالد خائفاً؟ ولكني اطلعته على كل شيء، وابلغته اننا قادرون على الضرب في أي وقت، يمكن أن نحرّك قوى كبيرة. ليس هذا كل شيء، ان الشارع مقياس خاطىء في فهم أي حكم، الشارع مثل وعاء فسيح مملوء بالماء، يمكن أن يتحرك بسرعة وفي كل الاتجاهات، لكن يمكن أن ينسفح بسرعة ويضيع ايضاً. هل نبقى اسرى الشارع ؟ هل نبقى نترجم له الشعارات والهتافات التي ترددها

الغوغاء؟ وماذا إذا قالوا هذا الشيء أو ذاك؟ ان بعض الانكليز دقيقون إلى درجة الازعاج. ليست الدقة وحدها ما يزعج فيهم، انهم بطيئون ايضاً. ان علاقتنا متداخلة لدرجة لا يمكن أن تتغير أو تنتهي، يجب أن نبذل معهم جهداً اضافياً لكي يقتنعوا. وماكدونالد... هذا الحصان الجامح الصغير، بمقدار ما يدخل إلى القلب ويحبه الانسان بسرعة فإنه نزق في لحظات معينة، ومع ذلك لا يقوى المرء على أن يقف منه موقفاً سلبياً. لقد غيرّ حياتنا تماماً منذ اليوم الاول لمجيئه. إنه الآن يملأ حياتنا بالتفاؤل والفرح. واحب طريقته لانه يأتي دون مواعيد سابقة ولا يحرص على الرسميات. حين يدخل علينا، نحس أن دماً جديداً دخل إلى عروقنا، وشيرين هذه الدجاجة النزقة، التي كانت تسبب لي آلاماً كبيرة، اصبحت الآن انساناً جديداً، اصبحت اكثر مرحاً واكثر اقبالاً على الحياة. ان حياة الانسان إذا تعرضت إلى المتاعب داخل البيت لا يمكن لأية عوامل خارجية أن تخفف من هذه المتاعب أو تزيلها. يجب أن تبقى هذه الدجاجة ودودة وغير مثارة، ويمكن أن تؤثر كثيراً على ماكدونالد. اعرفها حين تريد شيئاً، لا يمكن لاية قوة أن تقف في وجهها. وهذا الانكليزي النزق الذي يبدو اكثر استجابة لمطالبنا واكثر استعداداً لفهمها، حين تكون شيرين موجودة، يجب أن احرص على وجودها معنا دائماً، ويجب أن اقنعها اكثر من أجل أن تدفعه إلى تبني مواقفنا. ان بعض النساء قادرات على اسقاط ممالك بكاملها، وما نريده من هذا الحصان الصغير أن ينقل رأينا إلى لندن، أن يساعدنا في اقناعهم. وقد نصل إلى نتائج حاسمة.. وفي فترة قريبة!

وتاه عباس في افكاره واحلامه. انه في هذه الفترة يشعر بقلق بالغ، وإذا كان الخوف والتخفي قد طبعا حياته في فترة سابقة، ففي هذه الايام شديد العصبية غير راض ويشعر أن الوقت قد حان لأن يضرب. سأل نفسه بتحد وحزن: «ماذا يساوي الانسان إذا فقد كل ما يملك؟ واي شيء فقدت؟ فقدت الكثير من الاراضي، قرى بكاملها سرقها مني الفلاحون، ولو اقتصر الامر على فقد الاراضي والقرى لهان، الآن

يتنمرون، يتحولون إلى حيوانات كاسرة: الغضب في عيونهم، والاحقاد تنز من كل كلمة ومن كل تصرف. وماذا يريدون ايضاً؟ كل يوم جديد خبر جديد : يريدون محاكمتنا، يريدون مصادرة كل شيء نملكه، يريدون اعتقالنا. وأي شيء آخر يريد هؤلاء الرعاع؟».

قال بحزن ونفاذ صبر: «سوف لن يستريحوا حتى يروا جثثنا معلقة على أعمدة النور في الشوارع. انهم حاقدون إلى درجة يمكن معها أن يرتكبوا أية حماقة. اعرفهم هؤلاء الرعاع، انهم لن يستنكفوا عن عمل أي شيء، ولن يكتفوا بأي شيء».

ومن جديد تاه في افكار بعيدة، كان يستعيد صورته الماضية، حين كان وزيراً، حين كان يمشي في الشوارع مرفوع الرأس، حين كان يدخل على رئيس الوزراء دون موعد سابق، وفي أي وقت يشاء. حين كانت كلمته قانوناً، وحين كانت رغباته تتحول في اللحظة إلى وقائع لا يردها احد . . .

قال لنفسه بتحدٍ: «إذا لم تفعل شيئاً خارقاً يا عباس، إذا لم تفعل الآن، فسوف تصبح عاجزاً تماماً، وسوف تتوالى المصائب بعد ذلك. يجب أن تفعل وبسرعة. وهكذا الانكليز، يجب أن يقتنعوا. اذا تأخروا، إذا لم يسمعوا فسوف ندفع ثمناً غالياً. يجب أن يقتنعوا، وبسرعة».

(٧)

قال بيتر لنفسه: «اخطر شيء في حياة الرجل أن يصبح اسير أمرأة، والمرأة حين تأسر رجلاً لا تتوقف لحظة واحدة عن ترويضه، ثم السيطرة عليه، وكأنها بهذه الطريقة تريد الانتقام لكل تاريخ اضطهادها عبر العصور، لا تكتفي بذلك، انها تميل باستمرار الى اثبات قوتها وتفوقها، وتلجأ من أجل ذلك إلى كل الوسائل. حين تغضب على الرجل أن يعمل كل شيء من أجل ارضائها، عليه أن يحتمل نزواتها الوحشية، تطرفها، حتى صمتها يكون قاتلاً إذا حاربت به. أما حين ترضى فتكون بضعفها قوية، فهي تستنزفه من الداخل، تحوله إلى خرقة، إلى وعاء مثقوب، وهو بدافع القوة الموهومة لا يتوقف عن الاستجابة، يصبح سهل الاثارة، حتى يسقط. وهذا ما تريده المرأة في كل الاحوال...».

واسترسل بيتر في هذه الأفكار الفلسفية التي يروق له بين فترة واخرى أن يفسر على ضوئها كثيراً من الاحداث والظواهر. قال لنفسه وهو يواصل رحلة التأمل «إذا كان هذا هو القانون الذي يحكم وضع المرأة بصورة عامة، فإن هذه الظاهرة في الشرق اكثر وضوحاً وسيطرة. أن المرأة في الشرق، وراء

ستار الضعف الظاهري، تمارس السيطرة الكاملة على الرجل، انها هنا الأقوى، قد لا تبدو قوتها واضحة، خاصة بالنسبة لرجل غربي، لأنها خلف الخجل والضعف، وبعض الاحيان البكاء، تخفي حقيقتها، تموّه، لا تعلن عن رغباتها، لكن مجرد أن تضع قدمها في بداية المعبد لا تلبث أن تطرد كل الآلهة الأخرى، وتصبح وحدها الآلهة المعبودة! شيرين هذه القطة البيضاء كانت في الأيام الاولى ترتمي عند ركبتي، كانت تنظر إليّ بدهشة، كأنني مخلوق هبط من كوكب آخر، تستجيب لكل مطالبي، حتى التي لا اقولها وإنما تدور في رأسي، إن لها قدرة غير محدودة على اكتشاف ما يدور في رأسي، ودون كلمات، حتى دون نظرات بعض الأحيان، لا تتوقف عن تلبية كل ما اريد. حين تأكدت أن تعلقي بها يفوق ارادتي، وانها دخلت إلى دمائي، بدأت تلعب لعبتها المفضلة: الدمار. انها الآن تتظاهر بالتعب، بالخوف، وبعض الأحيان بعدم الرغبة، لكن مع كل كلمة، مع كل رفة عين، تلك الابتسامة الوحشية الصغيرة التي تعني شيئاً مختلفاً. آه ما اشد فتكها . اين تعلمت كل هذا الأغراء؟ وكيف تتقنه بهذه البراعة التي لا تعرف التوقف أو الخطأ؟ إن في هذه المرأة شيئاً يستعصي على الفهم. . . ».

وتذكر بيتر كل التفاصيل الصغيرة التي مرت، انه يتذكرها بوضوح شديد، حتى لكأنها تحصل امامه الآن. واستعاد كل شيء من جديد:

كانت الليلة الأولى ماطرة. كان المطر يتساقط بغزارة، والبروق تضرب السماء بين فترة واخرى بتلك الطريقة المتحدية التي تخلق الرهبة في كل الاشياء، خاصة الانسان. في تلك الليلة كانوا يجلسون مقابل النافذة العريضة التي تطل على الحديقة، كانوا دون اتفاق سابق قد فرغوا من احاديث هامة، واخذوا يرقبون الطبيعة بامطارها ورعودها، وكانت احاسيس متباينة تملأ صدر كل واحد منهم، وتعبر عن نفسها بطريقة غامضة حين تلتقي العيون. في تلك الليلة انقطع التيار الكهربائي فجأة. جلست شيرين على كرسي منفرد، وجلس بيتر وعباس على الكرسي

العريض المجاور، كان بيتر مجاوراً لها تماماً، وفي لحظات معينة كانت اقدامهما تلتقيان. في تلك الليلة، وبباشرة بعد انقطاع النور، ندت عن شيرين صرخة فزع لذيذة، كانت مثل الطلقة المفاجئة، قالت بخوف:

ـ آه لشد ما اخاف في مثل هذه الليالي.. خاصة إذا كنت وحيدة!

وتغير صوتها قليلاً وهي تتابع:

ـ لكن شكراً لله انكما معي!

بعد هذه الكلمات مباشرة احس بيتر بيد طرية رطبة تطبق على يده، كانت يده تداعب مسند الكرسي حين شعر بثقل اليد ونعومتها، ارتجف، اصابته قشعريرة لذيذة، اما حين ضغطت عليها فقد احس بحالة من الدفء الملون تسري في عظامه. ترك يده هكذا، وظلت يد شيرين فوقها، لكن حالة النشوة اخذت تتزايد وتضغط على صدغيه، بدأ يحس أن اليد كبيرة وتميل إلى الكثافة لدرجة أنها غطته تماماً. فكر أن يرد على هذه التحية، أن يقلب يده ويداعب بطن كفها باصابعه، لكنه لم يقوَ. فكر أن يهوي بشفتيه على اليد ويقبلها، لكنه تردد، وتراءى له الضوء يشتعل فجأة ويكتشف عباس هذه الجريمة، لكن مع تزايد ضغط يدها فوق يده بدا أنه اقوى من كل شيء وانه مستعد لتحمل كل النتائج. لا يعرف كم من الوقت مرّ، كان الصمت، وكان المطر، أما الرعد فكان بعيداً...

كان يجب أن يحدث شيء، أن يتكلم احد، أن تتغيرّ هذه الحالة التي بدت لبيتر وكأنها حلم بطيء الحركة. في لحظة من اللحظات سأل عباس برخاوة:

ـ اتعرفين مكان الشموع يا شيرين؟

اجابت برعونة:

ـ الشموع؟ وماذا نفعل بالشموع؟

ـ وهل نبقى في هذه الظلمة؟

ـ اتخاف انت... مثلي؟

ضحك. كان صوته مخدوشاً واقرب إلى الغرغرة، وبعد لحظات قال:

ـ ومن لا يخاف في مثل هذا الجو!
قالت بخبث:
ـ ظننت أن الرجال لا يخافون!
وضغطت على يد بيتر بطريقة معينة، ثم سألت:
ـ وأنت يا مستر ماكدونالد هل تخاف هذا الجو مثل عباس؟
قال بيتر بصوت متلعثم، كأنه صادر من بعيد:
ـ تقريباً. . . والطبيعة مخيفة وقاسية!
كان يريد أن يقول اشياء اخرى، كانت تدور في رأسه لكن هكذا وجد نفسه يجيب.

ضغطت من جديد على يده. قالت له هذه المرة انها تعطيه كل شيء. اشتعل البرق في الطبيعة كلها، ملأ جو الغرفة، بانت صورهم وكأنها معلقة في الفراغ وانها تتكسر بسرعة. فكر أن يسحب يده، لكن الخوف منعه، بدا له للحظة أن عينيه التقتا بعيني عباس، ابتسم له بطريقة بائسة، قال عباس بتصميم:
ـ يجب أن اجد الشموع، لا يمكن أن نبقى هكذا في الظلمة.
قالت شيرين بمرح:
ـ افترض نفسك في المسرح، قبل رفع الستارة، الم تحس بجمال تلك اللحظات يا عباس؟
ـ وهل تريديننا أن نمثل الآن؟
ـ هل هناك أجمل من التمثيل؟
ـ واية تمثيلية تريديننا أن نقوم بادائها في هذه الظلمة الوحشية!
ـ لا ادري، ولكن يجب أن نمثل.
وصمتت لحظة، ثم سألت بنفس الطريقة المرحة:
ـ ماذا تقترح يا مستر ماكدونالد؟
سأل بيتر بكآبة:
ـ ماذا اقترح؟ ماذا تعنين؟

ـ الا تريد أن تمثل معنا؟
رد بيتر بانفعال وسرعة وهو يحس يدها تضغط:
ـ بالتأكيد. . بالتأكيد سوف امثل معكم. . .
واضاف بعد لحظات:
ـ اننا نقوم الآن بمسرحية رائعة، ويجب أن نقوم بادائها باتقان. أما ما هي هذه المسرحية، بنصوصها وخاتمتها فلا احد يدري، المهم الآن اننا ابطالها ويجب أن نؤديها!
ـ ماذا تقول لو مثلنا مسرحية اوثيلو يا مستر ماكدونالد؟
ـ اوافق. . . انها مسرحية رائعة.

حين اشتعل الضوء تلك الليلة كانت الدماء قد اشتعلت؛ كان وجه بيتر محتقناً وشديد الحمرة، أما يده فقد ارتجفت اكثر من مرة وهو يرفع كأس الويسكي ويشرب بسرعة ونهم. وفي تلك اللحظات بدا له أنه لا يستطيع الانتظار، أو احتمال أن تفلت شيرين منه، كان ذلك مستحيلاً، لكنه كان مضطراً لأن ينتظر، ومضطراً اكثر لأن يقاوم هذا الدوي الصاخب الذي يحسه ينفر من عروقه. تمطت شيرين اكثر من مرة بعد أن اشتعل الضوء، كأنها تنتزع نفسها من النوم أو من مكان بعيد. غيرت جلستها اكثر من مرة، مدت ساقيها بارتخاء، خلعت حذاءها، ثم في لحظة اخرى سحبت قدميها ووضعتهما على مقعد مقابل. كانت عيناها ذابلتين رطبتين مليئتين بالشهوة والصراخ. وكانت اهدابها، حين تصعد وتنزل بتلك الحركة البطيئة الشديدة الاتقان تطبق على حواس بيتر كلها، كانت تعصر كل خلية في جسده فيشعر بالنشوة ويتمنى لو يستطيع شيئاً في تلك الجلسة. حتى عباس بدا في تلك الليلة اقرب الى الأطفال وهو يتحدث باندفاع عن حوادث الطبيعة. تحدث عن الفيضانات، عن صاعقة قتلت عدداً من البشر والماشية في احدى القرى حين كان هناك ذات مرة. تحدث عن التحولات الكبرى التي حصلت في الطقس، وابدى عجبه واستغرابه أن الطبيعة في هذه الأيام تختلف كثيراً عن ايام سابقة. كان عباس يريد أن

يتحدث، وكأنه بهذه الحركة المنفعلة السريعة يستطيع أن يخلق جواً جديداً مختلفاً عما لمسه لدى الاثنين.

قال بيتر يؤنب نفسه: «كان من الواجب أن اتوقف عند حد معين، لو اني فعلت ذلك في الوقت المناسب لظللت مسيطراً عليها، لكن الانسان لا يستطيع أن يتحكم بجميع خطواته، كما لا يستطيع أن يمنع اشياء كثيرة تحصل في هذه الحياة. وعلاقة الرجل بالمرأة، اي رجل واية امرأة، رغم أنها طبيعية وضرورية في نفس الوقت، إلا أن القوانين التي تحكم هذه العلاقة شديدة التعقيد والغموض، بالنسبة لي على الأقل، وإلا كيف افسر التطورات التي حصلت فيما بعد؟ كيف افسّر الانجرار المستمر نحو هذه المرأة؟ انه اكثر من مجرد انشداد لها، أو رغبة في أن أنام معها، اذا فسرت الأمر على هذا الوجه وبهذا الشكل اكون احمق مثل دب بليد، الأمر اكثر من هذا، ويجب أن أفكر واحلل لكي أصل إلى نقطة التوازن في هذه العلاقة».

يتذكر بيتر انه شرب اكثر مما تعود، كان يشعر بخلاياه تتفتح وانه بحاجة إلى مزيد من الشراب. ويتذكر انه رفع لها كأسه مرات عديدة، وتعمد أن يطرق كأسه بكأسها، فعل ذلك ليتغلب على الخوف والتردد، وفعله امام عباس بتحد وتعمد. اما شيرين فبمقدار ما كانت تستجيب وتكركر بضحكات عالية متواصلة، فقد كانت تحاول باستمرار أن تفتك به، فعلت ذلك بطرق لا حصر لها، حتى اعتبر بيتر أن كل حركة من حركاتها تمزيق لمقاومته أو تردده. كانت حين تمرر لسانها على شفتيها تتعمد أن تفعل ذلك وقتاً اطول مما يتطلب ترطيب الشفتين، وبطريقة معينة. وحين ترفرف بأهدابها تفعل ذلك بسرعة حتى تبدو الاهداب مثل طيور صغيرة حبيسة تحاول المقاومة والفرار. أما إذا تأوهت فكان صوتها مليئاً بالشهوة. وماذا ايضاً؟ كان بيتر يرى في يدها وهي ترتفع، تنتقل، مخلوقاً مستقلاً مليئاً بالجنس والدعوة. وحين تضرب الحذاء وتبعده يحس قدمها تكركر بطنه. أما إذا نهضت فكان يحس موكباً من الشهوة يملأ الجو برائحة

نافذة فتاكة.

قال بيتر يعزي نفسه بكل ما حصل «عبقرية المرأة تظهر في قدرتها على التصرف، والفرق بين امرأة واخرى يتلخص في هذه القدرة. طبيعي شيرين اكثر من قديرة، انها تمتلك، بالاضافة إلى ذلك، اشياء لا تملكها اية امرأة اخرى، ان هذه المرأة سر يستعصي على كل انسان فهمه».

وغاب في افكار بعيدة، مرت امامه شيرين بصور لا حصر لها، كل صورة عالم، كل حركة خصوبة غير منتهية. قال لنفسه بتأكيد لذيذ «وهي تعطي كثيراً في البداية، لكن من يتلقى يجب أن يكون مثلها، قادراً على التلقي باستمرار» وتراءت له صورة العربات الكبيرة المليئة بالبطيخ، كان يروق له في الليل المتأخر أن يتوقف عند الباعة، بحجة أنه يريد الشراء، لكنه يراقب بلذة هؤلاء الرجال الذين ينزلون البطيخ: اثنان يقفان في الأعلى، اثنان يقفان عند اسفل العربة، ثم اثنان يقف كل واحد منهما في جانب، وحين تبدأ الثمار تهبط بتلك الطريقة الرشيقة الموصولة يتعجب بيتر، لأن أي خطأ يقع فيه أي واحد من هؤلاء الرجال لا بد أن تتوقف اللعبة، اضافة إلى الخسارة. كان كل واحد يعرف كيف يقذف البطيخة، والآخر يعرف كيف ومتى يستقبلها وإلى من يقدفها مرة اخرى. كان الرجال يرون اعجابه محرضاً لمزيد من البراعة والاتقان، وكانوا يفعلون اضافة إلى ذلك اشياء اخرى ليست جزءاً من هذه اللعبة!

قال بيتر لنفسه: «يجب أن اتعلم قوانين هذه اللعبة، ان شيرين تقف هناك في الأعلى، وهي التي تقود اللعبة كلها، إذا لم استجب، إذا تأخرت لحظة واحدة، فإن اللعبة ستنتهي، أو اكون الطرف الضعيف فيها، وبيتر ماكدونالد لا يمكن ولايوافق أن يكون ضعيفاً، أو ينهي اللعبة...».

كان يروقه في تلك الليلة أن يبقى إلى جانب شيرين، وأن يشرب دون توقف، لأن كل شيء اصبح قريباً لذيذاً مجنوناً، لكن فجأة تذكر كلمات راندلي «حين تصبح مفتوناً بجلسة ما، بعلاقة ما يجب أن تتوقف،

اتفهم ما اقوله لك يا مستر ماكدونالد؟ قد تبدو لك هذه القاعدة الآن غير منطقية، وإني افرض عليك افكاري، لكن الأمر هكذا، فالانسان حين يسقط في جو اللذة والاستمتاع اكثر مما ينبغي يصبح رخواً ويمكن أن يفعل اشياء لا يريدها. اترك في جوفك باستمرار مكاناً فارغاً لكأس اخرى، قد تجد ضرورياً أن تشرب هذه الكأس في مكان آخر، وقد تجد نفسك تبدأ رحلة طويلة في الليل المتأخر. اذا تركت نفسك ترتخي فسوف تسقط. تعلّم هذا الدرس جيداً، وذات يوم ستعلمه لآخرين، كأحد اهم الدروس في حياتك».

قال عباس بتحد:

ـ هذه الليلة استطيع أن اشرب دون توقف. أشعر أني اكثر استعداداً من ايام اخرى!

ردت شيرين بطريقتها الفاتنة:

ـ انت تستطيع كل ليلة، ومحاولاتي في منعك، في أن تقلل الشراب، انتهت إلى الفشل الكامل... اعترف بذلك.

ـ ولماذا تريدين منع الأشياء الرائعة؟ من كلفك بذلك وماذا تجنين إذا فعلت؟

ـ صحتك يا حبيبي... اريدك أن تبقى قوياً دائماً!

ـ انا قوي، وسأبقى كذلك.

ـ ولكن الشرب الكثير يضعفك. وانت إذا بدأت لا تعرف التوقف، وصمتت لحظة، ثم ضحكت وتابعت:

ـ انظر إلى المستر ماكدونالد، انه يشرب بمقدار، حتى حين يبالغ فإنه لا يشرب مثلك!

قال بيتر يدافع عن نفسه:

ـ ولكني هذه الليلة شربت اكثر من أية ليلة سابقة!

ـ اكثر من اية ليلة سابقة؟

هكذا سألت شيرين، ثم ضحكت وهزت رأسها وعيناها مغمضتان نصف اغماضة، واضافت:

ـ هل استطيع معرفة السبب يا مستر ماكدونالد؟
ردد بيتر بانفعال وحيرة:
ـ السبب؟ السبب؟ آه
قالت شيرين بتلك الطريقة التي تنتزع الاحشاء:
ـ أن لدى المستر ماكدونالد اسباباً تفوق ما يتصور الانسان!
بعد لحظة صمت، تلاقت خلالها العيون والابتسامات، قالت وهي تضحك:
ـ ارجو الا تكون ضمن هذه الاسباب امرأة يا مستر ماكدونالد!
وحين اكتفى بالابتسام وغرقت عيناه في عينيها سألت من جديد:
ـ هل هناك امرأة؟
قال بيتر ببراءة مصطنعة:
ـ نعم هناك امرأة. وهل تخلو حياة اي رجل من امرأة؟
قال عباس بصخب وهو يرفع كأسه ويدقه بكأس بيتر بانفعال وتحدٍ:
ـ ما اسعد المرأة التي تنام في قلبك واحضانك يا مستر ماكدونالد!
رفعت شيرين الكأس، وبتلك الثقة الزاهية المتأكدة تماماً، قالت وهي تضحك:
ـ في صحة تلك المرأة!

(٨)

كان ذلك مشهداً بعيداً، صحيح أن بيتر يتذكره بوضوح شديد، كأنه حصل الآن، لكنه مع ذلك اصبح بعيداً وجزءاً من تلك الحالة التي ترافق اية بداية جديدة في حياة الانسان، خاصة اذا جاء الى مكان جديد.

المشاهد التالية لا تتسم بهذه الحدة، وتفاصيل الكثير منها تتوارى في ذاكرة بيتر، لترتفع فوقها الاحداث الداوية التي يعيشها كل يوم. لكن رغم جميع المحاولات التي بذلها من اجل أن يوقف أو يحد من تسرب هذه المرأة فإنه يعترف بالفشل.

«رائحة جسدها فتاكة. لا اعرف كيف تتسرب إليّ وتخدرني تماماً. عشرات المرات قررت، بيني وبين نفسي، أن اكون حازماً، ان افعل الشيء الذي اريده في الوقت الذي اريد، لكن ما ان تظهر، ما أن تمد يدها إلى رقبتي او جبيني، ما ان تقرص اذني بتلك الطريقة المعربدة حتى اصبح انساناً آخر: انسى القرارات، اتخلى عن الحزم، اتحول دون أن احس إلى رجل ملتاث. كل ما تريده، نعم كل ما تريده، لا اتردد لحظة واحدة في أن استجيب له... وهي بمقدار ما كانت قطة انيقة تموء في

احضاني باستسلام، فإنها الآن نمرة متوحشة. تريد ولا تريد، تريد بهذه الطريقة، وهذه الطريقة وحدها، انها تملي عليّ شروطها بجسارة ولا اعرف كيف ألبي كل ما تريد».

وتذكر كلمات راندلي، ان هذه الكلمات تطرق اذنيه كأنها ضربات ازميل: «إذا استطعت أن تسيطر على المرأة ـ المفتاح، يمكنك أن توجه الأمور كلها، المرأة تستطيع أن تتسلل ، تعرف كيف تشق الطريق ، بحواسها وغرائزها، لكن لا تتركها تفعل ذلك وحدها، لانها عند ذلك تخلق لك اشكالات جديدة لم تفكر فيها من قبل، وبدل أن تركز جهدك في النقطة الضرورية تصبح مهمتك أن تحل هذه الاشكالات، أن توقف تشابك الخطوط وتداخلها. حين تحس بانجذاب حقيقي نحو امرأة معينة يجب أن تتوقف يا بيتر، لانك ستصبح الطريدة، بعد أن كنت الصياد. اتركها فوراً ودون تردد، حتى لو كانت مستودعاً للمعلومات، وحتى لو كانت طريقاً إلى قمة السلطة، لان الرجل الضعيف لا يستطيع أن يسيطر على امرأة قوية. . . هل فهمت؟».

وحين هزّ بيتر رأسه بثقة ليؤكد للمستر راندلي انه فهم الدرس جيداً، انفعل راندلي وقال له بلؤم «اقسم بيسوع انك لم تفهم، الأمر كله يبدو لك الآن مزاح سخيف، ولست مستعداً أن تفهم، لكن مع ذلك يجب أن تفكر كثيراً فيما اقوله لك يا بيتر، يجب أن تفهم جيداً، لأن المرأة اذا كانت تلعب دوراً في المجتمعات المتحضرة، وتمارس تأثيراً كبيراً على المتحضرين، فإنها في الشرق الآلهة المعبودة. . ».

توقف راندلي هزّ رأسه بأسى، ثم تابع بصوت مختلف:

«لا تستغرب يا بيتر، المرأة لم تكن احدى آلهات الشرق القديم فقط، كان جزء معين من جسد المرأة، وانت تعرف ماذا اقصد، هو الآلهة، وقد صوروا هذا الجزء على جدران معابدهم وقدموا له القرابين، وفي تبرير ذلك كانوا يقولون أن هذا الجزء مصدر الخصب، وهم في الحقيقة يعنون انه مصدر اللذة. . اتفهم ما اقوله لك يا بيتر!».

في ذلك اليوم تحدث راندلي كثيراً عن المرأة، وبيتر يتذكر الآن القصص الكثيرة التي سمعها عنه من قبل حين كان شاباً ثم حين تقدم في السن. صحيح أن تلك السويسرية تحاصره الآن، لانها سمعت القصص التي تروى عنه، رغم أنها تعرف اكثر من اي انسان آخر قواه المتلاشية، لكنها تعرف أن راندلي لا يتوقف يوماً واحداً عن ايقاع الفتيات الصغيرات في حبائله، ان هذه الهواية تجعله قوياً بمعنى ما. قال له راندلي وابتسامة ثقة ترتسم على شفتيه «لا احد في الدنيا يعرف المرأة مثلما اعرفها. اعرف الزنجيات والخلاسيات، أعرف ذوات الوجنات البارزة، في جنوب آسيا وأعرف عملاقات استراليا، أما نساؤنا فأرجو ألا تضطرني للحديث عنهن. . . » ولكي يقنع بيتر بسرعة استدعى احدى سكرتيراته. حين دخلت تلك الفتاة الصغيرة كانت كعصفورة فرحة وهي تهفهف بتنورتها الواسعة؛ قطب راندلي جبينه وامال برأسه قليلاً وقال للفتاة: «هيا. . . قولي كيف اصبح ذلك الوسام؟» ضحكت الصغيرة ولم تجب. تقدم نحوها، قرصها من خدها وسأل من جديد «اتخجلين مني ايتها الصغيرة؟ هيا دعيني ارى!» وباستسلام ممزوج بالخجل والخوف رفعت تنورتها قريباً من الحوض، نظر راندلي بامعان، ثم قال: «لقد كبر الوسام واصبح شديد الزرقة، وحالما يغيب نهائياً يجب أن تذكريني لامنحك وساماً آخر، اتسمعين؟» لم تجب الفتاة وظلت واقفة. كانت في وقفتها شامخة، وحين نظرت إلى بيتر ابتسمت. بعد أن ساد الصمت قالت بصوت ضعيف مغر: «هل استطيع أن أفعل شيئاً الآن يا مستر راندلي؟».

قال راندلي: «يجب أن تتعلمي جيداً كيف تكونين حارة في الفراش، ان الرجال لا يفضلون شيئاً أكثر من المرأة الحارة. . . ».

توقف لحظة صغيرة ابتسم خلالها واضاف:

ـ والآن. . يجب أن تذهبي وتتعلمي هذا الدرس جيداً!

كان هذا درساً لبيتر، لكن ليس كل درس قابل للتنفيذ، حتى لو اراد الانسان. فبعد أن شعر بزيادة ارتباطه بشيرين، وانه لا يقوى على

تركها أو نسيانها، كان يخترع لنفسه عشرات المبررات لكي يستمر. كان يقول لنفسه «هل اكون رجلاً مقبولاً للمستر راندلي اذا هجرت هذه المرأة؟ وماذا يريد مني ايضاً؟ ان هذا العجوز لا يعرف سوى شيء واحد: أن يردد باستمرار، ودون انقطاع، تعليمات بلهاء على رؤوس الذين يعملون معه. انه يشعر بالغبطة حين يفعل ذلك، خاصة بعد أن اصبح عجوزاً مهترئاً، وإلا كيف يسمح لنفسه أن يعامل الفتيات الصغيرات بهذه الطريقة؟ ان طريقة مستر راندلي كئيبة لدرجة أن الحيوانات لا تفعلها! أن يمنح أوسمة؟ وأين؟ في تلك الأمكنة المقدسة التي يجب أن يمد الانسان إليها يده بكثير من الرقة والشكر والحنان. هذا الرجل.. بكلمة واحدة أبله وعاجز».

ومن جديد اخذ يتذكر جسد شيرين. ان البياض الذي يراه بعينه دائم الحركة والتموج، يعكس مسيرة الدماء الراكضة تحت الجلد، ويلوّن شفافية البشرة حتى لكأنها قشرة بلورية شديدة النعومة والطراوة والحركة. كان يقول لنفسه بتأكيد اخرق: «هذه المرأة تفعل شيئاً خارقاً من اجل ان تظل مشعة هكذا. الطراوة المشدودة للساقين، الانشداد المتوتر للبطن، أما الصدر فإنه لا يشبه صدر أية امرأة عرفتها من قبل..» وتتوغل الذكرى، يغمض عينيه قليلاً ويتذكر. وفجأة يحس بمذاقها، كأن كل شيء فيه يتحرك وينتعش. قال لنفسه بغضب «ليس علي إلا أن اكون حماراً ابله يقف في الشمس الحارقة دون حركة، اذا اردت ان انفذ تعليمات راندلي، هذا ما يريده راندلي، انه الآن ينسى كل شيء عن نفسه، ينسى سيرواك وترنيداد والمكسيك وعشرات الاماكن الاخرى التي مر فيها، وهو يفاخر بمغامراته وعلاقاته مع النساء، يتحدث عن السوداوات وذوات البشرة الصفراء، كأنه يتحدث عن امور عادية. وبعد ذلك: بيتر افعل.. بيتر لا تفعل. ماذا يهم إذا كانت لي علاقة من هذا النوع مع هذه المرأة؟ افهم ما يقصده وما يحذر منه، لكنّ الامر كله يتوقف علي. حتى لو كنت شديد الصلة بشيرين وارغب أن التقي بها دائماً، فانا شديد الانتباه في نفس الوقت، لا اقول إلا ما أريد قوله، ولا اتصرف إلا بعد تفكير عميق فيما

يجب أن افعل، وهذه المرأة رغم الاجهاد النفسي والجسدي الذي تسببه لي ـ ويجب أن اعترف بذلك ـ فإنها تقدّم لي مساعدات قيمة. ان عباس، والذي يشبه راندلي كثيراً، ولا يرى في النساء إلا دمى، اصبح مكشوفاً تماماً بالنسبة لي، اعرف في اية ساعة ينام، في اية ساعة ينهض، اعرف اصدقاءه واحداً واحداً، رغم اني لم ار الكثيرين منهم، حتى ملابسه الداخلية وجواربه المركومة بشراهة في الخزائن القيت عليها نظرة وعرفت كل ما يملك. من اين لي أن اعرف كل ذلك لو لم تكن شيرين؟ وهي تفعل ذلك بكثير من التجاوب والرغبة. صحيح انها الآن مختلفة عن السابق، لكن لا تتوقف عن تقديم الخدمات. اتصور أن كل ما تريده له علاقة حميمة برجل، وربما لأني اجنبي تحبّ في شيئاً لا تجده عند الآخرين، وتجدني رجلها، ولكي استمر هكذا يجب أن تدرك اني لا اقوى على الاستجابة الدائمة لما تريد، انها نمرة متوحشة، آه لو اني اصغر سناً، أو لو أن هذه المشاغل اليومية المدمرة لا تثقلني إلى هذا الحد. لو كنت كذلك، أو في وضع مختلف، لأعطيتها درساً لا يمكن أن تنساه طوال حياتها، لكنها الآن تدرك أية مصاعب اواجه، ومع ذلك لا تتوقف عن المطالبة، انها تطلب بطريقة خفية، بطريقة لا يمكن أن تقاوم».

«وعباس هذا. . ماذا يريد؟ وأي نوع من الرجال هو؟».

هكذا سأل بيتر نفسه، وغرق في أفكار بعيدة. تذكر ما قالوه عنه في لندن، وتذكر اللقاءات الأولى لهما في بيروت، وهو يراه الآن أمامه. الآن يبدو شخصاً مختلفاً عن الصورة التي رسمها له قبل أن يراه، ويبدو شخصاً مختلفاً أيضاً عن الرجل الذي عرفه في الأيام الأولى. الآن أكثر بلادة وشراهة وعناداً مما تصور أو قدر: «أضربوا يا مستر ماكدونالد. اضربوا بسرعة وشدة. لا تفكروا كثيراً، الأمور شديدة الوضوح ولا تتطلب حسابات معقدة. الشارع ليس مقياساً، والمظاهرات مثلما تبدأ تنتهي، إنها عوارض غضب مؤقتة، وحين تستقر لنا الأمور مرة أخرى فإن نفس البشر ونفس المظاهرات ستكون لنا. ماذا تظنون ان المظاهرات يمكن أن تفعل؟»

لقد كرر عباس مثل هذه الأفكار والكلمات لدرجة أن بيتر لم يعد يطيق سماعها، لكن ما يغفر لهذا الرجل، كما قال بيتر لنفسه، إنه مخلص ويحب بريطانيا أكثر من أي شيء آخر في هذا الوجود. حين يتحدث يردد دون انقطاع اسم بريطانيا. حين يفكر لا يجد امرأً جديراً بالتفكير والمنافسة إذا لم يكن لبريطانيا علاقة به. أما ملابسه، حتى الداخلية، فإنها من لندن.
وبيتر إذ يقدر هذا كله يرى الوجه الآخر من الصورة، يقول لنفسه في غمرة المتاعب والمصاعب التي تواجهه كل يوم: «هؤلاء الرجال لا يمكن أن يقدموا مساعدة حقيقية، إنهم متعبون، ولا يفكرون إلا بالعودة إلى السلطة. والسلطة إذا كانت بالنسبة إليهم غاية، فإنها لا تتعدى الوسيلة بالنسبة لنا. كل ما نريده صيغة مقبولة لعلاقاتنا، أياً كان الرجال الذين يحكمون. هم يفكرون بطريقة مختلفة، إذا لم يكونوا حاكمين، إذا لم يكونوا في السلطة فعلى بريطانيا اللعنة ولتذهب إلى الجحيم. صحيح أن عباس لا يقول ذلك صراحة، لكن ثورات الغضب التي تنتابه بين فترة وأخرى، طريقته في المناقشة، تحديه في بعض الأحيان، إن هذه كلها تشير بوضوح إلى حقيقة موقفه، لذلك فإن الحذر تجاه مثل هؤلاء الرجال ضروري جداً. وإذا كان عباس أقل ميلاً في رفض أفكارنا وطريقتنا في العمل، فإن ميرزا، ذلك الخنزير المصاب بخفقان العيون، أكثر عناداً ووضوحاً وخطورة في مواقفه.».

(٩)

من الأمور التي أخذت شكلاً غامضاً، منذ البداية، العلاقة مع ميرزا محمد. فهذا الرجل الطويل، القوي البنية، الرياضي، والذي تميزه عينان لا تعرفان التوقف عن الحركة السريعة، والبياض الناصع لشعر رأسه الغزير، هذا الرجل اثار انتباه بيتر منذ اللحظة الأولى. ويتذكر بيتر إنه سأل نفسه بعد اللقاء الأول، وحين استرخى في المقعد المواجه للنافذة والمطل على البحر، هل يمكن الوثوق بهذا الرجل الذي يبدو شديد الخفة في لحظات معينة وشديد الخوف والاضطراب في لحظات أخرى؟ لم يستطع بيتر أن يقدر بالضبط لكنه صمم أن تكون علاقتهما وثيقة. أما حين يتذكر كلمات راندلي عنه فإنه يجد تطابقاً بين الصورة التي رسمها له في خياله وبين صورته الواقعية. الشيء الوحيد الذي لم يقله راندلي، واستطاع بيتر أن يكتشفه بسرعة أن ميرزا كان إلى ما قبل فترة قصيرة ضابطاً كبيراً في الجيش. قدر بيتر في البداية أن ميرزا رجل رياضي لكنه لم يستسغ هذه الفكرة، ولا يعرف كيف خطر له أن يوجه له ذلك السؤال مباشرة:

ـ دعني أقدر في أية أسلحة الجيش كنت تعمل!

ـ كيف عرفت يا مستر ماكدونالد إني كنت ضابطاً؟

ـ الأمر شديد الوضوح، لأن كل شيء فيك يؤكد إنك ضابط في الجيش!

شعر ميرزا بالزهو والثقة، وقد عبر عن ذلك بضحكة رنانة صاخبة، لكن فجأة انقطعت ضحكته وسأل من جديد:

ـ هل يمكن أن تذكر لي سبباً واحداً يدلل على أني كنت ضابطاً؟

ـ كما قلت لك: الأمر شديد الوضوح ولا يمكن لأحد أن يخطىء!

ـ ولكن أريد أن أعرف!

ـ أتصر على ذلك يا مستر ميرزا؟

ـ إذا لم يكن لديك ما يمنع من أن توضح لي ذلك، يسرني أن أعرف!

شعر بيتر إنه أمام امتحان حقيقي، ماذا يقول؟ كيف عرف؟ كان بوده أن يخترع سبباً. نظر إلى ميرزا من جديد كأنه يحاول اكتشافه مرة أخرى، أحس ميرزا أن بيتر يحدق فيه بطريقة معينة، قال ليساعد بيتر:

ـ إذا عرفت ذلك في لندن فالأمر لا يحتاج إلى ادلة، أما اذا اكتشفت ذلك بنفسك فيسرني أن أعرف أية ملامح خاصة، أية تصرفات أوحت لك بذلك...

وابتسم ابتسامة واضحة مشجعة، وتابع بلهجة جديدة:

ـ لكي استطيع إخفاء هذه الملامح يا مستر ماكدونالد، لأن ظهورها في العمل الذي نبدأ به الآن يؤدي إلى المشنقة، أنت تعرف ذلك يا مستر ماكدونالد... ألا تعرفه؟

قال بيتر بثقة وهزات رأسه تؤكد كل كلمة:

ـ راهنت على ذلك في لندن يا مستر ميرزا، قلت لهم لا أريد أن تقولوا لي الكثير عن هذا الرجل، أريد أن اكتشفه بنفسي، ومنذ تركت لندن وضعت احتمالات عديدة، وكان عليّ أن أحاول وأقدر منذ اللحظة الأولى، وها آنذا قد عرفت. أليس كذلك يا مستر ميرزا؟

ـ إنك تزيد حيرتي يا مستر ماكدونالد، فما دامت لندن لم تقل لك ذلك، وليست لديك أية معلومات سابقة فيسرني أن أعرف لكي احتاط للأمر!

ـ دعني أقول لك يا مستر ميرزا إن أموراً عديدة تجمعت في رأسي دفعة واحدة وأكدت لي إنك ضابط!

ـ أوافق معك، ولكي نمارس اللعبة حتى نهايتها أريد أن أسألك سؤالاً آخر ـ إذا قلت لي في أي سلاح كنت فسوف اعترف أن أسبابك قوية ولا تحتاج إلى إثبات أو أدلة.

ـ لقد عقدّت الأمر كثيراً يا مستر ميرزا، فما دمت قد عرفت يكفيني ذلك، وسوف أكسب صندوقاً كاملاً من الويسكي، لقد تراهنا على ذلك في لندن!

ـ سوف اتراهن معك على صندوق آخر إذا عرفت في أي سلاح كنت أعمل!

تفرس بيتر طويلاً في وجه ميرزا. مرت في ذاكرته صور عدد من الضباط الذين عرفهم، قال لنفسه «من الصعوبة معرفة السلاح، وتحديد طبيعة الرجل الذي يعمل عليه، ثم ماذا يريد هذا الرجل من اسئلته؟ هل يريد أن يختبرني؟ أن يفرض عليّ منذ البداية منطقاً معيناً في التعامل؟».

قال لميرزا بتحبب لينقذ نفسه من الحرج:

ـ أقسم إنك في سلاح من الأسلحة، أما صندوق الويسكي فيمكن أن تحدد النوع الذي تفضله لكي أبعث به إليك حال وصولنا، أهذا ما تريد؟

ـ خسرت إذن؟

ـ دعني افترض ذلك!

وبعد فترة قصيرة اضاف:

ـ اي نوع من الويسكي تفضل؟

ـ النوع الذي يشربه سلاحنا. . . هل عرفته؟

ودوت قهقهات ميرزا، وشاركه عباس الذي ظل يستمع إلى الحوار بإعجاب مشوب بالتساؤل، أما شيـرين فقد نـظرت إلى الاثنين نـظرة رشيقة، هزت رأسها دلالة الرضى والاستمتاع، ومرت بلسانها على شفتها السفلى ثم عضتها. بعد أن هدأت قهقهات الرجال قالت:

ـ أين نحن من هذا الرهان؟

قال ميرزا بصخب:

ـ لقد خسرنا نحن الاثنين، المستر ماكدونالد وأنا، وأنت الوحيدة التي ربحت!

ـ ربحت؟

ـ بالتأكيد لأن المستر ماكدونالد يعرف كيف يجامل، ويعرف متى يجب أن يخسر ومتى يجب أن يربح!

قال بيتر بثقة:

ـ لا يعرف الانسان لماذا يقول كلمات معينة، ان ذلك أمر غامض في كثير من الأحيان، وبالنسبة للموضوع الذي نحن فيه لم أكن متأكداً أن المستر ميرزا ضابطٌ في الجيش، لكن هكذا خطر لي أن أقول، ربما الجسم الرياضي للمستر ميرزا، وربما كان سبب آخر. لا أدري!

ـ إذن خسرت الرهان يا مستر ماكالدونالد؟

ـ لقد خسرت. . . أعترف بذلك.

وبعد فترة سأل بيتر:

ـ والآن هل يمكن أن تقول لي في أي سلاح عملت لكي أشعر أن خسارتي للرهان حقيقية وكاملة يا مستر ميرزا؟

ـ أتصر على ذلك يا مستر ماكدونالد؟

ـ دعني افترض ذلك!

وحين أخذ ميرزا في الحديث، بدا وكأنه يروي قصة رجل آخر، قصة رجل لا علاقة له به. تحدث عن الانتقال من سلاح لآخر، حتى استقر أخيراً في المخابرات. . لكن أضاف بزهو:

ـ المخابرات ليست لها علاقة مباشرة بالاسلحة، إنها أكبر من كل الاسلحة وفوقها جميعاً.

وابتسم وغمز بعينه لبيتر، ثم التفت إلى شيرين وتابع:

ـ لكن الشيء الوحيد الذي لم اتخل عنه ابداً، وفي جميع مراحل حياتي، الرياضة والتقاليد العسكرية: النهوض باكراً، القيام بالتدريبات التي يقوم بها الجنود، النوم المبكر، المحافظة على الرشاقة واللياقة البدنية، ظلت هذه الأمور ملازمة لي طوال الفترات الأخيرة، وربما لهذه الاسباب ظللت في حالة توحي إنني عسكري، علماً بأن عدداً كبيراً من زملائي، وبعضهم أصغر مني سناً، تحولوا في فترة قصيرة إلى أشكال مدنية تماماً، رغم الرتب العسكرية التي يضعونها على أكتافهم!

وبدا كأنه يستعرض حياته الماضية، ويستعرض اشكال الزملاء الذين يعنيهم؛ شعر بالرضى عن نفسه، وإنه نمط من الناس يختلف عن الكثيرين، قال بثقة، دون أن يوجه الحديث لأحد مباشرة:

ـ وهذا لا يعني اني لا أعيش كما أريد. لا . . . إنني أسهر في هذه الفترة، أشرب كثيراً، ويمكن أن أفعل أشياء كثيرة لا يقوى الشباب على فعلها!

كان يتحدث وعيناه تدوران بسرعة كبيرة، وفي لحظات تتوقفان، وكأنه يتذكر شيئاً محدداً، أو أن خاطراً عنّ له، لكن هذا التوقف المفاجىء والمؤقت لا يلبث أن ينتهي بسرعة، وتعود العينان إلى الدوران!

وبيتر الذي أعجب بميرزا كثيراً، وتضاعف إعجابه حين تأكد من فراسته واكتشف أنه ضابط، وانه ضابط مخابرات، قال لنفسه برضى: «إذا أحكمنا العمل تحت الأرض، يمكن أن نسيطر على ما فوقها خلال فترة قصيرة. وإذا كانت المخابرات أساساً للعمل في جميع أنحاء الدنيا، فإنها في هذا المكان ستكون السيد الوحيد، وسوف تحسم الكثير من الأمور دون ضجة ودون أن يحس أحد». قال له راندلي بثقة: «مستر ماكدونالد. . لن نعمل في ضوء النهار، ولن نعمل من خلال الأساليب التقليدية، لو لجأنا إلى ذلك لكنا حمقى تماماً، وما دمنا قد تلقينا صفعة على

وجوهنا من هؤلاء الشرقيين فيجب أن نرد لهم صفعة أقوى. لن نفعل مثلما فعل غيرنا: أن نسلّم، أن نرفع أعلاماً بيضاء، لا لن يحصل ذلك أبداً، لو فعلنا ذلك، أتعرف ماذا سيفعلون أيضاً؟ سوف يطلبون إلينا أن ندير مؤخراتنا لكي يرفسونا ويرموا بنا إلى البحر. أعرف هؤلاء الشرقيين... إذ بمقدار ما تجاملهم، بمقدار ما توافق على مواقفهم، يزدادون اندفاعاً وتهوراً. إنهم لا يفهمون إلا لغة القوة، لغة الصفع، لكي يقفوا عند حدودهم ولا يتجاوزوها، هكذا خلقوا، ويجب أن نعاملهم بالطريقة التي يفهمونها. الوضع في أماكن أخرى، يا بيتر، يخضع إلى المنطق، إلى العقل، هناك لا ينفع العقل ولا يجدي المنطق، لكن ليس معنى هذا أن نجابهم علناً، نخطىء كثيراً ونخسر إذا فعلنا ذلك، يجب أن نعتمد على السياسة السرية، أن نطلب إلى رجالنا العمل بهدوء وصمت، حتى إذا جاء الوقت المناسب وجهنا إليهم ضربات متتالية فيسقطون... هذه هي الطريقة الوحيدة»

قال بيتر لنفسه: «يمكن لميرزا أن يجعلنا نطل على العالم كله. سوف نبقى تحت الأرض، كالغواصة تماماً، لكن يمكن أن نرى كل ما يجري فوقها. ورجال المخابرات المحليون، الذين يعرفون الناس، ويعرفون دقائق حياتهم، وطبيعة العلاقات التي تربط فيما بينهم، إذا كانوا تحت اشرافنا مباشرة سوف يكونون قوة حاسمة، يمكنهم في الوقت المناسب الامساك بكل الخيوط وتحريكها بالشكل المطلوب. إن الأمر الآن أقرب مما يتصور الانسان...».

وغرق في تساؤلات متداخلة «لماذا لم يقل لي راندلي أن ميرزا رجل مخابرات وهل يعرفون ذلك في لندن معرفة كاملة؟ وهل يمتلك هذا الرجل الذكاء والجرأة لكي ينفذ لنا ما نريد؟».

قال له راندلي: «لن أقول لك الكثير عن الرجال الذين ستعمل معهم، يجب أن تكتشفهم بنفسك يا بيتر. المعلومات التي لدينا مشجعة للغاية لكنها لا تكفي. ثم أن هؤلاء الرجال متقلبو المزاج ولهم طبيعة

خاصة. إن العلاقة المباشرة، الاتصال اليومي، هو ما نعتمد عليه، أما الرسائل، أما التوجيه العام، أما أن تترك لهم الحرية الكاملة في التصرف... فهذه الأمور لا تجدي، وقد تكون ضارة في بعض الحالات. إذهب وتعرف بنفسك على الاشياء والبشر، وتصرف معهم بالطريقة التي تراها مناسبة أكثر من غيرها. إذا حصل ذلك يمكن أن نضمن النتائج، أما إذا تركنا الأمور فسوف يفلت هؤلاء كما تفلت القطعان، ويذهب كل قطيع ليبحث لنفسه عمن يطعمه ويقوده ويرجعه إلى الحظيرة. يجب أن تدرك ذلك جيداً يا مستر ماكدونالد، واترك لك أن تكتشف طبيعة رجالنا ومدى امكانياتهم. لن احدثك عنهم طويلاً، لأن أية أحاديث أثرثر بها الآن قد تبدو بعد فترة حمقاء وغير ضرورية، وتقول: هذا العجوز راندلي ليس له مهمة إلا الثرثرة. لا... لا أريدك أن تقول هذا، إذهب واكتشف كل شيء بنفسك!».

قال بيتر لنفسه: «إن طريقة راندلي ليست خاطئة أو رديئة، لا إنه يمنحني الثقة، ويترك لي أن أتصرف كما تملي الظروف. وهذا الرجل، ميرزا محمد، يمكن أن يفتح لنا أبواباً كثيرة. وأنت يا مستر ماكدونالد لا تكن أحمق، لقد واتتك الفرصة، ويجب أن تعرف كيف تستثمرها... اتفهم ما أقول لك؟».

(١٠)

«زيارة الاماكن والاتصال مباشرة مع الناس، أكثر فائدة، في أحيان كثيرة، من قراءة الكتب» هكذا قال بيتر لنفسه بعد مجموعة من اللقاءات مع ميرزا وعباس وأشرف. صحيح أن ميرزا لم يتحدث كثيراً، وظل أقرب إلى التحفظ، لكن الكلمات التي قالها أوحت لبيتر بهذه الفكرة، وأكدت له أن علاقة قوية ستنشأ بينهما. حتى عباس بدا فخوراً حين كان ميرزا يتحدث. كان ينقّل عينيه بين الاثنين ويصغي بانتباه، وفي فترات الصمت كان ينظر إلى بيتر بطريقة خاصة ليؤكد له الجدارة التي يتمتعـان بها، وليقول له دون كلمات: «إن الثقة التي تضعانها فينا سوف تؤدي إلى نتائج حاسمة».

أما لقاءات بيتر بأشرف، رغم التحفظ الذي كان يميزها، وغالباً تظل قصيرة ومتباعدة، فقد أكدت له أن هذا الرجل نادر المثال، ويمكن الاعتماد كثيراً على المعلومات والتقديرات التي يقدمها. كان اشرف في سفر دائم، وكان غارقاً إلى حد بعيد في دراسة القضايا القانونية. وإذا كان ميالاً بطبعه إلى الصمت، ولا يخوض في الكثير من التفاصيل، إلا أن

الكلمات التي يقولها لا تلبث أن تتحول إلى رسالة عاجلة ترسل إلى لندن، ومع الكلمات تأكيدات بيتر:

«الرجل شديد الحرص على أن تتخذ لندن مبادرة جديدة. يجب أن ندرس إمكانية اتخاذ موقف ما، لا تهملوا، لا تتركوا الآخرين يسبقوننا. هكذا اوحى لي الرجل، وهذا ما تؤكده الاوضاع.».

لم يكن بيتر عجولاً في بحث النقاط الرئيسية، اذ إضافة إلى تعليمات راندلي الواضحة بهذا الخصوص، كان يريد أن يعطي نفسه فترة كافية لكي يسيطر على الموقف ويجري المباحثات بطريقة مريحة. كان يقول لنفسه دائمًا، حتى لما كان مديراً للمبيعات في الشركة «يجب ألا يبدو الانسان متلهفاً للوصول إلى نتيجة ما، إن اكتشاف الطرف الآخر لهذه النقطة تجعله مسيطراً ويضطرك إلى تقديم تنازلات كبيرة كان من السهل أن تحتفظ بها لنفسك. انظر إلى الشخص أو الشيء الذي أمامك باهتمام، لكن لا تظهر إنك بأمسّ الحاجة إليه، لو فعلت ذلك فعليك أن تدفع ما يطلبه الطرف الآخر». لقد تعلم بيتر هذا الدرس جيداً، خاصة لما سمع راندلي يقول له: «سوف تبدأ من الصفر يا بيتر، هكذا يجب أن تفترض، ابدأ كأنك وحيد. أما الرجال الذين ستتعرف إليهم، فاختبرهم بطرقك الخاصة، انس جميع المعلومات السابقة عنهم، وابدأ معهم مجدداً. إن هذه الطريقة تجنبك الكثير من الأخطاء، كما انها تحمّلك مسؤولية النتائج. ليس هذا كل شيء يا بيتر يجب أن تكون طريقتك في العلاقة متزنة مدروسة، وليس من ضرر أبداً إن كانت بطيئة أيضاً. امنح ثقتك بهدوء، وعلى اقساط. أما اللائقة فإنها تحصل مرة واحدة. افهمت يا أيها الرجل المسافر إلى الشرق؟».

ولم يكتف راندلي بذلك، كانت لديه تعليمات إضافية أخرى كثيرة، وكان يلقي بهذه التعليمات، كما لو كان كاهناً مبتدئاً لم يحفظ موعظته بشكل جيد! كان يلقي التعليمات على مائدة الطعام، أثناء السهرات، حين يتوقف فجأة، وكأنه تذكر أمراً هاماً. كان في بعض الأحيان يمسك

بكتف بيتر ويهمس في أذنه ببضع كلمات. كان يفعل ذلك دون توقف، وبأشكال متعددة، حتى أن بعضها بدا مضحكاً، أو بدا كأنه أب يوصي ابنه قبل السفر. ومع ذلك تقبل بيتر كل ما قاله راندلي بصبر وتفهم، الشيء الوحيد الذي توقف عنده فترة طويلة وأثار اهتمامه رأي راندلي بالشرق والرجال الشرقيين. قال له في الليلة الأخيرة قبل السفر «يا صديقي العزيز... اعذرني اني تكلمت كثيراً. اعترف إنني فعلت ذلك، فالمهمة التي تذهب من أجل تنفيذها كبيرة وخطيرة، وعليها يتوقف مستقبلنا في الشرق. أنت يا بيتر لا تعرف ماذا يعني الشرق، فالثروة ليست كل شيء. صحيح انها مهمة جداً، لكنها ليست الشيء الوحيد. الشرق هو المستقبل، يجب أن نعترف بذلك، ومن يكسب هذا الشرق يكسب المستقبل، يجب أن تكون متأكداً من هذا. وماذا أيضاً يا بيتر؟ الشرق، أو بالأحرى الرجال الشرقيون عاجزون عن إتخاذ قرارات بشكل منفرد، وهم ميالون إلى التقليد، وهنا يتلخص جوهر المشكلة.» ابتسم راندلي بأسى، أحس أن كلماته لم تكن واضحة، وإن بيتر فهم هذه الكلمات بطريقته الخاصة، ولكي لا يترك مجالاً للالتباس أمسك بساعد بيتر وسار معه إلى الشرفة، كان البرد قاسياً، والغيوم البيضاء تملأ الفضاء كله، حتى لتمس الاشجار وأعمدة الكهرباء. أحس بيتر بالبرودة، لكنه احتمل ذلك بصبر، لأن راندلي بدا في هذه اللحظات ساهماً مفكراً، وكأنه يستعد لقول شيء خطير. كان يود بيتر لو يعود إلى الغرفة مسرعاً، أن يشرب كأساً من الكونياك يدفيء عظامه، كان يريد أن يستمع لهذه الكلمات الحكيمة في غير هذا الجو، «لكن هؤلاء الرؤساء لهم طبيعة خاصة»، هكذا قال بيتر لنفسه، وأضاف وهو يخفي ابتسامة «إنهم في كثير من الأحيان مضحكون، ويتصرفون بطريقة ليس فيها أي مظهر من مظاهر العقل أو الحكمة» وحين التقت نظراتهما من جديد ابتسم راندلي مرة أخرى، وظل يهز رأسه ببطء كأنه يتذكر شيئاً أو يفكر بقضايا لا يريد أن يقولها لسبب ما، لكن في لحظة قال راندلي بصوت مستسلم: «الأفضل أن

ندخل، لقد ملأنا رئاتنا بهواء نقي سوف يساعدنا على أن نجدد أفكارنا، ويجعلنا أقدر على أن نفهم بعضنا دون أخطاء. . . » توقف لحظة ثم أضاف «ألا توافقني أيها الفتى الصغير» هز بيتر رأسه وابتسم، وحين أغلق باب الشرفة وراءه، كان راندلي قد جلس ومد ساقيه على طولها، ودون كلمات أشار إليه طالباً منه أن يجلس على الكرسي القريب منه.

غرق لحظات طويلة في الصمت والتأمل. بدت لبيتر طويلة ومملة، لكنه أحس أيضاً أن راندلي سيقول شيئاً مهمًا وخطيراً، وإلا لما اتخذ هذا الشكل، ولما قام بهذا الدور التمثيلي الطويل! فجأة وجد راندلي يقول له: «إن ما نواجهه في الشرق، يا بيتر، شيء خطير للغاية، أخطر مما تتصور للوهلة الأولى، والخطورة ليست في الشيء الذي حصل وإنما في الشيء الذي سوف يحصل. ما حصل يمكن أن نحتمله بشكل ما، يمكن أن نتكيف مع النتائج التي ترتبت عليه، مع ان هذا يسبب لنا خسائر وآثاراً سيئة للغاية. الشيء الذي لا يمكن أن نحتمله ابداً: العدوى. أتفهم ماذا تعني العدوى؟ هذا هو الشرق. الشرقيون، كما ذكرت لك، عاجزون، وغير قادرين على اتخاذ قرارات، لكنهم عباقرة في التقليد، كما انهم كالقطيع يسيرون وراء الكبش الأول. ما حصل الآن، وفي هذا المكان، يمكن أن يحصل مثله غداً في أمكنة أخرى. أتفهمني يا بيتر؟ هذا هو الشرق بكلمة واحدة. قبل سنوات كانت الأرض تحت أقدامنا ثابتة تماماً، وكنا نقف فوقها بثقة، الآن الأرض تهتز، وأرجلنا معلقة في الهواء، لا نعرف فيما إذا كانت الأرض سوف تستقر بعد ذلك، أو اننا سننزل على رؤوسنا أو أقدامنا مرة أخرى، وهنا تبدأ عبقريتك يا أيها الفتى».

تراكضت الصور في رأس بيتر، شعر بالفخر والغموض والخطورة وعشرات المشاعر الأخرى. كانت مشاعره مضطربة متداخلة، وكان لا يعرف كيف يجيب راندلي أو كيف يفكر، لكن أحس إنه لم يعد يحتمل هذا الجو، ويجب أن يفعل شيئاً. فجأة وجد نفسه ينهض ويطلب بالهاتف قدحين من الويسكي. فعل ذلك لا شعورياً، ولم يعترض راندلي. كان

كل واحد منهما يريد استراحة قصيرة، يستطيع خلالها أن يرتب أفكاره والكلمات التي يريد أن يقولها للآخر. ولا يعرف بيتر لماذا فضل أن يجلس في المقعد المقابل لراندلي، وكأنه كان محتاجاً إلى أن ينظر إليه تماماً، ليرى صورة الكلمات بوضوح أكثر، ولكي يفهم معناها دون خطأ أو التباس!
بعد أن جلسا متقابلين وصامتين فترة قصيرة، قال راندلي بطريقة جديدة «آه لو كنت أصغر سناً، لو كنت في الأربعين أو الخمسين، وحتى لو لم أتعدَّ الستين بعدة سنوات لذهبت معك. فهذا الشرق بمقدار ما يثيرني يحيرني أيضاً ويلهب خيالي لما فيه من متناقضات...» وتغيرت لهجته من جديد وهو يضيف: «مهمتنا في الشرق أن نتخذ القرارات، وما دام الأمر كذلك يجب أن تكون قراراتنا مستندة إلى معلومات. وهنا تلعب المخابرات دوراً رئيسياً، إذ بمقدار ما نمتلك من المعلومات نمتلك قدرة على التحرك، وبالتالي اتخاذ القرارات التي من شأنها تغيير كل شيء. ودعني يا بيتر أكرر مرة أخرى: يجب أن ننتصر في هذه المعركة، لأن استمرار خسارتنا لهذه المعركة معناه خسائر متلاحقة، خسائر لا يوقفها حتى الله. وخسائر من هذا النوع تعني نهاية الامبراطورية، ونهاية وجودنا في الشرق، لذلك اعتمد عليك كثيراً، وأريدك أن تفعل شيئاً كثيراً هناك. وأنت الذي ستتخذ القرار...».

حين بدآ يشربان الويسكي كانت المشاعر والصور التي تملأهما متناقضة ومتداخلة، وكانت أقرب إلى التشويش. قال بيتر لنفسه بمرارة: «الامتحان الذي أواجهه الآن، اصعب من أن احتمله وحدي، وهذا العجوز الذي سافر وتنقل في أماكن كثيرة، والتقى ببشر كثيرين من الممكن أن يساعدني مساعدة لا حدود لها لو كان معي في المرحلة الأولى، لكنه يفضل أن يبقى مع هذه السويسرية العجفاء، وعلى بيتر أن يذهب وحيداً ويحارب قوى همجية... وأن ينتصر عليها.» ابتسم بمرارة، وشعر انه وحيد، وانه غير قادر على أن يفعل شيئاً.

أما حين بدأ راندلي يتكلم مرة أخرى فإن بيتر كان بعيداً، حتى انه

لم يسمع أو يفهم الكلمات التي قالها، انتبه راندلي لذلك، وفجأة غرق في موجة من الضحك الصاخب، كطريقة لتغيير الجو وانتزاع بيتر من الوجوم والأفكار البعيدة. قال راندلي بعد أن هدأت ضحكاته، وإن ظلت آثارها ظاهرة على وجهه: «لا تخف يا بيتر. لن تكون وحيداً، رجالنا هناك من القوة والتأثير بحيث يمكنكم عمل الشيء الكثير خلال فترة قصيرة. الأمر كله يتوقف على المعلومات وعلى طريقة استخدام الرجال.».

... الآن، اثناء اللقاء مع الرجال، يشعر بيتر أن كلمات راندلي مدروسة بعناية، وإن لها دلالات عملية واضحة. فأي من الرجال الذين يلتقي بهم الآن بداية الطريق، البداية التي يمكن أن توصل إلى نتائج أكيدة. قال لنفسه مرة ثانية بتأكيد: «الأفضل أن نعطي انفسنا فرصة كافية لكي نتعرف إلى بعض. والآن لنتحدث عن أمور أخرى...».

(١١)

اللقاءات الأولى تنطبع في الذاكرة بطريقة خاصة، طريقة غامضة أغلب الأحيان؛ ومهما ترتبت عليها من نتائج ومهما تطورت، فإن شيئاً خاصاً يبقى هناك ممتداً إلى ما قبل المعرفة. حصل هذا كثيراً، وسوف يحصل دائماً، أياً كان موقف الانسان من ذلك، ومهما بدا مثل هذا مستعصياً على الفهم أو المنطق، فإن له تأثيراً على أي إنسان.

هكذا شعر بيتر في اللقاءات الأولى مع ميرزا. شعر انهما يعرفان بعضهما منذ وقت طويل، وانهما يتفقان في قضايا كثيرة، حتى لما بدآ يتحدثان عن الخيل ثم عن النساء، ولما تحدثا عن السفر، شعر انهما يعرفان الأمور بوضوح، وانهما متفقان. أما حين بدآ يتحدثان في السياسة فقد بدا ميرزا بطيئاً وأكثر تردداً، وفي حالات معينة كان يفضل الهروب من هذا الحديث. لم يستغرب بيتر ذلك وعاد بسرعة إلى القواعد الذهبية التي تعلمها حين كان في الشركة، ثم إلى الكلمات التي سمعها من راندلي. قال لنفسه: «عليك يا بيتر أن تعدّ وجباتك على نار هادئة، فالنار الهادئة وحدها تنضج طعاماً لذيذاً».

يتذكر بيتر أن ابتسامات ميرزا، منذ اللقاءات الأولى، كانت خائفة بعض الشيء، وكانت ابتسامات قصيرة، تتراجع أغلب الأحيان فجأة وبسرعة، ليحل مكانها ما يشبه التقطيب أو التفكير العميق. كان يستنتج ذلك من الدوران السريع في عيني ميرزا، وكان يروق له أن يراقب هاتين العينين. وهذه المراقبة كانت تترك في نفس ميرزا شعوراً مستمراً بالخوف والتردد. في وقت متأخر لاحظ بيتر أن ميرزا يفضل الجلوس في مكان لا يتيح له أن ينظر إليه مواجهة، كما لاحظ أن ميرزا يفضل أن يوجه الحديث إلى عباس أو الآخرين، رغم أن كثيراً من الأفكار التي يناقشها كانت أفكار بيتر وآراءه!

أما طريقة ميرزا في التصرف فقد بدت لبيتر، منذ الليلة الأولى، وهم يجلسون في بار الوردة، متقنة وفيها تلك اللمسة من الذكاء والحساسية، حين يضع الثلج في أقداح الويسكي، حين يقدم المعطف إلى شيرين، حين يطفىء السيجارة. لقد راقب بيتر كل ذلك بعناية، وكان يريد أن يكتشف الشرق منذ اللحظة الأولى، منذ الخطوات الأولى، من خلال هؤلاء البشر.

الآن تبدو لبيتر هذه الطريقة في التصرف، رغم أنها لم تتغير، فجّة وأقرب إلى التمثيل. ولفرط ما تكررت أصبحت عادة، وتحمل كل ما في العادة من سماجة وثقل، حتى ان بيتر بدأ ينظر إليها ببعض الانزعاج، ويفضل لو أن ميرزا يغيرها أو يكف عنها. لكن ميرزا العسكري لا يغيّر شيئاً من عاداته، قال ذلك بوضوح أقرب إلى الفخر، حين تحدث عن ممارسته الرياضة وعن النوم المبكر. وبيتر إذا كان قد رأى تصرفات ميرزا في البداية تحمل لمسة حضارية، فانه الآن يراها استفزازاً وتحدياً.

«هؤلاء الشرقيون لا يكفون لحظة واحدة عن التمثيل والتقليد، انهم يفعلون ذلك بثقة تصل بعض الأحيان درجة الازعاج، وراندلي على حق حين قال إنهم كالقطيع، انهم دائماً يركضون وراء الدابة الكبيرة».

هكذا كان بيتر يقول لنفسه في أحيان كثيرة، خاصة حين يشعر أن

المصاعب تطوقه من جميع الجوانب، وان حياة الشرق ليس فيها سوى العناد والملل. كان هذا الشعور أكثر ما يتولد من المناقشات الطويلة التي يخلقها عباس ويدفعها في كل الاتجاهات، ويستعمل فيها كلمات كبيرة لا يرى بيتر ضرورة لاستعمالها البتة. كان عباس يفضل استعمال كلمات عسكرية أغلب الأحيان، كأن يقول الاستراتيجية العامة، الاستراتيجية الصغرى، الالتفاف، التمركز، الانتشار... وعشرات التعابير العسكرية الأخرى. وكان يفضل أن يلجأ في الكثير من الأحيان إلى كتابة بعض الكلمات على الورق، كان يرسم دوائر واسهمًا وخطوطاً، وأغلب الاحيان تتشابك هذه الأشكال. كان بيتر بمقدار ما يضيق بهذه الطريقة في المناقشة، فان ميرزا كان يتمعن في الورقة ويبتسم، وفي نهاية كل لقاء يحرقها بهدوء، وكأنه يقوم بواجب رسمي، أو بطقس من طقوس الدين.

تكرر مثل هذا المشهد مرات عديدة، وكل المحاولات التي بذلها بيتر من اجل الاتفاق على طريقة أخرى للمناقشة أو للعمل واجهته مصاعب كثيرة، فعباس يعتبر أن جزءاً من قدرته على توضيح أفكاره مرتبط بالكتابة، وأية كتابة؟ هذه الورقة التي أمامه والمليئة بكل الاشكال البلهاء، كما يسميها بيتر. كان بيتر يحتمل ذلك بصبر، ويبذل جهداً كبيراً لإخفاء حقيقة مشاعره، لأن العلاقة بميرزا كانت تمر بعباس، أو هكذا أصبحت وفرضت نفسها، وكل المحاولات التي بذلها بيتر لأن يلتقي بميرزا على انفراد، لأن يقيما علاقة خاصة، لم تؤدِ إلى نتيجة مشجعة، الأمر الذي اضطره إلى الموافقة على هذه الصيغة والاستمرار فيها.

وميرزا الذي بدا شديد الصراحة والوضوح حين يتحدث في أمور الخيل والطبيعة، أو حين يتحدث عن ذكرياته أثناء دراسته في الهند ثم في بريطانيا، كان يبدو أقرب إلى التحفظ والاختصار حين يتحدث في السياسة. عزا بيتر ذلك، في البداية، إلى قلة الخبرة، وإلى أن العسكريين لا يميلون، بصورة عامة، إلى أحاديث من هذا النوع، لكن لم يرتح لهذا التفسير كثيراً، لأن ميرزا يصبح شخصاً مختلفاً حين يريد أن يتحدث،

لاحظ بيتر ذلك مرات عديدة، خاصة أثناء الشرب. كان ميرزا يتغير كثيراً. تهدأ حركة عينيه، ويميل البؤبؤان إلى الاستقرار، أما حركاته العصبية، التي تظهر بوضوح حين يبدأ يأكل شفتيه، في الأحوال العادية، فإنها تتراجع تماماً، لتحل مكانها حركات هادئة لا تتعدى المرور بلسانه بين فترة وأخرى على شفتيه لترطيبهما. وكان يصفو كثيراً في الحديث. حتى تصرفاته التي تفرضها اللحظة كانت تتسم بالعفوية أو التقليد، وتجد تجاوباً من الحاضرين.

هكذا كانت تبدو صورة ميرزا في بعض الأحيان ـ لكنها صورة مؤقتة، إذ يمكن أن تتغير في كل لحظة. ولقد لفت نظر بيتر كثيراً أن ميرزا سريع التأثر بكل ما يحيط به، كان لا يستقر في مكان محدد، وغالباً ما يفضل الانتقال من مكان لآخر، كما كان يحب الوقوف بعض الاحيان، حتى اثناء أدق المناقشات وأخطرها، أما إذا سمع صوتاً أو دخل أحد فكان رد فعله تجاه ذلك سريعاً ولا إرادياً. وبيتر الذي كان يراقب كل ذلك بعين منتبهة، فسر الامر لنفسه أن طبيعة الرجل هكذا، ثم لما فكر في الأمر أكثر تأكد أن العمل الذي كان يشغله ولّد لديه مزيداً من الحذر وأضاف إلى عاداته عادات جديدة.

كان بود بيتر لو يستطيع النفاذ إلى عقل ميرزا ويكتشف أية أفكار تدور في ذلك العقل. وإذ كان يستعيد الكثير من ملاحظاته ويحاول تفسيرها من جديد، كان يكتشف في كل مرة ان هذا الرجل أكثر غموضاً مما قدر في البداية، وهذا الامر جعل العلاقة بينهما تأخذ شكلاً أقرب إلى التحفظ والحذر. قال بيتر لنفسه: «نعم انهما شرقيان، ويشتركان في أمور لا حصر لها، لكنهما مختلفان أيضاً، ميرزا شديد الحذر، غامض، وميال إلى الصمت في أحيان كثيرة، أما عباس فإنه لا يعرف كيف يخفي سراً. وإذا كنا بحاجة إلى تحديد نوعية الرجال الذين يفيدوننا في هذه المرحلة فدون تردد سوف نختار ميرزا، لكن هذا الرجل لا يعطي نفسه بسهولة. صحيح انه يستفيض في الحديث إذا أراد، لكنه يبدو كالصخرة في أحيان

أخرى، لا يتحدث، ينظر إلى أحاديثنا وكأنها ثرثرة بلهاء، يبتعد عنا بطريقة فيها ازدراء شديد، حين يقف قرب النافذة، وظهره نحونا. إن هذا الرجل بمقدار ما يثير استغرابي فإنه يثير شهيتي أيضاً ويجب أن أسيطر عليه!».

وميرزا لا يعطي نفسه ولا يقطع، كل خطوة من خطواته فيها ذلك التحسب اللافت للنظر، أما تقديره للامور فأقرب إلى التشاؤم، حتى ان المناقشات بينه وبين عباس تأخذ في الكثير من الأحيان شكلاً حاداً، ولولا وجود بيتر لتطورت الامور بين الاثنين إلى درجة يصعب معها استمرارها. لكن مع ذلك يبقى الاثنان صديقين، قال بيتر لنفسه يفسر هذه العلاقة «ما يميز هؤلاء الشرقيين الحدة والتطرف، وأحياناً العنف. وهذان الرجلان اللذان يتحاوران بهذه الطريقة يثيران استغرابي. إنهما لا يجيدان أمراً أكثر من إجادتهما للتحدي، إن كلًا منهما يتحدى، دون مبرر، الآخر. ومع ذلك فهما صديقان، إنهما اصدقاء من نوع قلما يجد الانسان مثله، وهذا شيء يثير الاستغراب»

لقد كانت العلاقات في البداية أقل تعقيداً وأقل إرهاقاً.

(١٢)

منذ اللحظة الأولى لوصولي إلى هذه المدينة الملعونة والدنيا تغلي، المظاهرات لم تتوقف إلا لتبدأ من جديد، وكل مرة أقوى من المرة السابقة. التحديات للاجانب تزداد وتأخذ شكلاً استفزازياً مباشراً، حتى أصبح متعذراً على الكثيرين أن يغادروا بيوتهم دون خوف، ودون احتمال التعرض لهم. أما الموقف تجاه المفاوضات فقد أصبح أكثر تعقيداً، ويحتمل ألا نستطيع الوصول إلى نتائج من أي نوع. بكلمة لا شيء يبشر بالخير. ورجالنا أي رجال هم؟ وكيف يتصرفون؟

يجب أن تعرف لندن أي موقف صعب اختارت، وأي رجال ضعفاء أو متلونين تثق بهم أو تعتمد عليهم. راندلي القابع هناك، في القبو الدافىء، لا يتوقف يوماً واحداً عن إرسال التعليمات البائسة. في رسالته الاخيرة يكتب إليّ ما يلي: «أما الموقف الجديد الذي قررناه، ويجب أن تنفذه بدقة، ودون أية إضافات، فهو كما يلي: مازال رجلنا الاساسي هو ميرزا، بالاتفاق الكامل معه تقرر الخطوات القادمة. أما عباس فسوف يتم التشاور معه في لندن، خلال الفترة القريبة القادمة، ونطلب إليك إبلاغه

ذلك وتسهيل سفره. سوف نبحث الملاحظات التي كتبتها حول التعاون مع الاثنين وغيرهم، أما الآن، فلا حاجة إلى اتفاقات كاملة ونهائية بخصوص الاسماء المقترحة من قبلك، ولا حاجة إلى التخوف الشديد من الأميركيين، إنهم اصدقاؤنا، ولدينا شكوك كبيرة انهم يحاولون الاتفاق بشكل منفرد. لقد أبلغونا ذلك بوضوح، وأكدوا أن أية إتصالات جديدة قد يجرونها لن تكون أكثر من محاولة لكسب الوقت، وعليه نطلب إليك أن تستمر في علاقاتك الودية مع مورفي والآخرين، دون عقد ودون مخاوف».

بعد هذه الملاحظات ـ التعليمات كتب راندلي رسالة شخصية، قال في رسالته: «اعترف لك يا بيتر إني أخطأت كثيراً خلال الفترة السابقة لأني رفضت الموافقة على مجيئك بإجازة. لو جئت وناقشنا عدداً من الأمور لكانت النتائج أفضل، أما الآن، فيبدو ان مجيئك من الصعوبة بمكان كبير، ولا حاجة لأن أقول لك أية ظروف دقيقة نحن فيها الآن. وحتى لو طلبت إليك المجيء فلن تفعل، ان الشهور القادمة حاسمة بالنسبة لوجودنا وعملنا. وما دمت قد احتملت كل الفترة السابقة وانتظرت، فيمكن أن تنتظر هذه الشهور. أعرف انها ستكون شهوراً قاسية بالمعنى الكامل والحقيقي، سواء من حيث طبيعة الأعمال، التي يجب القيام بها، أو من حيث الطقس... لكن تستطيع أن تتحمل كما عهدتك.

إني أكتب إليك هذه الرسالة بصورة شخصية، وأريدك أن تفهم دوافعي في الكتابة، خاصة وان الملاحظات حول الكثير من مواقفك واجتهاداتك بدأت تضايق الادارة في لندن، وعليك أن تدرس بعناية أية أفكار أو مقترحات جديدة قد تكتبها في المستقبل، فالظروف الآن غيرها قبل سنة، وغيرها أيضاً قبل شهور قليلة.

ماذا تريد أن تقول يا أيها الفتى النزق؟ إننا هنا على دراية كاملة بكل ما يجري، وكلماتك الصريحة، بعض الاحيان، تخلق لك اعداء من حيث لا تدري! ماذا تعني عندما تكتب في إحدى رسائلك «اعتبر أن

استمرار تعاوننا مع هؤلاء الرجال عبث ويدل على الغباء، وأرى من الضرورة بمكان كبير أن نستبدل هؤلاء المترهلين الكسالى بآخرين. وفي حال الاصرار على التعاون معهم لا أضمن النتائج!» من تكون يا بيتر لكي تتجرأ وتكتب كل هذا وبهذه الطريقة؟ صحيح إنك في خط النار، اذا صحّ التعبير، لكنك لست الذي يقرّر السياسة، ولست الذي يفرض المواقف. كان المستر مولدي، اثناء اللقاء الاخير، في الاسبوع الثاني من مايو، شديد الغضب، وقد اشار بخطوط حادة إلى الكلمات القاسية التي استعملتها. قال بوضوح: من هو هذا الفتى الذي يملي علينا السياسة التي يجب أن نتبعها ومن عيّنه وإلى متى يجب أن يستمر أو تستمر السياسة التي يقترحها؟

إن موقفاً مثل هذا، يا عزيزي بيتر، سيؤدي إلى نتائج سلبية خطيرة، وأرى أن تحتفظ بالكثير من الآراء لنفسك، فإذا لم تستطع أكتب إليّ بهذه الآراء، بصورة شخصية، إلى زوريخ، وفي حالة اقتناعي سوف أدافع عنها وسأبذل كل جهدي من أجل إقناعهم بها، على انها آرائي الشخصية وليست آراءك.. أما إذا وجدت نفسك عاجزاً عن تنفيذ التعليمات التي ترسل إليك، فأنا مضطر أن أقول لك، آسفاً، ان الأمور سوف تأخذ شكلاً جديداً، وقد يكون ضاراً بك وبنا معاً. يجب أن تفكر بهذا طويلاً لكي نصل معاً إلى موقف مرن ومنتج. أسمح لنفسي أن أكتب لك ذلك، لأن الأمور تعنينا نحن الاثنين، وتؤثر على مستقبلنا، وإذا كنت قد اجتزت العمر كله، ولم تعد عندي مطامح شخصية كبيرة، فأنا أخاف على مستقبلك، وأريدك أن تبدأ الآن لا أن تنتهي!»

نعم يمكن أن تفكر لندن وتقرر كما تشاء، لكن أقلّ وصف يمكن أن توصف به أفكارها وقراراتها هو إنها غبية... غبية حتى الثمالة. لو جاء أي واحد من هؤلاء الذين يكتبون ويقررون لألقى إلى سلة المهملات بكل التعليمات البلهاء التي ترسل من هناك. المدينة في هذه الأيام شيطان لا يعرف التوقف أو التراجع، ورجالنا مذعورون، كل يوم يقدمون اقتراحات

جديدة مناقضة للاقتراحات التي قدموها بالأمس. أما الاميركيون فإنهم ينظرون إلى تصرفاتنا برثاء، صحيح انهم لا يقولون ذلك بوضوح، لكن الانسان يحس، من سخريتهم، من وعودهم، من الكلمات التي تترافق مع الابتسامات التي تصل حدود القهقهة، وعليّ بعد ذلك أن أفعل الكثير وأن أنفذ التعليمات.. وأن...

في الأيام الاخيرة بدأت المس شيئاً جديداً، ومازلت متردداً في أن أصارح نفسي بهذا الشيء قبل أن أصارح لندن، وإذا قلت ما أفكر فيه، فسوف ينتهي كل شيء إلى الفشل الكامل. كل الجهود التي بذلناها خلال الشهور الماضية سوف تنهار دفعة واحدة، ولا أجد تبريراً كافياً لذلك!

لماذا كنت بائساً ومغمض العينين طوال الفترة الماضية؟ لماذا لم اتوقف عند هذه الملاحظات في وقت سابق؟

ميرزا، رجلنا الاساسي، الذي يمسك الخيوط كلها، لم يقتصر موقفه في الفترة الاخيرة على افتعال الازمات المتتالية والاصطدام مع عباس ومعي... لقد أصبح أكثر عناداً وتحفظاً من أي وقت سابق، ويهرب من أية التزامات محددة، ويعتبر القضايا التي نناقشها لا تستحق التفاتة صغيرة منه؛ بدأ الموضوع صغيراً أول الامر، ثم أخذ يتسع ويكبر كل يوم.

وإذا كانت معرفتي بهؤلاء الشرقيين مبنية على التعامل والعلاقة مباشرة، وبعيدة عن الأفكار النظرية، أو الأخذ بآراء الأخرين، فإن ما أواجهه في هذه الأيام شيء عجيب، إذ بمقدار ما بدا لي في الفترة السابقة أن ميرزا وعباس متفاهمان وشديدا الصلة ببعضهما، فهما الآن يتخاصمان لاتفه الاسباب، وتبدو علاقتهما هشة ومليئة بالتناقضات، حتى اني مضطر دائماً للتدخل من أجل وضع حد لهذه الخلافات التي أراها مصطنعة ومضرة بمجمل العمل، كما تخلق لي ارتباكات كثيرة لست بحاجة إليها.

إن ما يثير في نفسي الحيرة والاستغراب استمرار العلاقة الراهنة. لم يعد الرجلان قادرين على التفاهم، لكنهما لا ينفصلان أيضاً. وإذا كانت هناك ضرورة من أي نوع لاستمرار العلاقة فيمكن أن تكون بشكل

مختلف عما هو حاصل الآن، الأمرالذي لا تريد لندن أن تفهمه. وراندلي بمقدار ما يبدو لي ودوداً متفهمًا لكثير مما أقوله أو أفعله، فإنه تجاه هذا الموضوع يبدو حماراً كبيراً أو شيئاً لا أفهمه أبداً. يقول لي في إحدى رسائله الاخيرة «إنهم رجالنا رغم كل شيء، وإذا حصلت بعض الخلافات في الفترة الاخيرة، فإن سببها الاساسي المصاعب التي تواجه الجميع. إن الظروف التي تواجهنا من التعقيد إلى درجة تكفي لاثارة أقوى الرجال وأكثرهم ثباتاً. أفعل كل ما تستطيع من أجل إزالة سوء التفاهم الواقع بين الاثنين، واحرص أيضاً على أن تخلق جواً «انسانياً» يساعد على إزالة سوء التفاهم هذا، لأن العلاقات الشخصية في الشرق عامل أساسي في خلق العلاقات الاخرى وتطويرها».

يجب أن اصبح قرداً وأرقص لهؤلاء الشرقيين من أجل أن يرضوا، عند ذاك يمكن لراندلي أن يعتبرني ناجحاً، وسوف يرضى عني، كما يمكن أن أغيرّ وجه الشرق كله من خلال تفاهم هذين الخنزيرين. هكذا تتصور لندن، ومثل هذا التصور الابله لن ينتهي إلى فاجعة فقط، بل وسيؤدي إلى تعاستي الشخصية أيضاً.

هل هناك اعتبارات شخصية تملي عليّ قناعات معينة أو تخلق في نفسي أوهاماً؟

لأكن جريئاً واصارح نفسي بما يأتي:

منذ اليوم الأول للقائي بشيرين وميرزا، أخوض معركة من نوع معين، معركة غير معلنة، لكن لم تتوقف يوماً واحداً ولم تهدأ. صحيح اننا نخوض هذه المعركة بصمت، لكن بتصميم أيضاً. أما كيف بدأت هذه المعركة أو لماذا فقد ذهبت جميع أفكاري وافتراضاتي أدراج الرياح!

قبل أيام قلت لشيرين بغضب وأنا ألوي شعرها على يدي وأشده لتتألم:

ـ أيتها المرأة ـ النمرة... يجب أن أعرف الحقيقة كلها. ما هي علاقتك بميرزا؟

بدهشة واستغراب افزعاني ردت شيرين:

ـ الآن تأكدت أن جميع الرجال حمقى، نعم انهم كذلك، وحتى أنت الذي تصورتك مختلفاً عنهم تبدو لي الآن مثلهم تماماً.

لويت شعرها أكثر وشددت، حتى اذا ماءت كقطة، لكن بغضب قلت:

ـ نعم أنا رجل مثل الرجال الآخرين. ماذا تريدين أن أكون؟

ـ رجلاً مختلفاً. ثم يجب أن تكف عن شد شعري هكذا. إنني أتألم!

ـ هذا ما أريده.

ـ لكنه يؤلمني.

ـ أريدك أن تتألمي أكثر كي تعترفي!

ـ أعترف؟

ـ نعم. أحس أن شيئاً ما بينك وبين ميرزا، هل أنا مخطىء؟

عضت يدي حتى اضطرتني لترك شعرها. سوت شعرها بيدها وبدت أكثر غضباً وحزناً، أو هكذا تراءت لي.

كان من الممكن أن ينقطع الحوار عند هذا الحد، لأن الجو في تلك اللحظات بدا ثقيلاً منذراً بأخطار لا حدود لها، وكان من السهل أيضاً أن تتخذ قرارات حاسمة وخطيرة، قد لا يريدها أي واحد منا، فالغضب الذي بدا على وجه شيرين، ثم هزات رأسها الآسفة، ووقوفها بصمت إلى جانب النافذة، جعلني حائراً متردداً. هل استطيع أن أواصل الهجوم واتحمل النتائج أم أترك الامر لوقت آخر، لأسلوب آخر؟

قلت لشيرين دون إرادة:

ـ يجب أن نعترف يا شيرين إننا لم نعد كما كنا من قبل!

هزت كتفيها دلالة الاستخفاف وعدم المبالاة ونظرت إليّ طويلاً. وشيرين حين تنظر بهذا الشكل تمارس سيطرة رهيبة. إنها تنتزع الافكار والشكوك، قلت لها باستسلام:

ـ شيرين... لا أدري لماذا أحس بالخوف من ميرزا!

ضحكت بحزن وهي تنظر إليّ بتحديد وهزات رأسها تتوالى كأنها تستعرض افكاري وشكوكي، وتحاول أن تكتشف لماذا أفكر بهذه الطريقة، قلت بنزق:

ـ ألا يحق لي أن أفكر بذلك؟

ـ بالتأكيد تستطيع أن تفكر كما تشاء، لكن لا تستطيع أن تتهم الآخرين!

ـ أتهم الآخرين؟

ـ نعم.. لا تستطيع!

ـ وما علاقتك بميرزا؟

كانت المسافة بيننا كبيرة، ركضت نحوي مثل فرس وهجمت عليّ طوقتني بعنف وقبلتني، أحسست أن لقبلتها طعمًا خاصاً متميزاً لذيذاً، نظرت إليّ وضحكة صغيرة تملأ وجهها، قبلتني مرة أخرى. استجبت لها هذه المرة، لكن دون أن أخسر مواقعي، شدت شعري، وبقوة، قالت وهي ترتمي على المقعد:

ـ الرجال لا يتوقفون عن الحرب أبداً، وإذا لم يجدوا أحداً يحاربونه يحاربون أنفسهم لكي يدمروا أنفسهم والآخرين.

ـ هل تريدين غزوي من الداخل؟

ـ لا أريد أن ادخل معك حرباً من أي نوع.

ـ ولكني أريد!

ـ أنت تعرف أكثر مني... الحرب لكي تقع يجب أن تقع بين اثنين، وأنا لا أريد أن أخوض حرباً من أي نوع.

ـ لماذا؟

ـ لأنك أحمق مثل الآخرين ولا أحب حروب الحمقى!

ـ ماذا تحبين أيتها العزيزة شيرين؟

قلت هذا بسخرية، لأني تصورت هجومها لن يترك لي فرصة لكي أعرف الحقيقة، ولا بد أن أفعل شيئاً لكي لا أخسر هذه الحرب.

ردّت بدلع ممزوج بالتحدي:

ـ أحبك أنت أيها الشيطان الازرق، ولأنك تعرف هذا جيداً تريد الآن أن تعذبني، أن تزعجني أكثر مما فعلت حتى الآن!

ـ ولكن أريدك أن تقولي الحقيقة.

ـ أية حقيقة وأية ترهات تتحدث بها الآن؟

ـ لماذا أحس هكذا تجاه ميرزا؟

ـ لأنك أحمق مثل عباس... هذا كل ما في الأمر!

لما ارتميت إلى جانبها على المقعد، ابتعدت عني بطريقة لا تريد أن تتيح لي امكانية، ولو صغيرة، لكي أغازلها. بدت لي في تلك اللحظة جامحة شديدة الاغراء. كان لسانها يرطب شفتيها بنفس الطريقة العنيفة الزاخرة، لكنها لم تكن تنظر إليّ. لما أحسست اني أراقبها وأنظر إليها بشهوة غطّت ساقها التي كانت مكشوفة إلى ذلك الوقت، وكأنها تحرضني. قلت باستسلام:

ـ لن أغضب إذا قلت لي عن علاقتك بميرزا.

غضبت شيرين هذه المرة. بدا وجهها وهو يتقلص بتلك الطريقة الحازمة وكأنها توشك أن تتخذ قرارات خطيرة، قالت بتحدٍ:

ـ ليذهب هذا المجنون إلى الجحيم. وليذهب معه جميع الرجال أيضاً.

ـ حتى أنا يا شيرين؟

ـ حتى أنت!

(١٣)

لماذا تولدت في رأسي هذه الافكار ومتى؟ لا أستطيع أن اقدر بدقة، لكن شيئاً ما في هذا المحيط الصغير يجعلني دائم الحـذر، وأقرب إلى الشك.

شيرين، القطة النزقة، الشديدة الاغراء، تتصرف بـطريقة تـولّد الشك في كل لحظة، وتنتزع من القلب الشكوك كل لحظة أيضاً. حين نكون معاً توزع علينا وجودها بشكل مدمّـر، حتى أن الانسان، كـل انسان، يحس أنها له وحده، وأن الآخرين لا وجود لهم البتة، فإذا حدقت بالعيون الأخرى تريد أن تتابع حركتها، أو طريقتها في التعبير، تجد أن هذه العيون مطفأة لا توحي بشيء، أو هكذا تريدها أن تكون. وميرزا الدائم الوجـود، أو الموجـود في أغلب المرات التي أكـون فيها، تتسم تصرفاته بذلك القدر الكبير من الدقة والعناية، كما انه لا يترك وراءه أية آثار. حين تبتسم له شيرين تسحب نظراتها عنه بسرعة، لتركزها في عيني عباس أو في عيني، لتقول لي بشكل صاخب ودون كلمات: «أنا لك، لك وحدك» أما إذا تحدثنا معاً، حين نكون أنا وعباس منهمكين في حديث

خاص، وكنت استرق لهما السمع، إذا لم استطع أن اتابعهما بنظراتي، أجدهما يتحدثان بطريقة واضحة مباشرة، والكلمات التي يضحكان لها بعض الاحيان لا توحي بأية شكوك. أما إذا قام لينصرف فإنه لا يتوقف أكثر من اللحظة التي تستغرقها التحية الصغيرة، ولا ينظر إلى شيرين مباشرة!

قلت لنفسي عشرات المرات: «بيتر... بعد أن عبرت البحر، وبعد أن استمعت إلى وصايا ذلك الكاهن المسن، راندلي، حول الشرق ونساء الشرق، وتأكدت أن كل ما تفعله الآن لا يتعدى شيئين اثنين: ان تقضي وقتاً ممتعاً دون أية نتائج، وأن تنفذ إلى هذا العالم الملعون، عالم الشرق، من أضيق أبوابه وأكثرها سرية، أن تنفذ إليه من خلال النساء، وبعد أن قامت بينك وبين هذه القطة تلك العلاقة التي ترتاح إليها كثيراً، وتحقق لك جزء مهمّ مما ترغب، ماذا تريد أكثر من ذلك؟ ماذا يضيرك لو أن شيرين، هذه النمرة الشرسة التي لا تعرف معنى للارتواء أو الراحة، كانت لها علاقة بميرزا؟ وماذا لو أن لها علاقة بآخرين غير ميرزا..؟ وأنت يا بيتر ماكدونالد ألا تعترف لنفسك، وبعض الاحيان بصوت عالٍ، ان هذه المرأة استنزفتك ولم تعد قادراً على إشباعها؟ دعها تبحث عن هر آخر، دعها تموء بتلك الطريقة العجيبة، دعها تفحّ لتقذف من داخلها البراكين. إن هذه المرأة إذا لم تفعل ذلك، يمكن أن تقتل الانسان الذي يقابلها، ويمكن أن تضره من حيث أراد أن تنفعه».

احس بشيرين تملأ شراييني تماماً، حين نكون وحيدين، حين نكون مع الآخرين. احسها كثيفة شديدة الوجود، حتى أني في لحظات معينة أفكر بطريقة مجنونة، أفكر أن أترك باتريشيا وبرودة لندن وهذه الاسماك الشديدة الكآبة والبلادة، لأعيش مع هذه القطة المتوحشة. أقول لنفسي بتحدٍ: «أنت يا بيتر تعيش في هذه الحياة مرة واحدة لا مرتين، وإذا كانت هذه المرأة تروقك إلى هذه الدرجة، يجب أن تعيش معها، أن تترك كل شيء وتعيش معها. لماذا لا تفعل يا أيها الانكليزي المتردد» واتذكر كلمات

راندلي الصلبة: «أنا متأكد أن حياتك هناك ستكون صعبة، لكن يمكن أن تتغلب على جزء من هذه الصعوبات بأن تبحث عن المتع، والنساء يا مستر ماكدونالد يخلقن للرجل متعاً كثيرة، حتى لو كان يعيش في القطب أو في خط الاستواء. لذلك لا تتردد كثيراً في أن يكون لك عدد من النساء. ويجب أن تعرف أن النساء، في الشرق، لا يمنحنك المتعة فقط، بل ويمنحنك أيضاً الاسرار والسلطة وكل شيء تريده. الانثى، بكلمة واحدة: سر الشرق وقوته. لكن يجب أن تحذر جداً من هاته النسوة. حين تحس أن امرأة بعينها تريدك، وانها تمنحك المتعة من أجل أن تسيطر عليك، يجب أن تتوقف تماماً، ارفسها بقدمك كأنك ترفس عجلاً أو كرة، ولا تندم لحظة واحدة، لان امرأة من هذا النوع بدل أن تكون طريقك إلى عالم الاسرار والقوة، فانك ستكون طريقها إلى الاتجاه الآخر، وأنت يا بيتر تعرف إلى أين يؤدي الطريق الآخر!».

وشيرين تعطي كثيراً. لا تتوقف لحظة واحدة عن العطاء، لكنها أيضاً تريد كثيراً ولا تكف عن المطالبة لحظة واحدة:

ـ بيتر... ماذا تريدني أن أفعل بعد أن تسافر؟

ـ ولكن السفر مازال بعيداً. لماذا تفكرين بالاشياء البعيدة؟

ـ لا أستطيع أن اتخلى عنك.

ـ وهل تتصورين انني أستطيع؟

ـ ماذا يجب أن نفعل؟

ـ الآن أم في المستقبل؟

ـ الآن وفي المستقبل وفي كل وقت!

ـ دعي الاشياء لاوقاتها.

ـ لا استطيع يا بيتر... لا استطيع!

ـ الأحسن أن لا نفكر بذلك يا شيرين. حين أفكر احس بلا جدوى الأشياء.

ـ وماذا تظنني يا بيتر؟.

وتهجم علي، وتغرقني، احس بلهب يتطاير من جسدي، واحس شراييني تتفجر. اصرخ بجنون:

ـ ابتعدي عني ايتها النمرة المتوحشة. لا احتمل... لا اطيق!

ـ سوف اعلمك درساً لا يمكن ان تنساه طوال حياتك!

وفي كل مرة يحتوينا الفراش اشعر اني طفل صغير. أحس جسدي وقد تحول إلى مجموعة من الشهب، واشتهي أن أطير، أن اغرق في نوم عميق. لكن تلك الحية لا تتركني لحظة واحدة، تظل تقفز فوقي، تنزلق تحتي، تدغدغني، تقرصني، تعضني، تنهشني، حتى اشتعل مرة اخرى. يشتعل جسدي كله، وحين احس لهاثها جحيمًا يطوقني من كل ناحية، اسمع صراخها، اسمع مجموعة من الاصوات تتفجر من كل خلية في جسدها، وكل صوت من هذه الاصوات موسيقى صاخبة مليئة بالدعوة، حتى اذا اقتربت من النهاية تتحول الى فحيح اخرس يشبه النحيب وتبدأ تفترس، تمزق الخلايا من الداخل، تنشب فيها آلاف الاظافر الحادة الصغيرة، وتمزقها. وبعد أن تنتهي تخمد تدريجياً، مثل براكين تتراجع، لكنها تظل محتفظة بذلك الدفء الذي يمكن أن يعربد في أي وقت مرة أخرى!

هكذا كانت شيرين في البداية، وهكذا ظلت شيرين في كل وقت. وميرزا... هل يغيب عنه ذلك لحظة واحدة؟ هل يمكن أن يتركها؟ وحتى لو اراد هل تتركه؟ إن عينيه اللتين لا تتوقفان عن الحركة تنظران في الكثير من الاوقات إلى ما تحت الجلد. قلت لنفسي منذ اللحظة الاولى حين التقينا: «هاتان العينان لا يمكن أن تكونا لرجل واحد، إنها لمجموعة من الرجال..» والآن... إذ تأكدت أن ميرزا يمتلك هذا المقدار الكبير من الخبث والخشونة، هل أتصور انه يترك شيرين تفلت منه؟ وحتى إذا ظلت عيناه تدوران في الفراغ، ولا تنظر إلى الأماكن القريبة، هل يمكن لعيني شيرين أن تسهوا عنه لحظة واحدة؟

لقد رفضت مرات كثيرة الاعتراف، رفضت بإصرار يصل درجة التحدي، واستعملت كلمات قاسية في وصفه، لكن النعومة التي تميز

علاقتهما تشير إلى شيء آخر لا يمكن أن يخفى عليّ!

آه لو كنت استطيع الحديث حول هذا الامر مع ميرزا، يمكن أن أكون خبيثاً كالثعلب واستدرجه لكي يعترف، لكن لا أطيق مجرد الفكرة، لا استطيع أن احتملها. وميرزا هل يصل به الغباء إلى درجة الاعتراف؟ ان هؤلاء الشرقيين يعتبرون كل شيء سراً، إنهم مهووسون بالاسرار إلى الدرجة التي يعتبرون اسماءهم اسراراً، إنهم في حالات كثيرة يفضلون عدم ذكر اسمائهم، أو ينتحلون اسماء كاذبة. إن هؤلاء الشرقيين مخيفون بكل معنى الكلمة، ولا يمكن للانسان أن يثق بأي شيء يقولونه أو يفعلونه. وشيرين هذه القطة اليست من الشرق؟ ألا تعتبر الاسرار جزءاً اساسياً من حياتها؟ هل أثق بما تقوله عن ميرزا، وهل تجرؤ على أن تقول لي الحقيقة؟ولكن هذه القطة ذاتها لا تتردد في أن تقول كل شيء حين أسألها عن عباس. قد تعتبر أن جزءاً من اللعبة قول الاشياء المعروفة. إنها تحيرني!

هل استسلم في هذه المعركة الصغيرة؟ هل أترك شيرين تقودني في هذه المسالك العمياء؟ وإذا تركتها تفعل ذلك كيف استطيع أن أخوض معركة كبيرة، معركة اسقاط العجوز وإعادة الامور إلى ما كانت عليه من قبل؟

قلت لشيرين ذات عصر وهي تستلقي عارية إلى جانبي:

ـ من يرانا الآن يظننا لا نفعل شيئاً سوى ممارسة الحب!

ـ وماذا تريدنا أن نفعل؟ ألا تشعر بالغبطة؟

ـ بالتأكيد يا عزيزتي لكن الاشياء الاخرى يجب أن لا ننساها.

ـ لتذهب هذه الاشياء إلى الجحيم، ان لحظة واحدة من اللحظات التي نعيشها هكذا تعادل كل شيء في هذه الحياة، لكنكم أنتم الرجال تبحثون عن المتاعب، فإذا لم تجدوا ما يكفيكم منها خلقتم أو توهمتم متاعب إضافية لتعيشوا في ظلها. إنكم عباقرة الاحزان والمتاعب، وبعد ذلك تلقون على النساء ما يفيض عنكم. لا تكتفون بذلك، انكم مولعون

بالشكوى!

فاجأتني كلمات شيرين، لأول مرة أراها شديدة الوضوح والذكاء. قلت لنفسي «ستبقى يا بيتر احمق طوال حياتك. هذه المرأة لا تعرف شيئاً ولا تريد شيئاً سوى المتعة، والمتعة بالنسبة لها أكثر من مجرد أوقات رائعة تقضيها مع رجل، إنها فلسفة كاملة، ويبدو ان الشرقيين الغارقين في الدين لا يفعلون شيئاً إلّا إذا كان مرتكزاً على فلسفة ما، ويجب أن أكون قوياً لكي أقاوم».

قلت لشيرين بتحدٍ:

ـ الحياة ليست في أن نعيش هكذا، إن أمامنا أعمالاً أخرى كثيرة يجب أن ننجزها!

ـ ومن منعك من إنجازها يا عزيزي!

ـ ولكننا نسرف كثيراً في هذه الحياة، ومثل هذا الاسراف يجعلنا غير قادرين على أن نمارس الاعمال الاخرى بنشاط!

ـ هل تريد أن تعتبرني مسؤولة عن فشلكم؟

ـ فشلنا؟

ـ أنت وعباس لا تفعلان شيئاً سوى ترديد عبارات بلهاء، وكأني المسؤولة عن الفشل!

ـ ولكننا لم نفشل يا عزيزتي، وسوف ترين بعينك!

ـ ماذا سأرى؟

ـ سترين إننا لم نفشل، والمصاعب التي تواجهنا اليوم ستنتهي عاجلاً.

ـ تحلمون كثيراً.

ـ وهل اصبحت معهم؟

ضحكت وجرّت الغطاء فوق جسدها. كنت في هذه اللحظة متعباً ومشتتاً، وكانت تراودني أفكار حمقاء: أن أغضب شيرين، أن أتصرف معها بخشونة، أن أتوقف عن هذه العلاقة؛ قلت:

ـ يجب أن تكفي عن هذه الاستفزازات.

ومن جديد ضحكت بصوت عالٍ. لم أدرِ ما يجب أن أفعله. اقتربت منها وجلست على حافة السرير، ابتعدت، قالت بإغراء:

ـ لا تقترب مني أكثر من ذلك، والأفضل أن تذهب إلى أعمالك الأخرى!

ـ أية أعمال أيتها العزيزة؟

ـ ما دمتم تريدون تغيير وجه العالم فان امرأة مثلي لا تعني شيئاً بالنسبة لكم!

ـ ماذا تريدين أن تقولي أيتها الذئبة؟

ـ لن أنام معك مرة أخرى

ـ وأنا بالتأكيد لن أفعل!

ـ ولن تطلب مني ذلك، ولن تحاول؟

ـ إننا ندخل الآن في رهان أحمق!

ـ مثلما تراهنون على كل الحماقات في هذا العالم!

ـ ماذا تعنين؟

ـ لا أعني شيئاً!

ـ يجب أن تقولي.

ـ قلت كل ما عندي، والآن أريد أن أذهب، ولن تراني مرة أخرى!

كانت هذه إحدى المرات القليلة التي وصلت فيها علاقتنا إلى هذه النقطة الحرجة، لم نكن نريد ذلك، لكن هكذا جرت الأمور. والانسان إذا لم يعالج حالة مثل هذه وبسرعة فإنه يقع تحت تأثير ظروف جديدة لم يردها ولم يخطط لها.

قلت لشيرين وأنا أنزلق إلى جانبها تحت الغطاء:

ـ لتذهب جميع الأعمال الأخرى إلى الجحيم. إن الحياة بدونك لا تعادل شيئاً.

ـ بدأت تكذب مثلهم!

ـ من؟

ـ الرجال الآخرون.

ـ أي رجال؟

ـ لا تكن أبله، وأنا لم أعد صغيرة. إن الواحد منكم حين يريد شيئاً من المرأة يبدو رقيقاً، ويتكلم كلمات كبيرة، لكن بعد أن يصل لا يستطيع حتى أن يقول كلمة: شكراً.

ـ تتكلمين بطريقة لا أفهمها!

ـ طبيعي، إنكم تفهمون بالطريقة التي تروق لكم، وحين تريدون.

ـ والآن؟

ـ أريد أن أذهب، ولن تراني مرة أخرى!

ـ إنك لا تعنين ذلك، بالتأكيد لا تعنينه.

ـ أبعد يدك عني، لقد انتهيت بالنسبة لي!

أطبقت على شيرين، تكلمت معها عن أشياء كثيرة. كنت وحدي الذي يتكلم، وأبالغ، لكنها لم تتجاوب معي إلى درجة كافية. كنت أريد أن أنهي سوء التفاهم، أن أصل إلى حالة من التوازن لا تترك في نفسها المرارة. حاولت كثيراً. وفي لحظة معينة لم تعد شيرين قادرة على المقاومة. بدأت تترك يدي تستقر في بعض الأماكن، ثم بدأت تستجيب، وإذا كان الانسان يستطيع الاحتمال ويقاوم كثيراً فانه في لحظات معينة ينهار، تسقط مقاومته.

إن شيئاً جديداً، وإن كان صغيراً غير واضح، بدأ يتشكل في علاقتنا. أصبحت شيرين أكثر رغبة في أن نكون مع الآخرين، وبدأت تغرق في حالة من الشرود أحياناً كثيرة. كما أصبحت علاقاتها مع عباس أكثر خشونة، وإن ظلت حريصة على ذلك الحد من اللياقة، لكن الانسان يحس وكأن شيئاً جديداً قد دخل حياتها. أما موقفها مني فقد ظللت فترة طويلة حائراً في وصفه وتحديده. وإذا كانت الظروف المحيطة بالانسان تحدد كثيراً من تصرفاته وردود فعله، فإن الظروف الجديدة التي بدأت تواجهنا كانت من الاهمية والتأثير بحيث انها طبعت سلوكنا وحياتنا بطابع

الحدة والتوتر. وأصبح الانسان عرضة للوساوس والتشاؤم، كما أصبح أقل قدرة أو رغبة في الحياة العادية.

فبعد أن وصل عـدد من المساعـدين، انشغلت كثيراً في تحـديد مهمات كل واحد منهم، ودراسة التقديرات والاحتمـالات التي تضعها لندن، واتفقنا على البدء بتنفيد الخطة (رعد) وهي خطة الطوارىء من الدرجة الثانية، خاصة واذ الاوضاع الجديدة بدأت تملي علينا تـطويراً عاجلاً وكبيراً في أسلوب العمل. في هذه الفترة انقطعت عن شيرين، أو لم أعد أراها مثلما كنت أفعل من قبل، وبدأت تلوح أشياء جديدة في الجو.

(١٤)

حال عودتي إلى بريطانيا سأبدأ بكتابة أشياء كثيرة عن هذا الشرق الغامض؛ إنني الآن أدون ملاحظات كثيرة، صحيح انها مشوشة وغير مترابطة، لكنها ستكون ذات فائدة كبيرة. الشرق مستودع للتناقضات، تناقضات من جميع الانواع والمستويات: العصور الحجرية إلى جانب العصور الحديثة. أكثر النظريات تخلفاً إلى جانب أكثر النظريات تطرفاً وحداثة. أقصى حالات الشجاعة الفردية إلى جانب أقصى حالات فوضى التنظيم. وماذا أيضاً؟ كل شيء في هذا الشرق يثير الاستغراب والتساؤل، ويدعو إلى التفكير أيضاً. لماذا هم هكذا؟ وماذا يريدون؟ كثيراً ما سألت نفسي هذا السؤال، وكثيراً ما سألت الآخرين، لم أصل إلى جواب مقنع، ويبدو انني سأقضي وقتاً ليس قصيراً أفكر في مثل هذه الاسئلة، التي تبدو لأول وهلة بسيطة، لكي أجد الجواب.

لاترك هذا الآن، يجب إلاّ أشغل نفسي في أمور لم يحن وقتها بعد، فالأهم في الوقت الحاضر كيف نضرب بقوة ونصل إلى ما نريد!

لا بد من الاعتراف إننا الآن نقامر بكل شيء، إن ما نفعله هو

المقامرة بعينها، وقد وضعنا نقودنا كلها على الطاولة، وسوف يأتي وقت، ويبدو أنه قريب، لكي نقرّر، فاما أن نخسر كل شيء واما أن نربح كل شيء. وخصومنا يلعبون نفس اللعبة، إنهم يريدون كل شيء، ومستعدون لخسارة كل شيء أيضاً.

في البداية كانت الأمور أكثر تعقيداً وخطورة، الآن تبدو أكثر تفاؤلاً، ويمكن أن نتحرك.

في البداية كنا نواجه كتلة صلبة من الارادة والاصرار، وأي مغامر يواجه وضعاً مثل هذا ويطلب منه مقاومته لن يتردد لحظة واحدة في أن يسلّم ويعترف بالهزيمة. نحن الانكليز نشبه النمل في أمور كثيرة: المثابرة، الاصرار، العمل الدؤوب، النظام.. وماذا أيضاً؟ إننا نعرف ما نريد، وهذه ليست ميزة لنا فقط، إنها تعطينا تفوقاً ساحقاً على الآخرين. لو اننا انفعلنا في جو العنف والتحدي الذي كان يسود خلال الفترة الأولى، لحزمنا امتعتنا منذ وقت مبكر ورحلنا، لكننا لم نفعل. كنا مستعدين للانتظار فترة طويلة، ليس الانتظار الابله، وإنما الانتظار الواعي المرتبط بالعمل. وهم كيف تصرفوا؟

إن الانسان ليعجب أشد العجب حين يلاحظ تصرفاتهم وردود فعلهم:

إنهم عنيدون، سريعو الغضب، انفعاليون، محبون للعنف والفوضى، قصيرو النفس، كما يبدون في الكثير من الأحيان كالأطفال في سرعة هياجهم وإلحاحهم، وهم كثيرو الشكوك إلى درجة أن أي شيء تعرضه عليهم لا يمكن أن يوافقوا عليه رأساً، يتصورون ان وراء كل كلمة أو موقف تقوله أو تتخذه شيئاً ما، وينظرون إلى أبسط الأمور وأكثرها وضوحاً نظرة خوف وتردد، حتى ان الانسان ليحار تماماً بالطريقة التي يجب أن يعاملهم بها.

ليس سهلاً أن تفهم الشرق أو تتعامل معه، حتى لتبدو لي الآن جميع الكتب التي قرأتها أو الأحاديث التي سمعتها عن الشرق مجرد كلمات

فارغة التقطها أناس عابرون وسجلوها بطريقة ما لكي يدللوا لأنفسهم أو لمواطنيهم إنهم زاروا الشرق وعرفوا اسراره!

بالتأكيد سأكتب ذات يوم شيئاً مختلفاً عن الشرق، الشرق من الداخل. وكل ما اتمناه أن تكون كتابتي ممثلة للصدق ودقة المعرفة، وهذا ما اجتهد الآن في معرفته والتأكد منه، من خلال احتكاكي بالناس، بالاطلاع المباشر والمناقشات والدخول في التجربة أيضاً!

حتى علاقتي بشيرين، رغم التعقيدات الكثيرة التي تكتنفها، كانت ضرورية وهامة، وباتريشيا حين تقرأ ما سوف اكتبه ستغضب في البداية، لكن في وقت لاحق ستدرك الدوافع النبيلة وراء هذه العلاقة، وسوف تغفر لي.

احس في هذه الأيام بنوع من التفاؤل الغامض، لأن الامور، رغم تعقيداتها، أكثر مدعاة للأمل، وتحمل رائحة التغيير.

في البداية كنا نواجه بغضب حانق لا يعرف التوقف أو التردد. الآن، رغم المظاهرات والصخب، فقد الغضب حدته وتأثيره، أصبح عادة من عادات الناس اليومية، ولا يعني موقفاً عملياً. ليس هذا فقط، تحول جزء كبير من الغضب إلى الداخل، داخل كل انسان، وداخل كل مجموعة، وداخل الشعب كله، وهذه الحالة الجديدة إذا استطعنا استثمارها يمكن أن تكون مفتاحاً سحرياً نستطيع من خلاله أن نصل إلى كل ما نريد.

بدأ الناس يلتفتون إلى بعضهم وإلى السلطة بدل التفاتهم إلينا. إنهم الآن لا يتذكروننا، يتذكرون أنفسهم، ويتذكرون بعضهم؛ وهذه الميزة من الاهمية لدرجة أن الكثيرين لا يدركونها، ويمكن أن تغير الموقف كله.

كيف بدأ هذا التحول وماذا فعلنا من اجل أن يتعمق ويستمر؟

هنا تبرز عبقرية المبادرة وبراعة الافراد، قال لي راندلي ونحن ندرس خريطة البشر والقوى السياسية «المجتمع هناك شديد الركود، تماماً كالمستنقع، والقوى السياسية عبارة عن أشكال بدائية عديمة الفعالية

والتأثير، لكن مع ذلك يمكن استثمار الخلافات بين القوى، وإن كان العجوز يلعب بالجميع ولا يثق بأحد. لا أستطيع أن أقول لك شيئاً محدداً يا بيتر حول هذا الأمر، ستذهب وتكتشف بنفسك ماذا يجب أن تعمل، لكن القاعدة الاساسية التي يجب أن لا تغيب عن بالك لحظة واحدة هي كيف تستطيع أن تهرب من مواجهة التيار، أو كيف تستطيع دفع التيار باتجاه آخر. هنا تبرز عبقرية المبادرة، وهنا يمكن أن تتصرف».

شكراً للسماء إن راندلي لم يتدخل كثيراً في هذا الموضوع، لو أنه فعل لجعل كل شيء مستحيلاً. وميرزا بمقدار ما يبدو كارهاً لأشياء كثيرة مما نقوله أو نفعله، فقد اكتشفت فيه عبقرياً فذاً ونحن ندرس امكانية تمزيق القوى؛ قلت له بعد أن طالت مناقشاتنا في أمور عديدة، وبعد أن بدأنا نشرب الويسكي، وكان عباس عصبياً شديد الغضب. بعد أن أصررت على ارجاء اتخاذ بعض القرارات التي كان يراها مهمة، قلت لميرزا دون تحضير أو تفكير سابق في الموضوع:

ـ إن كل مناقشاتنا لن تجدي ما دام الناس بهذا الشكل، يجب علينا أن نفعل شيئاً جديداً، شيئاً مختلفاً لتغيير وضع الناس.

نظر ميرزا إليّ بحيرة، وعيناه تتراكضان في محجريهما كأنهما بندولا ساعة فقدا اتزانهما وارتباطهما بالزمن، ثم فجأة هز رأسه بثقة وردد بصوت منخفض:

ـ هذا ما أفكر فيه يا مستر ماكدونالد. يجب عمل شيء خارق لتغيير وضع الناس!

ـ نعم هذا ما يجب أن نفعله!

وساد بيننا الصمت. كان كل منا يفكر بطريقته الخاصة. فكرت بأن نشجّع على إصدار جريدة أومجموعة من الجرائد تتولى الدعاية لنا، طبيعي يجب أن تكون دعاية غير مباشرة، كأن تتحدث عن الديمقراطية الغربية وحريات الافراد والاقتصاد الحر. فكرت أن نشجع عدداً كبيراً من السياح للمجيء إلى هنا بسيارات رافهة وثياب أنيقة وأن ينتشروا بين السكان

لكي يعطوا فكرة عن الرفاه الذي يعيشون فيه، وإن ذلك الرفاه نتيجة النظام الاقتصادي والاجتماعي في الغرب.

مرت أفكار كثيرة في رأسي، لكن قدرت المصاعب التي تواجه تنفيذ الكثير منها، إضافة إلى بطء تأثيرها، مع احتمال أن تعطي نتائج معاكسة، ولندن تريد حلولاً سريعة ولا تستطيع أن تنتظر. فكرت في غيرها، لكن ظلت كل الاشياء بالنسبة لي ضبابية متداخلة، إلى أن بدأ ميرزا يقود المناقشة في طريق جديد بدا لي أكثر وضوحاً. قال:

ـ إن مواجهة الوضع كما هو حالياً لن يؤدي إلى نتائج مرضية، ليس هذا كل شيء، يمكن أن تسوء الامور أكثر، وقد تؤدي إلى تدهور لا يمكن معالجته فيما بعد.

وشرب مقداراً كبيراً من كأسه وتنفس بعمق، ثم واصل الحديث وكأنه يقرأ في كتاب مفتوح:

ـ بصراحة... أنا لا أثق بالاساليب التقليدية في العمل، أقصد الاساليب التي تتحدثون عنها وتمارسونها، إنها عديمة الجدوى ويمكن أن تؤدي إلى نتائج أسوأ. الناس الذين تعتمدون عليهم عاجزون. الطريقة التي تعالجون بها المشكلة عقيمة. الافكار التي تطرحونها غير ممكنة. إزاء مثل هذا الوضع ماذا يجب أن نعمل؟ هذا هو السؤال، وهذا هو جوهر المشكلة.

رد عباس الذي كان صامتاً إلى ذلك الوقت:

ـ المشكلة ان أحداً لا يريد تغيير الوضع الحالي. الجميع يهرب من المشكلة الاساسية، ومادام الأمر هكذا يمكن لأي انسان أن يلقي المسؤولية على الآخرين، وأن يتحدث بطريقة لا تؤدي إلى أية نتيجة!

ضحك ميرزا بمرارة، وبعد عدة هزات من رأسه، قال لعباس:

ـ يا صديقي... الأمور أكثر تعقيداً مما تتصور، وها قد مضت سنتان ونحن ندور في حلقة مفرغة، هل يجب أن نستمر في الدوران هكذا أم يجب أن نتوقف لنراجع حساباتنا ومواقفنا ونختار طريقاً جديداً؟

ـ طريقاً جديداً؟ ماذا تقصد؟

ـ طريقاً مختلفاً. إن ما فعلناه خلال الفترة الماضية لا يتعدى ممارسة الحلم والانتظار، وإذا كان هؤلاء الصعاليك قد وفرونا حتى الآن، فإنهم لن يتركونا فترة طويلة. سوف يتذكروننا، وسوف يلقون بجثثنا إلى الكلاب، أهذا ما تريد أو ما تنتظر؟

قلت بحدة:

ـ لا نريد العودة إلى الخلافات والتحديات. كل ما نحاوله الآن اكتشاف احتمالات أو إمكانية جديدة لتطوير العمل، واعتقد أن الجنرال ميرزا لا يريد اقناعنا بشيء محدد. هل تريد يا سيادة الجنرال؟

ـ لا أريد شيئاً محدداً، كل ما استطيع قوله الآن اننا بحاجة إلى أسلوب جديد في العمل، أما ما هو؟ كيف نستطيع الوصول إليه؟ إن ذلك ما أحاول التفكير به، كما تفعلون أنتم أيضاً!

ـ ولكن لم تقترح شيئاً محدداً. . .

هكذا رد عباس بانفعال. كان سهلاً أن ننتهي عند هذا الحد من المناقشة، لكن ميرزا قال كلمة فتحت أمامنا آفاقاً جديدة:

ـ ماذا لو فكرنا بأن ندفع أقصى الفئات تطرفاً إلى طريقة جديدة في التصرف والعمل. . . الا تعتقدون ان ذلك لو تم يمكن أن يؤدي إلى نتائج مختلفة عما نواجهه الآن؟

كانت هذه البداية، أما كيف سارت الأمور بعد ذلك، فإن الاقدار أو قوة غامضة، لا أدري، هي التي وقفت إلى جانبنا ودفعت التطورات بعد ذلك في طريق جديد.

(١٥)

بالرغم من المشاغل اليومية الكثيرة، فقد قررت أن أصرف جزءاً هاماً من وقتي في قراءة تاريخ الامبراطورية. قد يبدو الأمر غريباً ومستهجناً في هذا الوقت بالذات، لكن بعد تفكير طويل، وبعد أن دار الحوار بيننا في تلك الليلة بهذا الشكل، تصورت ان الفشل سيكون النتيجة الوحيدة لعملنا إذا لم نبتدع أساليب جديدة. صحيح أن قراءة التاريخ لن تقود إلى اكتشاف تلك الاساليب، لكن قراءة التاريخ، مع ذلك، تفتّح خلايا الانسان، تحرض تفكيره، خاصة إذا كانت هذه القراءة بعقل جديد وبعين جديدة.

كانت تهمني معرفة الطرق التي اتبعها الرواد الاوائل في السيطرة على بلدان شاسعة وعلى شعوب كبيرة. أية أساليب اتبعوا؟ وأية مصاعب واجهوا وكيف قهروا هذه المصاعب؟ ثم بعد ذلك كيف استطاعوا ترويض هذه الشعوب؟

إن تاريخ الامبراطورية حافل بالانتصارات الرائعة، وهذه الانتصارات هي ثمرة العبقرية، عبقرية الافراد، وجهودهم. وإذا واجهنا

اليوم بعض الهزائم والخيبات فإنها لا تتعدى مرحلة من المصاعب واجهت وتواجه المنتصرين في كل انحاء الدنيا!

هكذا كنت أفكر، والفكرة تأتي بفكرة غيرها، ومجموع الافكار يخلق تقليداً وإطاراً يمكن أن يتبلور في النهاية ويشكّل اسلوباً جديداً للعمل!

إنني أشعر بالاعتزاز الآن، واعتبر أن فكرة عارضة قد تغير العالم!

فبعد مناقشات عديدة، تخللتها خلافات حادة، توصلنا إلى الاتفاق على البدء بأسلوب جديد. لا أريد أن أدعي كل شيء لنفسي، فالآخرون رغم التحفظات الكثيرة التي أبدوها، كانت لهم أدوار بارزة، خاصة المساعدون الجدد الذين وصلوا مؤخراً من لندن. وحين يأتي اليوم المناسب، وتكشف فيه «اللعبة» كلها، سوف يتبين مدى الاخلاص الذي يتصف به أي فرد انكليزي عمل معنا، ومدى التضحيات التي قدمها للامبراطورية!

لقد اتفقنا على عدد من الأمور الهامة، ويجب الاعتراف أن ميرزا كان له دور هام، وقد ساعده الوضع الذي شغله في السابق على القيام بهذا الدور بنجاح.

اتفقنا على إصدار مجموعة من البيانات ننسبها إلى منظمات معينة، على أن تكون هذه البيانات مدروسة بعناية من حيث أفكارها وطريقة صياغتها، وأن نطرح في هذه البيانات أفكاراً مثيرة، وقد اصر ميرزا على تسمية هذه البيانات «الالغام الموقوتة»، لأن كل بيان منها لا بد وأن يكون لغمًا ينفجر في مكان ما، في وقت ما، ويؤدي إلى نتيجة. وباعتبار أن النظام يستند إلى مجموعة من القوى غير المتجانسة من حيث الأفكار، فلا بد أن تركز هذه البيانات على نقاط الخلاف بين هذه القوى. ومادام الدين عنصراً هاماً في حياة الشرق فلا بد وأن تتطرق البيانات وبالحاح إلى مهاجمة الدين واتهام رجاله، فإذا كانت الصياغة متقنة، فسوف توحي بأن كاتبها يمثل الفئة المنافسة. وباعتبار أن رجال الدين سريعو الغضب فيمكن اثارتهم بسهولة. فإذا بدأت المعركة بهذا الشيء فلا بد أن تؤدي إلى نتائج كبيرة وخطيرة.

كانت هذه هي الفكرة الأولى.

اصدرنا مجموعة من البيانات، وقد استعان ميرزا بعدد من العناصر التي عملت معه من قبل، سواء في صياغة البيانات أو توزيعها. صحيح أن البيانات الأولى كانت ضعيفة من نواح عديدة، وتأثيرها ظل محدوداً، إلا أن همساً متزايداً بدأ يأخذ طريقه بين الناس.

وكما قلت.. إن الفكرة تولد فكرة أخرى، فبعد فترة قصيرة على بداية إصدارنا لهذه البيانات، وقد حرصنا على توسيع نطاق توزيعها، خاصة في المناطق المتدينة، وألقينا بعضاً منها في الجوامع، بدأنا بالخطوة الثانية.

بدأنا بتكوين منظمة حقيقية، وقد كلفنا هذا جهداً كبيراً واموالاً طائلة. اخترنا عناصر هذه المنظمة من المتطرفين، المعروفين بشدة تعصبهم، ولقد ساعدنا القدر كثيراً، إذ وقع بين ايدينا عدد من الناس الذين أدّوا لنا، دون أن يدروا، مهمات لا تقدر بثمن، لم تظهر على المسرح في هذه المرحلة أبداً. وحتى بعض رجالنا المباشرين لم يكونوا على علم بهذه الخطوة، وقدموا إلينا تقارير غاية في الطرافة عن هذه المنظمة، إذ وصفت بالخطورة الشديدة، وأعطيت أرقام عن نشاطها وعدد أعضائها في غاية الغرابة. كنت اتلقى هذه التقارير واضحك في سري، وخلال هذه الفترة تأكدت أن المعلومات التي تصلنا من المخبرين الذين يتعاونون معنا يجب أن تطعم للنيران أو أن تستعمل في المراحيض، لأن جزءاً مهمًا من هذه المعلومات نسجه الخيال الشرقي المريض، وفي وقت لاحق، حين نعيد ترتيب اجهزة مخابراتنا، يجب أن نجلد هؤلاء المخبرين الكسالى وأن نضعهم في السجون، بدل الرواتب الكبيرة التي يتقاضونها للأكاذيب الحمقاء التي يقدمونها إلينا!

إن تاريخ «منظمة الدفاع عن الوطن» من الأهمية بحيث يمكن القول أن هذه المنظمة لعبت دوراً بالغ التأثير على مجريات الأحداث، واستطاعت أن تكون جزءاً فعالاً من القوى التي ساهمت في خلق وضع جديد على

مستوى البلاد.

إن أهمية المنظمة ليست بالأعمال الكبيرة التي قامت بها، وإنما بالأفكار التي طرحتها، كانت تمثل اقصى حالات التطرف. قال لي عباس ذات مرة، وقد بدا خائفاً وعصبياً:

ـ لقد صنعنا شيئاً خطيراً، يا مستر ماكدونالد، إن هذه المنظمة ستكون شراً لا يمكن محاصرته أو السيطرة عليه!

ـ ولماذا أنت خائف إلى هذه الدرجة يا مستر عباس؟

ـ لأننا خلقنا شيئاً لا بد أن ينقلب علينا!

وتوقف لحظة، أشعل خلالها سيجارة، وبدا انه لا يستطيع السيطرة على حركاته، ثم تابع بصوت مختلف:

ـ إن ما فعلناه يشبه تماماً البارود، وهذا البارود يمكن أن ينفجر في أية لحظة ويقضي على الجميع... أهذا ما تريدونه يا مستر ماكدونالد؟

كنت امتلىء استغراباً ودهشة، بماذا يفكر المستر عباس أو كيف يفكر؟ وهل حصل أمر جديد خلال هذه الفترة يدعوه لأن يتكلم بهذه الطريقة؟

قلت بنفاد صبر:

ـ مستر عباس... ألا تستطيع أن تقول لي بوضوح ما تعنيه؟

ـ إن الرجال الذين نعتمد عليهم في هذه المنظمة من التطرف والخطورة إلى درجة يمكن أن يخلقوا لنا مشاكل لا حدود لها.

توقف لحظة، هز رأسه عدة مرات، وكانت تعابير وجهه شديدة المرارة، استأنف كلامه:

ـ مستر ماكدونالد... يجب الاعتراف أن منظمة مثل هذه يمكن أن تنقلب ضدنا في كل لحظة، والرجال الذين يتعاونون معنا قد يكشفون مخططنا كله، وعندئذٍ نقع في مأزق جديد. ليس هذا كل شيء، إن رجالنا لا يستطيعون السيطرة على جميع عناصر المنظمة، وقد يصبحون ضحايا رخيصة إذا انكشف أمرهم!

قلت له بهدوء لأتغلب على مخاوفه:

ـ يجب أن تطمئن يا مستر عباس. إن ما نفعله الآن لا يتجاوز دفع هؤلاء الناس لأن يتخذوا مواقف معينة. هذا كل ما في الأمر، وسوف تكتشف، إذا سارت الأمور كما يجب، ان هذه الخطوة من الأهمية بحيث تغيرّ نتائج اللعبة كلها!

ـ إننا نلعب لعبة خطيرة يا مستر ماكدونالد.

ـ كل ما فعلناه، وما سوف نفعله، يحتمل مقداراً كبيراً من الخطورة. اعترف بذلك، ولا اعتقد أن في الأمر شيئاً جديداً يتطلب أن نغير مواقفنا أو نظرتنا. أليس كذلك يا مستر عباس؟

طال بيننا النقاش وتشعب، وفي النهاية وافق عباس، مكرهاً، على أن يترك الأمر أعالجه بمزيد من الدقة والعناية مع ميرزا، لكنه أصر على التأكيد أن منظمة مثل هذه يمكن أن تنقلب ضدنا في أية لحظة، وهذا الأمر إذا حصل سوف يكلفنا غالياً!

لقد كان ميرزا منذ البداية متحفظاً في مناقشة تفاصيل عمل المنظمة أثناء وجود عباس، واتفقنا أن نترك له متابعة أعمالها دون تدخل مباشر منا ودون بحث التفاصيل، لأن الأمر من الدقة والتعقيد، كما أشار بتأكيد مبالغ فيه، إلى درجة أن أي خطأ يمكن أن يؤدي إلى نتائج تصعب معالجتها. ولكن ظللت حريصاً مع ذلك على البحث مع ميرزا، حول الآفاق والاحتمالات المتعلقة بعمل المنظمة، وكيفية ممارستها لبعض النشاطات التي كنت اتصورها أكثر أهمية من غيرها.

في وقت لاحق، ونتيجة التطورات العديدة التي حصلت في الشهور الأخيرة، خاصة في مجال خلق الاضطراب والفوضى في صفوف القوى التي تدعم الحكم، قررنا تعزيز علاقاتنا ببعض القوى السياسية، وقد سمينا هذه الخطة «فتح النوافذ على الجهات الأربع».

زرعنا مجموعة من الرجال في معظم التنظيمات السياسية؛ العملية كانت من الصعوبة إلى درجة بدت في بعض اللحظات مستحيلة، لكن

المثابرة أعطت نتائج مشجعة. ابعدنا أياً من رجالنا المباشرين عن الاتصالات، واستعنا بمجموعة من الفنيين الذين كانوا قد بدأوا يبرزون خلال الفترة الأخيرة، إضافة إلى مجموعة من الصحفيين شجعناهم بطرق غير مباشرة على كتابة بعض المقالات باتجاه معين. لقد لفت هؤلاء الصحفيون النظر بهذه المقالات، ولم يلبثوا أن أصبحوا من موجهي الرأي العام. واستطعنا الوصول أيضاً إلى بعض مراكز التأثير من خلال بعض المؤسسات، خاصة الجمعيات!

لم نكن بحاجة إلى عدد كبير من الرجال للقيام بهذه المهمات؛ كنا بحاجة إلى رجال من نوع معين، وهؤلاء استطعنا الوصول إليهم بأساليب شتى. صحيح أن العملية كانت بطيئة وذات نتائج محدودة، لكن آثارها ما لبثت أن بدأت تظهر وتتفاعل. يجب الاعتراف هنا ان التكوين الخاص للرجال الذين تعاونوا معنا لعب دوراً هاماً. لقد حرصنا على اختيار مجموعات العمل من الرجال الذين انهوا دراستهم في الغرب، خاصة في بريطانيا، وبدأنا بأساليب شتى - وقد يبدو بعضها غير لائق - الاتصال المستمر معهم، والايحاء لهم بمواقف وأفكار معينة. كما حرصنا على أن نؤمن لهم الكثير من المطبوعات ونزودهم بالجرائد. وفي هذه الفترة لعبت لندن دوراً بارزاً في الاستجابة لافكارنا ومطالبنا، فقد زودتنا بمجموعات كبيرة من الكتب التي كنا قد طلبناها، ونشرت بعض الصحف مقالات اقترحنا كتابتها، وهذه الأشياء أوصلناها لهؤلاء الرجال بسرعة، وأظهرنا رغبتنا الشديدة في أن نسمع اقتراحاتهم والطرق التي يرون اتباعها لحل المشاكل التي تواجه البلاد. بحثنا في مشاكل القوى السياسية، والأزمة الاقتصادية، بحثنا في طرق التعاون بين بلدينا والخروج من الأزمة، وكانت استجابة الكثيرين مشجعة. وفي وقت لاحق اتفقنا بكثير من العناية على كيفية مشاركتهم في الحياة العامة، خاصة في المجال السياسي، ولقد كانت لبعضهم علاقات حرصنا على ضرورة استثمارها بسرعة. أبدى بعض هؤلاء الرجال مخاوفهم وتحفظاتهم، وكنا ندفع بعيداً عن أذهانهم فكرة أن

تكون لهم علاقة مباشرة معنا، أو اننا نريد منهم معلومات معينة. كنا نضعهم في أجواء ومؤثرات غير مباشرة، تحملهم على تبني أفكارنا وقناعاتنا، حتى أصبحنا قادرين في النهاية على التفاهم دون عناء ودون إحراج!

لقد ابدى ميرزا براعة لا توصف في إقامة علاقات غير مباشرة مع هؤلاء الناس. وكان أشرف آية الله نافذتنا على عدد من الفنيين، وكان أحمد شمس الدين أكثر الصحفيين نفوذاً وتأثيراً، وأكثرهم قناعة أيضاً بوجهات نظرنا، ولقد لعبت المقالات التي كتبها دوراً في بلورة اتجاهات جديدة. إن بعض الصحفيين في أوقات معينة أكثر فائدة وتأثيراً من جيش بكامله!

تركزت مهمتنا في هذه المرحلة على خلق حالة من الاضطراب والفوضى في كل شيء: من طرح أفكار جديدة، إلى طرح اقتراحات جديدة، إلى خلق اهتمامات ومناقشات مثيرة، وحول قضايا شديدة الدقة والحساسية. إن تشتت الرأي العام في هذه المرحلة من أبرز وأهم القضايا التي نريد الوصول إليها. وإذا كان لمقال في جريدة أن يثير موجة من النقاش والنقد، وأن يخلق حوله المؤيدين والمعارضين، فهو يعادل بأهميته عمل شهور، ويعادل أيضاً نشاط عشرات من الرجال. ولما كنا مقتنعين بالأثر الذي يتولد من هذا النشاط الجديد، فقد حرصت أن أكتب إلى لندن عن ذلك، وأن أطلب معاونتنا عن طريق عدد من الاخصائيين في مواضيع عديدة، ولقد تلقيت في هذه الفترة سيلاً من الأفكار الواضحة والمهمة. جاءتنا اقتراحات غاية في الذكاء حول ضرورة إثارة قضايا شائكة متعلقة بالدين والاجناس، كما جاءتنا أفكار أخرى حول كيفية مواجهة أعباء المرحلة من النواحي الاقتصادية والاجتماعية، ولم تبخل علينا لندن في أن ترسل باقتراحات متعلقة بالموسيقى والاديان والشعر، وطلبت أن نزودها بمجموعات من الكتب التي صدرت في الفترة الأخيرة لدراستها وتقديم اقتراحات حول كيفية اثارة قضايا معينة، استناداً لهذه الكتب بالذات.

بإيجاز كان نشاطنا في هذه الفترة متنوعاً حافلاً، رغم عدم وضوح آفاقه ونتائجه، ويخلق في نفسي قناعة راسخة ومتزايدة إن مثل هذه

الأساليب يمكن أن تؤدي إلى نتائج تنعكس في النهاية على مجمل عملنا وما نريد الوصول إليه.

هذا الخط الجديد الذي بدأنا تنفيذه يلهب خيالي ويثير فيَّ حماساً لا حدود له، ويحمل معه رياحاً جديدة ستؤدي في فترة قصيرة إلى تبدلات هامة جداً، لكن في هذه الفترة بدأت أمور جديدة تظهر في الأفق.

(١٦)

إن هؤلاء الشرقيين من التعقيد والبلاهة إلى درجة انهم لا يتركون أمراً من الأمور يسير في الطريق الصحيح، كما انهم قادرون على التخريب وخلق المتاعب لأنفسهم وللآخرين، نتيجة الأنانية وسوء التقدير، إضافة إلى الكسل والتشبث بالأساليب الشرقية البدائية. بكلمة واحدة: إنهم يفعلون الشيء غير المناسب في الوقت غير المناسب.

فبعد فترة من السلام بين ميرزا وعباس دب الخلاف من جديد، وإذا كانت العادة ان الخلافات بينهما تسوى بسرعة، فتبدو هذه المرة أكثر تعقيداً وتمس قضايا حساسة من الصعب تسويتها، وحتى لو سويت يمكن أن تبقى آثارها لفترة من الزمن.

إن العلاقات في الشرق أكثر تعقيداً من أي مكان آخر، فهذان الرجلان، كما ذكرت كثيراً، بمقدار ما يبدوان صديقين فإنهما عدوان أيضاً. كل قضية تطرح يمكن أن تشكل خلافاً بينهما، وأية كلمة يقولها أحدهما ينبري الآخر ليقول شيئاً معاكساً لها. أما نظرتهما إلى القوى والموقف السياسي فإنهما متباعدتان إلى درجة لافتة للنظر وتدعو الانسان إلى

التساؤل: ما هو الشيء الذي يجمع بين الرجلين؟ ولماذا اجتمعا؟ لكن رغم هذه الأمور فأي إنسان يلمس بسهولة عمق الصداقة التي تربط الرجلين. كدت انتهي إلى نتيجة، وهي استحالة الجمع بينهما أو العمل المشترك. لكن بمرور الأيام ثبت لي أن المنطق الذي يستند إليه الانسان في التفسير أو تقدير أية علاقة بين اثنين لا يجدي في تفسير هذه العلاقة، وانتهيت إلى أن أترك الأمور تأخذ مجراها دون أي تدخل من قبلي.

الخلاف هذه المرة حول عمليات اغتيال تمارسها منظمتنا؛ كان رأي ميرزا أن من جملة العوامل التي تساعد على انضاج الأوضاع بسرعة قيام منظمتنا باغتيال عدد من الأفراد من عدة منظمات سياسية، ويجب أن تكون العمليات متقنة بحيث تعطي انطباعاً أكيداً على أن عمليات تصفية مادية بدأت بين القوى السياسية.

كان حماس ميرزا للفكرة كبيراً إلى درجة يمنعه حتى من مناقشة السلبيات التي قد تترتب عليها، وبدا متأكداً أن هذه الخطة إذا نفذت لا بد وأن تعطي نتائج هامة وسريعة.

راقت لي الفكرة كثيراً، رغم الخطورة التي تتسم بها، وكنت مستعداً للموافقة عليها، بعد مناقشة بعض التفاصيل المتعلقة بالتنفيذ وتحديد العناصر المطلوب اغتيالها؛ لكن رد الفعل الذي بدر من عباس كان سريعاً وحاداً إلى درجة لم يتح لنا مجرد المناقشة.

قال ميرزا في محاولة لتوضيح الفكرة:

ـ يجب أن لا نفهم من الاغتيالات اننا سنحمل المسدسات والبنادق وننزل إلى الشوارع في وضح النهار ونبدأ باطلاق الرصاص. إن الفكرة إذا طرحت بهذا الشكل يمكن أن تكون مؤذية وفي منتهى الخطورة، وقد تعطي نتائج معاكسة.

توقف لحظة نظر إليّ خلالها بمرارة، ثم تابع وبدا صوته مجروحاً:

ـ المسألة لا تتعدى عمليات صغيرة مدروسة بعناية، وتستهدف أشخاصاً معينين، أما الرجال الذين سيقومون بها فإنهم رجال محترفون لا

يتركون وراءهم أي أثر. . .

قال عباس بغضب:

ـ إذا أردت أن تقتلنا يا سيادة الجنرال، وإذا أردت أن نخسر كل شيء فيجب أن تبدأ بهذه العمليات الجنونية.

ـ لا أفهمك، ولا أرى سبباً معقولاً لهذه التحفظات!

ـ طبيعي أنت لا تقدر النتائج السياسية التي سوف تترتب على مثل هذه العمليات. تتصور أن الأمر كله لا يتعدى عمليات قتل غامضة وينتهي كل شيء.

ضرب عباس الطاولة بيده وقال بغضب:

ـ إن هذا الرجل، يا مستر ماكدونالد، يريد أن يدمر كل ما صنعناه طوال الفترة الماضية.

قال ميرزا بتحدٍ وسخرية:

ـ ماذا صنعتم خلال الفترة الماضية يا أيها السيد؟ إنكم لم تفعلوا أكثر من فتح أفواهكم واستقبال الذباب. أهذا ما تريدون أن تستمروا فيه؟

ـ لا أسمح لك أن تتحدث معي بهذه الطريقة، ولا داعي لأن نسخر في مثل هذه القضايا الهامة!

ـ نسخر؟ وهل يمكن أن يكون هناك شيء غير السخرية؟

ـ لا أسمح بذلك أبداً!

ـ بماذا تسمح إذن؟

ـ أن نكون رجالاً وأن نتعامل باحترام!

ـ وإذا لم نكن كذلك؟

ـ ليذهب كل شيء إلى الجحيم!

كان يجب أن أتدخل، لكي أضع حداً لهذه المناقشة التي وصلت حدود المهاترة والتحدي، لكن الغضب الذي حلّ بالرجلين لم يترك لي أية فرصة. كنت مقتنعاً بأعماقي أن الفكرة التي يطرحها ميرزا من الأهمية والفائدة إلى درجة لا يمكن أن ترفض، لكن لم يكن ممكناً أن أقول ذلك،

كما لم أكن مستعداً أن انساق وراء رفض عباس العصبي. قلت بهدوء في محاولة لأن امتص غضب الرجلين وآخلق جواً جديداً:

ـ الأمر كله لا يتعدى مجرد فكرة، فإذا بدأنا المناقشة بهذا الشكل فلا بد وأن نقتل بعضنا بدل أن نقتل الآخرين!

قال عباس بمرارة:

ـ الموضوع يا مستر ماكدونالد أكثر تعقيداً مما تتصور لأول وهلة، فالقتل إذا بدأ لا يمكن أن يتوقف. أنا متأكد من ذلك، وإذا كنا قد فعلنا شيئاً حكيماً خلال الفترة الماضية، فهو اننا لم نرفع السلاح، وهذا هو السبب الذي منع الآخرين من رفع السلاح في وجوهنا وقتلنا، أما الآن.. إذا بدأنا القتل فلا يمكن أن نمنع الآخرين من اللجوء إلى القتل!

قال ميرزا بتحدٍ:

ـ هؤلاء الرعاع لا يمكن أن يوفروا أحداً، وإذا تركونا أحياء حتى الآن فلان دورنا لم يأت بعد بالنسبة لهم، هذا كل ما في الأمر. أما إذا توهم المستر عباس شيئاً آخر فإنه يخطىء كثيراً!

قلت وأنا أتصنع الابتسام:

ـ إنني لا أفهم سبباً واحداً لهذه الحدة، فالأمر كله لا يتعدى الخواطر التي تمر في البال، ومثلما اتفقنا على أشياء كثيرة دون تحديات أو غضب، فالأمر المعروض الآن لا يختلف عن الأمور السابقة.

سأل عباس باستغراب:

ـ هل أفهم يا مستر ماكدونالد أنك توافق على الفكرة؟

ـ لم أقل هذا لأننا لم نناقش الفكرة من حيث الأساس!

ـ ولكنك تقول إن هذه الخطوة تشبه الخطوات السابقة التي اتخذناها!

ـ أقصد اننا يمكن أن نناقش أية فكرة دون انفعالات وبجو من الهدوء، كما فعلنا في أمور كثيرة من قبل.

ـ ولكن الأمر مختلف هذه المرة!

سأل ميرزا بسخرية:

ـ مختلف؟ ما وجه الاختلاف عن الأفكار والاقتراحات التي بدأنا تنفيذها خلال الشهور السابقة؟

ـ إنك تريد توريطنا يا سيادة الجنرال، فالاغتيالات إذا بدأت لا بد وأن يكتشف الناس من هم وراءها، وعند ذلك تبدأ حمامات الدم، ولن يوفر العجوز والآخرون أحداً، سوف يقتلوننا عن بكرة أبينا!

ـ ولكنك لم تكن أبداً جباناً يا سيادة الوزير مثلما أنت الآن!

ـ أنا لست جباناً، والشجاعة ليست بهذه الأفعال الحمقاء التي تقترحها الآن!

ونظرا إلى بعضهما بتحدٍ وابتسامات صفراء تملأ وجهيهما.

قال عباس بلهجة بطيئة متأنية:

ـ وأنت يا سيادة الجنرال... تعرف أكثر من أي إنسان آخر من يكون رضا عباس، وأي نوع من الرجال هو!

قال ميرزا وهو يقهقه:

ـ اعرف.. بالتأكيد أعرف!

ـ أتتحداني يا سيادة الجنرال؟

ـ وهل اجرؤ على ذلك؟

ـ لماذا تضحك إذن؟

ـ ألا تريدني أن أضحك؟

ـ ولكني لا أفهم سبباً معقولاً لهذه التصرفات السخيفة!

قال ميرزا بلهجة جديدة:

ـ إنك اليوم، يا صديقي، لا تريد أن تفهم شيئاً!

قلت لا غيِّر الموضوع:

ـ دعونا الآن كلية من هذا الموضوع، ويمكننا أن نبحث في أمور أخرى!

قال عباس بتحدٍ:

ـ لا.. لا أوافق أبداً، والآن يجب أن نحسم هذا الموضوع

قال ميرزا بنفاد صبر:

ـ ماذا تريد الآن أيها الصديق العزيز؟
ـ أن تصرف النظر نهائياً عن فكرة الاغتيالات، وان نتفق على ذلك بوضوح الآن.
ـ وماذا إذا قلت لك إنني سأنفذ هذه الخطة إذا وافقت يا سيادة الوزير أو لم توافق؟
ـ اعتبر أن علاقتنا انتهت إلى الأبد.
قلت بغضب:
ـ هذه الاحراجات لا مبرر لها مطلقاً، وأرى أن نتوقف نهائياً عن بحث هذا الموضوع.
قال ميرزا بهدوء وعيناه تتراكضان في محجريهما، وكأنه قرر في نفسه شيئاً:
ـ يمكن أن نتوقف الآن عن المناقشة، لكن سوف نرى!
استشاط عباس غضباً، ضرب الطاولة ضربتين قويتين وقال:
ـ إذا بدأ الجنرال بتنفيذ هذه الخطة فسوف أرد عليها بالطريقة المناسبة!
سأله ميرزا وهو يبتسم:
ـ ترد عليها بالطريقة المناسبة؟ ماذا تعني بالطريقة المناسبة؟
ـ لست مضطراً لأن أجيب.
ـ ولكن أريد أن أعرف!
ـ تعرف ماذا؟
ـ ماذا سيكون ردك؟
ـ ارفض الجواب.
قال ميرزا بسخرية:
ـ هل ستبلغ العجوز؟ هل ستقول له إن ميرزا محمد بدأ حملة الاغتيالات وسوف يقتلك؟ أهذا ما تريد أن تفعله؟
اتخذت مظهر الغضب الحقيقي، وقفت بحدة، وقلت للرجلين بحزم:

- اعتبر أن علاقتنا انتهت إذا استمرت المناقشة بهذه الطريقة!

ساد الصمت العميق، وكأن موقفي فاجأ الاثنين. قال ميرزا بعد أن وقف فترة مقابل النافذة ونظر إلى البعيد:

- المسألة كلها مجرد فكرة، وسوف أتوقف حتى عن التفكير بها!

رد عباس بغضب:

- ليست المسألة أن تتوقف الآن عن الحديث، المسألة أن نتفق بشرف على استبعاد هذا الأسلوب.

في هذه اللحظة، والرجلان يقفان متواجهين، وقد بلغ بهما التحدّي درجة يمكن أن يغيرّ كل شيء، دخلت شيرين!

كان دخولها ووجودها ضرورياً، لأن مجرد وجود المرأة بين هؤلاء الشرقيين يخلق جواً جديداً يمكن أن يكون هذا الجو تدميراً كاملاً، قد يصل حدود القتل، وقد يمتص التوتر دفعة واحدة!

وشيرين بحس الانثى، ودون معرفة للجو أو التفاصيل، ومن النظرة الأولى أحست أن شيئاً خطيراً يوشك أن يقع، قالت بدهشة:

- كان الواجب أن لا أغيب فترة طويلة، لقد اخطأت بتأخري، وها أنتم كما تركتم، لم تفعلوا شيئاً ولم تخدموا أنفسكم!

وحل صمت ثقيل مجرح، كان كلِ واحد يريد أن يحقق نصراً، أو في اسوأ الحالات ألا يعترف بالهزيمة، لكن وجود شيرين المفاجىء أدى إلى حالة من الهبوط السريع المصحوب بالمرارة، بحيث أن شعوراً باللا جدوى والسأم سيطر على الجميع. أحست شيرين بذلك وكان عليها أن تفعل شيئاً، قالت لعباس بغنج وعتاب:

- إنك يا حبيبي مضيف رديء..

وضحكت ضحكة رنانة وتابعت بلهجة جديدة:

- لو لم تكن كسولاً لطلبت الويسكي أو قليلاً من الجن مع التونك، أو أي شيء آخر. لكن دائماً تفضل أن يفعل الآخرون ذلك... أليس كذلك يا عزيزي؟!

وتغيرّ الجو. لكن المرارة ظلت في القلوب.

(١٧)

أثار هذا الموضوع استغرابي الشديد، ودفعني للتساؤل المستمر عن الأسباب الحقيقية التي تكمن وراء موقف الرجلين، وفيما إذا كان ممكناً عمل شيء في مواجهة هذا الموقف.

أصبح ميرزا أقل ميلاً لمناقشة أية قضية، وبدا عديم الاهتمام في تنفيذ بعض الأمور التي كنا قد اتفقنا عليها. أما عباس فكان عصبي المزاج، شديد الحرج، وكان ضائعاً أيضاً، لا يعرف كيف يتصرف أو كيف يتغلب على الجو الذي تسبب في خلقه. وفي هذه الفترة أخذت الأمور تزداد تعقيداً، ووصلت عدة رسائل من راندلي يؤكد فيها على ضرورة التحرك السريع، وأبلغني أن عدداً إضافياً من المستشارين في طريقهم إلينا.

وشيرين.. كانت الجزيرة الوحيدة المستقرة في هذا الجو الشديد الاضطراب والخطر، وقد حرصت أن تكون موجودة في لقاءاتنا الأخيرة. كما وفعلت الكثير من أجل خلق جو مريح ومنعش، وإن كانت قد

أصبحت أكثر ميلاً للجلوس في الشرفة لتتيح لنا مزيداً من الحرية في مناقشاتنا دون حرج.

كنت مقتنعاً أن الكثير من الأمور لن يسير في الطريق الصحيح ما لم يعد الجو بين ميرزا وعباس إلى سابق عهده. بذلت جهوداً كبيرة. التقيت بكل منهما على انفراد، وجرت بيننا مناقشات خصبة حول الموضوع، وقد استطعت الوصول معهما، ومع كل منهما على انفراد، إلى الاتفاق على بعض النقاط، وحرصت في نفس الوقت على إعطاء اشارة نصف خضراء لميرزا لكي يتابع المهمة!

لست مقتنعاً تماماً بموقف عباس أو الأسباب التي عرضها لتبرير رفض اقتراحات ميرزا، فقد أشار في لقاءاتنا الخاصة إلى أن الاغتيالات طريقة خطرة في العمل، وإننا إذا بدأنا بهذا الأسلوب فلا بد أن نصل إلى نتائج مخيفة، لأن الدم في الشرق كما كان يقول ويؤكد باستمرار اذا بدأ يسيل لا يعرف كيف يتوقف، وسوف يؤدي إلى مضاعفات تمنعنا من إزاحة العجوز وتغيير النظام.

أما في اللقاءات التي كان ميرزا موجوداً فيها، وقد حرصنا على أن تبقى مناقشلتنا هادئة وابتعدنا قدر الامكان عن القضايا المثيرة، فقد جرى الحديث أكثر من مرة حول موضوع الاغتيالات، ومبرراته وأسباب رفض عباس له، ولم أستطع أن أفهم أو أقتنع برأي عباس، إذ بدا شديد التناقض وغريباً، وأكد لي هذا الموقف طبيعة الشرقيين الغامضة والمتناقضة.

لقد استطعت أن أفهم من المناقشات التي كانت تدور بين الاثنين، إن رفض عباس ليس نابعاً من موقف ديمقراطي، كما كان يحاول التأكيد دائماً، وإنما هناك أسباب أخرى لا تبدو لي واضحة.

في إحدى المرات، وقد طرح ميرزا فكرة اغتيال أحد رجال الدين لتكون بداية للتغيير الأخير في موقف هؤلاء تجاه الوضع الراهن، بعد أن وقعت بينهم وبين الحكم خلافات حادة، وقد ساهمنا نحن بتنفيذها، سواء

في الصحف او بالمنشورات، إضافة إلى التحريض المباشر، في هذه المرة قال عباس:

ـ أوافق على كل شيء عدا القتل. يمكن أن نزيد التحريض، أن نصدر منشورات جديدة، أن يذهب بعض أفراد منظمتنا ويهتفون ضد الدين في أحد المساجد، إن كل ذلك ممكن وأوافق عليه دون تحفظ. أما القتل فمسألة أخرى!

قال ميرزا بهدوء وفي محاول أخيرة لاقناعه:

ـ القتل جزء من اللعبة التي نلعبها، وقد يكون أقل الأجزاء خطورة، كما أن احتمال انكشاف بعض العناصر في أعمال التحريض والمنشورات أكبر بكثير من احتمال انكشافهم في عمليات الاغتيال.

وضرب ميرزا كتف عباس بمودة وتابع:

ـ وما تظن إذا اعترف أحد رجال منظمتنا؟ أو إذا ارادت السلطة أن تتابع نشاطنا؟ هل تتصور انهم سيتركوننا أحياء ليوم واحد في حالة معرفتهم أننا وراء هذه المنظمة ووراء هذه المنشورات؟

وعاد ميرزا إلى لهجته الأولى، وكانت لهجة حزينة:

ـ تخطىء يا صديقي إذا توهمت للحظة واحدة أنك إذا لم تقتل فإن الآخرين لن يقتلوا.

ـ لا يمكن أن تقنعني بهذا المنطق يا سيادة الجنرال، كما لا أتصور أن الآخرين سيلجأون إلى القتل إذا لم نبدأ نحن أو يبدأ غيرنا!

ـ سوف ترى، وسوف يكون الوقت عند ذاك متأخراً لعمل شيء!

ـ أياً كان موقف الآخرين يجب ألا نلجأ إلى هذا الأسلوب.

ـ ولكن لا أفهم كيف بررت لنفسك أن تكون بطلاً لعمليات الاعدام التي جرت قبل سنوات، وتعارض الآن في قتل عنصر واحد فقط!

مرت في رأس عباس أشياء عديدة، بدا ذلك من تغير ملامحه، وكأنه يسترجع أياماً قديمة!

أحس ميرزا بأثر الكلمة التي قالها وأراد أن يواصل الهجوم، قال بسرعة:

- والعملية التي اقترحها الآن ليست مجانية، إن لها أهدافاً في غاية الأهمية، ونتائجها تعني القضاء على الارهاب والفوضى وحكم الشارع.

توقف لحظة خاطفة، رشف خلالها جرعة كبيرة من الكأس التي أمامه، وتابع:

- انها ليست عملية قتل بالمعنى التقليدي، إنها موقف سياسي، تماماً كما هو الاعدام موقف سياسي!

رد عباس بيأس:

- ولكن الاعدامات التي تمت لم تتم هكذا، لقد كانت نتيجة تآمر قام به بعض الناس!

- إنه موقف سياسي إذن؟

- نعم موقف سياسي، لكن محاكمة جرت لهؤلاء وادينوا، ثم نفذ فيهم حكم الاعدام! أليس هذا ما حصل؟

- بالتأكيد هذا الذي حصل، ولكن ألم تكن دوافع الفريقين دوافع سياسية؟

- ماذا تقصد يا سيادة الجنرال؟

- اقصد أن الذين تآمروا، كان تآمرهم بسبب موقف سياسي، وأنتم حين حاكمتم هؤلاء ونفذتم بهم حكم الاعدام ألم يكن موقفكم موقفاً سياسياً أيضاً؟

- ولكنهم حوكموا بموجب القوانين، والقضاء هو الذي أصدر بحقهم الأحكام!

-إن هذا لا يغير جوهر الموضوع!

- وماذا كنت تريدنا أن نفعل؟

- يبقى السؤال الأساسي قائمًا كما طرحته منذ البداية!

- لا أفهمك ولا أريد أن أقتنع بهذا المنطق!

- بغض النظر عن الاقتناع أو عدمه، إنني أطرح الموضوع كله من

زاوية أخرى، زاوية أن هؤلاء الناس كانوا سياسيين، وقد تآمروا لهذا السبب واعدمتموهم أنتم لنفس السبب أيضاً. . . أليس هذا ما حصل؟

ـ بالتأكيد يا سيادة الجنرال إلا إذا أردت الآن أن توجد فلسفة أخرى، أهذا ما تريد الوصول إليه؟

ـ أريد يا صديقي أن نصل إلى جوهر الموضوع هذا كل ما في الأمر

ـ جوهر الموضوع؟ ماذا يعني جوهر الموضوع؟

ـ أن نكون حازمين، وأن نتخذ الخطوات اللازمة في الوقت المناسب، هذا هو جوهر الموضوع!

ـ وما علاقة ذلك بالقتل؟

ـ لأنه يوصلنا بسهولة وسرعة إلى ما نريد!

ـ ونقتل أناساً لا علاقة لهم بالموضوع؟

ـ لهم كل العلاقة!

ـ تقصد أن نقتل عناصر من السلطة؟

ـ أقصد أن نفجر الوضع، أن نضع عشرات الألغام الموقوتة في أماكن عديدة، وحين ينفجر أي من هذه الألغام يخلق عاملاً إضافياً لتفجير الوضع وإسقاطه.

ـ وما علاقة هذا بقتل بعض الناس من منظمات سياسية متعددة؟

ـ كنت أتصور انك أنت الذي يجب أن يمارس الدور الذي أمارسه الآن: أن تتولى إقناعي بضرورة تمزيق القوى السياسية وخلق العداء فيما بينها، وللوصول إلى ذلك يمكن أن نلجأ إلى شتى الوسائل والأساليب، بما في ذلك عمليات قتل غامضة، يمكن أن تنسب بسهولة إلى القوى المناوئة أو المنافسة، إذا تم ذلك يمكن أن ينكشف الوضع كما تنكشف مؤخرة القرد ويبدأ بالتفتت من الداخل ثم يسقط. هذا ما كنت أتصوره وأريده منك باعتبارك رجلاً سياسياً محنكاً، وأنا لست أكثر من رجل عسكري بسيط لا يقدر الابعاد والنتائج لأية عملية سياسية!

ـ بكلماتك الأخيرة قلت الحقيقة يا سيادة الجنرال!

وابتسم عباس وأخذ يهز رأسه هزات متواصلة تدل على الحكمة والذكريات!

لم نعد إلى بحث الموضوع مرة أخرى، انطوى تماماً، لكن بانطوائه تغيّرت العلاقات كثيراً؛ صحيح أن الاجتماعات ظلت تعقد بين فترة وأخرى، وظلت النشاطات السياسية تمارس كما كان الأمر من قبل، لكن فقدت حيويتها وعنفوانها. أصبحت اجتماعاتنا أقرب إلى العبث، بما يتخللها من تبادل للأخبار وتعليقات سريعة على الأحداث الجارية. أما النشاطات السياسية التي كنا نمارسها، فقد تولدت لدي قناعة أكيدة حول ضرورة نقلها من هذه الحلقة إلى حلقات أخرى كانت مرتبطة معنا. لقد قمت بعمليات النقل بكثير من البطء والصعوبة لكي لا ألفت نظر أحد، ولكي لا يؤدي ذلك إلى ردود فعل من أي نوع، لكن ما ظل يشغل بالي موقف عباس المتعنت الرافض، ثم تخلي ميرزا عن الفكرة نهائياً، واعتبارها مجرد نزوة من النزوات الكثيرة التي تملأ رؤوس العسكريين، كما عبر بنفسه عن ذلك.

وإذا كان الانسان قادراً باستمرار على نسيان أشياء كثيرة في خضم العمل، وفي مشاغل الحياة اليومية فلا يعود لتذكر هذه الأشياء، فإن موقف عباس ظل يشغل بالي ويعاودني بين فترة وأخرى.

قلت ذات يوم لشيرين وكانت تقف أمام المرآة في قميص داخلي شفاف، وتنظر إلى نفسها بكثير من العناية..

ـ أريد أن أفهم شيئاً أساسياً في حياة عباس.

نظرت إليّ في المرآة، التقت عيوننا للحظة، تأكدت من تلك النظرة إن لدي شيئاً جدياً أريد أن أقوله. التفتت بهدوء وبطء، تقدمت نحوي وهي تنظر إلى عيني بتساؤل، جلست على طرف السرير. كانت تبدو لي شهية بنظراتها المتسائلة، بخفقة العطر التي ملأت انفي، بهذا الخصب الذي يتولد من القرب والدفء اللذيذين. قلت لنفسي بسخرية: «ما أشد

جنوني؛ حين أكون في أكثر اللحظات رغبة لامتلاكها تنتابني تلك الأفكار البائسة، أن أسألها عن هذا الخنزير: كيف يفكر؟ لماذا هو ضد الاغتيال؟ ولا أعرف أية أسئلة أخرى مماثلة... لقد زرع راندلي في عقلي انحرافاً لا يمكن أن أتغلب عليه حتى في أشد ساعات النشوة!»

قلت لشيريت بدعابة:

- كلما اقتربت أكثر تزدادين اشتعالاً والأفضل ألا يقترب منك الانسان لكي لا يحترق!

- أتخاف على نفسك إلى هذه الدرجة؟

- وهل هناك مخلوق واحد يقترب منك بهذا المقدار ولا يخاف؟

- ولكنك تخاف كثيراً، تخاف أكثر مما ينبغي!

- إنك تولدين الخوف في الحجر!

ضحكت ضحكة رنانة وهجمت عليّ، شدت شعري بقسوة، قالت بدلع:

- أنت الذي يحرّك الحجر، انك تعرف ماذا يجب أن يقال ومتى تقوله، وهذا ما تريده المرأة، أية امرأة!

قلت بخبث عارٍ:

- وهل تكتفين يا سيدتي بأن أردد على مسامعك الكلمات؟ انك بالتأكيد لا تكتفين بذلك. هل أنا مخطىء؟

- بالتأكيد مخطىء!

قالت ذلك ونظرت إليّ بطريقتها، وهي حين تنظر هكذا تلتمع في عينيها وشفتيها وعروق رقبتها الشهوة وتقول أشياء كثيرة، دون كلمات. تقول هذه الأشياء بحدة جارحة، بحيث أنها تختصر كل كلمات الانسان الآخر.

قلت لنفسي: «... ادفن نفسك الآن يا بيتر في هذا الجحيم الرائع ولا تنس كلمات ذلك الشاعر الذي مات منذ وقت طويل:

«حين تكون في وقت الجد يجب أن تكون في منتهى الجد، أما حين يأتي وقت الاستمتاع فلا تفكر إلا في ذلك».

رفعت إليّ وجهاً متسائلاً متوهجاً، وقالت:

ـ سألتني عن عباس. . . ماذا تريد أن تعرف عنه؟

ـ لا شيء. . لا شيء!

وجررتها بقسوة. ماءت، صرخت، حاولت أن تقاوم، لكن في لحظة أحسست أن كل شيء يلتهب وتستجيب لي بخصوبة عارمة!

القسم الرابع

كان على بريطانيا أن تعارض المطامع الاقليمية لحلفائنا منذ البداية. . وأن تبين لهم أن هذه المعارضة لا تتنافى وأصول السياسة.

كان على بريطانيا أن تقدم مطالبها الخاصة باستمرار.

كليمان ـ مؤرخ بريطاني

ليس لبريطانيا أصدقاء دائمون . . وليس لها اعداء دائمون. . إن لبريطانيا مصالح دائمة.

رئيس وزراء بريطاني

النصر مع الاخلال بالوعد أفضل من الهزيمة

لورنس

(١)

من الأمور التي تثير استغرابي إلى أقصى حد أن لندن لا توافق على أن أقوم بزيارة. يقول لي راندلي في رسالته: «لماذا هذا الإلحاح يا بيتر؟ صحيح انني أفهم دوافع الزيارة، من بعض الجوانب (!) لكن بقاءك حيث أنت الآن أفضل ألف مرة. إننا ننتظر أشياء كثيرة في المرحلة القصيرة القادمة، ولا أتصورك أحمق إلى الدرجة التي تسمح لنفسك أن تترك في هذه الفترة بالذات، فترة الافتتاح التاريخية. أما بخصوص توضيح وجهة نظرك، فأقول لك بكل صراحة: وجهة نظرك واضحة، واضحة بالرسائل وعن طريق المبعوثين الذين زاروك في الفترة الأخيرة، ثم أن لدينا معلومات أخرى من مصادر متعددة. لا تخف من هذة النواحي. المهم الآن أن تنسى فكرة الزيارة، وحالما ننتصر، حالما تنتهي المهمة، يمكن أن تركب أول طائرة وتأتي. وإلى ذلك الوقت، أيها العزيز بيتر، اعمل بنشاط. ولا تنس بعض النصائح بخصوص أن تمتع نفسك. إن ذلك، إذا حصل، سيريحك ويريحنا!»

يتصور راندلي الأمور بطريقة صبيانية للغاية، ويصرّ على أن يتكلم

معي مثل أب ذكي. هذه الطريقة بدأت تزعجني وتضايقني.

الأمور ليست بالبساطة التي يتصورها، ولست بحاجة إلى نصائحه البلهاء لكي أقيم علاقات مع النساء. لا أريد موافقته في هذا المجال، ولا أتصور انه اكتشف شيئاً خطيراً. حتى الحيوانات والطيور تتصرف في هذا المجال دون نصائح!

ما أريد أن أعرفه كيف تفكر لندن؟ ماذا لديها من معلومات؟ وهل تعتبرني مجرد مصدر من المصادر العديدة التي لديها؟ هذا ما أريد التأكد منه. أما إذا كان بيتر مثل رضا عباس، مثل ميرزا، ومثل عشرات الآخرين، فلتذهب لندن إلى الجحيم، وليذهب راندلي إلى الجحيم أيضاً. إن هؤلاء السادة الذين لا يكفون لحظة واحدة عن الحلم والكتابة إلى لندن لا يعادلون جناح ذبابة ميتة. ليس لهم همّ سوى العودة إلى السلطة، ولا يريدون شيئاً قدر ما يريدون المال، ومن أجل السلطة والمال مستعدون أن يتعاونوا مع الشيطان. ليس لهم مثل، وليست عندهم الدوافع الحقيقية المخلصة، وهذا العجوز لو أتاح لهم العودة إلى السلطة، لو سمح لهم أن يمدوا أيديهم إلى المال، لتركوا بريطانيا منذ وقت طويل!

إذا كان راندلي يعتبرني واحداً مثل هؤلاء فعليه اللعنة، انه لا يفهم الدوافع والتحديات التي تملأ عقل بيتر، ولا يفهم الوضع الجديد الذي أصبحت فيه. ليس لي من هدف، في هذه الفترة، سوى الانتصار، ومن أجل ذلك أفكر الساعات الطويلة، أتحرك بخفة قط، أتظاهر بالبلاهة، أثناء مناقشاتي مع الأميركيين، فقط من أجل أن نرتب الأمور بالشكل المناسب. وإذا كان من البديهي أن من يعيش في زوريخ أو لندن يختلف كثيراً عمن يعيش هنا، وسط المعركة، إلا أن الوقت قد حان لكي يترك للمقاتلين أن يتصرفوا!

الأميركيون يتدفقون مثل الطيور المهاجرة في مواسم معينة. انهم موجودون في كل مكان بملابسهم الملونة وحماقاتهم. وإذا كانت حركاتنا واتصالاتنا حتى الآن لا تثير أحداً، ولا تلفت النظر، فالأميركيون

سيفسدون كل شيء وسوف يقلبون القدر علينا وعليهم في نفس الوقت. يتظاهرون بالبراءة وعدم المعرفة، يعلقون في رقابهم آلات التصوير، يبتسمون في وجوه المارة ببلاهة، يذهبون إلى كل مكان، تاركين وراءهم أشياء كثيرة. هذه الأمور ذات دلالة واضحة، ولا يمكن أن تخفى على أحد. والسلطة إذا تركتهم حتى الآن، فإنها تريد أن تتابع هذا الخيط حتى النهاية لكي تقطعه مرة واحدة وإلى الأبد.

قلت لمبعوثي الشركة ولراندلي عشرات المرات أن البرابرة أتوا، وهؤلاء يخفون في حقائبهم أشياء كثيرة، لكن لا أحد يسمع. لا أحد يتوقف عند هذه النقطة. قالت رسالة جاءتني من مقر الشركة في لندن «نقدر باهتمام المعلومات التي وردت في تقريرك الأخير حول وصول اعداد كبيرة من الأميركيين، إن هؤلاء لا يشكلون خطراً علينا في الوقت الحاضر، كما ليس لديهم مطامع في المجال الذي نعمل فيه. همهم الكبير أن يراقبوا «الآخرين» وأن يعرفوا نواياهم وحقيقة قوتهم، وقد تأكدنا من ذلك، لذلك لا تصرف جهداً أو وقتاً في متابعة الأميركيين، ولا حاجة لبحث الأمر مرة أخرى» هذا ما جاء في رسالة لندن، أما راندلي فقد كتب إليّ رسالة طويلة مملة، وفي احدى مقاطعها يقول «ثم ان هؤلاء حمقى بالمعنى الحقيقي، وأعتقد أنهم سيبقون كذلك حتى لو ملكوا جميع ثروات العالم. المسألة يا بيتر متعلقة بالحضارة، متعلقة بالذكاء، وليس بمقدار ما يملكه الإنسان من نقود. وهم في حركاتهم يثيرون الضجة والغبار أينما ذهبوا، لكنهم عاجزون عن فعل أي شيء، وإني إذا كنت أفهم دوافعك، وأقدر مخاوفك، لكن أتصور أن أكثر ما يستدعي الاهتمام البقاء في محور القتال الأساسي: إسقاط السلطة، واستعادة الكنز الذي فقدناه. أما إذا تابعت حركة الأميركيين واستمعت إلى كلماتهم فسوف تضيع، ويتراءى لك خصوم وهميون، وقد تكون النتيجة أن تضيع جهودنا، ويبقى العجوز!»

هكذا كانت تجيبني لندن، وهكذا كان يكتب راندلي. ومهما حاولت أن ألتمس الأعذار لفهم موقف الذين يبعدون آلاف الأميال، فإني متأكد

أن هؤلاء لا يكلفون أنفسهم عناء التفكير لحظة واحدة، كأن الأمر لا يعنيهم أبداً! ولذلك يستمرون في الحلم ويتصورون الحلم واقعاً. إنني خائف!

نعم يجب أن أعترف بيني وبين نفسي انني خائف، ومرد هذا الخوف، بالدرجة الأولى، أن الوضع الحالي، والذي يتسم بالفوضى والصعوبة بالنسبة للسلطة، قد ينقلب. وإذا كانت السلطة، حتى الآن، تميل إلى التعقل والهدوء في معالجة المشاكل، فقد تضطر إلى اتباع أسلوب آخر، وقد تصبح أكثر تطرفاً.

إن قوتنا تتناسب تناسباً عكسياً مع الاستقرار وتناسباً طردياً مع الازمة الاقتصادية، إذ كلما استقر الوضع واستند إلى قوى حقيقية، وكلما تجاوز الأزمة، أصبحت آمالنا محدودة وفرصنا أقل. وإني إذ اتفق مع ميرزا في آراء كثيرة، واعتبر عباس مجرد أحمق مترهل، أخشى أن تنقضي أوقات طويلة ونحن ننتظر.

خصومات الأصدقاء تقلقني؛ وقسم منها نتيجة الخيبة والانتظار الطويل. أما شيرين، هذه الحمامة المشتعلة، فإنها ذكية وموجودة في الوقت المناسب، وذكاؤها أكثر قوة وتأثيراً في معظم الأحيان من جمالها. حين تغضب، أو تتظاهر بالغضب، يتغير جو عباس تماماً. يصبح مسالماً وأكثر استعداداً للموافقة على ما كان يرفضه، ويصبح وجودها فعالاً وحيوياً في نفس الوقت. وإذا كانت علاقاتها بميرزا تثيرني إلى أقصى حد، وتسبب لي ألماً حقيقياً، فإن طريقتها في نفي هذه العلاقة، تجعلني أصدق أغلب الأحيان!

كانت تثور في البداية حين أسألها عن علاقاتها بميرزا، كانت تغضب غضباً جامحاً، وتلجأ إلى البكاء، وكانت تنسحب تاركة وراءها بعض الضحايا: أوراق ممزقة، مقاعد مقلوبة، زهور منثورة على الأرض.. وفي إحدى المرات، وكانت تقف إلى جانب الستارة، تطلعت إليّ بحدة، وفي محاولة لاخفاء انفعالها أمسكت بالستارة، لكن لم تبق كذلك طويلاً. حين قررت أن تغادر شدت الستارة بقوة فتمزقت وتدلى جزء منها على الأرض.

كانت تعابير وجهها وطريقتها في النفي لا تترك لي مجالاً لمتابعة الموضوع أو للشك، ومع الأيام أصبحت أقل انفعالاً أو غضباً إذا تحدثت بطريقة ما عن ميرزا، أو ارتسمت على شفتي ابتسامة ذات معنى حين يرد اسمه، كانت ترفض وبعض الأحيان تنكر، وتعبر عن رفضها وانكارها بشكل ظاهر.

هذه المرأة تثيرني وتثير حيرتي. في البداية ضمن «نصائح» العجوز راندلي، لكنها الآن شيء آخر. إنها الآن أقرب إلى اللعبة الخطرة، وأخطر ما فيها انها تدرك ذلك وتعرفه جيداً.

قلت لها في إحدى المرات:

ـ ماذا ستكون علاقتنا، يا شيرين، حين أعود إلى لندن؟

تطلعت إليّ بشهوة وألم. هزت رأسها أكثر من مرة دلالة الحيرة والأسف، ثم رفعت يدها في الهواء ونهضت إلى قرب النافذة. ظلت هناك وقتاً طويلاً. كنا صامتين، وحين اقتربت منها ونظرت إلى عينيها كانت فيهما بقايا دموع. لم تتركني أنظر إليها، سحبت عينيها، ثم هربت. ذهبت إلى الحمام، ولما عادت كانت تحاول الابتسام، لكن كان فيها شيء حزين، ولم أستطع أن أعاود الموضوع مرة أخرى في ذلك اللقاء.

وفي مرات أخرى، خاصة حين نكون في الفراش، كانت تبتعد عني وتنظر إليّ بطريقة معينة. كانت نظراتها اكتشافاً مستمراً. كانت تبتعد، لكن حين تهجم عليّ تهجم بعنف صاخب وكانت تردد كلمات معينة:

ـ لا أصدق.. لا أصدق انك ستتركني!

وحين تغرق في الصمت، تطوي رأسها، وبعض الأحيان تغطيه، فإذا حاولت مداعبتها لا تستجيب، لكن في لحظة ما تشتعل، تنفجر، تهجم عليّ مثل ذئب، وأحس كل شيء فيها يعوي ويمزق، وإذا كانت استجابتي لها سريعة كاملة، أحسها تريد أكثر من ذلك، كانت تكتم أنفاسي، تغرقني، تذيبني، وكانت لا تملّ ولا تشبع، حتى إذا خارت قواي، إذا فكرت بالاستراحة وتدخين سيجارة، تجتاحني مرة أخرى.

ترمي السجائر بعيداً، تشد شعري، تقرصني. وأنا بين الرغبة في الهرب وبيـن الشعور بالخواء، أجد نفسي محاصراً وضعيفاً، وأجد نفسي أسيراً لجبروتها الذي لا ينتهي!

هكذا كانت هذه القطة المجنونة، ولما أصبحت أجبر نفسي على اللقاء بها في القصر، لكي لا أخلو بها، أصبحت تنظر إليّ بطريقة جديدة وأصبحت أكثر ارتياباً، فإذا أصبحنا وحيدين مرة أخرى، بعض الوقت، كانت تنظر إليّ بطريقة معينة واضحة المعنى ولا تخفى، تقول:

ـ ماذا؟ هل وجدت امرأة أخرى؟

ـ امرأة أخرى؟

ـ ـ نعم.. امرأة أخرى!

وحين انفي بشدة، وتعبّر كلماتي السريعة بارتباك عن ذلك تقول:

ـ لماذا لا تتصل ولماذا لا أراك اذن؟

ـ ها آنذا يا شيرين!

ـ ولكن أريد أن أراك على انفراد.

ـ أشغالي كثيرة يا شيرين!

ـ إذن لم تعد تحبني!

ـ لماذا تقولين ذلك؟

ـ هذا ما أراه وهذا ما تؤكده بتصرفاتك!

ـ وماذا يجب أن أفعل لكي أثبت لك العكس؟

ـ أن تكون كما كنت!

ـ كيف؟

وتغرق في الصمت مرة أخرى. كانت الحيرة في عينيها وتصرفاتها، أما حين أسألها عن سبب ذلك فتقول:

ـ إذا كنت الآن هكذا فكيف إذا سافرت؟

ـ سأكون أحسن ألف مرة!

ـ تكذب!

ـ ما تعودت أن أكذب يا شيرين. ثم سوف ترين بعينيك!

ـ بعيني؟

ـ أقصد سوف تتأكدين بنفسك!

ـ لا اصدق. . لا أصدق أبداً!

وتصمت للحظات ثم تتابع:

ـ كل الرجال هكذا. انهم واقعيون إلى درجة مؤلمة، فما دامت المرأة قريبة لا يرون ولا يريدون أحداً غيرها، أما إذا ابتعدت، إذا جاءت امرأة أخرى فإنهم لا يرون إلا تلك المرأة!

وهزت رأسها وضحكت بسخرية، ثم سألت من جديد:

ـ هل أنا مخطئة؟

ـ بالتأكيد يا شيرين!

ـ لو افترضنا انني مخطئة كيف سيكون الأمر حين تسافر؟

ـ ما زال السفر بعيداً ثم سنجد طريقة ما.

ـ أنا التي يجب أن أقول ذلك، ثم يجب علي أيضاً أن آتي إلى لندن، وانتزعك من البرودة والضباب، أليس كذلك؟

ـ لا تخافي. . سوف نجد طريقة ما!

ـ إذا كنت لم تجد طريقة هنا فهناك لن تجد طريقة أبداً!

(٢)

مهما قالت لندن فإن رجالنا أغبياء، أنانيون، كسالى، مليؤون بالأحلام، لا يريدون أن يرفعوا مؤخراتهم عن المقاعد التي يجلسون عليها، حتى لو كانت المقاعد من الوحل!

لقد أصبحت متأكداً من ذلك، وسوف أترك لندن تفكر كما تريد وسوف أتصرف كما أريد!

هل يحتمل أن تتفق لندن مع الأميركيين؟ حتى الآن لندن تقول لا، ورسائل راندلي، رغم ما تحمله من حماقات، تؤكد العكس. أريد أن أصدق ذلك، لكن مخاوفي كثيرة وأحس بالحركة حولي نشيطة ومليئة بالدلالات.

قال لي المستر فوكس قبل ثلاثة أيام، وكنا نتحدث عن احتمالات المستقبل:

«مستر ماكدونالد يجب أن تعترفوا بما حصل، لا سبيل إلى تغيير ذلك، وكلما تأخرتم في الاعتراف تزداد خسائركم وتتورطون أكثر من قبل. ثم أن الولايات المتحدة لا يمكن أن تغمض عينيها وتترك الأمور تزداد سوءاً بحيث لا يجد العجوز أمامه إلا طريقاً واحداً: أن يذهب إلى

«الآخرين»، ليس هذا كل شيء، يجب أن تعرفوا، قبل غيركم، بعزم الولايات المتحدة على تقديم معونات مالية وغذائية، خاصة بعد الكوارث الطبيعية التي حصلت في المدة الأخيرة. طبيعي سوف لن تقدم هذه المعونات بشكل مجاني، إن لنا أهدافاً وراء ذلك».

حاولت كثيراً مع مستر فوكس معرفة المزيد، لكن بدا مثل صخرة، تحول إلى الصمت والتظاهر بالبلاهة، ثم انتقل إلى الحديث عن رحلة الصيد التي يهيء لها منذ بعض الوقت، واسترسل في هذا الحديث الممل الطويل إلى درجة لاحظ انصرافي وضيقي. قال ليغير الموضوع مرة أخرى:

« - يجب أن تتأكد يا مستر ماكدونالد إننا في خندق واحد، ولا يمكن للولايات المتحدة أن تنسى أصدقاءها وحلفاءها. لا يمكن أن تنسى الحروب المشتركة والمصالح المشتركة، إنها وفية إلى الدرجة التي يمكن أن يثق فيها الأصدقاء».

ومرة أخرى انتهت محاولاتي في حمله على الحديث بشكل واضح ومحدد. أما حين لجأت إلى الاستفزاز والتحدي فقد صمت فترة، وإن بانت على وجهه انفعالات حادة، حتى إذا لم يقو على الاحتمال أكثر، قال بحدة:

« - أغرب شيء أن هموم الناس في هذه الحياة على قدر مصالحهم ومسؤولياتهم. وأنتم بعد ذلك إن خسرتم جزءاً كبيراً من مصالحكم خسرتم معها وقبلها شعوركم بالمسؤولية، ولذلك لا تكفون عن ازعاج الآخرين. اتركوا الآخرين يعملون واتركوا الآخرين يعيشون أيضاً!»

فكرت كثيراً بالكلمات التي قالها فوكس، حاولت أن أفسر الأمر بحسن نية، أن أجد تبريراً لأقواله، وكان ممكناً وجود مثل هذا التبرير، لولا أن حركاتهم الأخرى تفضحهم!

معلوماتنا تؤكد أنهم يتحركون بنشاط، وفي كل مكان، وانهم قدموا وعداً بمساعدة العجوز، كما جاءت بعض الوفود لدراسة مشاريع معينة. أما المواد الغذائية التي جاءوا بها فقد كانت مهرجاناً دعائياً بائساً: صور

الملابس القديمة، وصور الأيدي المرسومة على أكياس الطحين، وصناديق الحليب. الابتسامات تملأ وجه السفير ومستشاره الاقتصادي، حين تسليم المعونة. كانت هذه الأشياء أقرب إلى الدعاية البائسة من المعونة الحقيقية، لكن الأميركيين مؤمنون بحقيقة أساسية: الدعاية تصنع كل شيء..! وسوف يأتي يوم تصل فيه الدعاية إلى إقناع الفقراء بالموت لأن الحياة السعيدة، ستكون هناك... بعد الموت. وما على الفقراء إلا أن يموتوا لكي يتأكدوا! لقد حوّل هؤلاء الخنازير كل شيء إلى اعلانات كبيرة، مفرطة في الضخامة، حتى موسى الحلاقة التي لا تزيد مساحتها على أصبعين صغيرين تحولت في دعايتهم إلى شيء عملاق يقطع الفيل!

إقتنع يا بيتر. الغِ عقلك ولا تنظر حواليك وصدّق ما تقوله لندن.

نعم إن ذلك إذا استمر على هذا النسق المعتوه فسوف تخرج بريطانيا العظمى من هنا، ومن كل مكان أيضاً، بركلات. وأين؟ في مؤخرات الذين يتصدون لمنع ذلك، ولوقف الهزيمة!

صحيح أن همنا الرئيسي إسقاط العجوز وإهمال أو تأجيل ما عدا ذلك، لكن حتى هذه المهمة الكبيرة والخطيرة قد لا تتحقق إذا كان اصدقاؤنا هكذا. الأصدقاء وراء المحيط، على الشاطىء الآخر، والأصدقاء هنا في الداخل!

الاغتيالات التي تمت مؤخراً هل يمكن لعاقل أن يفسرها بحسن نية، أو على أنها تصفية لحسابات صغيرة محلية؟

أنا، شخصياً، لا أستطيع أن أفسرها بهذه الطريقة البائسة، كما حاول ميرزا أن يؤكد؛ ورغم أن حديثاً طويلاً سابقاً قد جرى حول هذا الأمر، لم نتخذ قراراً بعد، وبالتالي يجب أن نتقصى الجهات والأسباب الحقيقية وراء هذه الموجة الجديدة.

كان ميرزا شديد الانفعال والحماسة وهو يحاول اقناعي أن الأمر عادي ولا يحتمل تفسيراً سياسياً، على الأقل في جانب علاقته ببعض الجهات الخارجية. أما عباس فقد ظهر شديد الخوف والارتباك، قال

بعصبية لفتت نظري:

ـ الآن بدأت الأخطار والمشاكل، ولا يمكن أن ننام في بيوتنا حتى نعرف الذين وراء هذه الاغتيالات، يجب أن نعرف، ويجب أن نعرف أيضاً إلى أين ستمتد ومن ستشمل!

هذه مشكلة جديدة تحتاج إلى حل، لأن العلاقة بين رجالنا تتعرض للشكوك، خاصة وإننا بحثنا في وقت سابق اقتراحاً شبيهاً، ونتيجة للخلاف والحدة التي رافقت المناقشات، اضطررنا إلى إرجاء التنفيذ في الوقت الحاضر.

ميرزا يبدو أكثر نعومة وحذراً هذه الأيام، أصبح ميالاً إلى الاعتذار عن حضور بعض اللقاءات، فإذا جاء بدا راغباً في الأحاديث العامة والمناقشات التي لا تنتهي إلى نتيجة. أما ذلك الحصان، الهرم، عباس، فأصبح سوادوي المزاج عصبياً وميالاً إلى الصمت، وكثيراً ما نهض أثناء المناقشة ونظر من النافذة ليتأكد أن لا أحد يراقبنا أو يستمع إلى حديثنا، وكان ظاهر الخوف أيضاً!

هل يجب تغيير خططنا وأساليبنا في العمل والاتصالات؟ افترض ذلك، خاصة وأن الأوضاع السياسية والاقتصادية تزداد خطورة وتدهوراً. صحيح أن المظاهرات قلّت كثيراً عن قبل، لكن شيئاً ما تحت الأرض يغلي. وهؤلاء الفقراء الذين احتملوا الأمطار والفيضان خلال الشتاء الماضي، والذين عبروا عن غضبهم بانفعال، لكن بشكل سريع ومؤقت، لا حل لمشكلتهم حتى الآن، ويبدو انهم غير قادرين على الاحتمال أكثر من قبل، ولا بد أن يفعلوا شيئاً، خاصة وأن اليساريين يحرضونهم ويدفعونهم إلى الثورة والعنف أكثر من قبل. أما المنشورات التي تصلنا هذه الأيام فإن لهجتها شديدة الخطورة. صحيح أن اليساريين كفوا منذ بعض الوقت عن المناشير الطويلة المليئة بالتحليلات البائسة لاقناع الناس، ولجأوا إلى المنشورات القصيرة التي لا تتعدى الصفحة الواحدة من الحجم الصغير. ان هذه المنشورات تثير التساؤلات والمخاوف أكثر مما كانت تفعل

المنشورات السابقة. إنها هذه الأيام تحمل عبارات قصيرة محددة: «سلحوا الشعب» «الشعب المسلح هو الذي يحمي السلطة الوطنية» «الجبهة الوطنية طريق النصر.. رصوا الصفوف في مواجهة الأعداء» «البرنامج الوطني والعلاقات الديمقراطية بين القوى الوطنية يقودان إلى النصر» «التردد والثقة بوعود المستعمرين يقودان إلى الهزيمة».

هذه مجرد نماذج من المنشورات التي بدأت تملأ المدينة، ونتيجة لها أصبحت الحكومة أكثر خوفاً وحذراً، وربما اضطرت إلى اتخاذ موقف أو آخر. الأمور تبدو الآن غامضة وتحتمل توقعات عديدة، ويجب أن نراقبها بدقة لكي نتجنب المفاجأة.

الحكومات الضعيفة حكومات خطرة، قلت هذا في آخر تقرير كتبته إلى لندن، وكتبت ذلك أيضاً إلى مستر راندلي، لأن ضعفها يغري الكثيرين، ويغريها هي نفسها، للتغلب على هذا الضعف، أن تفعل أشياء غير متوقعة. والعجوز إذا كان يبدو هادئاً وصامداً حتى الآن، ويتعامل مع الآخرين بروح الأب، ودون عقد أو مخاوف، فإنه لن يفعل ذلك طويلاً، وما أتوقعه أن يلجأ إلى أحد أمرين: إما أن يبطش ويضرب المعارضين وذوي الأصوات العالية بقوة، وأن يلجم الشارع ويضع حداً للفوضى، أو أن يرمي نفسه في أحضان الشارع ويصبح أسيراً للمعارضين. طبيعي يجب أن نؤيد الحل الأول وأن ندفع نحوه بقوة وبكل الوسائل، أما إذا حصل الحل الثاني فسوف نواجه مصاعب لا حدود لها، لأن من أصعب الأمور التعامل مع حكومة يحكمها الشارع وتخضع لمنطق وتأثير الغوغاء.

كيف نستطيع الوصول إلى الحل الأول؟ هذا هو السؤال... كما يقولون!

(٣)

بدأت اللعبة، ليس مهمًا، من بدأ بها، المهم أنها بدأت، ويجب أن ندخلها. إذا انتظرنا أو وقفنا نتفرج، فسوف يرمينا الآخرون خارج الملعب، وسوف نخسر كل شيء. كآبات عباس، هلعه، أقرب إلى الهلوسة، وربما أصبحت حالته مرضية نتيجة التقدم في السن والافلاس والعجز الجنسي، وعلينا أن نتوقف عن سماع هذره. أما راندلي فإذا لم يتوقف عن الكتابة في هذه الفترة، فسوف يخلق لنا ارباكات كثيرة.

والسؤال الآن كيف نخوض اللعبة حتى النهاية؟ هل علينا أن ندخل السباق مع هؤلاء الآخرين الذين لا يعرفهم أحد في عمليات الاغتيال؟ هل علينا أن نبدأ بالمنشورات وحرب الاعصاب؟ وإذا تبين أن ما يجري الآن مجرد فخ يراد لنا الوقوع فيه فكيف يجب أن نتصرف؟

هذه الأسئلة تحيرني، تثير أعصابي، تقول لي شيرين: «يجب أن ترتاح. الراحة أفضل وسيلة للعمل...» ربما كانت محقة، وربما كانت الحيرة واضحة في تصرفاتي.

أمس ونحن على الشرفة بانتظار عودة عباس، وكان قد خرج قبل

وصولي بدقائق قليلة، كما ذكرت لي شيرين، قالت لي فجأة:

- لقد تغيرت كثيراً يا بيتر...

- تغيرت؟

هكذا سألتها، وطافت في ذهني أسئلة عديدة، تصورتها لأول وهلة تواصل الحديث الذي بدأناه في الليلة قبل الفائتة، لكن حين قالت أن ميرزا ذكر لها ذلك، تأكدت أنها تتحدث عن الأمور السياسية. سألتها بتحدٍ وأنا ابتسم:

- وكيف عرف ميرزا اني تغيرت؟

- أنت دائم الشك، ولا تعرف كيف تتصرف مع الناس. وإذا كانت تصرفاتك السياسية مع الآخرين قائمة على الشك، كما هي تصرفاتك معي، فإن الأمور ستكون صعبة للغاية!

قلت وأنا أتظاهر بالغباء وأضحك بصوت عالٍ:

- عزيزتي شيرين.. تأكدي أنني لا أزال قوياً!

ضحكت بصخب لأتغلّب على الهجوم، تابعت بنفس النبرة:

- وأنت تعرفين ذلك جيداً!

قالت بلهجة حادة ونبرة مستغربة:

- قال ميرزا لعباس في الليلة الفائتة ان التعامل معك أصبح صعباً، وأنك لم تعد تسمع ما يقال لك، كما كان الحال في البداية!

- أهكذا قال ميرزا؟

- وقال انك سريع الغضب، وهذه الطريقة في التعامل ستؤدي إلى أخطاء كثيرة.

- لماذا لم يقل لي ذلك مباشرة؟

- لأنك لم تعد تسمع!

- وأنت تشاركينهم في هذا الرأي؟

- ألا ترى كم أصبحت عصبياً وظهر عليك الانفعال؟

- وكيف تريدينني أن أكون؟

ـ كما كنت من قبل!

ـ ماذا يعني هذا؟

ـ اسمع يا عزيزي بيتر . . .

قالت ذلك وضحكت بصوت عالٍ. نظرت اليّ نظرة خاصة وضربت بقدمها الممدودة ساقي. بان عليها، للحظات، التردد، وكأنها اخطأت في الحديث، أو لم ترد أن تخوض في هذا الموضوع بطريقة مباشرة. قلت وأنا أتظاهر بعدم الاهتمام:

ـ أنتم في الشرق تحلمون كثيراً. تتصورون الأشياء بسيطة إلى درجة يمكن أن تفعلوا ما تريدون في لحظة، أما الصعوبات، أما الحقائق فتخافون منها، تهربون!

قالت بلهجة مرحة:

ـ لقد سمعنا منك هذا الحديث عشرات المرات!

وتغيرت لهجتها قليلاً وهي تتابع:

ـ يبدو أنك لن تحب الشرق أبداً!

قلت في محاولة للسيطرة على الجو من جديد، ولأخلق الثقة في نفسها:

ـ تعرفين كم أحبك وكم أشتهيك يا شيرين!

ـ أنت لا تعرف الحب.

هكذا ردت وبان عليها الانفعال، نظرت إلى عيني تماماً. قلت بتحدٍ وأنا أحاول النهوض.

ـ لا تحاولي خداعي بمثل هذه التحديات!

ـ خداعك؟

ـ إذن ماذا تريدين؟

ـ الأفضل أن تستريح يا عزيزي!

وتطلعت حواليها أكثر من مرة وتابعت بصوت بطيء منخفض:

ـ ثم أن الآخرين قد يروننا، وأنت تعرف عباس!

ـ انك تتعاملين معي اليوم بطريقة مختلفة!

ـ ألا ترى كيف أصبحت عصبياً وشرساً؟ ألا ترى أن التعب يهدك تماماً وينعكس على تصرفاتك وكلماتك!

قلت وقد امتلأ قلبي بالغيظ والتحدي:

ـ كلكم اذن تتصورون أنني متعب، وأن تصرفاتي مليئة بالحماقة. أهذا ما تتصورونه؟

ضحكتُ بصوت عالٍ وقد شعرتُ بالمرارة التي تملؤني، وفي محاولة للسيطرة على نفسي من جديد، قلت بحدة:

ـ ربما لا تجدون شيئاً تتحدثون فيه سوى بيتر ماكدونالد، أهذا ما تفعلونه؟

نهضت شيرين، وقفت فوق رأسي، أمسكت بكتفي أول الأمر ثم تركت يدها ترتاح على صدري، وجاءني صوتها من أعلى:

ـ بيتر... بدأت أخاف المستقبل، وأكثر شيء أخاف منه أن ندمر أنفسنا بأنفسنا وهذا ما يريده الأعداء!

كانت يدها، وهي ترتاح على صدري، مثل سمكة طازجة فواحة. ملأتني رائحتها، سيطرت عليّ تماماً، ثم جاءت كلماتها مثل رنين جرس مفاجىء، قلت وأنا أضع يدي فوق يدها وأشد عليها:

ـ اعترف يا شيرين اني متعب.

تنفست بعمق وقلت بلهجة حزينة، ولا أعرف لماذا قلت هكذا:

ـ ليس المهم أن يكون الانسان متعباً، فحتى في حالات التعب القصوى يستطيع أن يفعل أشياء كثيرة، المهم أن يتخلص من الحيرة، أن يتجاوز لحظة التردد والخوف.

توقفت، نظرت إليها، بدت لي وهي تطل عليّ مثل غيمة بيضاء تمطر شهوة وتحدياً. قالت بصوت عميق:

ـ الرجال المتعبون لا يستطيعون اتخاذ قرارات صحيحة!

هزرت رأسي ولم أجب. تراءت لي في تلك اللحظة أفكار كثيرة. كدت أقف وأحضنها وأقول لها انني غير راضٍ عن سياسة لندن، وأن

راندلي مجرد أحمق لا يفهم شيئاً، وأن الأمور إذا سارت بهذا الشكل فسوف نخسر كل شيء. كدت أقول لها كل هذا، لكن في اللحظة الأخيرة ابتلعت أفكاري وكلماتي. قالت بنفس الصوت العميق والذي يأتي من بعيد:

ـ إذا استرحت قليلاً، إذا كنت هادئاً، يمكن أن تتفق مع الآخرين دون صعوبة!

ـ الآخرون؟

ـ أقصد. . ميرزا وأشرف. . وعباس

ذكرت اسم عباس بتردد. بدا لي أنها تقصد ميرزا وحده، قلت وأنا أشد على يدها:

ـ ميرزا لم يعد مثل قبل!

ـ كل واحد منكم يتصور أن الآخر تغير.

سحبت يدها بخفة واتجهت إلى نهاية الشرفة، قطفت وردة ونظرت إليها طويلاً قبل أن تشمها، ثم قالت وهي ترفع الوردة إلى أنفها:

ـ لا أستطيع أن أفهم هذا العناد الذي يتميز به الرجال.

قلت بصخب:

ـ كفى. . كفى. . لم أعد أحتمل مثل هذه الكلمات الحمقاء!

ـ يمكن أن تقول أي شيء. يمكن أن تصفني بالحماقة وعدم القدرة على الفهم، وقد تتصور انني أكثر من ذلك، لكن يبقى في الرجال حماقات أكثر مما لدى النساء!

ضحكت. كنت أتصورها في تلك اللحظة أكثر تحدياً من أية مرة سابقة، وكان لديها أشياء كثيرة تريد أن تقولها، لكن تبدو مترددة وغير واثقة، قلت:

ـ ما أريد أن أفهمه الآن: هل أنت التي تتحدث معي أم أن أحداً طلب إليك أن تتحدثي هكذا؟

ـ أحد؟

ـ أقصد ميرزا!

تركت حافة الشرفة التي كانت تستند إليها بخطوات بطيئة؛ ظلت تنظر إليّ وهي تتقدم. كانت نظراتها مليئة بشيء غامض، كانت تبدو مثل طفلة بريئة، وفي لحظات أخرى مثل قطة، وبعض الأحيان تبدو شديدة المكر. كانت تمسك الوردة من ساقها وتفرها فتدور الوردة دورات سريعة متألقة، وكان صدرها الأبيض المليء يرتفع ويهبط بحركة منتظمة، أما شعرها فقد تطاير قليلاً من هبة ريح اندفعت في تلك اللحظة. ارتمت بلا اهتمام على الكرسي ومدت ساقها، لامست ساقي، ضربتني بتحدٍ، مدت شفتها السفلى إلى الأمام، كانت متحدية وشهية، لم أكن قادراً على تركيز أفكاري، كنت حائراً بين أن أتابع اللعبة معها أو أن اخترقها بنظراتي. كنت أتمنى احتضانها في تلك اللحظة. قلت لاخرج من هذه الحيرة:

ـ أوافق يا شيرين.. أوافق على كل كلمة!

ـ توافق؟

ـ ألا تريدين ذلك؟

ـ لا أريد أي شيء!

وتأوهت. بدا وجهها للحظة شاحباً قالت بعذاب:

ـ يجب أن ننتهي من هذا العذاب!

(٤)

لا أملّ ابداً من تكرار هذه الفكرة الرئيسية التي ظهرت لي منذ الايام الاولى لوصولي: ان الحذر هو الطابع المميز للشرقيين. انهم حذرون إلى درجة لافتة للنظر، إذا ساروا نظروا باستطلاع مشوب بالخوف إلى كل ما حولهم: إلى الوجوه والاشجار والجدران، وبعض الاحيان لا يكتفون بمجرد النظر، انهم يدقون الارض باقدامهم ليتأكدوا من صلابتها، ويمدون ايديهم الى الجدران يتلمسونها، يفعلون ذلك بعناية ترافقها كلمات وأدعية يحرصون على ترديدها بصوت مسموع، وان كان غير مفهوم أغلب الأحيان!

هذا الحذر، الذي هو طابع الافراد، انتقل مؤخراً إلى الحكومة ذاتها! اصبحت الاجتماعات تعقد في الليل، وتمتد ساعات طويلة. اصبح المسؤولون يغيبون فترات طويلة عن الانظار، وينتقلون بسيارات غير رسمية. واذا كانت هذه التصرفات تجد تبريراً في الاحوال العادية فإنها تزيد الموقف غموضاً هنا، خاصة في هذا الوقت، لأن التفسيرات التي تعطى لهذه التصرفات من التناقض والاختلاف إلى درجة تضلل اي مراقب، يضاف إلى ذلك عشرات الاشاعات والاخبار التي يتناقلها الناس.

وإذا كنا قد تعودنا في اوروبا أن نسمع الكثير من حكوماتنا، فالحكومات هنا لا تقول شيئاً اغلب الاحيان، وإذا قالت فالناس متأكدون من كذبها ومخادعتها، وانها تعني شيئاً مختلفاً عما تقوله الكلمات. ولا يقتصر عدم الثقة على ما تقوله الحكومة، هناك امر اكثر ظهوراً وخطورة، ان الناس هنا لا يثقون بما تكتبه الجرائد، ويفضلون عليها الجرائد غير المكتوبة، الجرائد التي ينقلها الافراد من لسان إلى آخر في المقاهي والاسواق. ومن العادات الشرقية اللافتة للنظر أيضاً أن الناس هنا يتبادلون المعلومات بسرعة، ويثقون بما يقوله الآخرون وينقلونه، حتى أن السؤال الذي لا يملون من تكراره: «ما هي الاخبار؟» وقد ذكر لي عدد من الاصدقاء أن الانسان إذا اعاد على الآخرين ما قرأه أو سمعه من الجرائد والاذاعات، فإن الكلمة الوحيدة التي يسمعها تعليقاً على ذلك: «هذا كلام جرائد». وهم يعنون عدم الثقة بهذا الكلام ولا يصدقونه!

إن ظاهرة مثل هذه تزيد الصعوبات التي نواجهها، وتجعلنا في حيرة كبيرة. علينا بالاضافة إلى قراءة الصحف وتدقيق اخبارها أن نستعين برجالنا لمتابعة الجرائد غير المكتوبة، وأن نسمع آخر الاشاعات والتعليقات. وقد صدف مرات كثيرة أن جملة من الاخبار سمعناها منقولة من افواه الناس في المقاهي ثم ما لبثت أن تحققت بعد فترة من الزمن!

هذه الظاهرة بالذات استحوذت على اهتمامي منذ وقت مبكر، وقد اكتشفت فيها سلاحاً قوياً يمكن أن نستعين به. وإذا كان بعض رجالنا يتحفظ تجاه افكارنا وطريقتنا في العمل، فإن هذه الفكرة لاقت هوى سريعاً. إذ ما كدت اقترح خوض هذه الحرب حتى وجدت ميلاً سريعاً إلى ذلك. لان الشرقيين ميالون بطبيعتهم إلى المبالغة في كل شيء، لكن بحدود معينة، لأن المبالغة الزائدة في تركيب الاخبار تفسدها وتخرجها عن الهدف الموضوعة من اجله، وقد اتفق معي ميرزا كثيراً في ذلك، في الوقت الذي اكد عباس أن الناس مستعدون لسماع اية اخبار، مهما بدت غريبة ومبالغاً فيها، لأن عنصر الغرابة والمبالغة يخصب الخيال ويترك لمن

سينقلها، فيما بعد، امكانية تحويرها وصياغتها حسب ما يراه مناسباً!

في هذا الجو يقول لي راندلي «اتفق معك يا بيتر أن الطقس اصبح قاسياً، وأن جو اوروبا في هذه الفترة بالذات منعش وباعث على النشاط والحيوية، لكن ما لا اتفق معك فيه أن تستسلم لهذه الموجة من السوداوية والتشاؤم! ما بالك يا عزيزي شديد الحيرة واقرب إلى الضياع؟ اخبارك في الشهرين الأخيرين متناقضة إلى اقصى حد، وتقديراتك تتراوح بين التفاؤل الشديد والتشاؤم الشديد، حتى أن قراءة رسالتين بتاريخين مختلفين تعطي انطباعاً انهما جاءتا من مصدرين مختلفين بل ومتناقضين!

«ليس هذا كل شيء. ان الاشاعات التي يتناقلها الناس في المقاهي والشوارع لا تهمنا كثيراً، قد تهم الناس عندك، وقد يلتذون وهم يسمعونها، وإذا كنت قد وافقتك على أن تلعب هذه اللعبة، وتبذر كميات كبيرة من الأخبار الملفقة والاشاعات، فيجب أن لا تعيد الكرة إلى مرمانا مرة أخرى، ثم يجب أن تدرك أن هذه اللعبة يلعبها الآخرون، وقد يلعبونها بذكاء ومهارة أكثر منا، وعلينا ألا نقع أسرى هذه اللعبة.

«عزيزي بيتر... ادخلوا اعمق فأعمق إلى قلب الاجهزة، بما في ذلك القوات المسلحة. ضعوا آذانكم هناك واسمعوا جيداً، لأن هذه الاجهزة هي التي ستحسم الموقف في النهاية، أما رغبات الناس واحلامهم فليس لها اية قيمة، وسوف تكتشف ذلك وتتأكد منه بنفسك».

ليقل راندلي اي شيء. ولتقل لندن ما تريد. أما من يعيش هنا فإنه يرى ويسمع بطريقة مختلفة. وإذا كنت قد تعودت منذ وقت مبكر أن انقل لرؤسائي كل ما ارى واسمع فيبدو أنني سأدفع ثمن هذه الخطيئة... وهذه رسالة راندلي تؤكد ذلك!

يقول: التفاؤل الشديد والتشاؤم الشديد ويسخر! نعم، الحقيقة هي هكذا مهما حاولنا تمويهها، وإذا كان اي موقف يحتمل الوجهين، تبعاً للظروف، فإن الحالة هنا اكثر تمويهاً من أي مكان في العالم. والعجوز الذي كان شديد الثقة بالنفس ويبدو قوياً طوال الفترة الماضية، تحول في

الايام الاخيرة إلى ما يشبه الحيوان المحاصر، ولذلك فلا احد يعرف ماذا سيفعل. وإذا كانت بعض الهوايات البائسة قد علمتني طريقة معينة في التفكير والتصرف، فإن للآخرين هوايات مختلفة، وبالتالي طرق مختلفة في التفكير والتصرف!

اعتقد أن اضخم الاهرامات مبنية من ادق المواد واكثرها خفاء، رغم ما يبدو من ضخامتها ووحدتها الظاهرية. والسياسة تشبه الاهرامات ايضاً، خاصة في هذا الشرق، لأنه بدون معرفة التفاصيل الصغيرة، دون معرفة ما يفكر فيه الناس وما يفعلونه لا يمكن معرفة ما يفكر فيه الحكام والوصول إلى داخلهم.

ليس هذا كل شيء، يقول راندلي: ضعوا آذانكم في العمق! هل يريدني أن اضع اذني اعمق من سرة شيرين؟ (آه من تلك الذئبة) وهل يريدني أن اتورط وادفع رجالنا بتهور؟ واين..؟ إلى القوات المسلحة!

يبدو لي راندلي شديد الحماقة في لحظات معينة. إذا كنت قد بذلت الكثير من اجل اقناع رجالنا أن يكفوا عن الحديث بانزال القوات في الوقت الحاضر، فها هو الآن يتكلم بطريقة مختلفة!

اتفق معه أن الطقس يلعب دوراً في صياغة العقل الشرقي وفي صياغة كل من يعيش في الشرق! وربما اثر عليّ هذا الطقس الملعون، كما تؤثر الخمرة في الرؤوس، وقلت وكتبت اشياء كان من الواجب أن تبقى لي وحدي!

عليّ الا اضيع الوقت في هذه الكآبة. يجب أن العب البريدج مع هؤلاء الاميركيين ويجب أن التقي غداً برجالنا لتقييم الموقف من جديد. وعليّ قبل كل شيء أن اتعلم الصمت، وعليّ الاّ اكتب أو لا اتكلم إلا حين يطلب مني ذلك، وبأقل الكلمات!

(٥)

شعور الاميركيين تجاهنا لا يتعلق بالاحترام أو الاحتقار، انه شعور مركب، وهو مزيج من عوامل واسباب كثيرة ومعقدة. ان شعورهم بالغنى يدفعهم اكثر فأكثر نحو الشراهة. يريدون كل شيء لأنفسهم، ويريدون من الآخرين أن يكونوا خدماً لهم. حتى تصرفاتهم الفردية، في لحظات معينة، تعطي هذا الانطباع!

كانت الليلة الفائتة مليئة بالغرائب: البذاءة الاميركية ذاتها التي تتكرر باستمرار من ادنى المستويات إلى ارفعها، التحدي، الجهل، الكتمان المفضوح، القهقهة العابثة المجنونة، قراءة الروايات الرديئة، ومتابعة البيسبول وكأن مصير العالم يتوقف على هذه اللعبة. وماذا ايضاً؟ الحديث من الانف، السيجار المقضوم على طريقة الفئران الجائعة، غمزات العيون البلهاء دلالة الانتظار!

كيف افسر ذلك؟

يجب أن اعترف، لنفسي على الأقل، انهم اقوياء وانهم اغنياء ايضاً، والقوة والغنى في هذه الايام يصنعان الكثير، لكن يجب أن اعترف

لنفسي على الأقل، انهما لا يصنعان كل شيء. هؤلاء الاميركيون وحوش يلبسون ثياباً غالية الثمن، لكنها ثياب فجة تفتقر إلى الحضارة، وتفضحهم بسرعة. ولأنهم وحوش يسمحون لأنفسهم بكل شيء. لم يقولوا كلمة واحدة على انهم جاءوا ليحلوا مكاننا، انهم يقولون العكس، لكن نواياهم لا تخفي عليّ! ومهما حاولت لندن أو راندلي النفي فإنني المس العكس!

المبعوث الذي ارسله رئيسهم التقى بعدد من الدبلوماسيين، وقد طلب أن يلتقي بي. وإذا كانت عادتي، منذ ايام بعيدة، أن ارسم صوراً للاشخاص الذين سألتقي بهم، وأن افترض اشكالاً وملامح لهم، ويلذّ لي بعد ذلك المقارنة بين الصورة التي رسمتها والصورة الحقيقة التي رأيتها، فقد حرصت هذه المرة أن افعل شيئين اثنين: أن ارسم في ذهني صورة لهذا المبعوث، وقد تخيلته بشكل معين، ثم اطلعت على مجموعة الصور التي التقطت له مع سفيرنا. تمعنت طويلاً في صورته، دققت الصور عدة مرات، نظرت إلى عينيه وإلى يديه، كيف ينظر إلى الآخرين، كيف يجلس، كيف يبتسم، قارنت طوله بالآخرين، وإلى طريقته في عقد رباط العنق، ان هذه التفاصيل الصغيرة، التي قد لا تلفت نظر احد، تعطي انطباعاً عن نوعية الشخص، وكثيراً ما تأكدت أن فراستي تتطابق مع الحقيقة والواقع!

حين التقينا في الطابق العلوي في السفارة الاميركية، وكان برفقتي مستشارنا الاقتصادي. بدا لي الرجل منهمكاً في قراءة رسالة، وتظاهر انه لم يلحظ وجودنا، حتى إذا اقتربنا كثيراً ولم تعد بيننا سوى خطوات قليلة نهض بخفة، مستنداً إلى ذراع المقعد، بعد أن طوى الرسالة بيد واحدة وبعصبية!

طوال اللقاء مثّل دور المستمع، كان يريد أن يفهم المشكلة، حسب التعبير الذي استعمله، وأن يفهم وجهة نظرنا بشكل خاص!

كنت اعرف انه يكذب، لأن وجهة نظرنا كانت واضحة، ويعرفها، كما اشعرتني لندن، ووضعت بين يديه ملفاً كاملاً حولها. وقد تأكد لي

كذبه من بعض الملاحظات الصغيرة. كان يسأل ببلاهة حول امور بديهية ومعروفة وشديدة الوضوح ايضاً. كان يفتح عينيه بدهشة ويهز رأسه دلالة الاستغراب حين ذكرت له المطالب والمراحل، ثم الاقتراحات التي عرضناها، وكأنه يكتشف امراً جديداً، ويستغرب كيف أن العجوز رفضها، ورفض مجرد مناقشة المبدأ!

أما حين سألته بلطف إن كان يستطيع تقديم اقتراحات تساعدنا في الوصول إلى حل مناسب فقد تظاهر انه لم يستوعب اقتراحي أول الأمر، ثم تململ في جلسته ونظر إلى الساعة، وهذه الحركات، ثم نظراته المتسائلة والمفكرة في نفس الوقت، وهو يصبها عليّ، اشعرتني أن الرجل لن يتكلم. قال وهو يبتسم بثقة «الأمر لا يزال بحاجة إلى مزيد من الدراسة، ويتطلب الاطلاع على وجهة نظر الطرف الآخر»، كانت كلماته حازمة وشديدة البتر، وفي نطاق المجاملة الدبلوماسية البائسة سألني عن المدة التي قضيتها، وفيما إذا كنت احتملت هذا الجو دون مصاعب أو مضايقات، وسألني بطريقة خبيثة ما إذا كانت زوجتي معي او تركتها في لندن وابتسم!

ظللت هادئاً ومتماسكاً. اجبت على اسئلته بأدب، وقلت أن الطقس رغم صعوبته يمكن التعود عليه. أما فيما يتعلق بالنساء فإن الأمر شديد الصعوبة!

لقد تعمدت أن اقول الكلمات الأخيرة بطريقة معينة لأكسر جو التهيب، ولعلّي اصل إلى تصورٍ أو نتائج لم استطع الوصول اليها من خلال الحديث الجدي. بدا عليه المرح حين سمع هذه الكلمات. نهض مبتسمًا وأمسك بساعدي وضغط، ثم نظر إلى السفير، الذي دخل علينا، بمرح زائد وقال:

ـ هؤلاء الانكليز قادرون على العيش في كل مكان وقادرون على التكيف مع أي جو!

وقهقه بطريقته الاميركية الفجة، ثم اضاف بلهجة جديدة:

ـ الشيء الوحيد الذي لا يقدرون عليه هو ترك زوجاتهم في لندن!

ونظر إليّ وقد مد شفته السفلى قليلاً واعطى لفمه ملامح معينة هي بين التساؤل والسخرية وسأل من جديد.

ـ ماذا تقول؟ اليس كذلك؟

حين انتهت المقابلة تأكدت أن هؤلاء الاميركيين لا يـريدون أن يتكلموا، حتى الكلمات القليلة التي يتبادلها مسافران في قطار لا يريدونها. وإذا كانت عادتنا، نحن الانكليز، الا نتكلـم، إذا دعينا للكلام، فإنهم الآن يتفوقون علينا في هذه العادة!

أما النتيجة التي خرجت بها بالمقارنة بين صورة الرجل قبل أن اراه، ثم بعد أن التقيت به، فكانت بائسة للغاية. كانت الصور توحي بالطيبة والحذر، وكانت تعطي انطباعاً بالاستهتار، نتيجة الوقفة وطريقة وضع اليدين، أما الواقع، أما الصورة الحقيقية التي توصلت اليها، فإن الرجل شديد المكر ويعرف اشياء كثيرة، كما انه شديد الحزم، والنظرة في عينيه اقرب إلى نظرة المجرمين!

لو اقتصر الأمر على هذا الرجل لوجدت تفسيراً لذلك، أما أن يكونوا جميعهم هكذا فإن الأمر يحتمل تفسيرات كثيرة، وكلها ليست في مصلحتنا!

في الليل، مع كؤوس الويسكي واوراق البريدج، جرت احاديث كثيرة، وما عدا البيرت الذي لعبت الخمرة في رأسه، والذي تحدث ببساطة، واشار اكثر من مرة إلى اصله الايطالي، وأن اسمه الحقيقي كما تناديه العائلة البرتو، ورغبته في أن يعود ذات يوم إلى ايطاليا للاقامـة الدائمة هناك، والذي صلى اكثر من مرة تلك الليلة، وكان يذكر البابا بـاعجاب مشـوب بالخـوف، وركع عـلى الارض من اجل أن تنتصـر الكاثوليكية وتعم العالم. . . ما عدا هذا الرجل الذي قال بعض الكلمات ذات الدلالة الواضحة، من انهم لن يتركوا الامور هكذا وانهم سيقضمون رأس العجوز كما تقضم كعكة عيد الميلاد، ما عدا هذه الكلمات، والتي كانت بين السكر والصحو، وجاءت نتيجة استفزازي، فأن الآخرين، مثل عاداتهم دائماً، فضلوا أن يجري الحديث عن الطقس والنساء والبيسبول،

اما فوكس فقد اقترح بالحاح أن اذهب معه للصيد، وقال اني لن اندم لو رافقته في هذه الرحلة!

كيف نتعامل مع هذه العجول الذهبية؟ إلى أي حد يمكن أن نثق بهم؟ وماذا إذا صدقت كلمات البيرت؟

لو كتبت مجدداً إلى لندن فسوق تنهال عليّ مرة اخرى كلمات التقريع، وسوف يقولون ويظنون اشياء كثيرة. أما إذا تركت الامور تجري هكذا ووقعت المفاجأة بعد ذلك فسوف تفتح لندن فمها كما يفتح القرش فمه وتسأل: «أين كنت يا مستر ماكدونالد؟» «لماذا لم تبلغنا في الوقت المناسب يا مستر ماكدونالد؟» «وهل كنا نحن هناك أم انت. يا مستر ماكدونالد؟».

ضمن هذا الجو المليء بالاحتمالات والتوقع عليّ أن اجد طريقي. لو كانت الاوضاع هادئة، وظل العجوز مثلما كان في الفترة السابقة، لو أن حوادث القتل لم تقع والمنشورات لا تملأ المدينة. لولا هذه الامور الطارئة والخطيرة لوجدت طريقي ومع ذلك يجب أن اجد طريقاً ما!

هل يمكن لشيرين أن تكون ضوءاً في هذا الطريق؟

(٦)

اكثر من اية مرة سابقة تستسلم لي شيرين، تبدو شديدة الرضا وخائفة، واحس أن في عينيها احاديث كثيرة. كنت اريدها هكذا، فانا بحاجة لأن اسمع منها الكثير. إذا استجابت شيرين فسوف اقتحم عالم الاميركيين الأرعن، وسوف ادفعها لأن تضع اذنيها حيث يريد راندلي!

مثلما يحصل دائمًا سألتها عن عباس وعن ميرزا، قلت لها أن عباس يبدو في الفترة الأخيرة خائفاً وشديد القلق، عكس ميرزا، وانني إذ افهم قسمًا من الاسباب التي تدعو إلى القلق والحذر، لا استطيع تبرير موقف عباس، وكذلك لا انظر بهذه الخفة إلى حوادث القتل التي بدأت تحصل في الفترة الاخيرة، كما يفعل ميرزا!

وسألتها عن اشرف آية الله وطلبت اليها، بتأكيد، لكن دون الحاح، أن تؤمن لي موعداً مع اشرف، لأني أريد مناقشته في بعض الجوانب القانونية، ولم ازد على ذلك كلمة. كان يروق لي أن اسألها عن رأيها بأشرف، حقيقة علاقته بميرزا وعباس، ما إذا كان لها علاقة به، لكنني، من خلال الخبرة وبعض الملاحظات الصغيرة التي توصلت اليها اثناء

اللقاءات المشتركة، تأكدت أن شيرين تنظر إلى اشرف بنوع من التكبر، والذي يصل حد الاحتقار بعض الاحيان، كما تسرف في الحديث عن «مزايا» زوجته المكسيكية، ومدى التأثير الذي تمارسه عليه!

نظرت إليّ بطريقة خاصة متسائلة، وكأنها لم تتوقع مثل هذه الاسئلة. حاولت أن تهرب في البداية، قالت انها غير مهتمة بهذا الامر وانه لا يعنيها. وقالت أن حوادث القتل في هذه المدينة ليست جديدة، وانها تتذكر مثل هذه الحوادث منذ كانت طفلة، والرجال وحدهم يعطونها تفسيرات تختلف مرة بعد اخرى تبعاً للحالة النفسية التي يعيشونها!

قلت لشيرين استفزها:

ـ لا اوافق على هذا التفسير ابداً، والحوادث التي وقعت في الايام الاخيرة لا تشبه اية حوادث سابقة، ليس هذا كل شيء أن محاولة طمسها أو اعتبارها غير مهمة أمر مقصود ايضاً!

فتحت شيرين عينيها على اتساعهما، ونظرت اليّ بخوف، قلت اواصل اللعبة:

ـ إن تضخيم هذه الحوادث أو تبسيطها يدل على معرفة مسبقة!

قالت بحدة:

ـ ماذا تعني مستر ماكدونالد؟

قالت ذلك وشدت الغطاء على صدرها واعتدلت في السرير، مستندة إلى الحافة الخشبية العالية، وشيرين حين تفعل ذلك، خاصة إذا خاطبتني باسم العائلة، فإنها تكون قد غضبت أو على وشك أن تغضب، قلت لأسيطر على الجو من جديد:

ـ لا تحاولي يا عزيزتي تفسير الأمور اكثر مما تحتمل. ان سؤالي بسيط للغاية ولا يتعدى معرفة اسباب خوف عباس وعدم اهتمام ميرزا!

توقفت، نظرت اليها بتحديد، قلت بطريقة مختلفة:

ـ يجب أن تفهمي كلامي من هذه الزاوية، ولا اقصد شيئاً آخر!

ابتسمت بحزن. نظرت اليّ وهي تهز رأسها دلالة الأسف، فلما

تأكدت أن ابتسامتها ونظراتها استقرت في ذاكرتي، قالت:

ـ لا اعرف لماذا يعشق الرجال جو الشكوك والمخاوف، انهم لا يستطيعون الحياة يوماً واحداً دون تساؤلات من هذا النوع، ولا يقتصر الامر على السياسة، إذ يشمل كل شيء... عدد أيام الاسبوع وساعات الليل والنهار!

لا شعورياً خرجت من اعماقي قهقهة عالية، لم تكن مقصودة ولم ارد بها الأذى. تقلص وجه شيرين والانفعالات السريعة الحادة التي ظهرت عليه اشعرتني بالخطأ، قلت في محاولة لامتصاص الغضب:

ـ المسألة لا تتعلق بالرجال، انها صفة انسانية، وتعني النساء بمقدار ما تعني الرجال، والانسان إذا تخلى عن الشك، عن التساؤل، فإنه لا يعود انساناً!

ـ هكذا تتصور الامور يا مستر ماكدونالد؟

ـ لماذا تخاطبينني بهذه اللهجة يا شيرين؟

ـ وكيف تريدني أن اخاطبك؟ كيف تريدني أن اواجه الشكوك التي تطوقك من كل ناحية كما يطوقك الهواء؟

ـ ولكن الامر لم يصل إلى هذا الحد!

ـ بدأت بعباس وميرزا ثم بآية الله وانتقلت اليّ بعد ذلك، وقد تصل إلى الشك في نفسك بعد لحظة!

ـ وهل اخطأت حين سألتك عن خوف عباس؟

ـ الامر لا يتعلق بالخطأ أو الصواب إنه يتعلق بطريقة السؤال، بالشكوك التي تغلف السؤال.

توقفت بعض الوقت. بدا وجهها ممتقعاً شاحباً. سحبت نظراتها إلى النافذة، ثم استدارت بجسدها كله. انحسر الغطاء قليلاً، بان جزء كبير من ظهرها، حاولت أن تجرّ الغطاء لكن لم يطاوعها، فقد كان تحتها، قلت لأغير الجو:

ـ ما اتصوره يا شيرين أن النساء اكثر شكوكاً من الرجال بعشرات

المرات، وإذا كانت شكوك الرجال مفهومة، ويمكن تفسيرها، فإن شكوك النساء، لا تفهم ابداً، انها من صنع الخيال دائمًا!

التفتت إليّ بنصف رأسها، نظرت إليّ بسخرية، وقالت بصوت بطيء:

ـ وماذا ايضاً عن النساء. . . يا مستر ماكدونالد؟

ـ انا بيتر وارفض أن تتحدثي معي بهذه الطريقة!

ـ اراك غضبت!

ـ من حقي أن اغضب.

ـ ومن حق غيرك أن يغضب ايضاً.

ـ إذا كانت هناك اسباب!

ـ دائمًا هناك اسباب، ولكل انسان اسبابه!

ومن جديد استدارت. كانت تواجهني. انحسر الغطاء مرة اخرى، بان صدرها الابيض المشبع باللذة، نظرت هي إلى صدرها، وكأنها تحاول التأكد أن المساحة الظاهرة كافية لأثارتي. مدت يديها الأثنتين إلى الغطاء، عند الوركين، وشدته تحتها بقوة، اخذ الغطاء شكل جسدها تماماً، وانزاح قليلاً عن مساحة اضافية جهة الصدر. لما اطمأنت أن وضعها اصبح قوياً، سألت باغراء:

ـ ماذا تقول الآن يًا مستر ماكدونالد؟

ابتسمت ونظرت اليّ بطريقة معينة، ثم استدركت:

ـ عفواً. . . بيتر!

كنت احس بقواي في تلك اللحظة تتراجع وتضمحل؛ كنت اقاوم النظر إلى جسدها، خاصة الصدر، لكي لا اضعف اكثر. قلت وانا انظر الى الأرض:

ـ يبدو يا شيرين أن الانسان لم يعد قادراً على مجرد السؤال!

وبطريقة حافلة بالأغراء والتحدي، قالت:

ـ تعال يا عزيزي. . . تعال.

وضحكت ضحكة صغيرة، تابعت بعدها:

ـ الوسادة احسن وسيلة للتفاهم.

هززت رأسي دلالة اليأس والغضب. حاولت أن ارسم على وجهي مظاهر الرفض وعدم الرغبة، لكن اعماقي كانت تشتعل. وحتى لو لم تلجأ شيرين لهذه الطريقة، لم اكن قادراً على الصبر والاحتمال. كان من السهل عليّ أن الجأ إلى طريقة ما للتغلب على الجو السابق، أن أغيره، أما وأن شيرين بدأت اللعبة فعليّ أن اتماسك، أن أقاوم بعض الوقت، قلت بحزن:

ـ كنت اتمنى لو أن العلاقات بيننا اكثر بساطة واوضح!

صرخت بحدة، كما لو كانت قطة:

ـ تعال... ويمكن أن تسأل ما تشاء!

* * *

قال لي راندلي «استمتع... استمتع إلى اقصى حد، لكن يجب أن تعرف متى تنسحب، حتى لو كان ذلك شاقاً، لأن المرأة إذا احست انها سيطرت على الرجل، وتأكدت انه استسلم لها تماماً، فسوف تكسب المعركة كاملة، وعندها لن يستطيع أن يسخّرها. ومهمتنا يا بيتر أن نسخّر لمصلحتنا، لتحقيق اهدافنا، كل شيء: النساء والمال والقتل. حتى الرياح والطيور إذا امكننا تسخيرها يجب الا نتردد..».

إن اقوال ذلك العجوز صحيحة، لكنها غير مفيدة وغير عملية، وهي ضد الانسان ايضاً. في لحظات معينة يتراءى لي أن راندلي مصنوع من الاسمنت والحديد، وانه لا يملك ذرة واحدة من العاطفة. ماذا يريدني أن افعل في لحظات مثل هذه؟ وكيف استطيع انتزاع نفسي من هذا اللهب الذي يتسرب إليّ بقوة مدمرة وينتشر في جسدي كما تنتشر الرياح؟

حالما التقي براندلي سأخوض معه في مناقشات مدمرة ملعونة. سوف احمله على أن يحدثني عن لحظات ضعفه وسقوطه، عن اللحظات التي لم يستطع أن ينتزع نفسه من اللذة. وسوف اقول له أن جميع نصائحه وكلماته المحنطة لا تتعدى الكائنات الميتة المطروحة في بطون الكتب

الرديئة. والانسان، اي انسان، لا يمكن أن يتحول إلى مجرد آلة جامدة يتحرك او يتوقف عن الحركة حين يريد الآخرون، ان ذلك لن يحصل حتى لو ارادوا!

في الفراش، وسط اللهب المصهور، والـذي عبقت به الغـرفة، ضاعت من ذاكرتي اسئلة كثيرة، واستبدلتها باسئلة اخرى. وشيرين التي كانت تجيب بمرح واقتضاب، والتي كانت تهرب مثل قطة، ثم تهجم مثل ذئب، جعلت افكاري مثل وعاء مثقوب، لا يستقر فيه شيء. حتى اذا طلبت منها سيجارة، قالت بسخرية:

ـ ماذا تظن يا مستر ماكدونالد هل يمكن أن تتركني في منتصف الطريق وتتخلى عني؟

ـ ماذا استطيع أن افعل؟

ـ أن نواصل هذه اللعبة المجنونة دون سجائر أو أسئلة!

ومثل حيوان مفترس، مثل غريق يحارب ضد كل شيء، لم تتركني. وفي تلك المرة عرفت اكثر من اية مرة سابقة أن الشرق هو الشبق، وانه اللعنة التي تصيب الانسان، خاصة الرجل فيتحول إلى شبح!

في وقت ما، وقد كنت بين اليقظة والنوم، استندت شيرين إلى الوسادة بمرفقها. كانت ساقها فوق بطني ووجهها يلامس جبهتي، وكانت أصابع يدها اليسرى تداعب شعري وتمسح حبات العرق عن جبيني وبدأت تتحدث!

لا اتذكر كل ما قالته، لكنها كانت تتحدث عن ميرزا وعبـاس وتحدثت ايضاً عن اشرف آية الله. تحدثت كثيراً عن عباس. وتحدثت اكثر عن ميرزا. قالت أن للخوف مبرره ولعدم الاهتمام مبرره، وأن الاثنين ينطلقان من مواقع مختلفة: مواقع الماضي ومواقع المستقبل. وإذا كان عباس مدفوعاً بقوة الحنين إلى الماضي والرغبة في العودة اليه، فإن ميرزا يفكر بالمستقبل ويصنع هذا المستقبل ويجب أن لا نفلسف الأمور كثيراً وأن لا نغرق في بحث اسباب الخوف وعدم الخوف!

واتذكر أن اسم ميرزا وهو يتردد بوقع رتيب في اذني اثارني. قلت

لشيرين بانفعال:

ـ لا اصدق انك لا تحبين ميرزا وأن لا علاقة له بك!

شدت شعري بقوة. صرختُ من الألم. قلت متحدياً:

ـ لا اصدق مهما استعملت من وسائل التعذيب.

شدت شعري مرة اخرى، لكن دون غيظ هذه المرة، بطريقة هي بين الغضب والأغراء:

ـ قلت لك الف مرة أن الرجال، مثل السمك، لا يعرفون العيش خارج هذا البحر من الشكوك!

ـ تقصدين أن لا علاقة؟

ـ يمكن أن تقول ما تشاء، لكن يجب أن تعرف: هذا الرجل افضل كثيراً مما تتصور، مما يتراءى لك، وانه يكنّ لك مودة خاصة، وانه ربط مصيره بكم، وإذا كانت هناك افكار أو شكوك فأنا مسؤولة عنها!

ـ وتقولين انك لا تحبينه بعد ذلك؟

ـ هناك فرق كبير بين علاقتي بك وعلاقتي بميرزا. . !

ـ وهذا الفرق. . . لمصلحة من؟

وهجمت عليّ، وضعت صدرها فوق وجهي، كتمت انفاسي، انتفضتُ لأعب الهواء، قالت وهي ترتفع بهدوء، وتخلص صدرها من وجهي بعد أن التصق به نتيجة الضغط والعرق:

ـ بعض الرجال لا يصدقون الحب إلا اذا قتلهم هذا الحب، ويبدو انك ستضطرني لأن افعل ذلك معك!

وبطريقة هي مزيج من الثقة والتحدي والنعومة انتفضت شيرين واقفة وبدا جسدها، وهي تتحرك نحو المقعد الموضوع في الزاوية، قريباً من النافذة، مليئاً بضاً، وبدا ظهرها لامعاً، بعد أن اغتسل بالعرق. قلت في نفسي «لم اعد افهم شيئاً، وعلى راندلي أن يجرني من اذني كما تجر الكلاب لأنني لم اعد صالحاً لشيء» وبدأت ادخن سيجارة وأنا انظر اليها

بشهوة وهي تتطلع ألى المرآة، وهي تلبس، وهي تمسح العرق، وحين رأتني اراقبها هكذا، صرخت مثل قطة!

ـ يجب أن تتوقف عن النظر اليّ هكذا. . . مستر ماكدونالد!

(٧)

ازدادت الامور تدهوراً في هذه الايام. خرج العجوز عن وقاره واصبح واحداً من الغوغاء! بدأ يتكلم بنفس الطريقة التي يتكلم بها الرجال في الشارع. يتصرف بعصبية. يهدد. يلوّح باوراق كثيرة. وبعض هذه الاوراق يثير الاميركيين ويستفزهم. واكثر ما يثير الشكوك في هذه الفترة الاتصالات الغامضة واختفاء بعض الرسميين.

ليس للاميركيين همّ إلا معرفة أين يذهب بعض المسؤولين وماذا فعلوا. انهم يراقبون الحفلات الدبلوماسية بعناية كبيرة، وتكاد احاديثهم تتركز حول بعض الرجال الذين لم يكونوا موجودين في هذه الحفلات. «لماذا غاب وزير الخارجية؟» «هل هو موجود في البلاد أو غادرها؟ وإذا كان موجوداً لماذا لم يأت؟ وإذا كان خارجها اين ذهب ولماذا؟» انهم يصدّعون رؤوسنا بأسئلة من هذا النوع، ولا يملّون من الاسئلة. وإذا كانت سفارتنا، كما اطلعني السفير، تهتم بهذه الامور وتحرص على معرفة الكثير، لكن الانكليز بطبيعتهم اكثر واقعية، واكثر قدرة على أن يتعاملوا مع الاشياء والبشر دون أوهام. أما هؤلاء العجول المصنوعون من الذهب

والبلاتين فإنهم حالمون بطريقة ما! وربما كانت الحياة التي عاشوها طوال الفترة الماضية، في تلك القارة الغامضة، سبباً في رغبة الاكتشاف المستمر!

وإذا كان الاميركيون ميالين لمعرفة لماذا يختفي الناس أو إلى اين ذهبوا، فإننا ميالون إلى معرفة ما يدور في رأس العجوز أو ماذا سوف يفعل! هذا هو المهم!

قال عباس قبل أيام:

ـ لم يعد لنا أمل. يجب أن نجمع أوراقنا وما تبقى لنا ونرحل، هذه هي القناعة الأخيرة التي توصلت اليها!

وحين بدأنا بالمناقشة، وكانت عاصفة وعصبية، عاد من جديد إلى موضوع الاغتيالات. قال إنها بداية النهاية بالنسبة لنا. واشتبك مع ميرزا في مناقشة أقرب إلى المعركة، وقد اتهم ميرزا بأنه وراءها، أو على أقل تقدير يعرف شيئاً عنها. وميرزا الذي بدا صبوراً واقرب إلى المرح، احتمل كثيراً، واعتبر أن الاوهام التي تملأ رأس عباس ستكون السبب في الهزيمة، لأن السياسة والاوهام لا يجتمعان، وعليه أن يختار احدهما. أما الاغتيالات، كما قال ميرزا «فإنها ردات فعل عصبية ووراءها الف سبب وسبب، ويجب أن نضعها في حجمها ومكانها، أما لو حاولنا اعطاءها اسباباً، اعتماداً على مخاوفنا واوهامنا، فسوف تقودنا إلى التسليم!».

لا اتفق مع الاثنين في تفسيرهما للاغتيالات التي حدثت. صحيح انها بداية خطرة إذا استمرت، أو إذا كانت بعض الجهات وراءها، أما انها عمل عصبي وليس لها اية نتائج ووقعت بالصدفة، فإنه تفسير مبسط ومضلل في نفس الوقت.

لم يبد من الحكومة رد فعل واضح تجاه الاغتيالات. قيل أن اعتقالات محدودة حصلت، لكن قيل ايضاً أن المعتقلين اطلق سراحهم بعد تحقيق شكلي وبقصد تطمين الرأي العام. أما البيان الصادر عن الحكومة بأنها جادة لمعرفة الفاعلين ومعاقبتهم فهو للاستهلاك ولخلق طمأنينة زائفة، ولم يلق اية استجابة!

ويبقى السؤال: ماذا ستفعل الحكومة؟

العجوز خرج عن الصمت، اصبح موجوداً بين الناس واكثر ظهوراً في الاماكن العامة، وامتلأت نظراته وتصرفاته بالتحدي، لكن يبدو متردداً حتى الآن!

قلت لأحد اصدقائنا الاميركيين، وكنا في حفلة الاستقبال الكبرى التي اقاموها بمناسبة عيد الاستقلال: «العجوز يحارب ببندقية فارغة، انه يلوح بها في الهواء، وتبدو ملامحه جادة، وقد يتوهم انه يحارب، لكنه متردد ولا يعرف ماذا يفعل، هذه هي قناعتنا، أما حركاته وتهديداته فلن تجدي طالما بقي بهذا الوضع. ما يخيفنا أن يتفق مع اليساريين وأن تتحقق الشعارات الملعونة التي بدأت تملأ المدينة».

حين قلت هذا الكلام امسك بي صديقنا الاميركي، فوكس، جرني إلى الشرفة، وطلب مني أن اعيد عليه الكلمات التي قلتها. انها المرة الاولى، وربما الوحيدة، التي الاحظ اهتماماً في وجه هذا الاميركي. بدا عليه التفكير العميق، وكان ينظر اليّ بطريقة خاصة، كأنه يحاول اكتشاف ما إذا كنت جاداً واعني ما اقول!

في تلك الليلة، وقبل ان تنتهي الحفلة، خرجنا. اصرّ هو على ان نخرج، لكن ما يحزّ في نفسي أن هؤلاء الاصدقاء اما اغبياء لا يفهمون ما نقوله لهم، أو انهم يفهمون كل كلمة نقولها لكن تشغلهم هموم اخرى.

ظللنا في مناقشة طويلة صاخبة حتى ساعة متأخرة من الليل. قلت لهم اشياء كثيرة، ولو عرف المستر راندلي اني تحدثت بهذه الطريقة، واني استرخيت بهذا المقدار وانا اتحدث لجرني من اذني، ولقال لي كلمات قاسية، لكن سمحتْ لنفسي أن اتكلم بهذه الطريقة لكي اخلّص هؤلاء من اوهامهم واجعلهم يفكرون، مثلنا، بطريقة عملية!

بعد مناقشات طويلة وعصبية اكتشفت امراً هاماً: يريد الاميركيون منع اية محاولة لعودة العلاقة بين القوى السياسية، خاصة اليساريين والمتدينين. ان علاقة من هذا النوع إذا قامت تؤدي إلى نتائج لا يقدرها

احد، ويمكن أن تحرق العالم، هكذا قالوا حين اكدت لهم أن علاقات من هذا النوع مستحيلة، وان العجوز يرفض أن يكون مجرد واجهة. قال فوكس، وكان مخموراً:

ـ مستر ماكدونالد يمكن أن تقنع لندن بهذا الرأي، أما بالنسبة لنا فإن الأمر اكثر خطورة مما تتصور، ثم يجب أن تعرف: اميركا غير بريطانيا، وما يهم اميركا ويقلقها ويزعجها بل ما يهدد اميركا مختلف تماماً بالنسبة لبريطانيا. انتم ما زلتم تفكرون وتتصرفون بعقلية المرابين، أما نحن فإن مسؤوليتنا في العالم تضطرنا أن نفكر ونتصرف بشكل آخر!

قلت بانفعال لكي استفز المستر فوكس واحمله على متابعة الحديث:

ـ وهل توافقون أن نطرد جميعاً من هنا إلى الأبد؟ هل توافقون أن يأتي «الآخرون» ونصبح اضحوكة؟

رد بعصبية:

ـ هذا ما اريدك أن تفكر فيه يا مستر ماكدونالد. يجب أن تعرف أن «الآخرين» ينتظرون اللحظة المناسبة لكي يقفزوا ويصلوا إلى المياه الدافئة. لقد كان هذا حلمهم منذ مئات السنين وسيبقى هذا الحلم الهاجس الوحيد الذي يدفعهم ويحركهم، وانتم بالطريقة التي تفكرون بها تساعدونهم على الوصول... وبسرعة!

ـ تخطىء كثيراً يا مستر فوكس، لقد بذلنا ما نستطيع، ولا نزال، من اجل منعهم، من اجل أن نبقى هنا حتى آخر قطرة من النفط!

ـ ولكن لماذا تتصرفون بهذه الطريقة الحمقاء؟

ـ كيف؟

ـ لماذا تدفعون العجوز لأن يضع يده بيد اليساريين... بيد المتدينين؟ لماذا تصرون على أن يعود كل شيء إلى ما كان عليه؟

ـ وهل تريدوننا أن نسلم بكل ما حصل؟

ـ اريدكم أن تكونوا اكثر ذكاء ومهارة!

ـ اكثر ذكاء ومهارة؟

ـ نعم هذا ما نريده.
ـ ولكن كيف؟
ـ سوف نبحث هذا في وقت لاحق!
... ومرة اخرى ذهبت محاولاتي ادراج الرياح في ان احمله على الحديث في الموضوع، ومثل عادة الاميركيين، قال لي بحدة:
ـ توقف يا مستر ماكدونالد عن تصديع رؤوس الآخرين بالهموم الصغيرة، ان الهموم الصغيرة لا تهم الناس الآخرين كما يتوهم البعض!
كتبت إلى لندن بكل هذه التفاصيل، حتى تلك التي تطالني شخصياً، رغم رسائل راندلي والتعليمات السابقة.
كانت رسالتي عصبية واقرب إلى الادانة «الاميركيون قادمون، سوف يحرقون كل شيء. ومهما حاولنا أن نكون حسني النية واصدقاء فأن لهم هموماً مختلفة، يجب أن نعترف بهذا، ويجب أن نتصرف على ضوء هذه الحقيقة. في الايام الاخيرة جاءت مجموعات كبيرة، وبدأت باتصالات غامضة. الشارع مليء بالاشاعات حول الاتفاق الذي سيتم قريباً. ان اتفاقاً مثل هذا سينقذ الوضع تماماً. صحيح أن مساعداتهم القديمة ووعودهم لم تجد آذاناً صاغية ولم يتقبلها الناس، لكنهم هذه المرة اكثر جدّية واكثر خوفاً. انني انبه للمرة الاخيرة وارجو أن يدرس الامر بدقة، لكي نتخذ موقفاً صحيحاً، أما أن نوصف بالمرابين وأن نبدو امامهم بهذا المظهر فسوف يؤدي إلى نتائج سلبية خطيرة».

لم اكتف بهذه الرسالة، نقلت لهم حرفياً ما دار بيني وبين فوكس، واشرت إلى تصرفات ومواقف اخرى، وإذا جاز لي، أنا بيتر ماكدونالد، ابن الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، والذي خدمت بريطانيا العظمى وقدمت لها دمي، وجئت لكي انقذ سمعتها واعيد لها اهم درة في التاج... إذا كنت قد ولدت وتعلمت بهذه الطريقة طوال حياتي الماضية، إذ جاز لي أن افكر واتصرف بهذا الشكل، فإن بريطانيا العظمى تتصرف بالشكل الذي يرضيها، بالشكل الذي يناسبها، لكن لم اعد استطيع فهم

الاسباب والدوافع التي تدعوهم لأن يفكروا وأن يتصرفوا بهذا الشكل الاحمق. كانت تصرفاتهم، وكان تفكيرهم في هذه الفترة يمثلان الحماقة بعينها. . !

(٨)

بعد أن اطلعت لندن على المراحل الاخيرة من المفاوضات، جاء الرد حاسمًا وقصيراً: «اوقفوا المفاوضات حتى اشعار آخر، ستصلك التفاصيل مع مبعوث خاص خلال ايام قليلة».

الموقف الآن لا يحتمل أي اجتهاد. أما العرض الاخير الذي تقدمنا به، وكان مقبولاً مع بعض التعديلات، فيجب أن يطوى. هكذا تريد لندن الآن. أما قبل اسابيع فقد كانت تصرّ على ترك التشبثات وتقديم تنازلات كبيرة؛ تعليمات الشهر السابق واضحة «إطّلعنا على وجهات النظر ودرسناها جيداً، التحفظات التي قدّمها الجانب البريطاني مبالغ فيها ويمكن أن تخلق لنا متاعب كبيرة، خاصة إذا رفضها الجانب الآخر وقطع المفاوضات، لذلك نرى الموافقة على الشروط، مع التأكيد اننا سنقدم مسودة اتفاق جديد خلال اسبوعين من تاريخه. اعملوا على ذلك، ويجب أن تكون خطواتكم مرنة لأن الظروف دقيقة وخطرة». بعد وصول هذه التعليمات كنا نناقش سوية الافكار الاساسية تمهيداً للوصول إلى اقرار المشروع البريطاني. استغربت كثيراً التنازلات التي قدمتها لندن، ولم الجأ

إلى كشف اوراقي الا في وقت متأخر، لكي ارى واعرف رد فعل الطرف الآخر، واعرف مدى موافقة وامكانية الوصول معه إلى اتفاق.

كانوا اثناء المفاوضات شديدي الرغبة في أن نصل إلى اتفاق، حتى اشرف آية الله، الذي كان يبدو شديد التحفظ، فلا يتكلم إلا قليلاً، وبعض الاحيان حاداً في رفض اقتراحات كنا نتقدم بها، بدا خلال الاجتماعات الاخيرة على غير عادته، مما اضطر رئيس الوفد المفاوض لأن يقول لأشرف على مسمع من الجميع، وبما يشبه الدعابة:

« ـ سيادة المستشار، يمكن ان تترك الاجتهادات القانونية جانباً. اعرف ان هذا الامر صعب بالنسبة لك، لكن الموضوع الذي نبحث فيه اكثر من القانون واكبر من الاجتهادات. المهم الآن الاتفاق على المبادىء على القضايا الأساسية، وهذه المبادىء والقضايا ليست ذات طابع قانوني، وقد حان لك أن تدرك ذلك».

واشرف الذي رفض وجهة النظر هذه، قال باستغراب:

« ـ يبدو أن الطرف الآخر قد غير مواقفه، وحين نتأكد من ذلك يمكن أن نضع جانباً القضايا القانونية، ولا مانع من أن يوضع اشرف آية الله جانباً ايضاً، لأنه لا يعرف شيئاً سوى القانون!».

وخيّمت على الجو موجة من الابتسام مصدرها الفرح الداخلي، وساد شعور آن القضايا التي كانت تثير الخلاف فيما بيننا قد وضعت جانباً، وآن مواقف جديدة تظهر الآن؛ ولأول مرة منذ سنتين ننظر إلى بعضنا بشكل انساني، ونريد ان نصل إلى اتفاق. لم نقل هذا صراحة، لكن كنا نعنيه، وكانت تصرفاتنا وطريقتنا في المناقشة، وحتى النظرات والابتسامات، تبدو بشكل مختلف عن السابق. اما دعوة الغداء التي اصرّ عليها رئيس الطرف المفاوض فقد تخللها الكثير من الدعابات والاحاديث الجانبية، حتى ليستغرب الانسان أن الآخرين لديهم هذا المقدار الكبير من الفهم والتجاوب، في الوقت الذي كنا نظن العكس. اما حين جرى الحديث عن المستقبل فقد ظهر الخوف والتساؤل على الوجوه: هل يعني الانكليز ما

يقولون؟ هل يمكن الوثوق بهم؟ واشرف آية الله، الذي رفض باصرار واضح أن يقترب مني أو يتحدث معي مباشرة، فقد قال ونحن نشرب القهوة واقفين على الشرفة ونطل على المدينة:

ـ مازال الحديث عن المستقبل سابقاً لأوانه، ومثلما يقول الانكليز انفسهم «يجب الا نخوض في النهر قبل الوصول اليه» لذلك من الأفضل أن ننجز المرحلة الحالية، وبعد انجازها يمكن أن نتحدث في امور كثيرة!

قال هذه الكلمات وعيناه تتركزان على رئيس الوفد المفاوض، يريده أن يشاركه الرأي، ورئيس الوفد الذي هزّ رأسه بالموافقة بدا ساهماً وبعيداً بعض الشيء، وفي محاولة مني لاكتشاف المسافة بيننا قلت:

« ـ سيدي الرئيس. . . ان الحديث عن المستقبل هو جزء من عمل الحاضر، لأن الزمن كما افهمه هو اللحظة التي ستأتي، الخطوة القادمة، اما الحاضر فهو جزء من الماضي، لأنه يتسرب بسرعة، ومهمته الوحيدة أن يفتح الطريق للآتي، للمستقبل!».

وفي محاولة لانقاذ الموقف وايجاد رابطة بين الكلام الذي قلته، والكلام الذي قاله اشرف آية الله، قال رئيس الوفد المفاوض:

« ـ من الصعب تجزئة الامور، ومن الخطأ الحديث عن الحاضر والمستقبل كشيئين مختلفين، انهما في الحقيقة شيء واحد. والآن، في هذه الايام، اذا انجزنا الاتفاق فيما بيننا فنحن في الحاضر والمستقبل معاً!».

كان من الممكن أن يجري الحديث في هذا الاطار بتفصيل أكثر، لكن رأيت أن أغيرّ الجو، قلت:

«ـ يبدو أن صيف هذه السنة سيكون حاراً!»

وفجأة، وعلى غير انتظار، التفت إليّ رئيس الوفد بتساؤل مرتاب، أدركت أن كلماتي تحتمل أكثر من تفسير، قلت مستدركاً:

«ـ ما دامت هذه الأيام حارة بهذا المقدار فلا أحد يستطيع أن يتصور كيف ستكون الحرارة في الأيام القادمة، في آب مثلاً!

حين تأكد أن كلماتي لا تحمل معنى مختلفاً، قال رئيس الوفد:

«ـ في سنين كثيرة، يكون المطر المتأخر دليلاً على صيف متأخر.
«ـ تقصد أن هذا الصيف سيكون طويلاً وقاسياً؟
«ـ هذا ما أقدر.
قال أشرف بخبث، وهو يضحك لكي يخفي المقاصد التي يريدها.
«ـ أهذا ما ترغب فيه مستر ماكدونالد؟
قلت في محاولة لتوجيه الاجابة بشكل معين:
«ـ أما أنا فكل ما أرغب فيه أن يكون صيفاً معتدلاً. لقد تعبت كثيراً في الصيف الماضي، ويبدو لي انني لا أستطيع احتمال صيف بتلك القسوة.

وضحكت قليلاً ثم أضفت:
«ـ وأكون شاكراً إذا ساعدتموني في انجاز المهمة بسرعة.
سأل اشرف آية الله ليواصل لعبته الماكرة:
«ـ أتريد أن نساعدك لكي يكون صيفاً معتدلاً؟
وتعالت الضحكات الصاخبة، قال رئيس الوفد في محاولة لاستعادة السيطرة على الموقف.
«ـ إذا وافقتم على تعديلاتنا للمشروع يمكن أن نوقع الآن، وبعد التوقيع تستطيع أن تقضي اجازة ممتعة وهادئة في مكان معتدل الطقس والمزاج.

توقف قليلاً ثم سأل:
«ـ ماذا تختار يا مستر ماكدونالد.. صيفاً حاراً أو معتدلاً؟
«ـ بالتأكيد صيفاً معتدلاً.
«ـ إذن وافقوا، ووقعوا، وسوف ترى بعينك أننا قادرون على تغيير حتى الطقس»!
إنها إحدى المرات القليلة التي يكون الجو فيها بهذه السماحة، ويجري الحديث دون خوف ودون تحديات، وكأن الأمر في منتهى اليسر، أو كأن علاقتنا لم تتعرض لهذ الشرخ الكبير خلال سنتين طويلتين من التحديات والعنف.

هذه الحالة تدعوني إلى التفكير واعادة النظر في أمور كثيرة. صحيح انه لا يمكن الوثوق بالوعود التي يعطونها، ومن البلاهة تصديق الكلمات الكبيرة التي تقال الآن، لكن شيئاً جديداً بدأ يغـزو رأسي ويضطرني للتفكير من جديد في الأسلوب الذي يجب أن نتبعه لاستعادة سيطرتنا وزمام المبادرة مرة أخرى!

لقد استطردت في استعادة ما جرى، لأن البرقية التي وصلت بعد بضعة أيام غيّرت كل شيء، «اوقفوا المفاوضات ستصلك التعليمات مع موفد».

ماذا أقول لرجالنا؟ ماذا أقول لأشرف الذي حاول بوسائل عديدة الايحاء أن الأمور أكثر صعوبة مما أعرضها؟ وماذا أقول للرجال الذين ظللنا ساعات طويلة نناقش معهم أدق التفاصيل وأكثرها خفـاء؟ لندن تريدني أن أقتل ككلب سائب، تريد أن تكرس بشكل نهائي الصورة التي يحملها المعارضون: «الانكليز لا يصدقون في أية كلمة يقولونها. انهم مجرد مخادعين ويريدون سرقتنا وقتلنا، هذا كل ما يريدون، اما الكلمات. أما الوعود فإنها لا تعني شيئاً».

كنت حكيمًا بعض الشيء حين قررت أن أعرض مواقفنا بالتدريج. لو عرفوا تعليمات لندن الأولى لتأكدت شكوكهم واوقفوا أية مفاوضات أو لقاءات. والآن، وبعد هذا العمل والانتظار والوعود، ماذا أستطيع أن أقول أو أتصرف؟

لو أن الأمر اقتصر على ذلك لوجدت مخرجاً كما علمني الـدوق راندلي، كان من السهل عليّ أن أعود سعداناً مرة أخرى وأقوم بتلك الحركات البهلوانية لكي أجعل الآخرين حائـرين ومخبولـين، ومضللين أيضاً. لكن المبعوث الذي جاء لم يترك لي فرصة:

فتح ملفاً كبيراً، أخرج ورقة مكتوبة وبدأ يقرأ بطريقة خطابية:

«نتيجة للتطورات التي حصلت في الفترة الأخيرة ترى لندن وقف المفاوضات من أجل إعادة النظر، خاصة وأن المعلومات المتوفرة لدينا تؤكد أن الحكومة الراهنة سوف تستقيل، لأنها لم تعد قادرة على تحمل المصاعب

التي تواجهها، وأن القصر سوف يتخذ اجراءات من شأنها إعادة الأمور إلى ما كانت عليه، ولذلك، ولتسهيل مهمة القصر، يجب أن نهيىء جواً من الهدوء والسكينة، إذ على أساس توفر مثل هذا الجو، ودون تحديات بين الطرفين، يمكن أن تتخذ بعض الاجراءات المهمة: تستقيل الحكومة بهدوء، يكلف القصر أحد أصدقائنا بتشكيل حكومة جديدة، وعندها نعود إلى المفاوضات ونستطيع أن نقدم مكاسب واضحة وملموسة للحكومة الجديدة».

ليس عند المبعوث سوى هذا المزمور البائس، والذي ردده على مسامعي أكثر من مرة، وفي كل مرة أحاول معرفة الأسس والوقائع التي تستند إليها لندن أفشل.

كان المبعوث، واسمه برود هارست، صغير السن، وقد جاء لتوه من جنوب افريقيا، بعد أن قضى هناك بضع سنوات. كان يتحدث معي بلهجة متعالية، ربما اكتسبها من هناك، وكان بادي العصبية وكأنه في حالة خوف دائم، أما المناقشات التي جرت بيننا فقد اتسمت بالحدة:

ـ مستر ماكدونالد.. لا أستطيع تحمل هذه المسؤولية، يمكن أن تكتب كل ما تريد وسوف أسلم ما تكتبه لمقر الشركة في لندن.

ـ ولكن أريدك أن تفهم ما يجري، أريدك أن تطلع على الأمور بنفسك لكي تتأكد.

ـ لا أستطيع تحمل أية مسؤولية في ذلك.

ـ ولكن أية مسؤولية في أن تطلع وتفهم؟

ـ هذا ما طلبته لندن وقد نقلته إليك!

ـ وهذا ما يقوله ماكدونالد وأريدك أن تفهمه!

ـ مهمتي واضحة ومحددة، ولا أتحمل أية مسؤولية خارج هذا النطاق.

قلت له في النهاية وقد بلغ بي الغضب درجة لم استطع أن أخفي انفعالاتي واحتقاري لكل هذه اللعبة السمجة التي تجري..

ـ اسمع مستر هارست.. لقد سمعت تماماً ما قلته، والآن يمكن

أن تركب أول طائرة وتعود إلى لندن لتقول لهم أن ماكدونالد لم يفهم كلمة واحدة من هذه التعليمات، وأن المستر هارست الذي يحمل ورقة ويقرأها بغباء لم يستطع أن يقنعني بشيء!

استشاط المستر هارست غضباً ونهض، وقبل أن يغادر غرفتي قال بلهجة تعلمها في جنوب افريقيا:

ـ سوف أبلغ السفير، وسوف أبلغ لندن، بهذه الاهانات، واعتبر نفسي غير مسؤول عن أية مخالفات قد تقع منك أو أية نتائج تترتب!

إن شيئاً ما يحصل الآن. لا أعرف كيف أستعيد قدرتي على التفكير السليم، أو كيف أتصرف. كما لا أتصور أن تتغير الأمور بهذه السرعة ودون أسباب واضحة. أما هؤلاء الذين يتعاونون معي فقد كانوا أشد دهشة مما قدرت. بدا عباس، وهو يسمع ما أقوله، شاحباً ضعيفاً. كانت شفته السفلى ترتجف، أما حين أراد أن يبتلع ريقه فقد سال جزء من اللعاب على فكه وأثار شفقتي واحتقاري. كان عاجزاً تماماً ولم يستطع أن يقول كلمة واحدة، واشعل سيجارة جديدة، في الوقت الذي كان يضع سيجارة أخرى على المنضدة، ولم يمض على اشعالها إلا لحظات قليلة. وميرزا بدا شديد الحذر والشك، قال بهدوء افزعني:

ـ ما دامت لندن تمتلك معلومات أخرى غير تلك التي لدينا فدعونا ننتظر ونراقب!

قلت بعصبية:

ـ وماذا عن خططنا ومشاريعنا وعشرات الاتفاقات التي أجريناها مع مئات الناس؟

هز كتفيه اشارة لعدم المعرفة، قلت بنفس اللهجة الحادة:

ـ هل لديكم أية معلومات جديدة عن استقالة الحكومة والتغيرات التي سيجريها القصر؟

وبنفس الطريقة البائسة، والتي لا يتخلى عنها الشرقيون أبداً، هز ميرزا كتفيه، ثم قال بهدوء الأبالسة:

ـ ليس لدي أية معلومات جديدة ولا أعرف شيئاً!
ـ وأنت. . مستر عباس؟
وبطريقة عصبية رافضة هز عباس يديه ورأسه، وكأنه لا يريد أن يسمع أية كلمة ولا يستطيع الاجابة عن أي سؤال.
هـذا نـموذج من رجالنا، وهذا نموذج من مواقف لندن، وعليّ أن أتصرف! كان من الضروري أن أناقش لندن طويلاً، وفي كل شيء قبل أن آتي إلى هنا، وقبل أن أرتبط بهذه المخلوقات المستعبدة. أما أن يكون عند لندن معلومات جديدة أو مواقف جديدة، غير تلك التعليمات البائسة التي حملها هارست، فكان من الجدير أن تسألني عن كل ذلك وأن تثق بالمعلومات والاقتراحات التي أبعثها كل أسبوع، وبعض الأحيان كل يوم.
ماذا جرى خلال هذه الفترة؟ من يستطيع أن يؤكد معلومات مثل تلك التي تصل إلى لندن؟ الشارع لا يزال مثلما كان قبل شهر، وكذلك الاغتيالات والاضرابات. صحيح أن بعض الخلافات نشبت بين بعض القوى السياسية التي تؤيد الحكومة، لكن جزءاً من هذه الخلافات كان بسبب نشاطنا، والأعمال الرائعة التي قمنا بها. والحكومة هل تستقيل؟ إن أي إنسان يملك ذرة واحدة من العقل لا يصدق مثل هذه الأكذوبة. لقد بدا الرجل العجوز قبل أيام قليلة، وحين زاره سفير دولة صديقه، في منتهى الثقة والقوة. لقد سمعت هذا من السفير نفسه، ثم أكـده لي سفيرنا، أما المصحف الذي قدمه ذلك السفير هدية، فقد جرى في طقس يصعب على المرء أن يصدق إمكانية استقالة هذا الـرجل، إذ ظهـرت الصحف تنقل صورة الرئيس أثنـاء استقباله للسفير وهو يتسلم المصحف ويقبله في منتهى الجلال والقوة، وكان ذلك تأكيداً على القداسة والاحترام للمتدينين.

(٩)

لا أريد أن أكون شهيداً أو قديساً، فأنا لست كذلك، ولكني لا أوافق أن أكون غبياً إلى الحد الذي تريده لندن. فبعد أن سافر برود هارست بثلاثة أيام جاءتني برقية مختصرة جداً: «تمتع باجازة، وابق حيث أنت».

أما محاولاتي لمعرفة السبب وراء ذلك فقد ذهبت أدراج الرياح، لأن السفير الذي تربطني به علاقات متينة، تهرب من أن يقول كل ما عنده. أما المستشار الأول، والذي كان لا يتردد في أن يزعجني بأحاديثه عن حياته الخاصة، فقد تظاهر بالمرض، وأن نوبة الكلي جاءته مرة أخرى ولا يستطيع السهر أو الحديث، «لأنه غير قادر على احتمال هذه الكمية الهائلة من الحصى الشرقية» وبالتالي فهو ليس في وضع يمكنه لأن يخوض في مناقشات من أي نوع. أما لماذا أجاز. ولماذا أبقى هنا فإن لندن وحدها التي تقرر، ولا أحد يعرف، أو يجرؤ، على السؤال، وحين أؤكد للسفير أني مضطر للسفر إلى لندن يقول لي بلهجته المؤدبة الأبوية:

ـ أفضل أن تبقى هنا. لندن تعرف أحسن منا نحن الاثنين، ولا بد أن مهمة ما تنتظرك.

ويبتسم ثم يضيف:

- وأنت تعرف يا مستر ماكدونالد!

لكن يستدرك بسرعة وهو يضحك بطريقة محببة:

- اعذرني بيتر. أنت تعرف. نحن مجرد موظفين، ويجب أن نطيع!

ويعود إلى لهجته الأولى:

- ربما كانت لندن تهيىء لك عملاً مهمًا، وما دمت قد قضيت وقتاً طويلاً في الجيش فأنت تعرف أن المهمات الخطيرة، المهمات الكبيرة، تظل غامضة، مؤجلة، حتى اللحظة الأخيرة، أما إذا أتت، فإنها تأتي كالعاصفة، بمعنى أنها لا تترك للانسان فرصة حتى لتغيير ملابسه الداخلية، ويجب أن ينصرف إليها فوراً.

ويتيه السفير في أفكار وذكريات بعيدة، حتى إذا عاد منها ونظر إليّ لا يصدق وجودي، يضيف بصخب:

- انتظر يا عزيزي.. فلا أحد يعرف!

وتذوب لحظات الغضب، تتلاشى. أشعر بنوع من العزاء. أحس أن لندن لا يمكن أن تتخلى عني، لا يمكن أن تترك رجالها عرضة للشكوك والوساوس، وان كل تأجيل يحمل معه احتمالات كبيرة لمهمة من نوع خاص. وفي خضم الغضب والانتظار انتظر. أقول لنفسي في لحظات التوتر: «لا يمكن أن تكون لندن حمقاء إلى الدرجة التي تتخلى عن الفرص المتاحة لها، ولا يمكن أن يكون مصير تقاريري الملفات أو النسيان. إذ لا بد أن تخرج الآن، حتى التقارير الأولى سوف تدرس بعناية كبيرة، تمهيداً لاتخاذ مواقف. ولندن التي وثقت بي، لا يمكن أن تتخلى عني الآن. ما عليّ إلا الانتظار، لأن الانتظار في حالات كثيرة، سيد المواقف، ومن يستطيع الاحتمال أكثر من غيره يكون أقوى من غيره، وأنا الذي انتظرت. أنا الذي احتملت يجب أن أثبت لهم، أكثر من أي وقت سابق، أنني قادر على القيام بالمهمات الصعبة، وعند ذلك سيعرفون أي الرجال اختاروا وماذا يعني بيتر ماكدونالد بالنسبة لهم».

هكذا كنت أقول لنفسي وهكذا كنت أتحدث مع السفير، وإن كان مثل هذا الحديث يجري بطريقة غامضة، تعقيباً على طلب السفير أن أبقى، وأن أفسر الأمور بحسن نية!

إضافة إلى الاجازة الاجبارية والاقامة هنا بدأت تأتي وفود جديدة من بريطانيا، وفود لم أبلغ بها من قبل، ولم أتصور أن لندن لها هدف من ارسالها: ضباط متقاعدون، رجال أعمال، علماء في الجغرافيا والآثار، ولا أعرف أي نمط آخر من الناس. لقد عرفت ذلك بالصدفة، من خلال ترددي على السفارة واحتكاكي ببعض العاملين. إن هذه الاتصالات غير المنتظمة بالسفارة كانت تسبب لي بعض الحرج، ولقد قال لي السفير ذات مرة، حين رآني في غرفة السكرتير الأول:

ـ بيتر. انت لا تعرف كيف تمتع نفسك!

وضحك قليلاً، لكي يسيطر على نفسه، ثم تابع:

ـ كنت أتمنى أن أجاز في هذا الوقت من السنة، لكي أذهب إلى البحر، إلى الجبال، لأن العاصمة لم تعد تطاق، ويجب أن تفعل ذلك.

وحين أكدت له أني لا أستطيع الذهاب لعدم الرغبة، وأنه لا يجدر بي أن أذهب، خاصة في هذه المرحلة العصيبة، أجابني بمكر:

ـ لا تكن أكثر حماقة مما ينبغي يا بيتر. اذهب. يجب أن تذهب، وفي حال وجود ضرورة لك من أي نوع، سوف نجدك حتى لو لم تترك أي عنوان.

وحين ابتسمت بطريقة مجاملة تابع:

ـ نعم يمكن أن تذهب، كل ما هو مطلوب منك أن تترك عنوانك. أذهب لكي تخلص من هذا الجحيم الذي يقضي على الانسان والأشياء!

ولم يترك لي السفير فرصة لأن نتحدث في الأمور التي شغلتني، وعن الاضطرابات التي بدأت تعمّ العاصمة، وبعض المدن الأخرى، وحول مجيء الاعداد الجديدة من الانكليز، قال لي بطريقة مازحة:

ـ كان بودي أن أقنعك بالاجازة يا بيتر أكثر مما حاولت لندن،

وكـان بودي أن نـذهب سويـة، لكن أنت تعـرف مـاذا تعني الحيـاة الدبلوماسية من متاعب وبروتوكولات، وبعض الأحيان مواعيد بائسة مع بريطانيين قطعوا آلاف الكيلو مترات لكي يسألوا عن الزهور والنباتات وأنواع الأطعمة التي يمكن أن يتذوقوها أو يروها هنا!

وبصخب مبالغ فيه امتلأ الجو بضحكته الكبيرة المفاجئة، حتى إذا هدأ قليلاً قال:

ـ بعد أن تنتهي من اجازتك، وبعد أن يرحل هؤلاء الثقلاء يمكن أن نمتلك وقتنا كله ونتحدث طويلاً!

ولكي لا يترك لي فرصة من أجل أن أسأل أو أواصل الحديث التفت إلى السكرتير وقال له:

ـ هارولد أرجو أن تتولى عني مقابلة عدد منهم، أما الذين يصرون على رؤيتي فلا بد أن تشعرهم أو تطلب منهم، بطريقة مناسبة، ضرورة أن يختصروا الزيارة، لأن لدى السفير مواعيد ومقابلات أخرى.

وتغيرت لهجة السفير وهو يضيف.

ـ يجب أن يدركوا ذلك بوضوح لكي يستطيع الإنسان أن يعمل وأن يرتاح أيضاً. وقبل أن يغادر الغرفة التفت إليّ وقال:

ـ في بعض الأحيان لا يدركون أن السفير إنسان، مجرد إنسان مثلهم يريد أن يعمل وأن يرتاح أيضاً.

ولوّح بيده وهو يغادر!

هل يجب أن أصدق؟ هل أتحدى كل ما قاله، وأتكلم بـطريقة مختلفة؟ وماذا يستطيع السفير إذا كانت لنـدن تريـد ذلك؟ اعـرف أن السفير، مثل أي رجل انكليزي آخر، لا يمكن أن يغيرّ شيئاً مما تريد لندن، وانه قادر على أن يمثل ويهرج ويصخب حسب ما تقتضي الضرورة أو الظروف، وحسب الأوامر أيضاً! ألم أفعل ذلك خلال الفترة الماضية كلها؟ لقد تحولت إلى مجرد قرد: أضحك، اغضب، ارفع صوتي متظاهراً بالغضب، اصمت. كنت أفعل ذلك لأن الضرورة تستدعي ذلك، رغم

أني كنت أمتلئ احتقاراً أو غيظاً حين أضحك، ورغم أن أبسط القواعد الإنسانية، والتي يمارسها أي فرد في حالات كثيرة، كنت أمارس عكسها. كنت مثلاً انظر في وجه عباس بامعان وهو يتحدث، لكن كنت أحاول أن أمنع نفسي من الضحك والسخرية للطريقة التي يتكلم بها، أو للكلام الذي يقوله. كنت أنظر إليه بامعان دلالة الاهتمام والتفكير. أما حين يضحك لبعض الأمور فكنت أجامله وأفعل مثله، تماماً كما تفعل القرود. هكذا كانت تملي عليّ الضرورة، وهكذا كنت أفعل! والآن . . . ألـوم الآخرين إن فعلوا ذلك؟ ولكن مع من؟ مع بيتر. . ج. ماكدونالـد؟ ولماذا؟ حتى اللحظة الراهنة لا أعرف. لندن وحدها التي تعرف، وما دامت تعرف يكفي ذلك. هناك أسرار يجب ألا تقال أبداً، وهناك أسرار يجب أن تبقى ملك أصحابها فقط، لأنها إذا انتقلت إلى الآخرين تصبح خطراً، وعلى الآخرين أن يقتنعوا. ليس ذلك فقط، عليهم أن يمتنعوا عن سماعها، أن يرفضوا، لأن مجرد سماعها يحمّلهم مسؤولية لا يـطيقون احتمالها. لقد تعلمت دروساً كثيرة، يجب أن أدرك ذلك جيـداً وأن أمارس، ما تعلمته، وما حاولت أن أطبقه مع الآخرين، على نفسي، لا يهمّ ما هو رأيي وأياً كانت عواطفي. هل تجرحني هذه الأساليب؟ هل تؤذيني؟ يجب أن أكف عن توجيه هذه الأسئلة بهذه الطريقة. المسـألة ونتائجها لا تتعلق بالثقة أو عدمها، إنها أكبر من ذلك نظراً للخطورة التي تولدها.

كانت لدي أشياء كثيرة أريد أن أعرضها للسفير وأن نتحدث سوية. وحتى الفترة التي قضيتها عندالسكرتير، وتحدثنا خلالها عن بعض الأمور، ثم ما تلاها من أفكار جديدة وزوار جدد، أشعرني أن الأمر لا يتعلق بـي شخصياً، انه أكبر من ذلك.

قلت للسكرتير الأول بحزم يقرب حد اليأس:

ـ سوف أترك بعد ظهر هذا اليوم إلى البحر.

وحين هز رأسه دلالة الفهم والاقتناع، أضفت بطريقة ساخرة:

ـ لا أعرف إلى أين سأذهب، لكن حالما استقر في مكان سوف اتصل وأترك عنواني الكامل!

ورغم اني أعرف مجموعة من الأمكنة على ساحل البحر، ومن السهل اختيار أي منها، فقد كنت يائساً تماماً، وكنت غير قادر على الاختيار. أما حين قال لي السكرتير إن السفير قضى في نهاية الأسبوع الماضي فترة ممتعة ووقتاً هادئاً على شاطىء «الرمال الذهبية» فقد أجبت:

ـ كل الشواطىء وكل الرمال في الشرق يسمونها الشواطىء الذهبية والرمال الذهبية، ولذلك أريد أن أبحث عن مكان لم يصله أحد، ولا يعرفه أحد!

وحين نظر إليّ باستغراب تابعت بسخرية:

ـ وليست له علاقة بالذهب!

ضحك السكرتير، وقال بأدب:

ـ ما دمت تبحث عن مكان جديد فيجب أن تخبرنا عن ذلك المكان حال وصولك إليه، لكي نعرف عنوانك، ويجب. . .

وتوقف قليلاً ثم أضاف بلهجة مختلفة:

ـ يجب أن تحدثنا عن ذلك المكان حال عودتك، يا مستر ماكدونالد، لأن اكتشافاً ما يوفر على الآخرين الاكتشاف مرة أخرى!

(١٠)

في حالات كثيرة يمكن أن تكون الوحدة طريق الجنون خاصة حين تكون هذه الوحدة نابعة من الداخل، إذ يشعر الإنسان باللاجـدوى، وبعض الأحيان بالتوتر العصبي، فيفقد القدرة على التواصل مع الآخرين، حتى لو كانوا حوله بالمئات، بالآلاف.

ما كدت أصل قبل الغروب إلى ذلك المكان القصي على شاطىء البحر. بعد أن بدأت الرحلة في الصباح الباكر، حتى وجدت نفسي في استراحة صغيرة، لا يرتادها إلا أناس يائسون مثلي، وربما بعض الفنانين أيضاً، فشعرت بالعداء لكل شيء. أما عامل الاستراحة الذي كان يدور حولي وحول السيارة كما تدور الكلاب، ويبتسم ابتسامة بلهـاء، لكي يقنعني، دون كلمات، أني شديد التوفيق باختيار هذا المكان، فقد بدا لي خصمًا، وكذلك بدت لي الغرفة التي دخلت إليها، وكانت في الطابق الأول ولها شرفة مطلة على البحر. كانت بنظري أشبه بالصنـدوق الحديـدي القديم الصدىء، لأن تآكل النوافذ وحديد السقف، وتلك الطبقة اللزجة من الرطوبة والبقايا حول الحوض الداخلي، إضافة إلى الرائحة الخاصة

التي تفوح من الأماكـن الرطبة المغلقة، كل هذه المظاهر جعلتني أشعر بالعصبية والقرف. حتى حركاتي القاسية في فتح النافذة، ثم في مـلء حوض الحمام، وما ترتب على تلك السرعة من انسلاخ الابهام، ونقط الدم التي تناثرت على الأرض، هذه الأمور زادت في حدة الموقف، فبدا لي الخادم مسؤولاً بشكل ما، وحين نظرت إليه بتلك الطريقة المتهمة امتلأ وجهه بالخوف والاعتذار، بدل تلك الابتسامة البلهاء التي استقبلني بها. أما حين سألته بجفاء إن كانت هناك غرف أخرى أفضل من هذه، فقد بدا جوابه متلجلجاً غامضاً، وهو يقول:

ـ يمكن أن تلقي نظرة على جميع الغرف الفارغة لتختار ما تريد.

وهز كتفه بنوع من الحيرة، ثم تابع بلهجة جديدة، مسكينة:

ـ ولكن هذه أحسن الغرف.

وأخذ ينظر إلى الغرفة من جديد، كأنه يحاول التأكد!

إنني الآن أسرف في الحديث عن هذه الأمور الصغيرة لكي أدلل على مدى ما أعانيه من انفصال عن كل ما حولي، ومدى العداء الذي أحسه للأشياء والبشر إذ رغم عشقي الذي لا ينتهي للبحر وما يذكرني به سواء حين كنت على ظهر تلك السفينة نجوب الدنيا في الحرب الثانية، أو بعد ذلك، وأنا أتابع رحلة الأسماك وأدرس خصائصها وتكاثرهـا، ومواسم هجرتها، لكي أنتهي من ذلك الكتاب المشؤوم، والذي يبدو لي انه لن ينتهي أبداً، رغم هذه الاعتبارات الخاصة، والتي ربما كانت تولد في نفسي أشواقاً ورغبات مختلفة لو جئت في غير هذا الوقت، فأنا الآن لا أجد متعة من أي نوع، ولا أعرف كيف اتصرف أو ماذا أفعل في هذا المنفى الذي لا يظهر على أية خارطة في الدنيـا. لماذا تـركت الأماكن الأخرى المليئة بالبشر، وجئت إلى هنا؟ وإذا كنت أفضل الهدوء والعزلة فهل أستطيع أن أجد مكاناً أفضل من هذا المكان؟ قلت لنفسي بحقد: «عليّ مراجعة كل ما حصل، منذ وضعت قدمي فوق هذه الأرض وحتى الآن. يمكن أن أتعلم دروساً جديدة، فالعزلة، دون التزامات من أي

نوع، تتيح لي هذه المتعة المقدسة» توقفت عند الكلمة الأخيرة وبدأت أرددها بصوت عالٍ وأنا أضحك بسخرية:

ـ المتعة المقدسة... نعم المتعة المقدسة.. المتعة... المقدسة!

قلت لنفسي بمكر: «مثلما كنت أفعل أثناء الاعتقال في ذلك المعسكر الملعون، داخل الغابة التي لا بداية لها ولا نهاية، والتي شغلتني بعد أشجارها، وتصنيفها، يمكن أن أفعل هنا»، وتذكرت أشياء كثيرة وشعرت بالأسى. قلت بعصبية:

ـ كنت هناك مضطراً. كنت عاجزاً عن فعل أي شيء، أما هنا...

وامتلأ صدري بالحقد، وامتلأ فمي بالشتائم!

وبعد فترة قلت لنفسي بيأس:

ـ لم يتغير شيء، عليّ أن أدرك ذلك جيداً.

* * *

على شاطىء البحر حاولت أن أكون إنساناً جديداً: تعمدت أن أستيقظ مبكراً، أن أمشي مسافات طويلة على الشاطىء، أن أنظر بامعان إلى البحر والبشر والأشياء، وأراقب الطبيعة في دورتها الأزلية التي لا تنتهي. أردت أن أشغل نفسي بأي شيء خوف الجنون أو الانتحار. إنها إحدى المرات القليلة في حياتي التي تتاح لي فيها فرصة التفكير والتأمل. لقد اكتشفت أموراً لا أريد أن أسميها خارقة، ولكنها غير متوقعة، أو بالأحرى مفاجئة بالنسبة لي، رغم اني لا أستطيع استعادتها، كما لا اجرؤ أن أقولها، لكن مع ذلك لا أستطيع أن أستمر في السكوت إلى ما لا نهاية، ولا أقوى على احتمال هذا الذي يجري الآن.

ومثلما قلت في وقت آخر: لست قديساً، لكن لا أقبل أن أكون غبياً بهذا المقدار، المقدار الذي تفترضه لندن أو تريده. ومع هذا وأياً كانت النتيجة اتساءل هنا بمرارة: وماذا إذا تكلمت؟ ما فائدة الكلمات؟ ولمن أقولها؟ هناك أمور كثيرة تبدو لي الآن أقوى من الكلمات، أكثر تأثيراً:

القوة، المال، النفوذ، إن هذه الأشياء قوى مستقلة، تتحرك وحدها، تفرض وجودها بغض النظر عن الرغبات، لكن يجب أن أكف عن التفكير بهذه الأمور. عليّ الآن النجاة، أن أخرج من المصيدة، عليّ أن أفعل شيئاً قبل أن يطبق الفخ، وأبدأ الصياح بصوت عالٍ. هل ما قلته عن عباس وميرزا وأشرف، عن الجماعات الدينية أو اليسارية التي تعمل معي السبب الذي دعا لندن إلى التخوف ثم اتخاذ تلك الاجراءات؟ هل يكون عباس أو أحد آخر من الجماعات التي يتعاونون معنا قد نقل شيئاً إلى لندن، أتخذت بعده تلك الاجراءات؟ وماذا إذا كان للندن موقف مختلف عن موقفي تجاه المفاوضات واحتمالات الوصول إلى اتفاق من نوع أو آخر؟ ولكني لم أفعل شيئاً خاصاً أو مختلفاً عما تريده لندن. كنت أعرف الحماقات التي تميز الكثير من القرارات والأفكار التي تبعث بها مع أولئك المزكومين والصغار والتافهين. وكنت أطبق الكثير منها، كلها، رغم عدم اقتناعي بها، فهل تكافئني في النهاية بأن تمنحني اجازة اجبارية وتطلب إليّ أن أقضيها هنا في هذا المكان المعزول؟ وأصدقاؤنا الأميركيون؟ هل يمكن أن يكونوا هم السبب؟ أكاد أجن. لو قالت لندن كلمة، توضيحاً، لأصبحت الأمور بالنسبة لي مقبولة، حتى لو لم اقتنع بها، ويمكن أن أستمر مخلصاً لكل ما يريدون، لكن لندن لا قلب لها. إن الدولة ليست مجموعة افراد، إنها كتلة صماء لا تعرف المشاعر أو اللحظات الانسانية، تعرف فقط المصالح، والانسان الفرد بمقدار ما يكون جزءاً من الكتلة، بمقدار ما يخدم هذه المصالح، فإنه موجود ومقبول، ويمكن أن يصبح ذكياً مرغوباً!

وفي اللحظة التي يختلف، يؤذي المصالح، فلا بد أن يسحق، أن يصبح مرضاً معدياً، ولا بد من مقاومته والقضاء عليه لكي لا ينقل العدوى إلى الآخرين. أهذه هي الدولة؟ أكاد لا أصدق رغم أن الصورة تتبدى للمرة الأولى. في وقت سابق كانت الأمور مختلفة، وحتى هذه اللحظة لدي قناعة أن خطأ ما هو الذي أدى إلى هذا الاشكال، ولا بد أن يتم تصحيح الخطأ، وعندها يزول الكابوس الذي يلاحقني في الليل والنهار!

على شاطىء البحر بدأت أرقب وجوه البشر وأتمعن في تصرفاتهم وحياتهم.

القرية الصغيرة، لا تختلف عن آلاف القرى الأخرى في سفوح الجبال أو في الداخل. الناس ينظرون إلى البحر بنوع من الخوف وما يشبه التساؤل، لقد أدركت ذلك من مراقبتي لهم. انهم لا يملّون من الوقوف ساعات طويلة، وربما في وضعية لا تتغير، وهم ينظرون إلى نقطة واحدة. الوجوه حزينة إلى درجة يتخيل الانسان أن هؤلاء البشر يتابعون من تلك النقطة مشهداً فاجعاً أو يشاركون بنظراتهم في دفن عزيز فارق الحياة لتوه، حتى إذا تعبوا أو انتبهوا هزوا رؤوسهم بعصبية وكأنهم يفيقون من حلم، ونظروا حواليهم ليتأكدوا انهم ما زالوا قادرين على الحركة وانهم أحياء، ثم يبدأون بتمتمات لم أستطع أبداً أن أعرف ماذا يقولون أو لماذا! وفي المرات التي كنت أسأل عن ذلك كانت تأتي الاجابات غامضة مختلفة إلى درجة تثير ارتيابي. هل يقولون أشياء لا معنى لها؟ هل يطلقون أدعية دينية لكي يطردوا الشياطين التي يتوهمون أنها في داخلهم أو حواليهم؟ هل يتمنون شيئاً، ويتصورون أنهم إذا باحوا بهذا الشيء لا تستجيب لهم الآلهة؟ لقد سمعت عدداً من التفسيرات لهذه الحالة، لكن أياً منها لم يقنعني. وفي الوقت الذي طلبت أن يصارحني واحد من البحارة ظل على الشاطىء لفترة طويلة، دون حركة، ثم أخذ يتمتم بتلك الطريقة، حين بدأت أتحدث معه عن طريق مترجم. قال لي هذا الأخير انه اشتغل في الهند مع قواتنا لفترة تزيد على خمس سنوات ـ تأكدت أن ذلك المترجم يضيف أشياء كثيرة من عنده، وفي إحدى اللحظات حاول أن يقنعني أنه رأى أشياء مشابهة في الهند، أما حين طلبت منه أن يترجم لي فقط ما يقوله ذلك البحار، أجابني بنفاد صبر:

ـ ما يقوله غير قابل للترجمة لأنه يردد كلمات عمياء لا تعني شيئاً.

وبدأ يردد كلمات: الصبر، الآخرة، الأولياء، الرزق، ولا أتذكر أية كلمات أخرى!

الناس في القرية متشابهون: بالوجوه، بالملابس، بطريقة الجلوس في مقاهي الشاطىء البسيطة القذرة، بالأصوات العالية، حتى الأطفال وأنا أتمعن بهم وأراقبهم وهم يتقافزون مثل العصافير أو القطط ويتدافعون ليرموا بعضهم أو أنفسهم في الماء، بدوا لي متماثلين إلى درجة لا يمكن أن أميز واحداً عن آخر. وبدت لي أجسادهم الصغيرة المحروقة ضامرة، بارزة الاضلاع، وأقرب إلى جذوع الأشجار، بالنتوءات التي تظهر بين الأكتاف، وعند المفاصل. أما عيونهم فإن حمرتها تختلط مع صفرة، وتؤكد دون أي خطأ، أنهم يشكون من أمراض الكبد والتراخوما في وقت واحد. أما حين يأكلون فإنهم أقرب إلى الطيور نصف الأليفة، إذ يأكلون بسرعة ويتخاطفون الخبز، ويبدي الكبار خشونة واضحة لكي يحصلوا على أكبر كمية من الغذاء!

لم أر على الشاطىء طيلة الفترة التي قضيتها امرأة واحدة تستحم، عدا مرة، وعن بعد كبير. رأيت ثلاث نساء بملابسهن الكاملة يخوضن في الماء كما لو أنهم أفيال البحر، وقبل أن أصل إلى قربهن بمسافة كبيرة تراكضن بخوف، ووقعت إحداهن، فبدا المنظر طريفاً ومحزناً في نفس الوقت، حتى إذا اقتربت رأيتهن يحتمين بزورق صغير كان على الرمل، وقد أصبحن كتلة واحدة ولا يمكن أن تميز بداية الكتلة أو ملامحها من التداخل!

أي فقر روحي يعمر هذه الأصقاع؟ وأية لذة في مثل هذه الحياة التي تتكرر كل يوم؟ أريد أن أنفذ إلى عقول هؤلاء الناس وإلى قلوبهم لكي أفهم كيف يفكرون، كيف يعيشون، وأية سعادة يحسون بها في هذه الرتابة والتفاهة!

منذ ساعات الصباح الأولى ألمح على شاطىء البحر مجموعة من الصبية تتراوح أعمارهم بين السابعة والثانية عشرة، وربما الرابعة عشرة. صبية لا يتخيل الانسان أن مثل هؤلاء يمكن أن يوجدوا، لولا أنه يراهم كل يوم: شعور شعثة، وجوه قاسية قذرة وفيها ملامح الاجرام المبكر.

عيون لا تعرف الخوف أبداً، إنهم ينظرون إلى كل شيء، عدا أوقات «العمل» إذ لا يكفون عن النظر إلى الأرض بتدقيق شديد، يصرخون في وجوه بعض بكثير من الصخب والتحدي، يضطهد الكبار الصغار بصلف ظاهر، أما إذا مر بهم إنسان فإنهم يصمتون لحظة يتملون خلالها منه، ثم يعودون إلى مناقشات حادة، فإذا انتهت تلك المناقشات، واقتسام ما يحملون، انصرفوا من جديد إلى «العمل». ولكن أي نوع من العمل هذا الذي يعملونه؟ إنهم يجمعون كل ما تقع عليه أعينهم، يجمعون أعقاب السجائر، العلب الفارغة، القواقع، الحبال المرمية، ما يقذفه البحر من بقايا، وأي شيء آخر متروك، وبعد أن يقوموا بهذه المهمات البائسة ويجمعونها، يبدأون بفرزها وتصنيفها، ثم يبدأ خلافهم أثناء التوزيع. ولا يعرف الانسان ماذا تعني هذه الأشياء أو كيف يمكن أن تكون ذات فائدة لهم أو لغيرهم. لا أشك لحظة واحدة أن هؤلاء الأطفال سيكونون مجرمين بشكل ما حين يكبرون!

كان يلّذ لي أن أرقبهم كل يوم في جولتي الصباحية المبكرة، لكن مع الأيام بدا لي أنهم هم الذين يراقبونني. كانوا ينظرون إليّ بامعان، يصمتون قبل أن أصل بفترة غير قصيرة، يتهامسون منبهين بعضهم إلى طريقتي في المشي، أو ربما إلى ملابسي، أما حين أرمي السيجارة، وقد حصل ذلك أول الأمر مصادفة، فإنهم يركضون إليها ويبدأون تدخين العقب بتلذذ ظاهر ويتضاحكون. كانت مراقبتهم لي أثناء سيري تسبب لي ارتباكاً حقيقياً لم أشعر بمثله لو أن رجالاً كباراً كانوا يفعلون ذلك. أما نظراتي إليهم فكانت ترتد بسرعة مخلفة في نفسي شعوراً بالكراهية والاشمئزاز، وكنت اتساءل: أين ينام هؤلاء؟ لماذا ينهضون في هذه الساعة المبكرة؟ كيف اجتمعوا؟ كنت اتساءل باستغراب ولا أصل إلى جواب مقنع. أما حين انطلق إلى وسط القرية، إلى السوق المغلق الذي تفوح منه روائح خانقة، فكنت أتعمد النظر في وجوه الصغار لعلي أرى أحداً منهم، لكن الوجوه تتشابه وتلتبس بحيث أصبحت أرى جميع الأطفال متشابهين إلى

درجة لا يمكن التمييز بين واحد وآخر، وهم لكثرتهم وانتشارهم في كل مكان، وفي كل وقت، يخيل للانسان أنه في وسط مزرعة للدجاج أو للخنازير. صحيح أنني لم أكن قادراً على تمييز وجوه الكبار في بداية إقامتي، لكن مع الأيام، ومن خلال التدقيق ثم التمعن بالفروق، بدأت أميز هذه الوجوه، وبدأت أرى الأنوف الكبيرة، الشفاه الغليظة، العلامات الفارقة، خاصة على الوجنات أو الأنوف. أما هؤلاء الصغار فانهم لفرط التشابه لا يمكن حتى لآبائهم وأمهاتهم التمييز بينهم. ولقد سمعت من بعض مواطنينا قصصاً طريفة حول ذلك. قالوا ان الآباء يضطرون إلى وضع علامات في أرجل أولادهم أو على رؤوسهم، خاصة وأن من عادة الشرقيين أن يطلقوا على الأولاد أسماءمحدودة، مثل محمد، علي، حسين، بحيث تجد عشرات الأشخاص يحملون نفس الأسماء، وهذا مما يزيد في تعقيد الصورة وجعل التمييز عملية شاقة. أما إذا انطلق هؤلاء الأطفال عراة إلى البحر فإنهم يتحولون إلى مجموعة من الأسماك لا يمكن لأحد أبداً أن يميز بين واحد وآخر!

قد يكون مملاً الحديث عن هذه الأمور الصغيرة التافهة، لكن هذه الصور التي تملأ عيني منذ الصباح الباكر، وفي الوقت الذي انطلق لكي أقوم بجولتي الصباحية وأريض نفسي استعداداً لبدء يوم جديد، هي الصور الأولى التي اصطدم بها. فإذا وصلت إلى الميناء الصغير، في الناحية الشمالية من القرية، أجد الصيادين وقد عادوا من رحلة الليل وبدأوا بانزال شباكهم وصيدهم، وهم بحركاتهم الموزونة، ونظراتهم المتعبة، يبدون شديدي الحذر وربما الخوف، خاصة حين يتزاحمون في النزول، وكل واحد يريد الانتهاء لكي ينطلق إلى بيع ما صاده والحصول على أسعار مناسبة قبل أن يسبقه الآخرون. فإذا أضيف إلى ذلك وجود الصبية الذين يريدون الحصول على شيء ما، على سمكة نسيها أحد الصيادين أو على قطعة خشب، والمتطفلون من الكبار الذين يهمهم أن يعرفوا حالة الصيد في ذلك اليوم، والأسئلة التي يوجهونها عن الرياح والبحر، ثم المساومات

الشاقة التي يجرونها حول البيع والشراء، وهم أغلب الأحيان لا يشترون أبداً، أو يشترون بشروطهم، ان صوراً مثل هذه تترك في نفس الانسان تساؤلات كثيرة حول طبيعة الحياة ونوع هؤلاء البشر والعلاقات فيما بينهم، وكيف يمكن أن يعيشوا في مثل هذه الأوضاع المزرية!

كنت أتصور أن الحياة في القرى أفضل بكثير مما رأيتها، أو على الأقل لا تختلف عن حياة الأحياء الفقيرة في العاصمة. كنت افترض أن الناس هنا قادرون على تأمين معيشة مناسبة، إذ لديهم كل الشروط الضرورية لذلك: البحر، الأرض الواسعة، العدد الكبير الذي يمكن أن يعمل؛ خاصة وأن بعض ملاكي الأرض، حين كنا نلتقي في العاصمة، أكد لي أن كل شيء متيسر للفلاحين، ما عليهم إلا أن يعملوا، لكن الكسل والرغبة في السرقة وصفات أخرى رديئة أصبحت جزءاً من حياتهم، وبالتالي فهم يفضلون أن يبقوا بهذا الشكل على أن يعملوا!

لو أردت يمكن أن أرصد عدداً لا حصر له من تفاصيل الحياة اليومية في القرية، وهذه التفاصيل لم أبحث عنها ولم أكلف نفسي جهداً من أجل اكتشافها وإنما جاءت وحدها، اصطدمت بي في جولات الشاطيء وفي السوق، وأثناء مراقبة دفن أحد الموتى، ثم في يوم السوق الكبير. السوق الكبير شيء عجيب أيضاً، ففي أحد الأيام جاءت أفواج هائلة من البشر، جاءت من القرية، ومن القرى المجاورة، وربما من الصحراء، حاملة معها عدداً لا يحصى من الغنم والدجاج والأرانب، إضافة إلى كميات من المحاصيل الزراعية والخضار، ولا أعرف أية أشياء أخرى، وفي الحال أقامت سوقاً، وهو عبارة عن مجموعة من الخيام نصبت في الناحية الشرقية من القرية، وبدأت عمليات البيع والشراء. حتى إذا جاء العصر فكت الخيام وانفضّ الناس ولم تبق إلا آثار الأوساخ وبقايا الأكل وحيوانات القرية السائبة. وقيل لي أن العادة أن يكون لكل قرية يوم تقيم فيه مثل هذا السوق، ويذهب إليه الناس وتتم فيه كثير من عمليات البيع والشراء، وأغلب الأحيان تتم هذه العمليات بالمقايضة، كما كان حال الانسان قبل

عدة آلاف من السنين!

سوف أتوقف عن ذكر هذه التفاصيل الصغيرة، التافهة، لأنها كثيرة ومملة، وربما كانت تعني أناساً يبحثون عن الطرافة. .

ما لفت نظري في القرية وحيرني كثيراً أن جميع الناس تقريباً يجلسون في المقاهي بعد العصر، ويستمعون باهتمام إلى أحد الشبان يقرأ عليهم «الأخبار» كما يطلقون على ماتكتبه الصحف. وباعتبار أني أصبحت على دراية بالصحف، بأسمائها واتجاهاتها، فقد لاحظت أن الصحف اليسارية هي التي تهم الناس ويستمعون بعناية حين يبدأ أحد بقراءتها. وبنسبة أقل صحف المتدينين، رغم مظاهر التدين التي تبدو على الناس في كثير من التصرفات. أما صحف الحكومة، فلم تكن تحظى باهتمام كبير. وبعد أن تنتهي قراءة الصحف يتناقش الناس طويلاً. يختلفون، يتبادلون التحديات، وفي بعض الأحيان يتبرع أحد المسنين ليطلب إيقاف هذه «الثرثرة»، لأن نشرة أخبار الراديو لا بد أن تحمل جديداً، عند ذاك تهدأ المناقشات ويرتفع صوت الراديو، ويتم طلب رفع الصوت وتضبيطه مرة بعد أخرى، وصاحب المقهى في مثل تلك اللحظات يبدو مثل ديك قوي، لأنه الوحيد الذي يتحكم بهذا الجهاز الخطير. ورغم أن جميع الناس يستمعون إلى الراديو باهتمام، ويخيم ما يشبه الصمت أثناء نشرات الأخبار، إلا أن كثيراً من التعليقات والضحكات تتخلل ذلك! أما إذا انتهت النشرة فترتفع عدة أصوات، ومن أمكنة مختلفة، تطلب أن يحول الراديو من محطة إلى أخرى، لأن أخباراً في محطة ثانية لا بد من سماعها للتأكد مما قيل قبل لحظات، وعند ذلك تتداخل الأصوات وصرخات الذين يطلبون الشاي أو الماء، مع الضحكات والنداءات، إضافة إلى تلك الألعاب التي يمارسونها في المقاهي والتي تخلق دوّياً لا ينقطع!

لا يمكن أن أفهم مثل هذه الظواهر أو أن أجد لها تفسيراً مقبولاً، لأن أناساً بمثل هذا الجهل، وعلى هذا المستوى من الحياة، إضافة إلى الفوضى والاضطراب في كل تصرفاتهم وعلاقاتهم، لا أعرف ما الذي

يدعوهم إلى الاهتمام بالأمور السياسية وإلى سماع الأخبار والانصات للذين يقرأون الجرائد؟ هل يحاولون التعويض؟ هل يطمحون إلى حياة أفضل يمكن أن تأتيهم من خلال تغييرات ينتظرونها؟ هل يتوهمون؟ وماذا إذا كانوا على علاقات بمنظمات سياسية؟ ولكن هل يستطيع هؤلاء أن ينتظموا ويفهموا متطلبات العمل السياسي؟ وماذا تفيد تلك المنظمات من هؤلاء البشر؟ لقد حيرني هذا الأمر، ولو زال جزء من الحذر الذي قوبلت به منذ لحظة وصولي، أو لم يكن موجوداً بالأساس، لاتيح لي أن أدخل في مناقشات طويلة مع بعض الناس، خاصة الذين يظهرون أكثر ذكاء وأهمية من غيرهم، لكن منذ اللحظة التي وصلت فيها، وأينما كنت أذهب، كنت أقابل بنظرات التوجس والتساؤل، ولقد خلق هذا حاجزاً بيني وبين الناس، حتى أن كثيراً من التصرفات كانت بتحفظها أو مبالغتها تأخذ بعين الاعتبار وجودي!

هل كنت الأجنبي الوحيد في هذه القرية البعيدة؟ وهل ينظر الناس إلى الأجانب جميعاً على أنهم سواء؟ لقد شغلني هذا الأمر كثيراً وكنت تواقاً لأن أعرف ذلك، ورغم الأسئلة التي وجهتها إلى المسؤول الاداري في القرية وإلى ضابط الشرطة والطبيب، لم أصل الى جواب مرضٍ. كانوا يبتسمون في وجهي، ينظرون إليّ بامعان، لكن كنت المس وراء الابتسامات والنظرات نوعاً من الحذر وربما الكراهية. أما العالم النرويجي الذي قذفت به المصادفة.. أو الجنون، لا أعرف، إلى هذا المكان، ليدرس أنواعاً معينة من النباتات، فقد كان في وضع مختلف عن وضعي، هكذا قال لي أثناء إقامتنا المشتركة في الاستراحة، وهكذا رأيت الناس ينظرون إليه. كان الناس لا يترددون في الحديث معه، خاصة وأنه بدأ يحسن اللغة المحلية، ويتكلمها بطريقتهم تقريباً، مع تلك اللكنة التي كان يلذ لهم أن يسمعوها. وكانوا يحملون إليه باستمرار أنواعاً من الأعشاب، حتى أن الاستراحة، في أماكن عديدة، تحولت إلى مختبر، لفرط ما فيها من النباتات والأعشاب ولا أعرف أية أشياء أخرى، لم يكفّ هذا النرويجي

عن جمعها!

أما البلغار العشرة، واليونانيان اللذان كانا مع هؤلاء يقيمون معملاً للسكر قريباً من هذه القرية، فلا يمكن اعتبارهم أجانب أو مواطنين، لأن لهم ظروفهم الخاصة وطريقتهم في الحياة. كانوا يقيمون في مكان بعيد، إلى جانب المعمل، لكن حين يأتون إلى القرية، مرة في الأسبوع، وبعض الأحيان أكثر من مرة، فكانوا يخلقون جواً غريباً من المرح والصخب، بحيث يختلف جو القرية تماماً. كانوا يصرون على أن يكونوا دائماً في مجموعات، ولم أصادف طيلة المدة التي قضيتها أن رأيت واحداً يسير بمفرده. وكانوا يقضون الجزء الأكبر من وقتهم في المشارب. كانوا يشربون باسراف، تماماً مثل مواطني البلد، وكانوا يغنون ويمرحون، ولا يترددون أبداً في أن يقوموا بأدوار تمثيلية، وبعض الأحيان تصيبهم حمى الغناء فلا يتوقفون. إن هؤلاء البشر خليط من الأجناس والأشكال بحيث لا يمكن اعتبارهم أوروبيين أو شرقيين، انهم مزيج من الاثنين. وما يعني هذا المزيج من طريقة التصرف والفوضى والخروج عن المألوف؛ كان بودي أن احتك بهم، أن أحادثهم، لكن حين عرفوا أني انكليزي، تظاهروا تماماً أنهم لا يحسنون كلمة واحدة من الانكليزية، ويبدو لي أن هذا غير صحيح، لأني رأيت واحداً منهم، في بار الاستراحة، يصغي إليّ باهتمام وأنا أتحدث مع النرويجي، وحين التقت نظراتنا ارتبك وأشاح بوجهه. أما حين سألته إن كان يرغب في أن يشرب معنا كأساً، فقد هز كتفيه دلالة أنه لم يفهم، وحين رفعت الكأس رفع كأسه وقال باللغة المحلية، وبنوع من المكر الظاهر، شكراً، ثم انصرف إلى زملائه!

كان السكان المحليون ينظرون إلى هؤلاء البلغار بنوع من المودة الظاهرة، وكانوا لا يترددون في أن يستوقفوهم في الشارع ويتحدثوا إليهم، رغم أن الكلمات التي كانوا يتبادلونها قليلة، وربما تعلمت أكثر منها. وكان هؤلاء البلغار أقرب إلى أشكال الفلاحين وتصرفاتهم، بطريقتهم في الأكل والشراب، بالملابس الخشنة التي يلبسونها، بالأصوات العالية أثناء

الحديث والغناء. هل كانت هذه الطريقة تحببهم إلى السكان وتجعلهم يشعرون تجاههم بالالفة والمودة؟ وأنا.. لماذا ينظرون إليّ تلك النظرة المرتابة الخائفة؟ إنني الآن اتساءل بمرارة: أين كنا؟ وماذا فعلنا؟ ولماذا ينظر الينا الناس هذه النظرة؟ أين ذهبت هذه السنوات الطويلة؟ هل الناس جاحدون إلى هذه الدرجة؟ صحيح أن هذه عادة من عادات الشرقيين، لكن ربما كان هذا التفسير أبسط التفسيرات وأكثرها غباء. قد يكون الناس الذين تعاونوا معنا طيلة هذي السنين من السوء إلى درجة جعلوا بريطانيا بنظر المواطنين المحليين أضحوكة أو ربما عدواً. وإلا لماذا يتعاملون مع ذلك النرويجي الذي لا أحد له، ولم يفعل من أجلهم شيئاً، بطريقة تختلف عن الطريقة التي يتعاملون بها معي؟

يقول أصدقاؤنا: اطمئنوا، لقد فعلنا أحسن ما يمكن أن يفعل، أوصلنا الكهرباء والماء النقي إلى أقصى مكان في الريف. نشرنا المدارس في كل القرى. وزعنا الخيرات على جميع الناس، لكن الناس... هنا، لا يمكن أن يشبعوا أو يقتنعوا، ولذلك فهم كثيرو الشكوى ومطالبهم لا تنتهي، كما انهم جهلة ويمكن لأي إنسان أن يقودهم. والآن، باعتبار أن المشاكل الكبرى تشغلنا، تركناهم للمتدينين ولليساريين، وهؤلاء مثل السوس لا يتوقفون يوماً واحداً عن العمل، وأنتم تعرفون كيف يعملون وماذا يريدون!

هكذا كان يقول رجالنا. أريد أن أصدق، أن أوافق، لكن الوقائع اليومية تصدمني، تجعلني أكفر. اتساءل، وبعض الأحيان اشتم، فالطريق الذي يوصل إلى هذه القرية ما كان له أن يصل لولا أن معملاً للسكر يشاد في المنطقة الأخرى، ولا بد أن تصل المواد. أما الذين يحسنون القراءة في هذه القرية، التي يزيد سكانها على الخمسة آلاف، فهم معلمو المدرسة وبعض الموظفين وبعض الأطفال، أما الآخرون فإنهم مثل الدواب يجلسون في المقاهي يستمعون إلى الراديو، إلى قارىء الصحف والكهرباء..؟ انها هنا مثل الشموع في ليلة عيد الميلاد، إنها تأتي وتروح

في كل لحظة، التيار متناوب، يصعد وينخفض مثل مريض مصاب بالربو. وتنقطع المياه اما قبل الظهر أو بعده. أما إذا تحدثت عن النظافة فكأني أتحدث عن شرف بريطانيا العظمى واحترامها، الشيئان اللذان افتقدتهما منذ اللحظة التي وصلت فيها إلى هذه البلاد. صحيح أن الناس يصغون إليّ، يتابعون حركاتي، يظهرون مقداراً كبيراً من الاحترام، لكن لا يستطيعون أن يخفوا نوعاً من الاحتقار، ومهما حاولوا أن يخفوا لا يستطيعون!

لماذا أضيع الآن في متاهات الأفكار السوداء التي تغزو رأسي كما تغزوها الشمس منذ اللحظات الأولى لبداية نهار شرقي؟ لماذا أفكر بهذه الطريقة؟

لقد جئت إلى هذا المكان للراحة، للتأمل، للرياضة، لكن تلك الدودة الملعونة التي بدأت منذ اللحظات التي طلبت مني الشركة أن أحزم امتعتي خلال أسبوع وأسافر، لم تتركني، أنها تكبر وتنمو فيَّ كل لحظة، وعليّ أن أواجه هذا القدر، هذا التحدي، وأثبت لنفسي، قبل أن أثبت للآخرين، مدى الكفاءة التي أتمتع بها. لا يمكن أن أتحول إلى جثة، إلى شيء منسي، كما لا يمكن لأحد أن يحولني إلى أداة صغيرة. إنني أعرف ماذا تعني بريطانيا العظمى، إنها تعني لي مجداً شخصياً، كبرياء لا يمكن أن أتنازل عنه أبداً. أما الآخرون إذا أرادوا أن يتنازلوا، أن يتهاونوا، فعليهم أن يجدوا غيري، لكن لن أسامحهم، لن أغفر لهم. إن مجد بريطانيا أكبر من الأشخاص، أخطر منهم ، ولا يمكن لأحد أن يتنازل عنه، أن يتساهل فيه. وإذا كان الرؤساء، بحكم التعب أو البعد، في لحظات معينة، مهيئين لأن يتنازلوا أو يتساهلوا فإن الآخرين ليسوا كذلك!

قالوا لي اذهب وافعل، وحين بدأت، قالوا لي: توقف، ماذا يظن أولئك الناس؟

(١١)

في اليوم الرابع لاقامتي في هذا المكان النائي، ونتيجة للتحدي، ولا أعرف أية أفكار أخرى، قررت أن أتنازل عن عنادي واتصل بالسفارة لكي أبلغهـا بمكان وجودي وعنواني!

حين ذكرت للسكرتير الأول العنوان لم يستطع أن يصدق. قال لي بصوت متقطع يغيب ويعلو تماماً مثل الموجة القصيرة في الراديو:

ـ مستر ماكدونالد، يجب أن تذكر لي العنوان بالحروف الانكليزية لأني لا أستطيع أن أستوعب اسمًا مثل هذا!

وحين أردد الحروف يغيب الصوت مرة ويظهر مرة أخرى، وفي لحظة من لحظات الغضب أو التجلي، اسمعه يقول:

ـ اذكر لي مقابل كل حرف اسمًا. . اسم يبدأ به ذلك الحرف. وعلى طريقة شركات الطيران، أو على طريقة مراسلي الصحف، أبدأ أقول وأردد كلمات بلا معنى:

ـ أ. . اندريه. ب بلتمور. ج جيرالدن

ويغيب في الضحـك، وأضحـك معـه، لكن لا أعـرف لمـاذا

ويصرخ، ويغيب صوته:

ـ هل قلت يا مستر ماكدونالد، سدني؟

وأقول بحدة:

ـ ج. . . جدانوف.

ـ آدامنوف؟

ـ ج. . . ج. . جارولسيم!

ـ أو. . الآن فهمت. . ج. . جارولسيم

واستمر بتلك الطريقة أصرخ مثل الباعة المتجولين، أما حين اسأله عن الأخبار فإنه يختصر كل شيء:

ـ لا شيء مستر ماكدونالد. . . لا شيء!

ـ ماذا؟

ـ لا شيء. لا شيء. سوف نراك قريباً!

لا أعرف كيف يخترع هؤلاء الشرقيون اسماءهم وأسماء الأماكن التي يعيشون فيها! لقد حاولت، منذ اللحظات الأولى، لوصولي إلى هنا، أن أحفظ اسم هذه القرية، لكن كل المحاولات لم تجد، حتى عالم النبات النرويجي كان يضحك من طريقتي في ذكر اسم القرية!

كنت افترض أني سأبقى هنا فترة تتراوح بين عشرة أيام وأسبوعين، لكن لم يكد الأسبوع الأول ينقضي، ولم أكد أنتهي من التجوال في القرية وما حولها، ومن قياس الشاطىء مرتين كل يوم، مرة في الصباح الباكر وأخرى بعد الغروب، حتى بدأت أشعر بالملل، ثم بالعصبية. وانتهت محاولاتي في مراقبة الصيادين والأطفال والناس إلى نوع من العداء والكراهية. قلت لنفسي «لو كنت أريد دراسة أحوال البلدان المتخلفة لجئت في وقت آخر، لفعلت شيئاً آخر. وهذا النرويجي، الذي يسلي نفسه بالنباتات والأعشاب يستطيع أن يبقى هنا إلى ما لا نهاية، أما أنا فلا أستطيع ذلك.» وتهت في الأيام البعيدة، حين كنت في لندن أحضر كتابي، قلت لنفسي: «حتى لو حاولت أن أدرس خصائص وهجرات

وتكاثر بعض الأسماك هنا فلن أصل إلى نتيجة. إن الأسماك تشبه البشر ببلاهتها ويجب أن لا أفكر بذلك».

* * *

إذا كان من أشق الأمور التي تواجه الأجنبي منذ لحظة وصوله إلى مثل هذا البلد معرفة الأخبار الدقيقة، لعدم وجود الجرائد الأجنبية وتناقض مصادر الأخبار، وإسقاط الرغبات الشخصية أو الحزبية على كل ما ينقل ويتداول من معلومات، إذا كان هذا هو الحال في العاصمة والمدن الكبيرة، فكيف سيكون الأمر في هذا المكان المعزول؟

لقد قررت، بيني وبين نفسي، منذ اللحظة الأولى لوصولي إلى هنا، أن أنسى السياسة مؤقتاً وابتعد عن الأخبار، لعلّي استيعد توازني وثقتي بنفسي، وبالتالي أعود إنساناً جديداً. لكن تلك العادة التي لم أتوقف عن ممارستها طوال سنتين، لم تفارقني. صحيح اني تظاهرت بذلك، حاولت بعض الوقت، لكن هذه اللعنة كانت تداهمني وتسيطر عليّ أغلب الأوقات. إذ أجد نفسي لا شعورياً اتطلع في وجوه الناس لاكتشف من معنا ومن ضدنا، ويمكن معرفة ذلك ببساطة. وأذهب كل غروب إلى المقاهي، انتقل من مقهى إلى آخر، ولا أتردد أبداً في النظر إلى الجرائد التي يحملها بعض الناس لمعرفة ألوانهم السياسية، إضافة إلى الدخول في مناقشات لا نهاية لها عندما تسنح الفرصة، وكلها بهدف أن أعرف أشياء جديدة تفيدني في المهمة التي جئت من أجل تنفيذها!

هكذا كانت حالتي طوال هذه الأيام العشرة، أما محاولاتي في أن أعرف بدقة الأخبار فكانت تصطدم بالجهل والهروب وحين اتصلت بالسكرتير الأول، مرة بعد أخرى، أسأله إن كانت هناك ضرورة لعودتي، أو إذا كانت هناك أخبار، كان الجواب التقليدي:

ـ لا شيء.. لا شيء يا مستر ماكدونالد!

أما حين جاءني ضابط البوليس في اليوم الحادي عشر، وبعد تبادل المجاملات والأحاديث العامة حول الطقس والكهرباء ولا أعرف أية أمور

أخرى، وقد جرى كل ذلك عن طريق المترجم، سألني عن الأسباب التي دعتني للمجيء إلى هنا، ولماذا زرت معمل السكر وماذا أبغي من ترددي على التل الشمالي المطل على الميناء!

كانت مفاجأة لم أكن أتوقعها، ولم أتصور أن أحداً، مثل هذا الضابط أو غيره، قادر على أن يوجه لي هذه الأسئلة أو غيرها، واني مضطر للاجابة عليها بشكل ما. شعرت بدمائي تفور وبنبضات قلبي تسرع، ليس خوفاً، لكن الاهانة كانت أكبر من أن احتملها.

قلت للضابط، وأنا أغيرّ جلستي، فأصبح مثل الأميركيين تماماً:

ـ هل تتصور اني سأجيب عن هذه الأسئلة؟

وحين نظر إليّ، وقد تملكته الحيرة، ولم يدرك إذا كان ما قلته سؤالاً أو جواباً، ضحكت بسخرية ، وقلت:

ـ ربما تعرف أن الدبلوماسيين غير مضطرين أبداً إلى الاجابة، حتى لو كان السؤال عن الصحة!

وحدق بي من جديد مستغرباً، ثم سأل:

ـ هل أفهم أنك لا تريد الاجابة؟

ـ يمكن أن تفهم ذلك بالتأكيد!

لم تطل مناقشتنا أكثر من ذلك، أما حين أراد أن ينصرف فقد قلت بتحدٍ:

ـ أرجو أن تبلّغ الآخرين اجابتي الكاملة!

قال وهو يهز رأسه بما يشبه التوعد:

ـ بالتأكيد سأفعل!

حاولت طوال بعد الظهر والمساء أن اتصل بالسفارة، لكن محاولاتي انتهت إلى الفشل، لأن عامل الهاتف لم يعطني جواباً واضحاً، لم يقل إذا كان سيوصلني بالسفارة، وعليّ أن انتظر، اما أن ذلك لن يحصل أبداً. في صباح اليوم التالي جاءني ثلاثة أشخاص، أحدهم يعرف الانكليزية معرفة جيدة، وأبلغوني بضرورة المغادرة، فوراً، وحين أظهرت احتجاجي،

قال لي أحد الثلاثة، وكان صغير الحجم، حاد النظرات، وبدا شديد العداء منذ النظرة الأولى:

ـ الأفضل أن تركب سيارتك بهدوء وتغادر، أما إذا أردت أن تناقش طويلاً فسوف نتصرف بطريقة أخرى!

وحين هززت رأسي دلالة السخرية، ضحك بلؤم وتابع:

ـ سوف نحملك ونضعك في السيارة، ولن نتوقف إلا في العاصمة.

توقف قليلاً وسأل من جديد:

ـ هل تريد أن تغادر حسب طريقتنا؟

أحسست بعدم جدوى المناقشة، وقدرت ان أموراً جديدة لا بد أن تكون قد حصلت خلال الأيام الأخيرة. قلت لنفسي «لا تتعرض يا بيتر لامتحان من هذا النوع مع هؤلاء الشرقيين. إنهم في لحظات العناد أغبى من الحيوانات وأقسى من الحجارة.» قلت في محاولة أخيرة:

ـ هل لديكم أمر خطي يجبرني على المغادرة؟

قال واحد ظل صامتاً طوال الفترة السابقة:

ـ مستر ماكدونالد... نحن نعرفك جيداً. ومن الأفضل أن تتوقف عن المناقشة وتهيىء نفسك للسفر في أسرع وقت.

ـ دون أمر خطي؟

قال الصغير الحجم:

ـ ودون مناقشة من أي نوع!

أدركت أن لا جدوى. رفعت يدي دلالة الاحتجاج وعدم الاهتمام والتحدي، والتفت داخلاً، لكي اهيىء حقيبتي. كنت خلال الفترة التي أجمع أشيائي اتمتم بكلمات، لأظهر استيائي واحتقاري، وكنت اتمهل في بعض اللحظات أثناء وضع حاجة ما، وفي لحظة أخرى أضع حاجة ثانية بعصبية وعدم اهتمام، وهم صامتون! إن الصمت الشرقي نذير شؤم لا نهاية له، وكثيراً ما ترددت في مسامعي كلمات تحذرني من هؤلاء الصامتين «الشرقيون الخطرون لا يعرفون الكلام أبداً، وربما لأنهم كذلك، يلجأون

إلى وسائل أخرى في التعبير، وعلى الانسان أن يبتعد عنهم، أن يتوقف عن مناقشتهم!»

كنت في تلك اللحظات أشعر بالاهانة والخوف، ولا أعرف أية مشاعر أخرى. إنها إحدى التجارب القاسية في حياتي، لكن يجب أن أبدو متماسكاً وقوياً، ويجب أن اعتبر هذا الذي يحصل الآن مجرد حماقة أكثر مما هي اهانة، هكذا كنت أريد أن أشعرهم.

بعد أن انتهيت من اعداد حقيبتي، سألت بغيظ:

- هل استطيع أن أتناول فطوري أم عليّ أن أغادر دون طعام؟

قال الصغير الحجم:

- يمكن أن تأكل وتشرب ما تريد.

في الشرفة المطلة على البحر، في ذلك الصباح من آب، عرفت ماذا تعني بريطانيا، الآن، خاصة بالنسبة لهؤلاء الشرقيين! وتأكدت أن كثيراً من الأحلام التي ملأت رؤوسنا، خلال عشرات السنين، تنهار وتنتهي دفعة واحدة، ولا يمكن لأحد أن يمنع انهيارها أو نهايتها. وأنا بيتر ماكدونالد، واحد من الحالمين الكبار، وها أنذا، استيقظ الآن، استيقظ في ضوء الشمس الساطع الذي يخطف الأبصار. وبدأت الأفكار تغزو رأسي: هل سيتركونني أصل العاصمة دون أن يدبروا قتلي على الطريق؟ هل أصل إلى هناك وأبقى أم عليّ أن أرحل ويرحل معي جميع البريطانيين الآخرين؟ وماذا نستطيع أن نفعل الآن؟

مرت عشرات الأسئلة في رأسي وأنا في الشرفة انتظر الفطور، والثلاثة يجلسون في مكان قريب، بعد أن رفضوا دعوتي، وأخذوا يتهامسون. وبين فترة وأخرى ينظر أحدهم إليّ، تلتقي نظراتنا، نتبادل التفكير والتساؤل والأدوار!

هل هي النهاية؟ هل هي بداية من نوع جديد؟ وماذا حدث لكي يتصرفوا بهذا الشكل؟ هل يريدون الانتقام الآن أم اني تصرفت بطريقة تثير الشكوك وتدفعهم لاتخاذ هذا الموقف؟ كل ما أستطيع قوله وأنا متأكد، ان حربهم ضد بريطانيا، وكل ما هو بريطاني، قد بدأت.

(١٢)

وهكذا ظللت أفكر وأنا أسوق سيارتي على طول الطريق الساحلي. كنت بين لحظة وأخرى أرقب في المرآة السيارة العسكرية التي ترافقني. حاولت عدة مرات أن أكون خبيثاً فأسرع أكثر مما ينبغي، ثم ابطىء، تاركاً ذاك الذي يقود تلك السيارة في حالة من التوتر والارتباك، صحيح انها تسلية يائسة أو انتقام صبياني، لكن ماذا أفعل إزاء حالة مثل هذه؟ وماذا اذا رفضت الاستجابة؟ هل يدرك هؤلاء الحمقى أن بيتر ماكدونالد يعني شيئاً مهماً لبريطانيا العظمى؟ قلت لنفسي وأنا أتجنب حفرة في الطريق، لم أرها إلا في اللحظة الأخيرة، وحاولت تجنبها بسرعة خرقاء فلم أفلح، «لم أعد شيئاً مهمًا، وربما تفضل بريطانيا أن أنتهي مثل كلب وفي مكان مجهول» ضحكت بحزن وأضفت «لو مت في حادثة سير أو في أية حادثة أخرى، فلن أحظى بأكثر من كلمة رثاء بسيطة، قد لا يقرأها أحد، ويتقدم مغلف لباتريشيا ثمناً لهذا الفارس الذي خدم الامبراطورية خدمة كبرى!»

هناك لحظات في حياة الانسان تجتمع فيها كل الأشياء، حتى لتكاد

تصبح كالبؤرة: الذكريات، الرغبات، الشعور الحاد بالخيبة. . . ولا أعرف أية مشاعر أخرى. إنها تختلط إلى درجة لا يعرف الانسان ماذا هو أو ماذا يعني بالنسبة لنفسه أو بالنسبة للآخرين. صحيح أن هذه اللحظات قليلة، لكنها حادة، قوية، وتولد حالة من التعاسة، ومهما بذل الانسان من جهد ليتغلب عليها بالنسيان أو الحيلة، فإنها تبقى أقوى من اللحظات، وتضفي على التصرفات لوناً من التشنج والعصبية. يستغرب الانسان أنه يكتشف ذلك بالصدفة، من طريقته في إمساك سكان السيارة، من التجهم، وبعض الأحيان من التعب المفاجىء الذي يحسه في الأكتاف والمفاصل. هذا ما حصل لي تماماً، إذ ما كدنا نقطع مسافة مائة ميل، لم نتوقف خلالها في القرى التي مررنا بها، حتى وجدت نفسي أتوقف فجأة في إحدى الاستراحات الصحراوية التي لا يتوقف فيها سوى سائقي السيارات الكبيرة. كان توقفي مفاجئاً، لكنه كان صادراً عن اصرار قوي، وحين ترجلت من السيارة واتجهت من فوري إلى ذلك المقهى البائس المليء بالذباب والرجال المترهلين الكسالى، الذين لا يرغبون حتى في إبعاد الذباب عن وجوههم، حين توقفت ونزلت، تعمدت أن ابطىء قبل أن أدخل، ونظرت بطرف عيني، بدا لي سائق السيارة العسكرية ومرافقه في حالة من التساؤل الأقرب إلى الاضطراب، إذ ظنا أن عطباً أصاب السيارة، أوان أمراً غير متوقع حصل واضطرني إلى ذلك، فقد رأيت المرافق يدخل بسرعة وورائي بينما توقف السائق عند سيارتي ليتأكد أن شيئاً ما لم يحصل!

أحسست بكراهية لكل شيء في هذا المقهى الريفي البائس: المياه، المشروبات، البشر. وحين نظر إليّ الموجودون بنوع من التساؤل، لم أكلف نفسي عناء النظر إلى وجوههم أو التوقف عند نظراتهم المتسائلة. أما ذلك الصبي الذي جاءني بسرعة ورفع عن الطاولة القذرة أكواب الشاي الفارغة ومسح البقايا بخرقة قذرة، ثم نظر إليّ بتساؤل متلهف يريد أن يلبي ما أريد، فقد نظرت إليه نظرة احتقار وهززت كتفي بنوع من الحيرة وعدم القدرة على طلب أي شيء، وحين ظل واقفاً أمامي وهو يبتسم، قلت:

ـ كوكاكولا .

قلت لنفسي «يمكن لهؤلاء أن يغشوا ويفسدوا كل شيء، حتى الهواء الذي يتنفسونه يصبح ملوثاً، ولذلك عليّ أن أتجنب هذه القذارة قدر ما أستطيع!»

كنت أريد أن أستريح، أن أترك عضلاتي ترتخي قليلاً، لعلي أتخلص من هذه المشاعر التي سيطرت عليّ. أما حين رأيت تلك المجموعة القليلة من البشر، المركومة هنا بذلك الشكل، ربما تجنباً لشمس آب الوهاجة القاتلة، أو ربما استمراراً في ممارسة الهواية الشرقية التي لا يحسنون غيرها: الكسل، فقد بدت تلك المجموعة أقرب إلى الحيوانات البحرية التي لا تعرف الحركة، أو تتحرك بطريقة بطيئة غامضة لا تدركها الحواس!

كانوا ينظرون إليّ كما لو أني مخلوق هبط من عالم آخر. سيطر عليهم الصمت، وبدأت حدقات العيون تتحرك بتلك الطريقة الشيطانية الغامضة. كانوا ينظرون إليّ وينظرون إلى بعضهم، ويبدو أنهم يفهمون تلك النظرات أو يتحدثون من خلالها. إذ ما كدت أبدأ أشرب زجاجة الكوكا كولا حتى سرت همسات فهمت منها انهم تأكدوا من استنتاجاتهم، وتبادلوا على أثرها النظرات والابتسامات، وكلها لتأكيد هذه الاستنتاجات!

لقد قلت لنفسي منذ وقت طويل ان لعنة الشرق هي الشمس، وهنا، في هذا المكان المفتوح، قريباً من البحر، وما يخلق من رائحة، في هذا الشهر الملعون، آب القاتل، تتحول الشمس إلى حيوان متوحش تمزق الأعصاب، تجتاح الخلايا، تفترس كل ما هو جميل ونبيل ورائع في الانسان!

من باب المقهى الريفي البائس المعتم نظرت إلى البحر، كان الوقت قبل الظهر، رأيت الماء مثل صفيح لامع، يمزق اعصاب العيون، يمتصها، يحولها إلى ضباب اغبش، لا يترك فرصة للتأمل أو الهدوء. قلت لنفسي بنوع من اليأس «في مثل هذا الجو يمكن أن يفعل الانسان أي شيء، وإذا لم يفعل شيئاً قد يجن أو يقتل نفسه» وبعصبية، وبعد أن شربت قليلاً من

الزجاجة الساخنة، التي حملها إليّ الصبي، وظل قريباً ينظر إليّ باهتمام، تركت الزجاجة وقطعة كبيرة من النقود وغادرت. كان عليّ أن افعل شيئاً لكي اخرج من جو العصبية والتعب، وما فعلته، حتى لو كان مجرد النزول من السيارة، سوف يخلق في نفسي راحة كنت بحاجة ماسة اليها. وبنفس السرعة التي نزلت بها ركبت السيارة، دون كلمة، دون نظرة، ومثل جوكي يضرب حصانه بحقد أول ما يبدأ السباق لكي يهيجه ويدفعه إلى السرعة، فعلت بالسيارة وانطلقت، دون أن انتظر، دون أن انظر إلى هذين المرافقين الخائفين والخطرين!

وفي المرآة، رأيتهما، مرة اخرى، مضطربين، يتشاوران، بعد أن اجبرتهما على أن يتركا اكواب الشاي، دون أن يشربا منها إلا القليل ويلحقا بي. وكما تفعل الكلاب شعرت بالراحة لأني اضطررتهما إلى ذلك، دون رحمة، دون شعور بالذنب! لا انكر اني كنت خائفاً، ودارت في رأسي عشرات الأفكار، واضطررت لأن اضع مسدسي في مكان قريب، لكي يسهل عليّ استعماله عند الضرورة، لكن الخوف بدأ يغادرني وانا اقترب من العاصمة. لم يبق امامي إلا خمسون ميلاً. وحتى هذه الأميال الباقية اعرفها اكثر مما سبق من الطريق، إذ كنت في احيان كثيرة اخرج، بصحبة اشرف أو عباس. صحيح أن اغلب المرات التي كنا فيها سوية، كانت ليلاً، لكني اعرف هذه المنطقة، وشيرين كانت تحب هذا الطريق اكثر من غيره، وكانت تطلب إليّ في بعض الليالي أن نقطعه اكثر من مرة، ولا تفعل شيئاً سوى أن تمسك بيدي، وبعض الاحيان تضع رأسها على فخذي وتتظاهر بالنوم. قلت لنفسي عندما بدأت مرسلات الاذاعة تظهر من مسافة بعيدة «عليّ الآن أن اعطي هذين الغبيين درساً، ويجب أن اجعلهما لا ينسيان بيتر ماكدونالد طوال حياتهما». اخذت اسير بسرعة كبيرة. كنت في لحظات معينة اغيب، حتى لا اكاد اراهما، وحين أتاكد من ذلك آخذ منعطفاً فرعياً واقف، حتى إذا مرا بسرعة جنونية احرك سيارتي واتبعهما. لقد حصل هذا مرتين. وفي المرتين كنت اشعر بلذة

خارقة اني وجهت اهانة مباشرة. لقد القيت عليهما درساً في كيفية المراقبة.
«ان الشرقيين تقليـديون إلى درجـة لا تصدق. انهم في حـالات كثيرة يراقبون الاشجار واعمدة الهاتف، وربما الاشباح، ولا يدركون ولا يحسون بأي تطور يحصل بالنسبة للطرف الآخر. يقولون لهم: راقبوا. يراقبون. أما أي شيء يراقبون، لماذا يراقبون؟ فإنهم لا يعرفون أبداً».

عند المطار توقفت. ترجلت من السيارة. وقفت إلى جانبها. توقفت السيارة الثانية. ظلا في السيارة أول الامر، حين طال انتـظارهما نـزل احدهما، تقدمت نحوه بنوع من التحدي، سألته:

ـ هذا هو المطار... هل يكفي أم أن عليكم واجباً آخر!

هزّ كتفيه دلالة انه لم يفهم كلمة واحدة. التفت واشار إلى زميله أن يأتي. جاء الآخر. قلت له وأنا اقهقه:

ـ هذا هو المطار، نحن الآن في العاصمة؟ هل تريدان أن تواصلا السفر معي حتى غرفة نومي أم يكفي هذا؟

ارتبك قليلاً قال بانكليزية ثقيلة:

ـ نعم يا سيدي، هذا هو المطار.

ـ هل تريد أن ترافقني اكثر من ذلك؟

ـ ان مهمتنا أن نصل معك إلى العاصمة.

ـ ولكن هذه هي العاصمة!

ـ هذا هو المطار.

ـ اين هي العاصمة؟

وبنفس الارتباك اشار إلى اتجاه العاصمة. قلت بسخرية:

ـ شكراً لكم ضيافتكم ومرافقتكم، واعتقد ان هذا يكفي!

هزّ كتفيه، ولا ادري ان كان ذلك تعبيراً عن العناد أو عدم الفهم، فالصمت واحتقان الوجه يدلان انه لم يقتنع أو لم يرض. قـال لزميله كلمات بطريقة سريعة لم افهم منها شيئاً، سألته مرة اخرى:

ـ اعتقد أن هذا يكفي ويمكن أن ترجعا، لكي تصلا وتبلغا الرؤساء

بوصولي سالماً!

بدا انه غير راغب في أن يفهم. تراجع قليلاً، ارتكى على سيارته تخلصاً من أي حديث.

إنني اذكر هذه التفاصيل الثانوية لكي أؤكد لنفسي الطريقة الشرقية في الفهم والتصرف، ولكي اشعر بنوع من الانتقام والتشفّي، إذ ما كدت اسوق سيارتي من جديد، وبنفس النوع من المكر ومحاولة التخفي، ثم الانعطاف في احد الشوارع المتفرعة، حتى افتقدت زميلي الرحلة. لقد غابا عني، غابا تماماً، وربما إلى الأبد!

* * *

كان هدفي الأول، وأنا اصل المدينة، بشوارعها المزدحمة، ببشرها الكسالى المتسكعين، بالضجيج الذي يصمّ الآذان، خاصة في الشوارع المسقوفة، أن اتوجه فوراً إلى السفارة البريطانيـة، أن التقي بالسفـير، بالمستشار، بالناس الذي اعرفهم. بدت لي الأيام العشرة التي قضيتها في ذلك المكان المعزول لا نهاية لها، وتوقعت أن ارى وأجـد اشياء كثيرة جديدة. وكانت تملؤني أيضاً الرغبة في أن أروي ما حدث، لكي أثبت لهم، بالوقائع الملموسة، كيف بدأ الناس ينظرون إلى بريطانيا العظمى، وكيف يعاملون مواطنيها!

في الشوارع التي مررت بها، والتي اعرفها جيداً، لم المس شيئاً غريباً أو متغيراً، وما عدا انقطاع الناس أو ندرة وجودهم، في الاحياء الراقية، حيث كنت في طريقي إلى السفارة، في هذا الوقت من النهار، وفي هذا الفصل بالذات، ما كان ليلفت نظري شيء حتى الأشخاص الذين برزوا من وراء الأشجار، حيث اوقفت سيارتي، قرب الباب الخلفي للسفارة، ما كانوا ليثيروا اهتمامي في بداية الأمر، لكن وانا ادخل، ثم وانا اشرب القهوة في غرفة السكرتير الأول، والحركة غير العادية، ثم الملفات الكثيرة التي كانت تعلو الطاولة الجانبية، وانقطاع الحديث اكثر من مرة بسبب التلفونات

الداخلية، كل هذه الأمور جعلتني انظر حولي بامعان. وإذا كانت لراندلي فضيلة من نوع ما، فقد نبهني بالحاح مبالغ فيه، أن القي نظرة جادة على كل ما حولي، حتى لو كنت ادخل إلى غرفة نومي، «لأن تغير الاشياء، واضطراب الحركة، وطريقة الناس في التصرف، تكفي لأن تُفهم، حتى الغبي ،أن هناك امراً غير عادي».

ما كدت اسأل السكرتير الاول تلك الأسئلة التقليدية عن الطقس والرسائل والزملاء، لكي ابدأ بعد ذلك اقص عليه ما حدث لي، حتى دخل السفير. فوجيء السفير بوجودي، وبدا اقرب إلى الارتباك، وكأنه لم يتوقعني ابداً، أو لم يرد وجودي في تلك اللحظة، لكنه تماسك وبدا مرحاً، رغم التجهم الذي ظهر على وجهه في البداية، قال لي بحيوية:

- مرحباً بك مستر ماكدونالد. . . !

وابتسم ابتسامة حزينة، وقال كأنه يخاطب نفسه:

- لقد افتقدناك في المرحلة الماضية!

وعاد إلى لهجة المرح:

- هل قضيت اجازة ممتعة؟

- بالتأكيد. . . سعادة السفير كانت اجازة ممتعة للغاية!

انطلت الحيلة على السفير، تابع:

- قلت لك اذهب.

ونظر إلى ناحية جانبية، واضاف:

- كنت بحاجة إلى تلك الاجازة، وانت تعرف أن الاجازة لا تريح الانسان فقط انها تغيره!

لا اعرف لماذا سيطر علينا احساس قوي بالمكر المتبادل. هل كانت حركات السفير ام نظراته هي التي اوحت لي بذلك؟ هل كانت المشاعر العصبية البعيدة عن هذا الجو هي التي طغت عليّ في تلك اللحظات وجعلتني اشعر أن ما اقوله ليس مجرد مجاملة وانما هو اقرب إلى الكذب؟ ان شيئاً مثل هذا سيطر عليّ، قلت دون مقدمات:

ـ سعادة السفير. . .

كان صوتي، نبرة حديثي، مختلفاً عن السابق. نظر اليّ السفير بامعان وكأنه يحاول اكتشاف ما اريد أن اقول، تابعت بنفس الصوت:

ـ هل استطيع أن اراك فترة قصيرة على انفراد؟

ـ الآن؟

ـ إذا كان ذلك ممكناً.

ـ هل لديك شيء هام، مستر ما كدونالد؟

اعرفه حين يتكلم بهذه الطريقة. أنه يريد أن يقيم بيني وبينه حاجزاً، يريدني أن لا أصرّ على ذلك، وأن أقدر ظروفه ومشاغله، قلت بحدة:

ـ لدي اشياء كثيرة اريد أن اقولها. . . يا سعادة السفير!

اضطرب قليلاً، بدا عليه التردد. نظر إلى السكرتير الأول بطريقة توحي انه يريد النجدة.

ثم قال بعصبية:

ـ تفضل مستر ماكدونالد!

(١٣)

ليس مهمًا الآن أن استعيد كل ما دار بيني وبين السفير في ذلك اللقاء. كان لقاء قصيراً، لكني تعلمت منه الكثير، وعرفت خلاله الشيء الكثير!

ـ بيتر. . . ما زال لك دور، يجب أن تذكر ذلك جيداً!

ـ ما زال لي دور؟

ـ بكل تأكيد!

ويصمت قليلاً، يهزّ رأسه، وحين يتحدث مرة اخرى يبدو وكأنه انسان آخر يتكلم:

ـ لا بد من الاعتراف، يا بيتر، اننا لم نعد وحدنا، ليس هذا كل شيء، ان افكارنا واساليبنا بحاجة إلى مراجعة، إلى اعادة نظر، وإذا كانت لك في السابق تحفظات، أو كانت للندن تحفظات، فإننا الآن نواجه مرحلة لا ادري إن كنا قادرين على تجاوزها أم سوف نرفع راياتنا البيضاء وننكفىء مرة اخرى عائدين إلى تلك الجزيرة الملعونة، وعند ذاك سوف يقتلنا الندم إذا لم يقتلنا العجوز هنا!

ويتوقف السفير، اشعر بالحصار والتحدي، واری الرجل مـرتبكاً

واقرب إلى الخوف، كأنه يقاوم شيئاً في نفسه. كنت اريد أن احدثه عن شاطىء البحر والاهانات التي لحقت بريطانيا العظمى. كنت اريد أن اطرح امامه قناعاتي الحقيقية، واخيّره بين أن ارجع إلى بريطانيا أو أن نعمل شيئاً، لكن تلك الطريقة التي اتبعها لكي ينقل إليّ مخاوفه، جعلتني اتردد. قلت بنفاد صبر، ولكي اخلق جواً جديداً:

- سعادة السفير. . . انني لا افهم شيئاً، وإذا كانت الامور كما تركتها فلا ارى مبرراً للخوف ابداً!

وفي محاولة لأن اجبره على الحديث، تابعت:

- اكون شاكراً اذا بلغتني بالجديد الذي حدث!

وبطريقة يمتزج فيها الخوف بالكبرياء، قال بلهجة ابوية:

- بيتر. . . اعرف حقيقة موقفك، واعرف المخاوف التي كانت تحاك من قبل الاميركيين، وتغيرت اللهجة وهو يتابع:

- وإذا اردت أن تعرف حقيقة مشاعري فربما اكتشفت انها ذات المشاعر التي تسيطر عليك وتدفعك لأتخاذ موقف ما، لكن الأمر الآن اصبح اكثر تعقيداً واكثر خطورة، وعاد إلى النبرة الأولى:

- بيتر. . . يجب أن تتأكد من شيء واحد: اننا الآن في اصعب فترة منذ سنوات طويلة. اننا الآن نراهن على كل شيء فاما أن نخسر كل شيء أو أن لا نخسر.

وضحك. كانت ضحكته محاولة واضحة ليتغلب على الحرج.

- إذا اردنا أن لا نخسر كل شيء يجب أن نتنازل عن بعض مطالبنا، عن طريقتنا في التعامل.

قلت بعصبية:

- كيف. .؟ ماذا تريدني أن افعل!

- اسمع بيتر. . . كنت اريدك أن تبقى بنفس الطريقة التي اتبعتها خلال السنتين الماضيتين، لكن واجبي، كرجل شريف، أن انفذ التعليمات. كانت التعليمات واضحة: دعه يستريح قليلاً ثم ابحث معه

خطتنا الجديدة، والآن، وقد عدت لابد أن تعرف أن لنا خطة جديدة، وان اموراً جديدة حصلت في الفترة الاخيرة تتطلب هذه الخطة!

رفعت كتفي دلالة عدم المعرفة. تابع السفير:

ـ ليس الآن الوقت المناسب لكي نتحدث في كل شيء، المهم أن تعرف أن العجوز افلت منا تماماً، وان احداثاً خطيرة توشك أن تقع، ليس هذا كل شيء، ان الاميركيين سوف لن يقفوا متفرجين، ولن يتركوا الأمور تفلت منهم نهائياً، فإذا لم نشترك سوية في عمل شيء ما فسوف تضيع علينا نحن الأثنين، أو تضيع منا وحدنا. . .

وزفر بحرقة كأنه تخلص من عبء كبير، واضاف بتعب:

ـ هذه هي المشكلة التي يجب أن تعرفها وتستوعبها يا بيتر، وعند ذلك ستكون الأمور كلها قابلة للحل.

وامتلأ وجهه بالحزن واضاف:

ـ هذا إذا لم يفتنا الوقت نحن والأميركيين معاً!

قلت في محاولة لكي اكتشف مدى القناعة وصلابة الرأي الذي تم الوصول اليه:

ـ ولكن ماذا حصل لكي نفكر بهذه الطريقة الحمقاء؟

وحين هزّ رأسه بيأس ولم يجب تابعت:

ـ كانت الامور تسير سيراً حسناً إلى ما قبل اسابيع، إلى الوقت الذي سبق طلب لندن بوقف المفاوضات. ليس هذا كل شيء، كان الاميركيون يدعمون العجوز، يقدمون اليه المساعدات، فهل توافق لندن أن تركب في الدرجة الثانية من القطار؟

ـ لندن تريد أن تبقى في القطار، لا أن ترغم على مغادرته، ويبدو أن القطار بدأ رحلته، ولا اعرف إن كنا سندركه أم لا!

ـ لا افهم شيئاً سعادة السفير.

وتغيرت اللهجة وأنا اضيف:

ـ ولا اتصور أن تغيراً مثل هذا يحصل خلال عشرة ايام.

حين ضحك السفير هذه المرة تذكرت راندلي، حتى صوته، وأنا اغمض عيني قليلاً، بدا لي كأنه صوت راندلي:

ـ بيتر... يجب أن لا نكابر، ان يوماً واحداً في هذا الشرق يمكن أن يعادل سنين عديدة. هنا كل الامور تقع على شكل انفجارات مفاجئة! أما في بريطانيا فإن مجلس العموم يظل يضرب القوانين حتى تصبح مثل الصفائح الرقيقة، أو مثل الجلود... هل فهمت الفرق بين بريطانيا والشرق؟

كان يروق لي أن ادخل السفير في متاهات، لكي اعذبه، كممثل لبريطانيا العظمى، لكن شعرت فجأة بحالة من الهبوط. قلت لنفسي «ماذا يفيد أن اقول أي شيء الآن؟ وماذا إذا انتقمت من هذا الرجل؟» قلت بعناد:

ـ الحقيقة انني لم افهم كلمة واحدة من هذا الحديث الطويل!

انتفض السفير. شعر أن الاهانة أكبر من أن يحتملها. قال لي بلهجة جديدة مختلفة:

ـ مستر ماكدونالد... بالنسبة لي أنت لا زلت في اجازة، ويمكن أن تبقى في بيتك أو أن تسافر لا فرق عندي، وإذا كنت قد سمحت لنفسي أن اتحدث معك في الأمور الجديدة فلكي اعطيك شرف خدمة الامبراطورية في هذه الفترة العصيبة!

القسم الخامس

لم أصبح رئيس وزراء جلالـة الملكة لكي أصفي
الامبراطورية البريطانية.

تشرشل

(١)

يجب أن نحذر الشرق بصورة دائمة، انه مستودع للخطورة والمفاجأة والشيء غير المتوقع أو غير الممكن، وهو بمقدار الوداعة التي يتظاهر بها يتحول في لحظة إلى بركان لا يتوقف عن ارسال حممه التي تحرق كل شيء، ولا يبالي حتى لو احرق نفسه. أما الجبن الذي يتوهمه كثير من الحمقى ويتصورون انه ينبع من الشرق ويميز تصرفات الشرقيين ونظرتهم وسلوكهم، فقد يتحول في حالات كثيرة إلى سلوك ذئبي لا يهدأ ولا يتوقف، حتى وهو يولغ في الدم. ان الدم إذا بدأ في الشرق يصبح جريانه بسيطاً عادياً، ويمكن أن يتكرر كل يوم.

لماذا تسيطر عليّ هذه الفكرة الآن؟ ولماذا اظهر هذا الخوف كله، رغم اني انسان غير عادي، ورغم اني شاركت في الحرب العالمية الثانية، ورأيت القتل والجثث والموت طوال اربع سنين؟ وهل اعتبر أن ما حصل اكثر عنفاً وقسوة من احداث كثيرة كانت تمثل بالنسبة إليّ قمة العنف والقسوة؟ وهل كنت بعيداً عما حدث وغير مشارك فيه لكي اعتبره على تلك الصورة؟

مهما حاولت الآن من تقديم المبررات أو التفسيرات فإن ما حصل

في تلك الايام من آب يفوق تصوري، إذ كيف يمكن أن يتغير بلد خلال اسبوع واحد؟ كيف يمتلىء الناس بهذا المقدار الهائل من الحقد والجنون ولا اعرف اية صفات اخرى؟

ما كاد البلاط يطلب من العجوز أن يقدم استقالته حتى هاجت الدنيا. انني إذ اشكر الآله من اعماقي فلأني طردت من تلك القرية في هذه الفترة بالذات، ووصلت سالماً إلى العاصمة. واشكره ايضاً لأني بقيت حياً بعد ذلك وحتى الآن.

إذ ما كدت اخرج من غرفة السفير حائراً ضائعاً لا ادري ماذا افعل أو كيف اتصرف، وقد نسيت الشاطىء والاهانات والسوق الاسبوعي، وما كدت افيق من صدمة الكلمات التي سمعتها عن الخطة الجديدة، حتى بدأت اخطط لكي اغادر. بدا لي أن ركوبي لأول طائرة متجهة إلى لندن سينقذني، خاصة بعد أن اتصلت بعباس، وقال لي بصوت متعب على التلفون أن صحته انهارت، وأن الحمى لا تفارقه، وحين سألته عن شيرين اجابني بطريقة غامضة لم استطع أن افهم شيئاً محدداً، قال:

ـ هي الآن خارج البيت، لكن لا بد أن تعود، لا اعرف متى ستعود لأني كنت غائباً عن الوعي حين غادرت!

أما ميرزا فقد بدا شديد الاستغراب وهو يسمع صوتي على التلفون. وحين ابديت له رغبتي في أن نلتقي، قال انه مضطر لمغادرة العاصمة، فوراً، لأن حالة وفاة مفاجئة وقعت لأحد اقربائه في القرية، ويجب أن يسافر، وسوف يبقى هناك مدة لا تقل عن ثلاثة أو اربعة أيام!

لم اشأ أن اتصل باشرف، فقد كانت العادة أن يتم اتصالنا عن طريق غير مباشر، عن طريق شيرين أو عباس، وفي مرات قليلة عن طريق ميرزا!

لقد سدت في وجهي اكثر المنافذ. كان بامكاني أن اتصل بآخرين، لكن ماذا لو اتصلت؟ ماذا سأقول لهم؟ وماذا سأطلب منهم..؟ قلت لنفسي وأنا اضع سماعة التلفون بعصبية، بعد أن قال لي ميرزا ما قال:

«من الافضل، خدمة للامبراطورية، أن اغادر هذه المدينة الملعونة، يكفي أني قضيت هنا حوالي السنتين ويكفي أن انال هذا الجزاء!».

في اليوم التالي انفجرت الدنيا. صحيح أن اموراً كثيرة حصلت خلال هذه الفترة القصيرة، سواء من حيث الصلاحيات التي طلبها العجوز، أو من حيث الموقف الذي اتخذه تجاه بعض الاحداث، بما في ذلك اصراره الذي لم يتراجع عنه، رغم الرجاء والتوسل على طرد تلك المرأة. واية امرأة... اعني؟ ابنة إلاهة الشمس، المرأة المتجبرة القوية، واخت الذي يتصور أنه الرب الذي يعطي الحياة ويمنعها، وليست اية حياة، حياة الرجال العظام، الكبار، الوزراء، وانصاف الآلهة. اليوم تبدأ مشكلة لم يتوقع احد أن يواجهها في حياته. فتلك المرأة التي ظلت منفية فترة طويلة، ومنعت من العودة بالاتفاق بين البلاط والعجوز، جاءت الآن باسم مستعار، متحدية المنع ورافضة مغادرة البلاط بعد أن وصلت إلى هناك. ان هذا الموقف يمثل الامتحان الاخير في هذه المباراة المجنونة.

كان من الواجب أن ارفض فكرة الاجازة تماماً وأن ابقى هنا لكي اتابع عن قرب أروع مسرحية يمكن أن يتصور الانسان وقوعها، لكني كنت احمق إلى درجة كبيرة!

كانت الايام العشرة الاولى من آب حافلة باشياء لا تحصى، ومهما حاولت الآن استعادتها، فإني انقل ملامح باهتة، الظلال التي لا تعطي وهج اللحظة والحدث. في تقديري أن بريطانيا لم تكن بعيدة عن هذا كله، فقد عرفت بطريق الصدفة، أن شيرين سافرت خلال هذه الفترة إلى لندن، سألني السكرتير الاول، بطريقة فيها بعض التحدي:

ـ مستر ماكدونالد... الصديقة التي رأيتك اثناء احتفالات السفارة الاخيرة تتحدث معها بطريقة لا مبالية. اتذكرها؟

وحين ابديت دهشتي، رغم قناعتي انه يتحدث عن شيرين، قال بغيظ:

ـ شيرين. أنت تتذكرها جيداً.

هززت رأسي بالموافقة، اضاف:

ـ قبل أن تذهب إلى لندن سألت عنك باهتمام.

ـ متى؟ لماذا؟

في لحظة ما ادرك السكرتير خطأه، قال ليعالج هذا الخطأ:

ـ أنت تعرف الشرقيين، لا بد أن يذهبوا إلى لندن، خاصة خلال فصل الصيف. إذا لم يذهبوا إلى هناك فكأنهم لم يسافروا!

وهززت رأسي مرة اخرى موافقاً على الكلام الذي قاله، تابع بحرج:

ـ حين اخذت سمة الدخول سألت عنك، ربما كانت تريد شيئاً منك!

قلت بعصبية:

ـ اتذكرها، لكن لا اعرف شيئاً عن سفرها.

قال ليداري موقفه:

ـ لقد سافرت اثناء ما كنت في البحر.

اما حين ابتسمت، فقد تابع.

ـ انها طريقتهم... يا مستر ماكدونالد!

نعم، لقد حدثت اشياء كثيرة خلال الفترة القصيرة التي غبتها. وأن تسافر شيرين إلى لندن، بهذا الشكل المفاجىء والغامض ايضاً، يعني أموراً كثيرة! لماذا لم يشر السفير إلى ذلك؟ ألم أكن نافذتهم الوحيدة على هذه المجموعة؟ ولكن ماذا إذا مت؟ إذا خنت أو تخليت..؟ هل تترك بريطانيا وتتخلى؟ وهذه المجموعة من البشر هل هي مرتبطة بي أم ببريطانيا؟ وماذا أعني بالنسبة لهم إذا لم أعد أمثل مصالح بريطانيا؟

يجب أن اكف عن توجيه الاسئلة بهذه الطريقة البائسة، انها لا تعني شيئاً، ولا يمكن الوصول إلى اجابة من أي نوع لها، وإذا كنت مقتنعاً أو مفيداً فما عليّ إلا أن احمل بندقيتي مرة اخرى والتحق بأقرب سرية لجيشي!

(٢)

كان توالي الاحداث لا يترك فرصة للمراجعة أو التفكير، وبمقدار ما كنت افكر واضع الاحتمالات، بناء لنصيحة راندلي، واعتماداً على الكتاب البائس الذي طلب مني أن اقرأه بعناية، حساب الاحتمالات، فأنا الآن الهث وراء ما يحصل، أريد أن أعرف كيف تسير الأمور وإلى اين ستصل!

آه لو أن بريطانيا استمعت إليّ، لو فهمت ما اريد أن افعله، لكن الدول لا تسمع الافراد، وعلى الأفراد أن يستمعوا إلى الدول جيداً، وإلّا ضاعوا، يصبحون مثل الكلاب السائبة! كنت أريد أن اقود العجوز إلى مغارة لا نهاية لها، وهذه المغارة لها باب واحد، وبريطانيا وحدها تقف عند هذا الباب، تسمح وتمنع الدخول والخروج، لكن بريطانيا اصبحت هرمة، صحيح انها تتزين الآن، تتظاهر بالصبا، لكن يبدو أن الأميركيين سيطروا عليها، تماماً كما يسيطر شاب صغير على امرأة مسنة، انه يحولها إلى قرد، وهذا القرد من اجل أن يرضي صاحبه يفعل كل ما يريد منه! وهذا ما حصل لنا، لقد سلمنا لهؤلاء الخنازير وما علينا إلا أن ننتظر لنرى النهاية. أنا متأكد انها ستكون نهاية بائسة، ذليلة، وقد نخرج من الشرق

كله بسبب هذه الغلطة، لكننا لن نعترف!

لماذا تركوا الشرقيين يجنون؟. لماذا تركوا هذا السيل من البشر والهياج يغرق كل شيء؟ أنا متأكد أن القصر اعجز من أن يحلّ المشكلة، لأنه غارق في التفاهة والاشياء الصغيرة. حتى رجالنا المسنون الذين يعيشون في العصور الماضية لا يزالون يفكرون كما يفكر القصر، ويتصورون أن من اسهل الامور اعادة عقارب الزمن إلى الوراء. لماذا سمحوا لهذه العاهرة بالعودة؟ لماذا خلقوا هذه الازمة التي كان ينتظرها العجوز ويتمنى لو تتاح له فرصة مثل هذه؟ لقد استطعت خلال سنتين أن اعرف كيف يفكر العجوز، كيف يستطيع أن يثير الشارع، واية قضايا تغريه لاثارة الجموع من الكسالى العجزة الذين يرفضون في احوال اخرى أن يرفعوا مؤخراتهم عن الأرض؟ لقد جلبوا له، إلى حلبة المصارعة الخرقة الحمراء. وهو إذ يثور، يصرخ، يعربد، وفي ثورته وصراخه وعربدته يثير الآخرين حوله، يصبح الآخرون ثيراناً هائجة، مثله، أو أكثر قليلاً. لو سألوني لقلت لهم بأعلى صوتي: «ابقوا النساء بعيدات، خاصة في هذه الفترة. النساء لسن فقط اقل قيمة من الرجال، بنظر الشرقيين، انهن يثرن فيهم نزعات حيوانية...» (وانا نفسي بقدر ما بذلت من جهود وحاولت أن افهم هذه المشكلة لم استطع أبداً الوصول إلى نتيجة)..

بريطانيا لا تكتفي بذلك، انها تستدعي شيرين لتسألها المشورة. وإلا لماذا تذهب شيرين في هذا الوقت؟ وماذا إذا ارتبط اسمها بما يجري الآن؟ اكاد لا اصدق!

خلال فترة قصيرة، لا تتجاوز الثلاثة ايام تغير كل شيء في المدينة، وما نسمعه من اخبار، ما يرد من معلومات، يؤكد أن الدنيا تغلي في كل مكان: المظاهرات لا تتوقف ليل نهار، الناس ينامون في الشوارع، ويبدأون «اعمالهم» منذ ساعات الفجر الاولى! الاعتقالات قائمة على قدم وساق، وباختصار لا شيء يبشر بالخير. أما مناقشاتي مع السفير، مع المستشار، مع أي فرد من السفارة، فإنها تثير في نفسي

الرعب لفرط الخوف الذي يملأ الكلمات والتصـرفات والنـظرات. إن رجالنا ينزفون خوفاً، ولا اعرف كيف سيواجهون الامور.

والأميركيون...؟ ماذا يقول الأميركيون؟ وماذا اعدوا لهذه الثورة التي لن تبقي شيئاً أو أحداً؟ حين توجه لهم مثل هذه الأسئلة لا يجيبون، وكأن أي سؤال يقطع عليهم افكارهم أو يفسد المخطط الذي وضعوه. يجب أن اعترف انهم يبدون اكثر شجاعة من رجالنا، وانهم قادرون على الحديث والسمر، والاستمرار في شرب البيرة والويسكي، كما كانوا يفعلون من قبل، لكنهم، مع ذلك يبدون في حالة من التـوتر، ويفضلون أن يبتعدوا عن أية أسئلة أو مناقشة.

ولكن ماذا يخسر الأميركيون إذا انتهى كل شيء؟ هل يخسرون ذلك المنجم الذي لا نهاية له؟ هل يفقدون الهيبة التي كلفتنا ثلاثة قرون من الجهد والتضحيات، وبنيناها بدمائنا، حجراً فوق حجر؟ أنا واثق انهم لن يخسروا شيئاً ابداً، ولهذا يبدون في منتهى الاصرار على المغامرة، على الجنون. يقولون لأنفسهم لتذهب بريطانيا العظمى إلى الجحيم، مـاذا يفيدنا إذا بقي النفط لهؤلاء؟ أنا واثق انهم هكذا يفكرون حتى لو لم يقولوا هذه الكلمات. ونحن... علينا أن ننتزع اشواكنا بأيدينا، لن يساعدنا احد، لن يقف معنا احد. أما إذا انتظرنا المساعدة من الأميركيين فسوف نكون مثل كلاب الصيد الرديئة، التي لا تقدم اية مساعدة ولكنها تنتظر أن تأخذ شيئاً من اية طريدة يقنصها صياد!

اعرف أنني اتكلم مع نفسي. وحتى هذه الطريقة التي اتبعها الآن، الجأ اليها بهدف أن انسى، أن ابتعد عن رواية الأسوأ. اخاف من الايام القادمة، ولذلك اهرب إلى الأمام، كما يقولـون، وعليّ أن اتبع هـذه الطريقة حتى النهاية، كي أرى كيف ستكون هذه النهاية وماذا سيكون نصيبي في هذه المجزرة التي لا تعرف الرحمة.

بدأ العجوز، نعم لقد بدأ. هذه هي فرصتـه، فبعد أن انتـظر طويلاً، حاول كثيراً، لم يصل، لكن لم نتركه يخيب، هيأنا له الفرصة التي يريدها، التي كان ينتظرها، وها هي قد جاءت.

(٣)

قال بعض الناس انهم رأوا الأميرة تخرج متخفية، كانت في ملابس السهرة وتضع على كتفيها معطفاً من الفرو، ولا تحمل سوى حقيبة لا يتجاوز حجمها علبة سجائر ذات الحجم الكبير، وعلى عينيها نظارة سوداء قاتمة. كانت تتحرك بعصبية وحولها بضعة أفراد، وغادرت المطار مع مرافقة إلى سويسرا. وقال آخرون أن الاميرة اصرّت على أن تخرج، كما كانت تفعل من قبل، على طريقة الأميرات، وانها استراحت في قاعة الشرف، دخنت وضحكت وتحدثت مع بعض المراقبين، كانت تبدي عدم اهتمام واضح، وقد تعمدت تأخير الطائرة بعض الوقت لكي تنتهي من مشكلة اساسية اصرّت الاّ تتنازل عنها، وهي مشكلة الرفض لتفتيش الحقائب الخمس والعشرين التي كانت تسافر معها. وقيل انه بعد مشاورات طويلة، تخللها بعض التوتر، تمت الموافقة على أن يصرف النظر عن فتح الحقائب أو تفتيشها. ان شيئاً ما حصل خلال مغادرة الأميرة، لكن لم يستطع احد أن يقطع برأي حول هذا الشيء، ثم لم يعد الأمر مثيراً للتساؤل أو الأهتمام لأن ما تلاه كان اكثر اهمية!

إذ على عادة الشرقيين، ماكاد البلاط يوافق على هذه الخطوة ويتراجع عن اصراره على بقاء الأميرة، حتى بدأ العجوز يعد لخطوة جديدة مستفيداً من الانتصار الذي حققه: بأن يحصل على صلاحيات استثنائية وأن يحل البرلمان الذي لا يريد أن يقوم بواجباته. وحين أرسل المرسوم المتضمن طلب حل البرلمان إلى البلاط، كان الجواب: سفر الملك، وليس الرفض أو الموافقة. كان السفر أول الأمر إلى المصيف، كما هي العادة كل سنة، لكن ما كاد يستقر هناك فترة قصيرة، ونتيجة تطور الاوضاع، حتى ركب طائرة وسافر إلى خارج البلاد.

إن الملوك في الشرق يشبهون الناس الآخرين: الغموض، التهرب من تحمل المسؤولية، تأجيل اتخاذ القرارات أو المواقف. كان يمكن أن يرفض، أن يعترض، أن يفعل شيئاً، لكنه لم يلجأ إلى أي من تلك المواقف أو القرارات الواضحة، لجأ إلى التمويه: سافر إلى مصيفه، كما يفعل كل سنة، ومن هناك ركب طائرة وغادر البلاد! لمن غادرها؟ لماذا؟ وهل يفعل احد مثل هذا؟ أكاد لا اصدق. ورغم أن السفير والاصدقاء الآخرين يبدون مقداراً هائلاً من الخوف، وينتظرون نهايتهم بين لحظة واخرى، نتيجة الغضب والمظاهرات وحالة الجنون التي استبدت بالشارع، رغم هذا، فإنهم ينتظرون شيئاً ما، وكأنهم يراهنون، يتوقعون.. حاولت مرات كثيرة أن اعرف كيف يفكرون، ماذا ينتظرون، لكن محاولاتي انتهت إلى الفشل. صحيح انه فشل نبيل، لأني احترمت صمتهم، في لحظات معينة، باعتبارهم موظفين رسميين، ولأني قدرت أن مراهنة من نوع ما تتم، ومادام الأمر كذلك فلا حاجة لمزيد من الالحاح، ولأن بريطانيا العظمى ارادت مني أن اكون مجرد مراقب، أن اتابع، انتظر، اتعلم، ولذلك فأنا احترم هذه الرغبة حتى النهاية وأريد أن أرى ماذا سيحصل..

كان مجيء الاميرة، ثم اضطرارها للمغادرة، وبعد ذلك مغادرة الرجل الأول، ايذاناً بأن عصراً جديداً يوشك أن يقع. ورغم توصيات السفارة أن الزم بيتي، أن ابتعد قدر الامكان عن الاسواق واماكن

التجمعات، لئلا اتعرض لأذى، فإني قد اكتسبت عادات رديئة منذ وقت مبكر، إذ لا استطيع أن اترك اموراً تجري بعيداً أو بمعزل عني، خاصة إذا كنت قادراً على المشاركة، أو في اسوأ الحالات على المراقبة!

ما لفت نظري أن الحكومة هي التي شجعت على المظاهرات أول الأمر، لكي تكسب التأييد والدعم، لكن بعد أن غادر الملك، بعد أن ترك البلاد، بدأت امور غامضة تحدث، واصبح كل شيء اقرب إلى الفوضى، إذ انتشرت ظواهر جديدة لم تكن مألوفة: عدد مهم من رجال الدين لبسوا اكفانهم ونزلوا إلى الشوارع، ولم يُعرف ما إذا كانوا مع الحكومة ام ضدها، لكنهم كانوا يمتلئون اصراراً انهم مستعدون لكل شيء، حتى الموت، أول واهم شيء. وتبع ذلك مظاهرات من نوع مختلف، إذ بعد أن طلبت الحكومة وقف التظاهرات والتجمعات بصورة قطعية، اخذت تظهر في الشوارع الرئيسية مظاهرات من نوع جديد: مجموعات من الرجال المسلحين لا احد يدري كيف جمعت أو ما الذي يجمعها، وبدأت بعمليات الحرق والنهب، وهذه المجموعات اقرب إلى المجرمين المحترفين، نتيجة الأسلحة التي يحملونها ويستعملونها، ولأن هذه المجموعات مدربة بشكل لا تمتلكه إلاّ العصابات، اما حين سألت السفير إن كان لنا علاقة بهذا الذي يجري، فقد اجابني بحدة:

ـ بيتر. . . ليس لدي الوقت الآن لأية مقابلات صحفية، إنني اراقب مثلك ولا اعرف كيف ستكون النهاية. .

ـ ولكن هؤلاء الناس. . . لا اتذكر احداً أو شخصاً، كما لم يكن في تخطيطنا أن نفعل شيئاً بمثل هذا الحجم أو بهذا المستوى!

ـ وماذا تريدني أن اجيب؟

ـ أن اعرف هذا الذي يحصل!

ـ إنني اراقب ليل نهار، ولا اعرف.

ـ ولكن الحكومة منعت المظاهرات.

ـ سمعت. .

- من يكون وراءها إذن؟
- قلتَ إننا لم نخطط لمثل هذا... اليس كذلك؟
- نعم لم نخطط!
- إذن لسنا وراءها!
- ماذا تعني هذه الاجابة؟
- لسنا وراءها ولا نعرف، دعنا نراقب، وبعدها يمكن أن نقرر من ولماذا وكل الاسئلة التي قد يوجهها صحفي مبتدىء!
- سعادة السفير... اسمح لنفسي أن اقول شيئاً واحداً: لقد فكرنا باشياء كثيرة لكن هذا الذي يحصل الآن اكبر واسرع من افكارنا، ولا بد أن تكون هناك جهة ما وراء هذا الذي يحصل الآن!

(٤)

كيف يمكن فهم ما يحصل الآن؟ ماذا تخبىء لنا الايام القادمة؟

كلمّا تجولت في الاسواق ورأيت وجوه الناس وتصرفاتهم اشعر بالحصار والخوف. الناس في هذه الفترة لا يشبهون اية فترة سابقة: حالة من العصبية تصل درجة الهستيريا. انتظار خائف في كل لحظة من لحظات الليل والنهار. دوي الرصاص يملأ الفضاء ويصمّ الآذان ويولّد خوفاً حقيقياً، حتى ليشعر كل انسان بالنهاية. أما اصوات سيارات الاسعاف والاطفاء عندما تخترق الشوارع بصفاراتها واجراسها المفزوعة فلا تترك في القلب امناً من أي نوع. فإذا اضيف إلى كل ذلك التطورات السياسية التي يتناقلها الناس أو ينتظرونها، فعندئذ لا يعرف احد كيف ستتطور الأمور. فبعد أن غادر «العاهل المفدى» كما يحلو حتى لرئيس الوزراء أن يطلق عليه، رغم العداء الذي لا يخفى ابداً، واصبح بعيداً، جاءت الارادات الملكية: اقالة رئيس الوزراء، تكليف احد العسكريين المطرودين بتشكيل وزارة جديدة، دعوة المجلس للاجتماع، تصديق بعض القوانين! ورئيس الوزراء الذي لم يتصور أن «العاهل المفدى» يمكن أن يتخذ

اجراءات مثل هذه، امكنه التغلب على المفاجأة خلال ساعات، اذ اتجه إلى الاذاعة مباشرة، وبكثير من الانفعال، والتحدي، واستناداً إلى القوانين وإلى الجماهير، يعتبر نفسه لا يزال رئيساً، وسيبقى إلى أن تقوم صيغة حكم جديدة، بعد أن سقطت الصيغة الحالية بهرب رأس الدولة وعجزه عن القيام بواجباته وممارسة صلاحياته. أما رئيس الوزراء المكلف فقد التحق بإحدى الوحدات العسكرية، وخلال الليل استطاع أن يسيطر على بعض المراكز، فاستولى على القيادة العسكرية، واعتقل بعض الوزراء، وبدأت مكبرات الصوت تدوي في الشوارع، منذ ساعات الصباح الاولى، ان الحكومة السابقة قد انتهت وسقطت وأن الجيش في سبيل اقامة حكومة جديدة وسوف تعلن خلال ساعات!

إن كل حدث من هذه الاحداث، والذي لا يستغرق نقله إلا لحظة عابرة في الزمان، كان كافياً لأن يهدم اعظم المعابد ويسقط أكبر الأمبراطوريات. لكن الشرق بطبيعة تركيبه ونظرة الناس إلى ما يحدث يتسم بكثير من البلادة، ورد الفعل بطيء ولا يتناسب مع اهمية الحدث. فالعاهل الذي كان مكروهاً ولا يتردد الناس عن شتمه بصوت عالٍ، بدا لهم الآن، انساناً مسكيناً يستحق الشفقة والعطف، وقيل لي أن كثيرين بكوا حين سمعوا بمغادرته! ونفس الناس الذين اسفوا لهذا الذي يحدث ما لبثوا أن اصبحوا شيئاً مختلفاً حين سمعوا عن تنحية رئيس الوزراء وقالوا «هذا الرجل المسن الذي تحمل الكثير ايام الجوع والصعوبات لا يمكن أن نتخلى عنه الآن. . .» وقال آخرون: «الحكام يختلفون فيما بينهم والناس لا علاقة لهم بما يجري».

كيف تتغير مواقف وقناعات الناس بين يوم وآخر؟ بين ساعة واخرى؟ وكيف ينظرون إلى الأمور ويوازنون بينها من حيث الأهمية والنتائج؟

اكاد لا اصدق ما يجري. ورغم التحفظات التي ابديها ازاء ما اسمع وأرى، فإن لدي احساساً قوياً أن كل شيء بات مؤقتاً ومعرضاً للتغيير.

عباس لا يزال مريضاً، ومرضه يشتد ويأخذ شكلاً خطراً ما دامت الأمور تسوء وتتدهور. اما شيرين، التي عادت من بريطانيا، فقد بدت لي مخلوقاً جديداً:

ـ كنت في بريطانيا إذن؟

ـ لماذا لا اكون؟

ـ اقصد أن عباس مريض والفترة التي قضيتها في لندن قصيرة جداً!

هزت رأسها بطريقة ملتاعة، وقالت بصوت خفيض تريد الا يسمعه عباس:

لقد ذهبت بسببه. كنت أريد ترتيب مسألة دخوله إلى المستشفى، وأن انقله إلى العلاج هناك، لأن مجرد بقائه هنا سيلحق به ضرراً من الصعب تلافيه في المستقبل!

قلت بمكر:

ـ وهل رتبت هذه الأمور؟

ـ بكل تأكيد، مستر ماكدونالد، وخلال بضعة ايام، بمجرد أن اتلقى برقية أو تلفوناً حول الترتيبات الأخيرة، سوف نسافر.

تطلعت إلى عباس وهززت رأسي. كنت حاقداً عليه في تلك اللحظة، كنت اشعر نحوه بالاحتقار، وماذا إذا نقل إلى بريطانيا أو بقي هنا؟ وحتى لو عاد سليمًا معافى ماذا يستطيع أن يفعل؟ لم اقل كلمة مما فكرت فيه، لكن حين نظر إليّ قدر أن هاجساً ملعوناً عبر رأسي، قال بطريقة مسكينة، وبصوت متعب:

ـ كان بودي لو انك هناك يا مستر ماكدونالد. . . لتساعدنا.

قلت بسخرية:

ـ ارجو أن تكون الحالة بسيطة، وأنا جاهز للمساعدة هنا وهناك!

قالت شيرين وكأنها تستعرض ماضياً طويلاً:

ـ لا تتردد ابداً في ذلك، ولقد حاولت كثيراً يا مستر ماكدونالد.

قلت لنفسي بمرارة: «هناك لحظات شديدة الغموض، ولا يعرف

الانسان كيف تأتي أو متى، لكن احساساً غامضاً، حدساً مفاجئاً، ينبىء أن شيئاً قد انتهى، انكسر، ولا بد أن يقوم على انقاضه شيء آخر!».

تبدو لي شيرين الآن مخلوقاً من نوع جديد، جسدها الممتلىء اقرب إلى كتل اللحم. نظرتها تفتقر إلى تلك الراحة التي يبحث عنها الانسان، رغم الشفقة التي تتسم بها في لحظات معينة. اما ابتسامتها فقد غدت آلية ولا تعني شيئاً البتة. قلت وكأني انتزع نفسي من مكان بعيد:

ـ الجو وحده في هذه الفترة، كافٍ أن يمرض الانسان.

قال عباس وكأنه يخاطب نفسه:

ـ اتفق معك تماماً يا مستر ماكدونالد!

قالت شيرين بعصبية:

ـ كل شيء... كل شيء.

وتغيرت لهجتها وهي تتابع:

ـ ليس الطقس وحده، أن ما نراه الآن يجلب اليأس والموت.

وارتمت على السرير، إلى جانب عباس، وقالت بطريقة تمثيلية:

ـ لكن لكل شيء نهاية يا عزيزي.

وحين نظر اليها عباس بعيون مرعوبة ادركت الخطأ الذي وقعت فيه، ضحكت ضحكة رنانة لتتغلب على الجو الذي تولد في نفسه، وقالت بسرعة:

ـ اقصد ان هذه الاوضاع التي دفعتك إلى المرض لا بد أن تنتهي بشكل ما!

قلت بخبث لكي اواصل اللعبة:

ـ هل سمعت شيئاً يا شيرين؟

نظرت إليّ بطريقة لم استطع أن افهمها ابداً، رأت وجهي وهي تنظر إليّ، لكن ذلك لم يدم اكثر من ثانية، ورغم انها استمرت تنظر إليّ إلا أني تأكدت أن عشرات الأمور تدفقت في رأسها، وبدأت تفكر بطريقة سريعة، قالت لكي تستمر في السيطرة:

ـ كما ترى.. خربت البلاد كلها، والفوضى تنتشر وتتسع كل يوم، ولا احد يعرف كيف ستنتهي الامورا

ارتفع عباس قليلاً من سريره، مستنداً إلى الوسائد المتراكمة فوق رأسه، وقال بصوت متهدج:

ـ ما هي الأخبار الأخيرة؟

قلت بسخرية:

ـ ما هي الأخبار قبل الأخيرة بالنسبة لك لكي ننقل لك ما حصل بعدها؟

تعمدت أن اقول ذلك لأعرف رد فعل شيرين، ولكي اميز مكاني في هذه اللعبة التي اصبحت اكثر تعقيداً يوماً بعد آخر. قال عباس وهو يهز رأسه:

ـ ما سمعته حتى الآن لا يبعث على الفرح أو الثقة.

قالت شيرين بنوع من التأنيب:

ـ قلت لك مرات كثيرة، يا عزيزي، اترك هذه الأمور، انها السبب في كل ما تعاني منه!

تغير صوتها، نظرت إليّ، لكن استمرت تتحدث إلى عباس:

ـ وقد حان الوقت يا عزيزي لأن نتوقف عن ممارسة هذه اللعبة الغبية: لعبة السياسة، انها لا تفعل شيئاً سوى أن تأتي بالمرض... والمتاعب!

هذه بعض ما دار في تلك الزيارة؛ أما ونحن خارجان فقد قلت لشيرين، وكنا في الممر، وقد تعمدت أن اقف في مواجهة المرآة، قبل أن انطلق إلى اللفح الممرض، وكنت اريد أن اراها من كل النواحي، وربما بدافع غامض وحقود:

ـ لقد تغيرت الأمور كثيراً يا شيرين، وأنا استغرب ذلك!

هزت رأسها. كانت الحركات تقع في الحدود الفاصلة بين الحزن والرضى، اليأس والفرح، ضحكت قليلاً وقالت:

ـ يبدو لي ذلك!

تعمدت أن اظل صامتاً. كنت اريدها أن تتكلم، أن تتابع، لكن اصراراً قوياً كان يخيفها، يلجمها، قلت محرضاً:

- كل شيء... كل شيء تغير. الملامح، تصرفات البشر، ولا ادري إذا كنا نحن قد تغيرنا ايضاً!

تعمدت أن اقول ذلك، لأرى رد فعلها، رفة العين في النفي أو الأثبات، نبرة الصوت وهي تخرج في نصف الظلمة المسيطرة على الممر. وبطريقة تتميز بالغيظ والتحدي، وبدت لي كأنها امرأة اخرى تماماً، قالت:

- يبدو، يا مستر ماكدونالد إننا نحن اكثر الأشياء القابلة للتغير، وربما أنت الذي تغيرت.

ضحكت لأتغلب على الحرج، قالت بعصبية:

- يمكن أن تضحك بالطريقة التي تروق لك، لكن علينا أن نعترف: لقد تغيرنا!

- كثيراً؟

- كثيراً جداً!

- حين تأتي المصائب، حين يعجز الانسان عن القيام بالاعمال التي يتمناها، يريدها، يتملكه شعور بالاحباط والحزن، ويشك بالآخرين كثيراً!

- مستر ماكدونالد... يمكن أن اعترف لنفسي أن مستر ماكدونالد قد تغير... تغير كثيراً!

قلت وقد شعرت بالحرج:

- حين تزول الظروف الصعبة، حين نكون في حالة افضل، سنرى الأمور بشكل افضل، انا متأكد من ذلك.

قالت شيرين بعدم اهتمام:

- هل سيتحقق ذلك؟

- دعينا نأمل.. نرجو.

- ولكن ماذا تظن؟

- لا اعرف!

فتح الباب، كان لفح آب القاتل مثل عدو ينتظر. هبت موجة كاوية، وجاءت رائحة الجفاف، وكأن يداً شديدة الثقل انتزعتني فجأة من الجو، وشعرت ايضاً أن الواقعية الأسلوب الذي يجب أن اتعامل به، قلت لشيرين اودعها:

- شيرين. في وقت آخر سوف نلتقي ونناقش كثيراً من الأمور بطريقة مختلفة... بطريقة افضل!

- ارجو ذلك يا مستر ماكدونالد!

(٥)

كان بإمكاني أن أتجاوز هذا الذي أرويه الآن لولا أن الأحداث التي جاءت بعد ذلك تؤكد شكوكي، وتجعلني في حالة هي بين العصبية والضيق. فبعد أن تركت بيت عباس، وكنت مصممًا أن أذهب إلى البيت لأغرق نفسي في ماء البركة، تخلصاً من اللهب الذي يطوقني من كل ناحية، صدمتني الحقيقة القاسية: ففي الساحة الرئيسية، ما كدت اتجاوز بعض الشوارع في اتجاه البيت، وأصل إلى مفارق الطرق حتى رأيت تجمعاً كبيراً من البشر، ويبدو أني وصلت متأخراً قليلاً، إذ رأيت الكثيرين يفترشون الأرض، في الظل، وقد بدا عليهم االاجهاد، كأنهم انتهوا للتو من معركة، فالآثار حولهم كثيرة، وكلها تؤكد ذلك : عدد كبير من المتاجر قد حطم ونهب، الأطفال ما زالوا ينظرون إلى كل شيء بعجب، ويواصلون هوايتهم بتحطيم أي شيء وحمله، النداءات لا تتوقف، أما قطع الزجاج والحجارة فكانت تملأ الساحة، كما أن الأشجار اقتلعت من جذورها وتحولت إلى مجموعة من العصي والنفايات..

حين صدمني المنظر شعرت بالخوف الشديد، ولفترة غير قصيرة

تصورت أني وقعت في مصيدة لا يمكن النجاة منها. لم يكن بإمكاني العودة، لأن الطرق مغلقة والبشر يملأون المكان وينظرون بارتياب وحقد إلى كل غريب. حاولت أن ابتسم، شعرت أن ابتسامتي لا تطاوعني، وحتى لو فعلت فلن تكون أكثر من سخرية. حاولت ان أتخذ سيماء الجد والترفع، لعل نوعاً من الخوف يدخل قلوب الناس ويفسحون لي لكي أواصل الطريق، لكن شعرت أن أسلوباً مثل هذا قد يخلق استفزازاً أنا في غنى عنه. فكرت أن أوقف السيارة إلى جانب الطريق وأواصل السير على قدمي، لعلي أجد شارعاً جانبياً يقودني إلى مكان أمين!

مرت هذه الأفكار في رأسي مثل رؤى، ولا أدري كيف جمعتها كلها في موقف، إذ ما كاد السير يصبح متعذراً، حتى نظرت حوالي، ثم هبطت من السيارة بعدم اهتمام، وكأني أمثّل مشهداً عادياً. لم أثبت عيني في عيني أي مخلوق، خوف أن يكشف خوفي وحيرتي. كنت أسمع الهمهمات والنداءات والصراخ، وكنت أرى بقايا الأشياء. ورغم اني تقدمت وسط الجموع، لكن كنت انظر باهتمام إلى الشوارع الفرعية لعليّ أجد واحداً.. وفجأة، وبطريقة متقنة، رأيت الناس ينظرون إليّ باهتمام، سمعت أكثر من واحد ينقل إلى الآخرين، بصوت فيه رنة المفاجأة، عن اكتشافي!

كنت خائفاً إلى درجة الرعب، استعدت صورة الشرق كله، وكيف أن البشر، بحقدهم وجنونهم، يمكن أن يأكلوا الآخرين. ودون شعور بالذنب أو بالتردد، قلت لنفسي: «سأضاف إلى قائمة شهداء بريطانيا العظمى، وإذا كان للآخرين الحق أو الوقت للانتقام فقد جاء الرجل المناسب في الوقت المناسب، ولا بد أن ينقضوا عليّ!».

الخوف يولد خوفاً آخر، وفي الخوف الآخر قد تكون النجاة. إذ ما كدت أخطو إلى الأمام، دون شعور، حتى رأيت بعض الأشخاص يتقدمون نحوي. أحسست أن قدمي ثقيلتان، وقلبي يدّق بسرعة كبيرة، وربما تغيرّ لوني أيضاً، وحين تقدم مني أحد الرجال، وبدا لي قصيراً ممتلئاً، ووجهه شديد الغرابة، توقفت لحظة ونظرت إليه بتحدٍ، قال

بصوت استعراضي يريد من الآخرين أن يسمعوه:
- اميركان؟

لا أعرف كيف تصرفت أو أية بادرة ظهرت، إذ ما كدت أنطق ببعض الكلمات الانكليزية، ربما في محاولة لأن أسأل أو أجيب، حتى شعرت نفسي وقد حملت على الاكتاف، رفعني الرجال على اكتافهم بطريقة تتميز بالبراعة والاتقان، وخلال لحظات قليلة بدأت الاهازيج ولا أعرف أي شيء آخر!

إنها تجربة مثيرة لا يمكن أن تتاح للانسان في الحياة إلا نادراً، فبعد ذلك الخوف الذي سيطر عليّ تماماً، تحولت إلى نجم في تلك المظاهرة؛ صحيح انها مظاهرة مصنوعة بالمعنى الحقيقي، لكن تأكدت أن أميركيين عديدين كانوا هنا قبل وصولي، وقد أشار أكثر من واحد أن بعضهم لا يزال موجوداً في أماكن معينة من الساحة. ومع كل حركة، مع كل ركضة، كان الرجال حولي ينظرون إليّ بطريقة يمتزج فيها الاعجاب بالدهشة والانتظار، وكانوا يحركون أصابعهم حركات منتظمة متقنة، ولقد استغربت هذه الحركات أول الأمر أو دلالتها، لكن حين أخرج أحد الرجال من جيبه مجموعة من الدولارات الأميركية، مع حركات إضافية، فهمت أن الناس يطالبونني بالمال، وتكشفت لي أبعاد جديدة من اللعبة!

لا أعرف كيف انتهت تلك المسرحية أو كم دفعت، لكن وأنا في طريقي إلى السفارة، أصبحت الأمور بالنسبة لي شديدة الوضوح: الأميركيون يقودون اللعبة كلها، ونحن مجرد مساعدين أو ديكور باهت، من الطريف أن نوجد وأن نبقى موجودين! وتأكدت أيضاً أن لا فائدة من إعادة الحوار مع السفير أو أي من أركان السفارة، وما عليّ إلا أن ألعب اللعبة، كما كنت ألعبها قبل قليل، أو أن أقف جانباً أرقب، اتمتع بالمنظر، انتظر، إلى أن تسدل الستائر، اعلاناً عن انتهاء هذه المسرحية الفاجعة!

مرت في ذهني عشرات الصور، منذ لحظة الوصول حتى اللحظة التي أسوق فيها السيارة الآن متجهاً إلى السفارة. قلت لنفسي بمرارة «كنت

غبياً يا بيتر، ولقد حان الوقت لكي تفهم اللعبة جيداً، لا يهم أن تلعب أو لا تلعب، المهم أن ينقشع الضباب الـذي يحيط بك طيلة شهـور عديدة، وتعرف ما يدور الآن!».

واستمرت الأحداث، بعد ذلك، في نفس المجرى، ودون ارادة مني أيضـاً. فحين وصلت السفـارة وطلبت أن أزور السفير، كـان جواب السكرتير الأول شديد الوضوح:

ـ مستر ماكدونالد.. لقد ألغى السفير جميع مواعيده لهـذا اليوم وغداً، وسوف أكون جاهزاً لتقديم أية مساعدة أو لنقل أية رسالة!

كان من السهل، في أوقات أخرى، أن أتحدث طويلاً مع السكرتير الأول، ان نتبادل الرأي والأخبار، لكن وأنا أتلقى اجابته، بتلك الطريقة المؤدبة، التي تفيض كياسة، ولا يخفى مغزاها أيضاً، شعرت أن لا حاجة أبداً لأية كلمة، ولو تكلمت فسوف أكون أكثر بلاهة وغباء من أية فترة سابقة!

قلت للسكرتير وأنا أتعمد التظاهر بالفهم والتقدير:

ـ أقدر أن تكون أشغال السفير في هذه الفترة كثيرة، كثيرة جداً، لكن إذا شعرتم أن بيتر ماكدونالد ما زال مفيداً وتحتاجون إليه، فسوف تجدونه، في كل وقت، في بيته، وهو الذي سيرد على التلفون!

(٦)

الآن. . . بعد أن اتضحت الصورة كلها، لا حاجة لكلمات أخرى أقولها، أو لتفاصيل من أي نوع أرويها، فقد قيلت خلال الأيام الأخيرة، كلمات لا حصر لها. قيلت في الراديو، كتبت في الصحف، رددتها الحناجر في الساحات العامة والشوارع، كلمات من كل نوع، كلمات قالها العجوز واتباعه وصحفه، وكلمات قالها الآخرون. وتكشفت تفاصيل لم تخطر لي على بال، لكن أغربها كان موقف الاميركيين، فقد كانوا يعملون منقذ وقت طويل، دون أن نحس، ورغم البلاهة التي تظهر على وجوههم أو في تصرفاتهم، في أحيان كثيرة، إلا أنهم كانوا يعملون، وهم في عملهم يمتازون بشيء أساسي لا يخطئون فيه: يعرفون ماذا يريدون. أما نحن فقد ظللنا فترة طويلة نحلم، نعيش في الماضي، وظللنا نتشبث بشيء لا يمكن أن نستعيده، ونتيجة لهذا الاصرار اضطررنا، متأخرين، لا أن نوافق على ما يريدون، وإنما أن نذعن للشروط التي يفرضونها!

وما ينطبق علينا، من بعض الجوانب، ينطبق على العجوز ووزيره الأول واتباعه. كان العجوز يتصور انه قادر، من خلال الطهر والجرأة

الشخصية، على فعل الكثير، وكان يتصور أنه لو نزل إلى الشارع وحده فلا بد أن يستجيب الناس لكل ما يريد، وبالتالي يحقق ما يريد، وبسبب هذه القناعة استهان بالكثيرين، إذا لم أقل بالجميع. تخلى عنهم واحداً بعد آخر، حتى إذا حاول أن يستعيدهم مرة أخرى اكتشف انه فقدهم تماماً، ولذلك كانت الشفقة هي الصفة الوحيدة التي تميز سلوك الناس وتصرفاتهم حين سقط.

والآن... ورغم العداء الذي لا يمكن أن أنساه أو أتنازل عنه، أشعر أن هؤلاء الشرقيين يتمتعون بمقدرة خارقة على العناد، ولا أقول الذكاء، فقد ظل العجوز يناطح مثل ثور، ظل يحارب دون توقف، دون تراجع، وغير عابىء بالنتائج. كان الجنود يتساقطون حوله، كان رجاله يتساقطون في كل مكان، لكنه ظل يقاوم وظلوا يقاومون؛ وأني إذ أتوقف لاتأمل بعض القضايا التي مرت، لا يسعني إلا الاعتراف أن كثيرين في مثل هذه اللحظات يفضلون الموت، لأنه يخلصهم من الاحراج، من الذل، خاصة وأن القناعة الشرقية الراسخة تؤكد لهم أن الذين يقتلون في مثل هذه المواقف لا يموتون بل ينتقلون مباشرة إلى السماء، ولدى بعضهم قناعة أنهم يولدون مرة أخرى!

لقد كانت مواقف الكثيرين تثير الدهشة والاعجاب والتساؤل، وعليّ أن أقرّ بالجرأة التي تميز بها أغلب الذين حاربوا. أما الذين تخلوا، خاصة في الفترة الأخيرة، فإني أنظر إليهم باحتقار، مهما كانت مواقف الأميركيين منهم ورضاهم عنهم. بكلمة واحدة: سقط العجوز وهو واقف، وبدا لي في سقوطه أكبر وأخطر مما كنت افترض أو أتصور!

هذه القضية بمقدار ما تثير أي أجنبي وتستفزه، تستدعي التفكير والتأمل، وربما حاولت أن أدرسها في وقت لاحق، حين أعود إلى بريطانيا. إن ما حصل في هذه الأيام يمثل الشرق تماماً، ويعطي فكرة دقيقة عن طريقة الشرقيين في التفكير والمقاومة... وحتى الرغبة في السقوط!

لقد كانت أياماً رهيبة فاجعة، وسوف تحفر هذه الأيام ذكرى حادة

في قلوب الناس وعقولهم، وربما دفعتهم مرة بعد أخرى لعمل شيء ما. ورغم أنه لم تبق صحيفة واحدة إلا وكتبت الكثير، غير أن ماكتب لا يمثل إلا جزءاً من الحقيقة، لأن من يرى ليس مثل من يسمع، ومن يعرف الخديعة ليس مثل الذي يخدع. إنها أيام ستبقى محفورة في ذاكرتي حتى اللحظة الأخيرة من حياتي، وسوف استفيد من هذا الدرس الكثير الكثير، حتى لو لم تتح لي فرصة التجربة مرة أخرى!

وماذا أيضاً؟

ليس لدي الكثير لأقوله الآن، لكن هذا الحدث زلزل قناعاتي كلها وأشعرني أن الجبناء إذا حكموا يدمرون كل شيء: القيم، الأخلاق، النبل، المصالح المشتركة.. كل شيء. نعم كل شيء. وأخيراً يدمرون أنفسهم وأصدقاءهم. وإلا كيف أفسر هذا السلوك المجنون الذي سلكه هؤلاء الحمقى وأسيادهم الأميركيون؟

في الأيام الأخيرة، بعد أن رفعت الانقاض وبدأت الحياة تعود إلى مجراها الطبيعي، اضطربت الدينا دفعة واحدة وبشكل مفاجيء. ومن السنة الناس، من الصحف والراديو تبين أن السلطة الجديدة قبضت على الوزير الأول. قبضت عليه في مكان تحت الأرض. وقبل أن يخرج إلى الشمس كانت عشرات السكاكين قد انغرزت في كل مكان من جسده. قالت السلطة إن الجماهير الهائجة فعلت ذلك. وقالت أنها بصعوبة استطاعت تخليص الرجل، وأنه يعالج في أحد المستشفيات. لكن ما كاد اليوم الأول ينقضي، ويليه اليوم الثاني، حتى أعلن في الراديو عن محاكمة وصدور حكم الاعدام على الرجل. ولقد أكد لي بعض الذين شهدوا تنفيذ الاعدام، أن الرجل لم يكن قادراً على السير، كان عدد من الرجال يحملونه إلى المشنقة، وكانت الدماء تملأ ملابسه ووجهه، وكانت عيناه مغمضتين لا تكاد تنفتحان إلا بصعوبة. تلّفت حواليه، جمع قواه وبصق على المكلفين بتنفيذ الحكم. دفع الكرسي الصغير بنفسه، وهوى... مختتماً فصلاً من فصول هذه المرحلة.

كيف يجرؤ هؤلاء على أن يفعلوا ذلك؟ لماذا؟ لا أملك أي تفسير لهذا السلوك الوحشي البائس، ولا يمكن تبرير مثل هذا الموقف في أي وقت وفي أي مكان، لكن الجبناء يفعلون كل شيء.. !

وماذا أخيراً؟

راندلي، العجوز الذي يمثل حدثاً مهمًا في حياتي، رغم كل الاختلاف، والذي علمني أشياء كثيرة، لعل أهمها كيف اكتشف الخطأ في الوقت المناسب، لن تتاح لي الفرصة لكي ألقاه وأناقشه في كل نظرياته وحماقاته؛ ففي التعميم الذي تصدره الشركة أسبوعياً، ورغم الأحداث الكبيرة التي تشغلها في هذه المرحلة، جاء خبر موته. كان نعياً قصيراً مؤثراً لم أتمالك نفسي من البكاء، وربما منذ فترة طويلة، وأنا أقرأه. لقد انتهى راندلي، وربما كان يفضل أن يغمض عينيه قبل أن يشهد الجانب الآخر من التل، قبل أن يشهد نهاية الأمبراطورية البريطانية، وقد فعل ذلك، وهو الآن ينام مستريحاً في مكان رطب، تحت شجرة من أشجار السرو أو الدردار، وربما حملت إليه تلك السويسرية، أو غيرها، باقة من الزهور ووضعتها على الرخام الأبيض المنقوش عليه تاريخ الأمبراطورية كله!

أما الآخرون فلا أستطيع، أو لا أريد أن أتحدث عنهم، لأني لو فعلت فسوف اكتشف الغباء الذي يميزني بشكل فاضح. وأنا الآن لا أطيق ذلك، وربما يقتلني، لكن سوف أعرف كيف أتجاوز هذه المحنة بسرعة، وأعود من جديد إلى كتابي لأغرق فيه، لكي أنسى هذا الماضي!

لقد خدعت... نعم خدعت. وأنا الذي خدعت نفسي!

من حق ميرزا أن يعمل ما يريد. من حقه أن يصبح وزيراً أو رئيساً للوزراء، هو وحده الذي يقرر، ما دمنا قد عجزنا عن ترويضه أو إقناعه، وما دمنا عاجزين عن تأمين الشيء الذي يحلم به. يجب ألا أشعر بالخيبة وأنا أسمع اسمه الآن واسم اشرف آية الله وزراء. فهذان الرجلان حاولا أن يكونا مخلصين لبريطانيا، لكن بريطانيا لم تكن مخلصة لنفسها أو لهما، ولذلك ذهبا إلى الجهة الأخرى. والأميركيون اكتشفوا، في الوقت

المناسب، الكفاءة والطموح، وعرفوا كيف يتبادلون المصالح. إن الاميركيين يبحثون عن هذا النوع من الرجال وها هم قد وجدوه، أو صنعوه منذ وقت طويل... لا أدري. أما عباس رضا فقد قال لي في اليوم الأخير قبل سفره إلى بريطانيا:

ـ مستر ماكدونالد.. كل ما أتمناه الآن أن استرد صحتي بسرعة. إذا حصل ذلك فسوف أقضي ما تبقى لي من أيام في الريف الانكليزي، وهناك لن أفعل شيئاً سوى كتابة المذكرات، واعتقد أن لدي شيئاً هاماً يمكن أن أقوله، لأني عرفت في حياتي أحداثاً مهمة ورجالاً مهمين.

وحين أكدت له، بكلمات مختصرة، صحة ما يقوله أضاف كأنه يخاطب نفسه:

ـ ما أحتاجه استعادة الصحة.. والهدوء!

ثم تابع بسخرية:

ـ والمرحلة الجديدة تحتاج إلى أناسٍ من نوع جديد!

قلت له بمكر:

ـ وشيرين... هل ستكون إلى جانبك في بريطانيا؟

تطلع إليّ بتساؤل، وبدت نظرته مسكينة، بعد فترة صمت قال:

ـ ستبقى شيرين هنا بعض الوقت، ثم تلحق بي!

وظلت شيرين. لا بد أن أتذكر ذلك جيداً؛ ففي الأيام الأخيرة من آب، قبل سفري بشهر تقريباً، أقامت حفلة كبيرة في قصرها. كانت واحدة من الحفلات التي تحدث عنها السلك الدبلوماسي والمجتمع فترة طويلة. وبدت شيرين في تلك الحفلة متألقة زاهية، ولقد وزعت لطفها وكرمها على الجميع. وحين قلت لها، في لحظة من اللحظات اليائسة، إني سوف أسافر خلال الأسبوع الأخير من أيلول، قالت بدهشة:

ـ لماذا تتركنا بهذه السرعة يا مستر ماكدونالد؟

قلت بلا مبالاة:

ـ لقد انتهت مهمتي، وعليّ أن أرحل!

ردت وهي تضحك:

ـ لقد تغيرت الأمور الآن كثيراً، ويجب أن تعرف الوجه الآخر من الشرق. . . وجه الانتصار والفرح!

أجبت بعصبية:

ـ يكفيني الجانب الذي عرفته!

ـ اعتقد أنه لا يكفي!

تابعت بسخرية وكأني أحدث نفسي:

ـ هذا الشرق له وجوه كثيرة وليس بمقدوري أن اكتشف كل هذه الوجوه، حتى لو قضيت حياتي كلها هنا!

قالت وهي تضحك:

ـ اذن مللت الشرق؟

ـ لا.

ـ ماذا إذن؟

ـ لا أعرف، ولكني أشعر أن الأمور أكبر مني ولا أقوى على عمل شيء!

ابتسمتُ قليلاً وتابعتُ بلهجة جديدة:

ـ تكفيني الخيبة التي وصلت إليها. . ألا تكفي؟

قالت شيرين، وهي تنظر إليّ كأنها تحاول اكتشافي من جديد:

ـ مستر ماكدونالد. . انك الوحيد الذي يتكلم بهذه الطريقة المتشائمة، ويبدو انك ما تزال تعيش في ظل المرحلة الماضية!

قلت بخبث وأنا أضحك:

ـ صحيح أن العجوز قد انتهى، لكن الآن تبدأ مشكلة الشرق!

ـ الآن تبدأ مشكلة الشرق؟

ـ هكذا أتصور.

نظرت إلي، قلبت شفتها السفلى دلالة الاستغراب والتفكير، ثم قالت بمجاملة مصطنعة، مثل أية سيدة لديها العشرات من الضيوف ويجب أن ترعاهم كلهم:

ـ مستر ماكدونالد... سوف نتحدث في ذلك مرة أخرى، وعليّ الآن أن أحثّ لخدم على الحركة!

وتغيرت لهجتها وهي تضيف:

ـ اني لا أراهم... ولا بد أن تكون كؤوس الضيوف قد فرغت!

قلت بنفس اللهجة:

ـ الخدم كسالى وأغبياء.. ولا بد من مراقبتهم وحثهم!

واستمر الدوي... واستمر رنين الكؤوس... واستمرت الضحكات العالية في حديقة القصر. حتى بعد أن ركبت السيارة وتحركت كنت أسمع الدوي والرنين والضحكات. كنت أسمع أصواتاً قويةً وكنت أسمع الأصداء. وكان رأسي يمتلىء، يشتعل بآلاف الصور. وكنت لا أصدق ما حدث.. وظللت اتساءل: هل وقع هذا فعلاً؟ هل هو النهاية؟ هل هو بداية من نوع آخر؟

بيروت ١٩٧٤

بغداد ١٩٧٨

انتهت

من أعمال عبد الرحمن منيف، الروائي العربي الكبير الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر:

* شرق المتوسط
* حين تركنا الجسر
* قصة حب مجوسية
* الأشجار واغتيال مرزوق
* سباق المسافات الطويلة
* عالم بلا خرائط بالاشتراك مع جبرا ابراهيم جبرا
* خماسية مدن الملح



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ١/٨٠٧٩٠٠
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧